

فنزله من ربي مبين

الفتح المبرور

عبد محمد جوده النجار

حارة ضيقة متعرجة ، انتشرت فيها بحيرات صغيرة خلفها المطار ، فهدت كصحاف
بين فضة غبرتها انعكاسات السحب الداكنة ، وسرعان ما عكرتها أرجل الصبية
الحافية ، التي هزعت تفحوض الماء عابثة ، فيتطاير من أقدامها نثار قائم يصيب
الجدران بدوائر بنية ، تحاكي العملة البرنزية السكائية .

وانسابت على سطوح البحيرات زوارق الورق ، تدفعها السواعد الالهية ،
فتمشى على امتعجاء ، ثم تنتشر وتميل على جنوبها ، فتتمدد إليها الأيدي ثقيل عثراتها ،
وراح الماء يجري في قنوات على جانبي الحارة ، شقها عند أقدام الجدران ، ينبعث له
خبر خافت أقرب إلى الهمس ، يتضاءل في ضوضاء الصبية الذين حسروا جلايبهم
عن موقوفهم ، وجدوا ينحوضون الوحل والماء ، وضحكاتهم تجلجل طليقة ، تم عن
قلوب فارغة راضية ، وإن كانت ثيابهم تفشى سر فقرهم .

وعند منحى في الحارة وقف رجل يشوى الذرة ، وقد التف حول عربته
بعض الغلمان ينظرون ولا يشعرون ، ويشتهون ولا يأكلون ، فما كان معهم
ما ينفقون ، بل اكتفوا بالدفع اللذيذ الذي تشعه جمرات الفحم الحامية .

سار يونس على حذر ، يتحاشى الماء ، ويلم أطراف ثيابه خشية أن تتلوث ،
دون أن يقطب أو يلوح في وجهه الأسمر أثر للتبرم أو الضيق ، فهو يسير وقد
عشش الفرع في صدره ، إنه اليوم راضى النفس ، مرتاح الضمير ، فما كانت تركة
المطر المثقلة بالطين لتكدر صفوه ، أو تعكر مزاجه .

وسارت خلفه ، على بعد خطوات منه ، زوجته فاطمة ، وقد التف في منظرها ،
لا تبدى زينة ، ولا يلوح منها شيء ، أسدلت على وجهها نقابا كثيفا ، ولو رفع
قليلا لفضحت ملامح وجهها خبيثة نفسها ، فقد كانت ضيقة الصدر ، متبرمة بالحارة
وما فيها ، ومن فيها .

وسرى صوت المؤذن حينئذ من الجامع القريب يؤذن بالعصر ، فنثت في الجو
سحرا خشعت له القلوب ، فأطرق يونس وأخذت شفثاه تتحركان بالشكر لله ،

فأحس النساء يتدفق حارا من جوفه ، فنشيه أمن ، كان الأمل يملؤه ، فراحت روحه تنفس مشاعره بهيئة مشرقة .

ومر بخربة ارتفعت عن الأرض أشبارا ، كانت في يوم من الأيام دارا ، تتدفق في سرايينها الحياة ، تنبض بالحب والبغض ، والكدر والصفاء ، وتطوى في أحشائها أسراراً : آمالا وآلاما ، وحقائق وأوهاما ، وإذا بالفناء يطوق بها فيحصف بيتها وأبنائها ، ويتركها انتشادا يرتج الناس فوقها ، كما يرتج الدود في الجنة المأمدة .

واقتربا من بيت يتكون من ثلاث طبقات ، أغلقت نوافذه ، وسيطر عليه سكون عميق ، فلاح لعمى يونس كأنما يقوم في الحارة وحده ، خفق قلبه طربا ، والتفت إلى زوجه فرحا ، وقد تهلت أساريره ، وقال وهو يشير بإصبعه :
— هذا هو البيت .

ونظرت فاطمة ، ولم تنبس بكلمة ، وإن كانت قد منعت شفقتها السفلى أسفا ، واستمررا في سيرهما حتى بلغا الباب ، فألقيا امرأة جالسة عليها مسحتان : مسحة من فقر ، ومسحة من جمال ، وقد وضعت أمامها قفصا من جريد ، عليه بعض الحاوي تبعها الصبية ، فألقى عليها السلام ، ودفع الباب ، فدلفت منه فاطمة وهي غارقة في الصمت ، تدير عينيها في الساحة الرطبة ، فلا تزداد إلا امتعاضا ، وأسرع يونس إليها ، يأخذ بيدها وهي ترقى في الدرج ، ولسانه لا يكف عن الدوران في حلقة ، يتغنى بمحاسن بيته ؟ ودخل الطبقة الأولى ، وراحا يحوسان خلال غرفاتها الواسعة ، وهو يقول :

— هذه الغرفة شرقية ، ستكون غرفة نومنا ، وهذه الغرفة قريبة من الباب ، إنها أحسن غرفة لحسان ، وهذه الغرفة بعيدة عن الحارة ، فلنجعلها غرفة الجاوس ، حتى إذا اجتمع فيها الأولاد لم تنسرب أصواتهم إلى الطريق .
وصعدا إلى الطبقة الثانية ، ويونس يدور كالنحلة ، وتتدفق الكلمات من فمه مشحونة بالغبطة .

— وهذه الطبقة للبنات ، ثريا في هذه الغرفة ، وزينب هنسا ، وعزيزة وأبناؤها في هذه الغرفة الرحبة ، وزهيرة في الغرفة البحرية ، وحيدة . . .
فقال فاطمة في امتعاض :

— فلماذا زوجناهن إذا كن سيعشن معنا ؟

فقال يونس في بساطة :

— هذه إحدى مساوىء خلفه البنات ، على الوالد أن يبحث لمن عن ثيران
ليسترهن ، ثم عليه أن يتكفل بهن وبثيرانهن ، وبما يوجد به عليه الثيران من
أولاد وذرية !

ومحمد إلى الطبقة الثالثة وقال :

... هذه الطبقة لى ولأولاده .

وسكنت فاطمة ولم تبد اعتراضا ، فقد وزعت به وبمحمدان ، ثم بست بنات
بعدها ، وكان على برا بها ، فسكان أحب أبنائها إلى قلبها : ثم حسدا إلى السطح
وكان الجو باردا ، والسحب تتجمع فتزيد الدنيا قتاما ، وتحركت فاطمة لتنهبط ،
ولكنه جذبها من يدها وهو يقول :

— انظرى ، ما أروع التقاء المحمودية بالبحر .

ونظرت ، وكان البحر رائعا في ثورته ، والترعة جليلة في وقارها وهدوئها ،
والسحاب نفما في سموه وعظمته ، كان مشهدا من مشاهد الشتاء التى تهر العيان ،
وتهز النفس ، ولكنه لم يمس وزرا في فؤادها ، فقالت وهى تشيح بوجهها عن
البحر والمحمودية جميعا :

— هيا نهبط ، ما أقوى العبد هنا !

وراحا بهبطان وفاطمة تقول في مرارة :

— أكتب علينا أن نظل في هذه الحارة حتى نموت ، أما كان الأفضل أن
تشتري بيتا آخر في شارع كبير ، أنقمت ما ادخرناه طوال العمر ، لننتقل من بيت
إلى بيت قريب منه في نفس الحارة ، ضاعت نقودنا وما حققنا أملا ، ولا شفينا غليلا .
فلم تنفذ مرارة كلماتها إلى قلبه ، ولم تذكر نفسه ، فابتسم ابتسامة لطيفة ،
وقال في نبرات الواثق :

— لم أكن قصير النظر يوم اشتريت هذا البيت ، فهو ثروة كبيرة ، إننى
قبل أن أقدم على شرائه اطلعت على التخطيط الجديد لهذه المنطقة ، أطلعنى عليه
موظف كبير فى الحكومة ، فوجدت أن شارعا جديدا سيشق هذا الحى ، وأن
هذا البيت سيقع على ناصية ذلك الشارع الجديد .

ونظر إلى وجه فاطمة ، ورفق على شفثيه ابتسامة زهو وإعجاب بالنفس ،
ولكن حرارة كلماته لم تذب آثار المرارة البادية فى صفحة وجهها .

عقب الجو بروائح البصل المحمر في السمن ، وجلجلت دقات الهاون في جنبات البيت ، فقد نزلت به بطون كثيرة لا يملؤها إلا وافر الطعام ، فخفت النسوة وقد أذن المؤذن بالظهر إلى الطابع لتجهيز الغداء .

ووقفت صفية أمام الموقد تحرك مروحة من ريش الطير ، لتؤجج النار في الفحم ، وجلست فاطمة بالقرب منها على وسادة تعاونها في تنظيف الخضار ؛ كانت صفية معتدلة القامة ، ممتلئة الجسم ، يميل لونها إلى البياض ، وكان وجهها مستديرا ، وعيناها واسعتين سوداوين تنطقان بالقوة والعزم ، وكان شعرها الفاحم يختفي خلف منديل مشغول مائل على جبينها ؛ وكانت فاطمة نحيلة في قوة ، عودها كالخيزرانة ، سمراء البشرة ، وما كان بينها وبين صفية شبه ، فلما كانت ابنتها ، ولكنها زوجة ابنها على ، ومع ذلك كانت تؤثر عشرتها على معاشرته إحدى بناتها ، وإن كان زوجها ينفق على الجميع .

وسمع وقع أقدام في الردهة الخارجية ، فلم تذهب صفية لترى من هناك ، كانت قد اعتادت أن تسمع وقع تلك الأقدام ، في أثناء طهو الطعام ، وأقبلت ثريا وشعرها منفوش بارز من منديل رأسها ، وفي يديها آثار البصل ، وقالت :
— أعطيني بعض البهار .

فخفت صفية وأعطتها ماطلبت ، ثم عادت إلى الإناء الموضوع فوق الموقد تقلب ما فيه ، وما هي إلا لحظات حتى دخلت زينب مسرعة ، وهي تقول :

— هاتى قص نوم .

وما كادت زينب تنصرف حتى ارتفع صوت عزيزة ترغى وتزبد وهي صاعدة ، ودخلت حائقة تصيح :

— عندك زيت ؟

فقالت صفية في هدوء :

— عندى .

— هاتى ما عندك ، فالمدعوق لا يشبع من الزيت .

— ماذا تطبخين ؟

— باذبحان .

ورفعت صفية إناء الزيت ، فوجدت ما به قليلا ، فدفعت بالإناء جميعه إلى عزيزة ، اتقاء لسانها ، فلو أنها أفرغت كل ما به في الوعاء الذي قدمته لها ، لما أرضاها ذلك ، ولراحت ترميها بالشح والتقتير .

وخفت زهيرة تلتبس قليلا من الدقيق ، وسميدة حفنة من السكر ، وظلت فاطمة تنظر ولا تتكلم ، حتى إذا ما فرغت بناتها من أخذ ما يردن ، قالت لصفية مداعبة :

— أفتحت لمن دكان بدال ؟

فقالت صفية في صدق :

— كله من خيركم .

— والله لا أدري ماذا كن يفعلن لو أغلق هذا الدكان في وجوههن !

وانتهت النسوة من تجهيز الغداء ، فخفت صفية تبدل ثيابها ، وترقب عودة زوجها ، بينما جلست الأخريات بثياب المطبخ ، تفوح منهن روائح البصل والثوم ينتظرن أوبة الثيران !

وعاد الرجال والأولاد إلى البيت ، ومدت موائد الطعام ، فامتدت الأيدي وكأنها الجراد نزل في زرع ، وما ارتفعت حتى كانت الموائد خالية من كل شيء . وخرج من الرجال من خرج ، وأسرع الأولاد إلى الحارة يلعبون ، أما على فقد دخل إلى فراشه ليهجع ، فهو ينام بعقب الغداء حتى يحتمل سهر الليل .

وولى النهار وأدبر ، وساد الحارة ظلام دامس ثقيل ، ولولا المصابيح الخافتة المدلاة فوق بعض أبواب المنازل ، لما رأى السارى بالليل كفه .

وقام على من نومه ، وراح يتأهب للخروج ، وإذا بأنعام صعيدية عذبة تسرى إلى مسامعه ، فيلقى إليها السمع وهو نشوان . كانت الحارة تفصل بين حيين متباينين ، حتى على ضفتها العالية ، يقطنه خليط من أهالى الإسكندرية وفقراء الفلاحين الذين جاءوا إليها يلتمسون العيش ، وحتى على ضفتها المنخفضة يعيش فيه الصعايدة الأشداء ؛ وكان الصعايدة يعتبرون أنفسهم أهل الحى وأصحابه ، ومن عداهم غرباء دخلاء . وداعت أذنيه أصوات موسيقى نحاسية ، وأخذ الصوت يتضح حتى صار دويا ،

وانسلت إلى شرفته أضواء خافتة ، سرعان ما انداحت حتى راحت تتراقص على الجدران ، فذهب إلى النافذة ينظر ، فرأى الفلاحين قادمين يحملون المشاعل ، وثلاثة رجال في ثياب صفراء مهلهلة ، ينفخ أحدهم في بوق ، ويضرب ثانيهم بالسروج ، ويدق ثالثهم بقوة طبلا كبيرا ، فتنبعث من آلاتهم تلك الجلبة المدوية ، وأخذ بعض الرجال يرفعون على الأقدام يقفزون كالقردة في الهواء ، وهم يطوحون بهواواتهم ممررة ، ويدبرونها فوق رؤوسهم مرات ، ولاحت في نهاية الركب عربة يجرها جنودان ، التف حولها رجال شداد يرفعون عصيهم في الهواء ، فهم حرس الشرف الساهر على راحة العروس وأمنها .

وراح الركب ينحدر الهوي ، من ضفة الحصى العالية إلى الضفة المنخفضة ، وانساب حتى دنا من مقهى صعيدى ، فلم يتمهل الركب ، ولم يقف ليؤدي التحية ، فقام رجل صعيدى في يده مراوطة ضخمة ، وأتجه إلى الموسيقى ، وطلب من الرجال الثلاثة أن يقفوا ويدقوا السلام تحية ، ثم ينصرفوا في أمان ، فأعرض عنه الرجال ، وامتنأفوا سيرهم ، فهب من في المقهى والدم يغلى في عروقهم لما لحقهم من عار . رفض الدخلاء تحيتهم ، حتى القتال ، شفى الرجال إلى الرجال ، وجعل في الحارة قرع المراوى للهرأوى ، وارتفعت أصوات النساء حادة وقد امتزجت بأناث الجرحى وزئير الرجال ، وانهمز الفلاحون ، وراحوا ينسحبون والصعايدة يتصايحون صيحات النصر والظفر .

تقهقر الفلاحون ، والصعايدة في أثرهم يجحدون ، وقد بدت الحماسة في حركاتهم وصيحاتهم ، ودنوا من العالية ، وماهى إلا لحظات حتى انتهت عليهم الزجاجات المشوة بالزلط والرمل من كل ناحية ، من النواقد ، ومن سطوح الدور ، ومن الأبواب ، ومن الشقوق ، وشاركت النسوة الرجال في مناوأة الصعايدة الذين وقعوا في الشرك دون تدبر أو تفكير ، حتى العروس كانت تلقى قذائفها عليهم . وسالت الدماء ، وتضعض الهجوم ، وانسحب الصعايدة إلى منقاهم مدحورين ، يضمدون جراحهم ، وعلى في شرفته يرقب ما يدور ، وقد انتقلت حرارة المعركة إلى صدره ، فاتفعل بها ، وامتلاء حماسة وزهوا ؛ كان يحب القوة وإذا بالحصى الذي يقطنه ينبض بالقوة والحياة !

٣

كانت الشمس تنحدر في الأفق الغربي ، وقد احتقن وجهها بالدم ، وأشعتها الواهنة تجاهد في يأس أن تبدد طلائع الليل ، وكانت الحرارة قد استسامت للجحافل الظلام ، فراح الناس يضيئون قناديل الزيت ومصابيح النفط ، وتجاوبت في الحرارة أصوات باعة لبن الزبادي ، بعد أن خفت أصوات الصبية وباعة النهار . وانطلق يونس في الحرارة ، يحمل في يده الخنجر قفصا به بيضاء ، وفي يده اليسرى منديل به فاكهة ، وكان دخوله في هذه اللحظة توفيقا ، فلما أنه جاء إلى الحرارة ولم يستر بالليل ، لرأى الصبية البيضاء ، ولهمعوا إليه يتصايحون : « أبوك السقامات » .

وبلغ يونس داره ، فألقى بائعة الحلاوى مازالت في مكانها ، وقد ألقى الضوء الواهن نورا على وجهها ، فأثناء نصفه ، فألقى ظلا خفيفا على نصفه الآخر ، فبذبت رائحة في جلستها الدليلة ، فهاها تحية المساء ، ثم وضع البيضاء على الأرض ، ومد يده إلى منديله ، وأعطاه بعض ما به من فاكهة ، ثم استأنف سيره ، يحس راحة وأمنا .

ودخل على زوجه ، متطلق الوجه ، فنظرت إلى القفص في دهش ، وقالت في إنكار :

— ما هذا الذي جئتنا به ؟

— ضيف من بلاد الإنجليز .

— لن تعرف للنقود قيمة ! كم دفعت فيه ؟

— لم أدفع فيه شيئا ، أخذته هدية .

— أهدته إليك امرأة إنجليزية ؟ !

— ما كانت النساء ساذجات إلى هذا الحد لتهدى امرأة شيئا الرجل في مثل سني ،

كنت أسوق قطار السياح من الإسكندرية إلى السويس ، وجاءوا إلى ينظرون في عجب ، فما كانوا يصدقون أن مصر يا يهود قطارا . انطلق القطار يجري

بسرعة هائلة ، حتى بلغت سرعته خمسة وعشرين كيلومترا في الساعة ، فالتفوا
حولى يحدثونى ، ثم دعونى إلى الجارس معهم .

تركت القطار لماونى ، وجلست أحدثهم ، قلت لهم إننى أول سائق قطار
فى مصر ، وذكرت لهم ما حبابنى المظاء من عطف ، وراح الرجال يجاذبونى
أطراف الحديث . .

فقال فاطمة وفى نبراتها أماره الغيرة :

— وماذا قالت النسوة لك ؟

فنظر إليها وفى وجهه مولى بسمة :

— ماذا بك الليلة ؟

— أقولها ولا أخشى إلا الله ، إنى لا أحب نساءهم ، فيهن وقاحة وقلة حياء .

— كن جالسات صامتات يصغين إلى الحديث . . .

— محملقات .

— فميم محملقتن ؟ لم أعد أنرا من الآثار ، فما تخطيت الستين بعدا

— يونس ؟ دع الالف ، إنى أراهن فى عينيك .

— والله إن غيرتك هذه لتشرح صدرى .

— أنا أغار ؟

ومصمصت شفيتها عجباً ، وساد الصمت برهة ، ثم استأنف يونس حديثه
مزهوا .

— راحت الأسئلة تنهمر على ، هذا يقول : « يونس ، أين تعلمت قيادة

القطر ؟ وذاك يقول : « يونس ، كم مرة تزوجت » ؟

ورمقها بطرف عينه ، وتهللت أساريره لما رأى تلك التقطية التى ضيقت
جبهتها ؛ كان يسره أن يشير كوامن الغيرة فيها ، وكان ذلك يرضيه حقاً ، فتنفخ
أوداجه ، وترضى كبرياؤه ؛ واستأنف حديثه :

— وظل هذا يقول : يونس وذاك ينادى : يونس ، وبقي اسمى يتردد

على ألسنتهم حتى صاح البغواء : يونس ! فضحك الجميع ، فقام صاحبه وأهداه إلى .
وامتھر يسامر زوجته ، حتى داعبها النعاس ، فقاما إلى الفراش ، واندسافيه .
وراحا في سبات ، وتقصت ساعات وهما يغطان في النوم ، وفي هجمة الليل :
صاح البغواء :

— يونس : I want to eat ، يونس : I want to eat .
وقاما من رقادهما على صوته ، وقالت فاطمة :

— لماذا يصيح البغواء ؟

— إنه جائع .

— ماذا يقول ؟

— يونس ، آكل . . يونس ، آكل .

— فلنطعمه .

وغادرا الفراش ، وذهبا إليه ، ووقفت فاطمة قليلا ، ثم قالت :

— ماذا يأكل ؟

— قرطم .

— ليس عندنا قرطم الليلة ، أيا كل الموز ؟

— لا أظن أنه يرفضه .

فذهبت فاطمة وعادت وفي يدها موزة قشرتها ، ودفعتها إليه ، فحملها بين

أصابعه ، ينقرها بمنقاره ، فابتسمت فاطمة وقالت :

— أقولها ولا أخشى إلا الله : إنه ظريف ، أحبيته على الرغم من أنني لا أحب

من أهدوه إليك .

... اسكنوا يا مقامه ، الرقية ، يا شياطين ، يا أولاد الشياطين !
فالتها عزيزة نازلة لأولادها الذين كانوا يتشابهون ، ولكن الأولاد ظلموا
في مصيبتهم كأنهم لا يسمعون ، بل سبوا ، وأسرعت إليهم وهي تصيح :
... والله أنادي بروسكم بالارض .

فلما لمروها قادمة إليهم والشر في عينها ، فروا من أمامها هاربين ، فالتفت
إلى زوجها إسماعيل ، وكان جالسا على وسادة يهوى في جلسته ، يسقط رأسه
على صدره فيرفعه ، وما يلبث أن يسقط ليرفده ، وقالت :

— ألا تزجر أولادك العفاريات ، حطعوا رأسي . أنت سبب كل هذا البلاد ،
كل قطرة فيك امتزجت بالحشيش . وضعت بذرتهم من الحشيش ، فجاءوا وقد
عشروا ماء العفاريات . أنت يارجل . . ألا تفريق أبدا لتؤدبهم كما يؤدب
انسان أولادهم ؟

فتج عيني به في جيبه وقال :

— عندك نقود ؟

— من أين جاءني النقود ؟ أمن الضيعة التي ورثتها عن أبيك أم مما وفرناه
من الأموال التي توزعها بالتمال وباليمين ؟ إنني لو رأيت ليلة القدر ما تمنيت فيها
أكثر من أن تدخل على وفي جيبك عشرة قروش .

— عزيزة ، أريد نقودا ، أي نقود ، لا أطعم في كثير .

— أعرف أنك لا تطعم في أكثر من ثمن الأفيون والحشيش .

— تعرفين أنني فتوى .

— ليس عندي ما أملأ به البطون ، لأعطيك ما تنفقه على مزاجك .

— أعطني ثمن العشاء ، وأعدك أنني لن آكل عندك الليلة .

— رأسي سينفجر ، اسكت يارجل قبل أن أصوت وأملأ عليك البيت

ناسا ، يوه . . يوه . . يوه .

انسكمش إسماعيل ، وقال لها في ضراعة :

— اسكني لا أريد منك شيئا ، لا أريد منك شيئا ؟

— آخر زمن . . آخر زمن ، الرجال يطلبون من النسوان النقود !

وصحت إسماعيل قليلاً ، ثم هوم في جلسته كأن لم يقع شيء ، وورسقا عريضة في شزر ، وأحست عواطفها تشور ، ففتمتمت :
..... يا عار الرجال .

ولكن لا تعجبها غيبتها ، إنها لا تستريح إلا إذا صاحت ، فتأخذ في الصراخ :
— أكاد أشتاق وأنت ما كنت أهذاً من الماء البارد ، ألا تتحرك ؟ ألا تفعل شيئاً ، ألا تهبط إلى أبي وتأخذ منه ما تريد ، لتسجل له ملائكة الحسنات ما يعطيك إياه في سجل الطيبات ، يا للبيخت الذي مال !

نهض إسماعيل وأبجه صوب الباب ، وزوجه تتبعه بنظرها ، وتلقى خلفه بصيحاتها العالية ، وإن كانت في قرارة نفسها لا تحس نحوه كرهاً ، ولما غاب عن عينها ، وهداً صياحها ، فكرت فيما قالت له فوجدت من أنها أرشدته دون وعى منها إلى من يعطيه ما يحتاج إليه ، لينفقه على مزاجه .

وجلست تستريح ، ولكنها لم تطق السكون الذي خيم عليها ، فتلفتت فرأت الأولاد يلعبون ، فراحت تصيح .

— يا عفاريت ، يا شياطين ، يا « بنج » حشيش ، امكتوا ، قصف رقابكم .
وهبط إسماعيل في الدرج ، ووقف أمام طبقة يونس قليلاً ، لا يجرؤ على الدخول ، ثم لم أطراف شجاعته وتقدم ، فألقى يونس وفاطمة يتناولان القهوة ، فسلم عليهما وجلس ، وأطرق صامتاً ، ومرت لحظات ، وحزر يونس أنه يريد أن يقول شيئاً ، فقال له :

— ماذا تريد يا إسماعيل ؟

فقال دون أن يرفع عينيه :

— أنا في حاجة إلى ريال ، سأرده إليك قريباً .

فقالت فاطمة في سخرية :

— بعد عمر طويل ، في الدار الآخرة !

وحلت عقدة لسانه فقال :

— أنا لا آكل مال الناس ، سأدفع كل ملهم أخذته .

— لو أعطيتنا ما تجمعناه في سنة ما سددت ما عليك .

فقال يونس في رقة وهو يمد يده بالريال :

— كفى يا فاطمة ، خذ يا إسماعيل .
فمد إسماعيل يده ، وأخذ الريال ، وانسل في خفة ، يتحاشى أن تقع عيناه
على عيني حماته ، ولما اختفى قالت فاطمة لزوجها عاتبة :
— لا تظن أنك تحسن إليه بإعطائه ما يطلب ، إنك تسيء إليه ، تعاونه
على الفساد .

— إننى أكره إكراما للزينة .
— هذه خسارة ، طارت نقودك في الهواء ، ذهبت في الشيطان الرجيم .
ودخل على ورأى الانفعال في وجه أمه ، فقال لها :

— ما الذى أغضبك ؟

— أبوك يبغى نقوده .

— ماذا جرى ؟

— جاء إسماعيل يطلب نقودا فأعطاه .

فقال يونس فى هدوء :

— لهله مذكور .

فقالت فاطمة فى حدة :

— لو كان ينفق ما يأخذه على البيت لكان الأمر يهون ، ولكننا نعرف أنه
يصرفه على المحروق .

ورأى على أن يهدىء من ثورة أمه ، فقال :

— يجب أن يقف إسماعيل عند حده .

ولمح سحابة الغضب تنقشع عن وجهها ، فأرضاه ذلك ، فالتفت إلى

أبيه وقال :

— عدنى ألا تعطيه نقودا بعد اليوم .

فقال يونس فى هدوء :

— أعدك .

فقالت فاطمة فى يأس :

— ما أكثر الوعود .

وانصرف على يبتسم فى أعماقه ، فلو أن إسماعيل جاءه هو نفسه يلتبس منه
نقودا لأعطاه ما يطلب ، وإن كان على يقين من أنه سيصرفها على المحروق !

الحارة غارقة في الصمت والظلام . انتصف الليل ، فنام السكون وهذا كل شيء ، إلا الجنادب التي كانت تصر ، والحشرات التي كانت تدب في الخربة ، والنساء اللاتي كن في غدو ورواح في البيت الذي لا يعرف الهدوء في الليل أو في النهار .

كانت فاطمة في النافذة ترقب الحارة وقد أرهفت منها الحواس ، إنها تنتظر أوبة ابنها حسان ، ضيقة الصدر ، متقبضة النفس ، فزوجها يتقلب في فراشه تأثراً على تلك القيبة ، كان يخشى أن تزل قدم ابنه ، فيهوى في مباءات الفساد وما زال غضا .

كان يونس يحب ابنه حسان ، فكان يرجو من كل قلبه أن يشب ابنه على نمط آخر غير ذلك الفل من الحياة الذي شب عليه الثيران . كان يريد له حياة كريمة غير حياة الرجال الذين زوجههم من بناته ، الرجال الذين لا ثمرة لجهودهم إلا إنجاب الأولاد ، وما أيسره من نتاج !

لم يكن ينسبدهم أن يزوج ابنه ، فقد أيس من إصلاحهم ، وألف ما هم عليه من بلادة وخمول ، وتبخر كل ما يحسه نحوهم من زراية ، ولم يعد ينظر إليهم إلا كما ينظر إلى ثيران جلبها لأبقاره ، لتملأ عليه البيت بنين وبنات ؛ ولم يكن يشور لسهر على بعد أن صار رجلاً يحرق على زوجه وأولاده ، ولكن سهر حسان كان يضايقه ، ويشير أعصابه ، فهو يعلم أن بابنه دفعة ، فإن تردى في الرذيلة ، فلن يستقر حتى يبلغ القرار ، فما كان يعرف الاعتدال .

وكانت عزيزة في الطبقة الثانية ، ترقى وتزبد وحدها ، تذهب إلى أبنائها الناعمين تصلح أعطيهم وهي تسب أباهم الذي رماها به الزمن الجائر ، ثم تخف إلى النافذة تنظر لعله يعود .

وكانت صفية في الطبقة الثالثة ، تدبر شئون بيتها ؛ تحيك بعض الشباب ، أو تعيد تنظيم الملابس في الصوان ، وكانت تنتظر أوبة زوجها هادئة النفس ، فما كان يقلقها سهره ، أو يشير أعصابها .

وأقبل إسماعيل في الحارة خائفاً يترقب ، كان وهمه يصور له ظلال الأشياء

التي تعكسها أنواء المصابيح الخافتة أشباحا تراقص ، فيقف مرعوبا تارة ، ويجد في السير تارة ، ويهرول مفزوعا تارة أخرى ، خشية ذلك العدو الخيف المنقض عليه ، الذي يصوره خياله .

وتحركته قطة في الشربة ، فرأى نمرأ مفترسا ، فأطلق لساقيه الريح ، حتى إذا بلغ الدار صرخ في صوت مضطرب :
— عزيزة . . . النور . . . عزيزة . . . النور .

وما مس صوته أذنيها حتى خفت إليه تستقبله مهرولة ، وقد حملت المصباح في يدها ، فلما غمر الضوء المكان أفرخ روعه ، وأخذ يرقى في الدرج في تودة ، وضعت عزيزة خلفه ساكنة ، ولكنها لم تحتمل الصمت ، فقالت :

— والله لولا الفضيحة لجمت عليك الآن كل من في الدار .
وأخذت تفرعه بصوت عال سرى إلى كل الآذان ، وهو صامت هادئ لا يخشى شيئا مادام يسير في نور المصباح .

ودخل غرفته ، وما استقر على حشية صغيرة حتى خفت إليه تحمل له العشاء ، وكان أفخر من الطعام الذي تناولته مع أولادها ، كان لسانها عليه وقلبا معها !
وسمعت أصوات أقدام صاعدة ، فاعتدل يونس في فراشه وقال :

— أعاد حسان ؟

فقالت فاطمة في اضطراب :

— لا . هذا على قد جاء .

فقال يونس في انفعال :

— عاد الناس كلهم إلى بيوتهم إلا هو ، والله لا أدري ماذا يفعل في الخارج حتى الآن ؟ !

— يتسامر مع أصدقائه .

— والله ما أفسده إلا تدليك .

— وماذا فعلت له ؟

— كلما قرعته انبريت للدفاع عنه .

— لم يعد حسان صغيرا .

— دعيني أقومه ، إنه ابني وأنا أعرف الناس بمصلحته

— إنه ابنك وأنت أبوه ، فافعل ما بدا لك .

ودار المفتاح في الباب ، فملا وجهه فاطمة الاضطراب ، وهب يونس من فراشه
وقد لاح في وجهه عزم ، وانفتح الباب ، ودخل حسان في خفة ، ولكنه لمح أباه
متنصبا أمامه ، فوقف برهة وقد أربكته المفاجأة ، صاح يونس به :

— أين كنت حتى الساعة ، وقد أغلقت المواخير ، وعاد السكارى والحشاشون

إلى بيوتهم ؟ !

— كنت في نادي الحزب .

فقال يونس في سخرية وهو يقلد صوته :

— ماسهرا على مصلحة الوطن

فقال حسان في انفعال :

— ومن أجدر من الشباب بصيانة الوطن ؟

— دعوا الهراء واعرفوا مصالحكم أولا ، تتظاهرون بالوطنية لتواروا

خبيثكم . اسمع يا حسان ، لن أسمح بهذا العبث أبدا ، إنني أمنعك من السهر .

فأحس حسان الدم يتدفق حارا في عروقه ، ولم يستطع أن يكتب مشاعره فصاح :

— وأنا لا أسمح لأحد أن يعاملني معاملة الأطنال .

— إني أنذرك يا حسان ، إذا عدت إلى السهر فلن أسمح لك بدخول بيتي ..

وارتجفت فاطمة ، ورأت أن من الخير أن تتدخل قبل أن يزداد الموقف

سوءا ، فذهبت إلى ابنها تدفعه أمامها في حنان وهي تقول :

— كفى ، سيستيقظ الجيران على صيحاتنا ، دعوا هذا حتى الصباح . ادخل

يا حسان إلى فراشك . . ادخل يا بني واسترح .

وسار حسان في خطا وثيدة إلى غرفته ، وهتف يونس في صوت أقرب

إلى الهمس :

— تدليلك هذا يفسده .

وكان في قرارة نفسه يحمد لها هذا التدخل ، فما كان بطبعه قادرا على أن

يستمر في ثورته ، إنه ينفر من الشدة ، وإذا اشتد فإنه يفعل ذلك افتعالا ، ليدل

على سيادته ، ولكن سرعان ما تنهب الحدة المصنوعة ، ليعود إلى هدوئه ونماحته .

على قلبه في فراشه ، فما مشى الوسن إلى عيذه ، لا لأن أصوات أولاد الحارة الحادة المتنافرة التي تحطم الأعصاب تنفذ إلى مسامعه على الرغم من إغلاق نوافذ غرفته ، لما كان يصفى إليها ، فقد كان مشغولا عنها بفكرة شغلت رأسه ، وجعلت قلبه يدق في قوة ، تتدفق منه دماؤه حارة ، تغذي سماسته ، وتؤجج نار ثورته .

كان يفكر في تلك الشركة الإنجليزية التي تستغل تحكم الإنجليز في مصر ، فتتعت مع معاملها ، إنها ترغمه على أن يأخذ مع الملح صابونا ، وإن كان في غنى عن الصابون ؛ إن ذلك التعت يضايقه ، حتى إنه يشمر في أعماقه أنه يفضل أن يخلق حانوته على أن يقبل ذلك النذل .

جأر التجار بالشكوى من ذلك الجبروت ، ولكن الشركة صمت أذنيها عن أن تستمع إلى منطق العدل ، ما دامت قوة الاحتلال تظلمها . ولم يحتمل ذلك الهوان ، فكتب إلى الشركة يرشدها إلى محجة الصواب ، ولكن ذهبت كتاباته أدراج الرياح .

كان على مفرما بقراءة أسفار التاريخ ، فكان يقتنى كتب السيرة ، وتراجم أبطال المسامين ، يقرأها في شغف ، وينفعل بها ، ويحاول أن يتمثل بالسلف الصالح ، فكان يثور على الظلم ، وينتصر للحق ، ويدافع عنه وإن ركب في سبيل ذلك المصاعب والأهوال ، كان فارسا في ثياب بلدية !

وكان إذا جلس ليكتب قفزت إلى ذهنه رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم الروم : « أسلم تسلم » فكان يكتب رسائله على نمطها ، موجزة قوية ، وكانت طبيعته المتحمسة تعاونه على أن يكتب رسائل نابضة بالقوة والحياة . أحس على الثورة على تلك الشركة تتكاثف وتتجمع في صدره فيضيق بها ، فراح يفكر في وسيلة ينفس بها الغيظ الحبيس ، فلم يرشده فكره إلا إلى كتابة رسالة نارية ، ولكن إلى من يبعث بها ؟ وظل يفكر ويتقلب في فراشه ، حتى قرأه على أن يبعث برسالته إلى اللورد كرومر المندوب السامي للدولة العانية .

وهب من فراشه ، وقلبه يخفق في قوة ، وراح يبحث عن ورق يليق بأولئك
التجرفين ، وكانت حركاته تنم عن حساسة دافقة ، حتى إذا استراح إلى نزع
الورق ، جلس يكتب إلى عميد الإنجليز في مصر حكما عربية وآيات قرآنية !
وتزاحمت الأفكار في رأسه ، فأخذ ينتقى منها أكثرها قوة ، وغاب عن كل
شئ ، حوله ، وعاش في رسالته حتى إذا انتهى منها ، وبث فيها النار المشبوبة في
جوفه ، راح يعيد قراءتها ، وقد امتزجت الحماسة بعشاعر الزهو ، فغمزته مريحة
من الرضا عن النفس استكان لها مرحبا متلذذا .

وختم الرسالة ، وعنونها باسم اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني ،
بقصر السوارة بالقاهرة ، ولم يبق على الصبر على إرسالها حتى يوافي ميخائيل خروجه ،
أو الليل للسهر مع رفقاته في مقاهي الإسكندرية وملاهيها ، فارتدى ثيابه
وحمل الرسالة في حرص ، وانطلق مهرولا

واجتاز الحارة ، وخرج إلى الشارع ، وذهب إلى صندوق البريد ، وألقى
فيه الرسالة ، وقد قرع عزمه على أن يظل في محاربة هذه الشركة الباغية ، حتى
إذا لم ينصفه اللورد كرومر ، شكاه إلى الرؤساء ، واستمر في التنديد بها ، حتى
ينال حقه ولو اضطر آخر الأمر إلى رفع شكايته إلى ملك الإنجليز بلندرة !

وجاء الليل ، وساد الحارة ظلام ومكون ، ونام السكون في حراسة النجوم ،
فدخل يونس إلى فراشه ، واستسلمت فاطمة للنزيد الرقاد ، وبينما هي غارقة
في سبات ، ارتفع صوت البيغاء تصيح :

— يونس . I want to eat

واستمر في الصياح ، حتى هبت فاطمة من نومها تصرخ حائقة :

— هذه عيشة لا تطاق .

فاستيقظ يونس ، وراح يتساءل :

— ماذا جرى ؟

فقالت فاطمة في حدة :

— إنه دائم الصراخ ، لا يفرق بين الليل والنهار .

- وهل له عقل يميز به ، إنه يصرخ كلما جاع .
— أعصابي تعطمت ، لا أطيق صراخه ، أطلقه ، لا أريده . لا أريده .
— وما ذنبه ؟
— إنه يطلب الطعام في غطرسه كأننا عبيد عنده ، يحسب نفسه إنجليزيا ،
إنه متفطرس مثلهم .
— إنه لا يثق شيئا .

— لا أريده ، يكفي أن رطاته في البيت تذكرني بالأيام السود ، كما صرخ
تذكرت ذلك اليوم الأغبر الذي استيقظنا فيه مفزوعين على صوت مدافع مرا كهم
وهي تدق المدينة ، تذكرت غدرهم وخروجنا عرايا مرعوبين هائعين على وجوهنا
فارين إلى دمنهور ، كما صرخ تجددت آلامى التى احتملتها فى تلك الأيام ، كنت
حاملًا فى على ، وكنت لا أستطيع أن أهرول ، ومدافعهم الغادرة لا ترحم . إننى
أبغضه بقدر ما قاسيت من أوجاع .

- وتوجه يونس إليه ليطعمه ، فتهتفت به زوجه :
— يونس ، والله لن يجمع بينى وبين هذا اللعين سقوف بعد الملاحظة أبدا
— اهدنى .
— أقولها ولا أخشى إلا الله ، إنى أكرهه وأكره من أهدوه إليك .
— ليس له جريرة فى هذا البغض .
— اختر : إما أنا وإما هو فى البيت .
وصاح البيغاء :

- يونس ، I want to eat
فصاحت فى انفعال :
— والله لن يأكل فى بيتنا شيئا بعد الآن — أطلقه وليذهب إليهم ليطعموه .
وأحس يونس أنه عاجز عن أن يحتفظ به ، فذهب إليه وأطلقه ، فوقف
على حرف الشباك وصاح :

- يونس ، I want to eat
فهرعت فاطمة إليه تطرده فى قسوة وهى تصيح :
— اذهب ملعون أنت ، ومن نظقت بلسانهم .



صفية ثائرة متبرمة ، تغدو وتروح بين النافذة وفراش أولادها ، وكلما مرت لحظة زادت ثورة نفسها . لاح الخيط الأبيض في الأفق الشرقى ، وهتلك صياح الديكة سكون الليل ، وسرى صوت المؤذن نديا في الفجر يذكر أهل الأرض ببدء السماء ، وما عاد زوجها إلى داره بعد .

تخلفت وتذرعت بالسبر ، ودارت ما بها كلما سهر ولج في السهر ، ولكنه لم ينس عنها قبل اليوم حتى مطلع الفجر ، فأحست كرامتها تهدر ، وكبرياءها تطنن ، فانفجر رجل غضبها ، واحتلت رأسها فكرة مغادرة البيت إعلانا باستيائها .

وجلست على حافة الفراش مطرقة حائقة ، تكاد الدموع تطفر من مآقيها ، إنها أحست منذ اليوم الأول الذى وطأت فيه قدماها هذا البيت أن معدنها يختلف عن معدن أهلها ، فهي من أسرة ميسورة ، تعيش فى نظام ، بينما الفوضى تضرب فى هذا البيت أطناها ؛ فأهلها ينامون أغلب النهار ، ويسهرون طوال الليل ، ويتركون أولادهم يهيمون كالأنعام . ونشرت من معيشتهم ، ولكنها رأت أن تسيرهم دون أن تتأثر بهم ، وحاولت أن تهذب من تصرفاتهم دون أن تجرح شعورهم .

وانجبت أولادا ، شدوا وأصرها بتلك الأسرة ، وعلموها الصبر على الموان ، ولكن نضب معين صبرها وهى قائمة الليل وطرفا من النهار ، تنتظر أوبة على قلقة أرقه ، ثائرة حائقة ، وهو فى الخارج يسعد بالرفاق .

ومس أذنها صرير الباب ، فهبت من محجرة تستقبل الوافد مع خيوط الشمس الأولى ، وما إن وقعت عينها عليه حتى هتفت فى غيظ :

— لم أعد أحتمل هذه الحياة ، ان أمكث فى هذا البيت دقيقة واحدة بعد الآن ، لو كنت كلما تركتني أعوى وحدى الليل الطويل ، إنى ذاهبة ، ذاهبة إلى أهلى ولن أعود .

فقال على فى خذلان :

— أخذني حسان معه إلى نادى الحزب الوطنى ، وقد تأخر الاجتماع .
— هذه حياة لا تطاق . تلفت أعصابى ، وهدت قرأى ، لا . لن أبقي
دقيقة واحدة .

وراحت تجمع حوائجها ، وهو يتلطف معها ، يحاول أن يثنىها عن عزيمتها ،
ولكنها صممت على الخروج ، واستيقظ أولادها ، فهرعت إليهم تبذل لهم الثياب ،
وبعثت إلى أمها تستدعيها لتخرج معها .

وعز على على أن تغادره صفية غاضبة ، فذهب إلى أمه وأخواته ، وطلب منهن
أن يلمسبن منها البقاء ، فأسرعن إليها ، وراحت أمه تلمس منها فى صدق
المسألة والصفاء ، بينما كانت عزيزة وأخواتها يتحدثنها وهن يتغامزن ، وفطنت
صفية إلى تغامزهن ، فزادها ذلك إصرارا على الذهاب .

وجاءت أمها ، فلما لمحتها عزيزة قالت لأخواتها فى سخرية :

— جاءت البرنسية .

وهزت كتفها تقلدها فى مشيتها ، فارتسمت على الشفاة ابتسامات خفيفة ،
وإن كانت قهقهة السخرية دوت فى الأجواف .

وهبطت صفية وأمها وأولادها ، وخفت النسوة إلى الشبايبك ينظرن ،
فألقين عربة أمام الباب يجرها جوادان ، وقد التف أبناء الحارة حولها ، فما أندر
دخول العربات إلى هذا المكان ، قالت عزيزة :

— لقد أخطأت أمها .

والتفت النسوة إليها يتساءلن :

— فيم ؟

فقالت عزيزة وهى تحرك طاجها :

— هذه العربة لا تليق بالمقام ، ياليتها أحضرت لها عربة زينب هانم !

فقالت ثريا :

— وأمرت بدق الطبول وفرش الحارة بالرمل .

فقالت فاطمة غاضبة :

— كفى ، قصرُوا ألسنتكن .

وانطلقت العربة فى الحارة ، وقد تعلق بعض الأولاد بها ، والآخرى يحرضون

الحوذى على ضربهم بسوطه ، لا رأفة بالحوذى وحصانیه اللذين يجران العرباة في
جهد ، بل حسدا للأولاد الذين وجدوا لهم مكانا في مؤخرة العرباة .
وبينما العربية في طريقها إذ لمح صفية عمها ، فأسرع إليها ، وأشار للحوذى
بيده أن يتف ، وقال :

— إلى أين في هذه الساعة المبكرة ؟
فقالت الأم :

— إلى بيتنا . غضبت صفية من زوجها .
فقال العم في امتياع :

— وهل تغادر الزوجة بيتها كلما وقعت جفوة بينها وبين زوجها ؟ لا . إن هذا
لن يرضى أبك ، لا يا صفية ، البنات عندنا لا تغادر بيت زوجها إلا ميتة .
أطرقت صفية ولم تنطق بكلمة ، وقال عمها :

— على الزوجة أن تحتمل زوجها ، إنك يا بنتى است خالصة ، مامصير
كوم اللحم هذا [وأشار إلى أولادها] إذا دب بينكما الخصام ، تعالى معي ،
لأصلح بينكما .

ولم ينتظر جوابها ، بل قفز إلى العربية ، وأمر الحوذى أن يعود من حيث جاء .
وعادت العربية تنخب في الحارة ، وفتحت الشبايك التي اشتركت في الوداع
الساخر ، ونظرت النسوة في دهش ، فلما وقعت العميون على صفية وأمرها وعمها ،
قالت عزيزة :

— عادت البرنيسة ومعها قاضي الغرام .

ورنت في جنبات المنزل ضحكات ، ولم تكن فاطمة هناك لترجرهن ،
فقد أسرع مستبشرة تستقبل رسول السلام .

وعاد إلى البيت الصفاء ، وأقبل الليل ، ووافي ميعاد السهر ، فارتدى على ثيابه
وخرج ، وعمرت الساعات وصفية تدبر شئون بيتها ، ثم اتجهت إلى النافذة ترقب
أوبة زوجها . جلست وفي جوفها قلق ، تحسب أن مصدره خشيتها من أن يعين
في السهر ، دون أن تثمر ثورة الصباح ، ولكنها كانت في الواقع قلقة خوفا من
أن يعود مبكرا مدحورا أمام غضبتها ، ولو عاد قبل أوانه اضاعت هيئته ، وذابت
رجولته ، وتقصت ساعات الليل دون أن يثوب ، فتبخر قلقها ، واستمرت
تنتظره هادئة ، دون أن تدري لذلك سببا !

A

الهوام تزحف في الخربة ؛ خنافس تدور حول الأحجار ، وصفوف من النمل
تثوب في نظام إلى شقوقها . كأنها صفوف من الجيوش المدربة في طريقها إلى
قلاعها ، وجنادب تخرج من مسكنها تخرج في انطلاق ، فقد ولى النهار .

وعشش الليل ، فدبت في الخربة حياة موصومة ، لا تحيا إلا في الخفاء ، حفنة
من الرجال اقترشوا الأرض ، وتحلقوا حول شجرة خافتة لا يكاد ضوءها يزحزح
أشبارا من أمواج الظلام ؛ وقد صوبت عيونهم إلى الأرض ، وزفر فوق
رءوسهم صمت ، وإن أرهفت منهم الحواس ، كانوا يلهبون القمار .

وفي ركن منها قبع فريق من الرجال ، قلما يجتمعون إلا في هذا المكان ،
بعض الصعايدة يجلسون إلى بعض الفلاحين وقد نزع من قلوبهم البغضاء ،
كانوا ساكنين هادئين ، ينتظر كل منهم الغاب الذي يدور عليهم ، ليجذب منه
نفسا طويلا ، ثم ينفث دخانه في خمول ، ويسبل عيذه ، ليغيب في الأحلام .

وعلى حوائى الخربة ، انتشر العبيبة في ثيابهم القذرة المحزقة ، يصنعون من
أعقاب بعض اللعائف التي التقطوها من الطرقات ، لفائف طويلة يشعلونها
وينفثون دخانها حلقات . كانوا جماعات متناثرة ، لا يجمع بينهم إلا النار ؛ نار
الشمة الواهن ، ونار الفحم في الموقد وبصيص اللعائف ، الذي يتوهج ويخفت ،
ثم يتوهج ليخفت كلما شدت منه الأنفاس .

وفتحت النوافذ في الحارة ، وأطلت النسوة اللاتي كن يجتفين خلفها بالنهار ،
ولم تحرك حياة الخربة المريبة فضولهن ، فقد اعتادت عيونهن مشاهدتها ، حتى
باتت أمرا مألوفا كبروغ النجوم في رقعة السماء كلما وفد المساء .

وأطلت فاطمة من الشباك ، تنتظر عودة يونس ، وتلفتت فألفت حليلة
جالسة بالقرب من الباب ، وأمامها قفص الجريد ، صفت فوقه قطع الخاوى التي
تبيعها الأولاد . تفرست فيها فمشت إلى قلبها غيرة ، كانت شابة طاف بها الجمال ،
خلف في ملاحظها آثاره ، ووضع في عينيها بعض أسرارها ، وكساها الفقر
انكسارا ، تحالف مع جمالها واتحد ، فكانت إشعاعات عينيها تنفذ إلى قلوب
الرجال ، وتبذر في قلوب النساء الحسد .

وأقبل رجل وقف أمام حليلة ، تبينت فاطمة ملاحه في ضوء الصباح ،
كان صارم اللامح ، مفتول الشارب ، فيه غلظة وشكاسة ، ولكن ما إن نظر
إلى حليلة حتى انبسطت أساريره ، ولانت نظراته ، ومد يده في جيبه وأخرج
قرضا ، ودفعه إليها ، وأخذ بعض قطع الخاوى التي لا يشتريها إلا الأطفال ، ونهركت
شفته ، ولم تباع كلماته مسامع فاطمة ، ولكنها أحست ضيقا ، مساءها أن يجري
ما توهمته غزلا تحت نافذتها .

واستشعرت نحو حليلة بنضا يتحرك في جوفها ، فلطم البدارت رجال الحى
يفدون إليها ، يشترون ما تبينه ، وإن كان ما تبينه لم يصنع للرجال ، وكان يزيد
في حقها أن حليلة كانت تغض الطرف كلما حادتها رجل ، ولكن وهم فاطمة
كان يصور لها أنها تسبل عينها دلالا ، إمعانا في الإغراء .

وجاء يونس يسمى ، ولحنته زوجه وهو قادم ، يحمل فاكهة في منديله ،
فما كان يعود إلى داره فارغ اليد ، فراحت تتبعه بنظراتها ، وخرج على الدار
ولمح حليلة في جلستها ، فقال :

— مساء الخير

— مساء النور يا سيدى .

قالتا في انكسار وأطرقت ، ولحنتها فاطمة تحرك الشفاه ، فاندلع في جوفها
أتون نار ، مساءها أن يحدث زوجها هذه المرأة الجالسة لاصطياد الرجال ،
فانسابت عقارب غيرتها تلمسها ، ففكرت أن تهرع إلى الباب تنف زوجه ،
ولكنها خشيت أن يفوتها ما قد يقع بينهما ، فابتعدت عن الشباك وهى ترصد
ما يجري فى اهتمام

عز على يونس أن يمر على حليلة ، وهو يحمل ما رزقه الله به ، دون أن
يعطيها منه ، فمد يده إلى المنديل ، ودفع برتقالين إلى حليلة ، فتناولتهما مستبشرة
وهى تقول :

— كثر الله خيرك يا سيدى .

وانطلق في طريقه ، هادئ النفس ، لا يفكر فى شيء مما وقع ، ولكن
فاطمة كانت تغلى من الغيظ ، تحس مهانة أججت ثورتها ، وذهبت إلى الباب

تفتحه ، يكاد يفجر صدرها عنقها وغضبها . وما إن وقعت عينها عليه ، حتى صاحبت فيه :

— ينبغي أن تطرد هذه الفاجرة من أمام بيتنا ، من النار أن نسكت على فعلها ، وجودها سيفسد الأولاد والرجال .
— ماذا حدث منها ؟

— إنها امرأة ناعمة ، تتظاهر ببيع الحوى ، ولا هم لها إلا اصطياد الرجال .
— حرام عليك ، حليلة امرأة مسكينة ، تسعى على قوتها ، ولو لم تسكن شريفة لما قبلت عيشة الضنك التي تخياها .

— لا بد أن تدافع عنها ، سحرتك وما أيسر أن تسلب الفاجرة عقول الرجال .
— عندنا ولايا ، حرام أن نتهم الناس بالظن .
— وماذا قالت لك ؟ ولماذا أعطيتها البرتقال .
— هذه الغيرة لا تليق بنا وقد تجاوزنا الستين .
فقالت في استياء :

— أنا أغار منها ؟ أغار من كلبة لا يشتهيها إلا الكلاب ، والله لا يعجبني الحال المائل . هذه امرأة مائة ، لو كانت عندنا لقتلناها . فالصعيدى لا يسكت على العار .

فقال في نبرات ساخرة :

— أتحرضيننى على قتلها ؟
— أحرصك أنت ؟ إنها غالية عندك ، تخصمها بالخير قبل إهلك .
فقال لها وهو يتسم :

— غيرتك دائما تفرحنى .

— لا تقل إنى أغار منها .

— معاذ الله ، انشرح صدرك لما أعطيتها برتقالين .

فقالت في ضيق :

— أقولها ولا أخشى إلا الله ، هذه المرأة أكرهها لله وفى الله .

فرنا إليها فى عطف ، وقال وهو يتصنع الجذ :

— سأعترف لك بكل شيء .

فالتفتت إليه خائفة القلب ، وانداح في جوفها خوف ، وأرهفت منها
الحواس ، قال :

— أنت المرأة الوحيدة التي أحببتها في حياتي .

فأشاحت بوجهها عنه ، متظاهرة بالاستياء من عبثه ، وإن انتشر الرضا بين
جوانحها ، ودثرتها طمأنينة وأمن .

٩

مضى شهر ولم يتلق على من اللورد كرومر ردا على رسالته التي بعثها إليه ،
فلم يفت ذلك في عضده ، بل أذكى جبهة حماسه ، فما كان يقبل أن ينام على
الضم ، إنه على يقين من أن الشركة البريطانية تتعسف معه ومع إخوانه التجار ،
فإذا كان اللورد كرومر قد غص الطرف عن ذلك الظلم ، فما ذلك إلا لأنه يؤازر
الاستعمار ، ويمكن له في البلاد ، ولكنه قد بيت العزم على ألا يسكت على ذلك
المهوان ، سيكتب إلى وزير خارجية الإمبراطورية التي لا تفيب عنها الشمس ، منددا
بالشركة الباغية ، التي ترغم التجار على شراء بضاعة كاسدة لا يهتم لها السوق ،
فلو أعرض وزير الخارجية عن شكايته وصم أذنيه ، فسيرفعها إلى قصر بكنجهام ،
وإذا لم ينصفه ملك الإنجليز ، فلن يقعه شيء عن تبليغ ذلك الظلم الذي تظاهرة
القوة إلى المحافل الدولية .

وملأت فكرة الكتابة إلى وزير خارجية بريطانيا رأسه ، واستولت على
مشاعره ، فجلس يكتب :

حضرة صاحب المعالي وزير خارجية بريطانيا العظمى .

« إن أحسنت فلا أنفسكم وإن أسأتم فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » . وراح
يسرد قضيته وقضية إخوانه التجار ، مقتبسا من القرآن ، مستشهدا بالأحاديث ،
حتى إذا انتهى من تحرير رسالته ، وهدأت ثورته ، خطر له خاطر : كيف يفهم
وزير الخارجية هذه الرسالة وهي مكتوبة باللغة العربية ؟ وضايقه ذلك الحاطر
لحظات ، ولكنه اهتدى إلى أن يلجأ إلى أحد أصحابه من الموظفين يترجمها له

وانطلق إلى المقهى ، فألقى صديقا من أصدقائه يقرأ « اللواء » ، فذهب إليه ، وقدم له الرسالة ، وقال له :
— أقرأ هذه .

فراح الرجل يقرأها ، وما إن فرغ منها حتى قال .
— رسالة من نار .

— أريد منك أن تترجمها إلى الإنجليزية ترجمة أمينة ، حتى يمس وزير الخارجية كل حرف فيها ، فقال الرجل في فزع :
— أنا ؟ محال .

— لماذا هذا الفزع ، ولم أطلب منك أن توقمها باسمك ، أو تنسبها إليك ؟
— أريد أن تخرب يدي ، لو عرفوا خطي لاضطهدت وشردت
— من ذا الذي سيعرف خطك ؟
— عيون اللورد كرومر في كل مكان .

— ترجمها ولا تخف .

فسلمت الرجل في ذعر وقال :

— ابتمد عني يا سيدي على ، أرجو منك ، أنا صاحب عيال .

فقادره على وهو حائق ، وراح يبحث عن صديق غيره ، أكثر منه شجاعة ، ولكن أعياه البحث ، وما وجد من يجرؤ على ترجمة رساله فيها مساس باللورد كرومر الجبار ؛ كان الفزع يتسلط على العقول ، حتى إن كل من عرض عليه الرسالة لترجمها ، كان وهمه يصور له أن اللورد سيعرفه من أسلوبه ولو كتبت الرسالة بخط سواه !

ضاق صدره بأصدقائه الجبناء ، وإن أحس بموجة من الرضا عن النفس تنمره ، فهو الرجل الوحيد بين هؤلاء النعاج ، الذي جرؤ على أن يشور على شركة بريطانية ، وأن يصم اللورد كرومر بالتحيز واضطراب ميزان العدل في يده .
وأخيرا وجد من تطوع بكتابه عنوان وزير خارجية بريطانيا على الظرف ، فدس فيه الرسالة المكتوبة باللغة العربية ، وذهب إلى صندوق البريد ، ووضعها فيه ، وعاد إلى القهوة يحس أن الروح السارية في جسمه ، روح صحابي من صحابة

الرسول ، الذين ثاروا في وجه الطغيان ، دون أن يهابوا السلطان ، وقد عاشوا
كراما لا يخشون في الحق لومة لائم ، فانبثق في جوفه ينبوع من الكرامة والعزة ،
ملا نفسه حتى فاض على لسانه ، فكان حديثه نابضا يحرك المشاعر ، ولكن
كانت القلوب ترتجف رهبة من الاستبداد والطغيان .

٩٥

غادر الثيران المنزل لمزاولة أعمالهم ، التي كانت تقطر لهم قطرات من الرزق ،
لا تكاد تطفىء ذلك العطش الدائم إلى النقود ، ولولا عطف يونس عليهم ، وإيواءه
إياهم في داره لعاشوا في مسغبة ، كانوا يبذلون أتنف الجهود في أعمالهم ، ويصرفون
كل تفكيرهم في ملاذهم ، فقد حبيت إليهم المخدرات والنساء .
 واجتمعت بنات يونس الخمس يتحدثن ، فدار الحديث حول صفة ، قالت
ثريا في مرارة :

— وضعت ولدا ثالثا ، بينا جئت بأربع بنات .

فقال لها زينب :

— وماذا علينا إذا كانت ذريتنا بنات ، هذا ليس عيبنا ، إنما نلد ما يضمنه
الرجال فينا .

فقال عزيزة :

— أولاد . . أولاد ، أ جاءت بالأمرأ ؟ ! العزب لا تنتظرهم ، دكاكين
الحدادين والنجارين في حاجة إليهم ، والمقاهى والخانات . . .
فقالت زهيرة في نفاق :

— حرام عليك يا عزيزة ، عندنا أولاد .

فقالت عزيزة ثائرة :

— حرام . . حرام ، أكفرت ؟ من لا يشبه أهله فهو ابن حرام . أنفاس
أهل البيت حشيش ، وما يجري في عروقهم خمر ، إنها ذرية بعضنا من بعض .
فقالت حميدة في حماسة :

— زوجي لم يشرب الخمر أبدا .

فقال عزيزة في مخزية :

— زوجك ولي من الصالحين ، والحشيش لا يمنع ولاية .

فقال نبيلة :

— الحمد لله ، زوجي لا يسرف الحشيش ولا الخمر .

فقال عزيزة وهي ترفع حاجباي تخفص آخر :

— أزواجكن كلهم ملائكة ، وليس بينهم حشاش وسكير وابن كلب غير

زوجي . فاهدأن واسترحن !

فقال لها زينب :

— لم تذكر سيرة زوجك على طرف لسان .

— ماله زوجي ؟ حشاش وسكير وفيه العبر ، لكنه أفضل من أزواجكن .

فقال لها ثريا في حدة :

— ما هذا الخلط ؟ لمي لسانك .

— أغضبك أن زوجي أحسن من زوجك ؟ !

فقال لها نبيلة :

— زوجك زين الرجال . اسكتي .

— ظفر إسماعيل بالحى كله .

فقال ثريا وهي تتمايل :

— يا وكسة ، تعال يا أبى اسمع .

وارتفعت أصوات بنات يونس واختلطت ، فرحن يتصايحن دون أن يصغى إليهن أحد ، وهرعت أمهن إليهن ، تصرخ فيهن بأن أخاهن عليها بطن ، ولكنهن وضعن أصابعهن في آذانهن .

وسمع وقع أقدام فى الدرج ، خففت أصوات النسوة ، وخرجت نبيلة تنظر ، فألفت أخاها نازلا ، فقالت له :

— مبارك ، يترى فى عزك .

وهرعت إليه أخواته بهننه بالمولود الجديد ، واستأنف هبوطه ، حتى إذا

غاب عن عيونهن ، لم تقو عزيزة على كبح جماح لسانها ، فقالت :

— يتربى في بيت جده ، كما تربى أخوه من قبل .
فقالت زهيرة متظاهرة بالدفاع ، وإن كانت في قرارة نفسها تريد أن تبرز
عزيزة للنيل من زوجة أخيها :
— وهل في تربية الجد سفيدة عيب ؟ كلنا نتمرغ في خير آبينا ، فإذا عليها
إذا تركت ولدا في بيت أبيها ترعاه جدته ، إنها معذورة .
فقالت عزيزة وهي تهز كتفها :
— تتركه للبرنسيصة .

وراحت عزيزة تنال أهل صفية بلسانها اللرب ، وتنتقد ذهاب صفية إلى
بيت أهلها كلما أحست آلام الوضع ، وأخواتها يصغين إليها مسرورات ، وكانت
زهيرة أكثرهن سرورا ، وإن كانت تظهر استياءها بين لحظة ولحظة ، ففي
طبعها النفاق .

وانطلق على إلى القسم ، استدعوه وما يدري لذلك سببا ، فراح يقدم زناد
فسكره ، ليهتدى إلى فعل ارتكبه يوجب استدعاه ، فلم يهتد إلى شيء ، فاتبه
قلق . وجد في السير ، فلما بلغ القسم قدم نفسه ، فاقتيد إلى الضابط البريطاني ،
الذي كان يضع فوق رأسه طربوشا ، استعار حمرة من حمرة وجهه .
نظر إليه ضابط البوليس البريطاني بعينه الزرقاوين نظرة فاحصة ، ثم أشار
إلى كرسي قريب منه ، وقال في لكمة .
— اقعد .

جلس على ، فتهدل قفطانه على الأرض ، ومد يده دون وعى يصلح طربوشه ،
كان مشتتا ، لا يعرف إلى أين يوجه حواسه ، وقال الرجل الإنجليزي :
— هل رفعت شكاية إلى وزير الخارجية البريطانية ؟

اضطرب المفاجأة ، فدق قلبه ، فما خطرت شكايته على ذهنه . وهو في طريقه
إلى القسم ، فراح يستجمع قواه ليقهر إحساسات التخادل ، التي أرادت أن تطل
بوجهها ، ثم قال :

— نعم .

فقال له الرجل في رقة متكلفة :

— صدرت التعليمات إلى الشركة أن لا ترغبك على شراء مالا تريد ، أنت
حر ، يمكنك أن تشتري الملح وحده إن أردت ، أو الصابون وحده إن أردت .

وصحت الرجل قليلا ، ثم قال :

— هذه خدمة جليلة تؤديها لك إنجلترا .

وسكنت الطمأنينة قلب علي ، وأريقت الغبطة في جوفه ، وهزه النصر ،
فهبطت فروسيته تتحدث :

— لم أطلب رفع الظلم عن نفسي وحدي ، بل طلبته لجميع إخواني التجار .
فقال الضابط الإنجليزي :

— مالك ولغيرك وقد نلت مبتغاك ؟

فقال علي في إصرار :

— لا أرتضى هذا الحال ، وسأعود الكتابة إلى وزير الخارجية !

كان يمز على الضابط البريطاني أن ينتصر مصري على شركة بريطانية في ظل
الاحتلال ، وإن كان الحق في جانبه ، فأراد أن يؤدي للاستعمار خدمة ، بأن
يستثنى ذلك المشاغب وحده من طغيان الشركة ، على الرغم من أن الأوامر صدرت
بتكليفها بألا ترهق عملاءها ، ولكن ذلك المشاغب لا يرضيه ما ناله من كسب ،
بل يريد تخليص إخوانه من ذلك الاستبداد ، فرمقه البريطاني بعين خبيثة فاحصة ،
فقرأ في وجه النهور والدفعة ، فتيقن من أنه ان يسكت ، وسينكشف تديره ،
فقال له :

— لا تكتب إلى وزير الخارجية ، إذا أردت شيئا تعال إلى .

فقال علي :

— أريد أن يسرى ذلك القرار على التجار جميعا .

فقال له الضابط البريطاني ملاطفا وهو يصاحفه :

— سيسرى ذلك القرار عليهم جميعا إكراما لك .

وخرج علي من القسم مزهوا . يشعر شعور قائد انتصر على الإمبراطورية
العاتية ، وراحت الأفكار تتوافد على رأسه مشرقة مبهجة ، وتذكر وليده الجديد ،
وربط بينه وبين انتصار اليوم ، فرآه بوجهه طالع سعد ، وبشير خير ، فرقت علي
شفتيه ابتسامة رضا ، وفكر في اسم يختاره له . ولما كان عائدا من معركته منصورا ،
فقد قفز إلى رأسه اسم خالد ، وارتاح إلى ذلك الاسم ، فأغذ السير إلى بيت
أصهاره ليعود خالدا وأمه .

شمل الحارة هدوء ، فقد أرخى الليل ستاره السود ، ولاذ الأولاد بدورهم ،
ولولا الأغاني الصيدية الخافتة التي تسرى من المقهى البعيد ، كالأنفاس في الجسد
المهاجع ، لبدت الحارة كأنما قد فارقتها الحياة .

وفي ذلك السكون دبّت الحركة في بيت يونس ، ذلك البيت الذي يملؤه
الأولاد في النهار ضجيجا ، ويملؤه الرجال في صدر الليل عجيجا ، وينداح فيه
آناء الليل وأطراف النهار غمز النساء وهمسهن ، وصياحهن وتراشقهن بالألفاظ ،
تراشق المقاتلة بالسهام الطائشة .

ارتدى الرجال جلابيهم الصوفية الداكنة ، وهبطوا في الدرج ، لينطلقوا
إلى حلقات السهر المتباينة ، وإن انحدرت في المهدف ؛ فهمهم أن يقضوا سواد الليل
في غيبوبة ، هاربين من واقع حياتهم ، غارقين في الرؤى والأحلام .

وقبل أن ينسابوا في ظلال الحارة الغارقة في الصمت ، عرجوا على يونس
يهودونه ؛ كان ممددا في فراشه ، يشكو ضعفا أصابه ، وكانت فاطمة جالسة إلى
جواره ، وجلس قبالة ولده على وحسان ، وتقاطرت بناته عليه بعد هبوط
أزواجهن إليه ، فنصت الغرفة بمن بها ؛ وأدار عينيه فيهم ، فأحس نحو الشيران
عظفا ، ولم يحقد عليهم ، وإن كان على يقين أنهم خارجون مددا لحزب الشيطان
يشدون أزره .

جلسوا صامتين لحظة ، وظهر في وجوههم رغبتهن في الانصراف إلى لداذاتهم ،
فأراد أن ييسر لهم أمرهم ، فقال لحسان :

— إلى أين أنت ذاهب الليلة ؟

فقال إسماعيل وهو يضحك :

— ذاهب ليخرج الإنجليز من مصر .

فأربد وجه حسان ، وقال في حدة :

— كان أمر الإنجليز يهون لو خلت مصر من أمثالك .

فقال إسماعيل في زراية :

— كانوا سيخرجون هرباً من لسانك .

فتدخل على ليؤازر أخاه ، ويخفف في نفس الوقت من حدة المناقشة التي بدت
حامية ، تنذر باكفهرار الجو وهبوب العاصفة ، فقال :

— لو صدقت نيتنا جميعاً على أن يخرجوا من مصر ، لما بقوا فيها لحظة واحدة .
فقال أحد الثيران :

— إننا ضعاف لا نستطيع أن نحاربهم ، عندهم مدافعهم وبوارجهم ، ونحن
لا نملك حق العصي .

فقال على :

— نقاتعهم ، نعلن بعدم رضائنا عن احتلالهم بلادنا .

فقال ثور آخر :

— نؤذن في مالطة : إنهم أقوياء ، وإن يأبىوا لصراخنا .
فقال له على :

— أأستطيع أن تبقى في هذه الغرفة إذا قاطعناك كلنا ، وأبدينا لك كرهنا .
— لا .

— كذلك الإنجليز ، لن يستطيعوا البقاء إذا خاصمناهم كلنا ، وبدأت لهم
عداوتنا .

— الأمر يختلف ، إذا خاصمناهم من حولنا ظهورهم ، وحدثوا فرنسا أو روسيا ،
وأصدقاءهم وعبيدهم ، العالم كله لهم .

فقال إسماعيل :

— إذا خاصمناهم أرغمونا على محادثتهم ، والابتسام في وجوههم رغم أنوفنا .
فقال حسان في ثقة :

— لا يستطيع إنسان أن يرغمي على الابتسام .

فقال ثور ثالث :

— يضربك حتى تنفرج شفتاك عن أسنانك .

فقال يونس :

— الإنجليز أهل مكر ودهاء ، إذا جذبت الحبل أرخوه ، وإذا أرخيتهم جذبوه ،

وإذا عبست في وجوههم ابتسموا . سياستهم أن يقيموا الشعب ، وأن يحمّدوا
ثورات النفوس في الصدور .

فقال حسان في انفعال :

— ان يخرج الإنجليز من بلادنا إلا إذا حاربناهم .

— وكيف نحاربهم ؟

— ننضم إلى تركية ونغريها بحربهم .

فقال إسماعيل في فزع .

— نخرب بلادنا بأيدينا ؟

فقال حسان وقد استعارت ألفاظه حرارتها من حرارة صدره :

— أن تخرب بلادنا ويخرجوا ، خير من أن تبقى عامرة وهم يحرون فيها

كالود ، ويسرون في سرايها كالصديد .

فقال ثور من الثيران :

— أفضل أن تبقى عامرة وهم فيها ، من أن تصبح خرابا ونحن تحت أنقاضها .

وقال إسماعيل :

— ماذا فعلوا بنا حتى نتمنى خراب بيوتنا ليخرجوا ، لا أفهم الضرر الذي

لحقنا من وجودهم ، لقد يسروا لنا كل شيء .

فقال حسان في احتقار :

— حتى الحشيش .

وهم على ليتدخل ويأطف من وقع حدة أخيه ، ولكن إسماعيل لم يثر ،

بل قال في هدوء :

— إذا كانوا هم الذين يسروا لنا الحشيش ، فهذه مكرمة منهم توضع في

كيفة حسناتهم .

فهب حسان حائقا وقال :

— حرام أن أضيع وقتي مع أناس هازلين .

وهم بالانصراف ، فقال له على :

— أذهب إلى نادى الحزب ؟

فقال إسماعيل في استخفاف :

— إنه ذاهب ليحارب الإنجليز .

فقال حسان في حماسة :

— والله لو وجدت بين المصريين من يوافقني على ذلك لحاربهم .

فقال إسماعيل وهو يصلح هندامه :

— أمنيته ليست أيسر من أمنيته ، فإني أتمنى أن أجد ألف جنيه ،
فلو وجدتها لأنفقتها هذه الليلة .

فقال حسان وهو ينصرف :

— لا تسخر ، سيأتي اليوم الذي أحاربهم فيه .

فقال له إسماعيل :

— أظال الله عمرك .

وقال حسان دون أن يلتفت خلفه :

— ووهب لك طول النفس .

وخرج حسان ، وخرج الرجال بعده ، وانطلقوا كل في طريقه ، الرجال
إلى المقاهي وأما كني اللزاج ، وحسان إلى نادي الحزب ، يؤسسه مادار بينه وبين
أزواج أخواته من أحاديث تقطر تحاذلا ومرارة ؛ وانتشر في جوفه ضيق ،
ولكن خفف من حزنه أن خيل إليه وهمه ، أنه يصغي إلى أبيه وهو يصيح بهم :
« ثيران » .

١٢

مس أذني فاطمة طرق خفيف على الباب ، فذهبت وفتحته ، فألفت أمامها
حليمة ممتلئة الجسم ، في وجهها بضارة الشباب ، تسألها عن صحة سيدها يونس
في صوت خافت أقرب إلى الهمس ، وقد أطرقت وأسبلت عينيها حياء ، فلم ترمح
فاطمة لرؤيتها ، وأحست انقباضا ، وأجابتها عن سؤالها في اقتضاب وصمت ،
ونظرت إليها نظرة كان فيها إحاء بالانصراف ، فدارت حليمة على عقبها ، وراحت
تهبط في الدرجات القليلة الفاصلة بين الطبقة الأولى وفناء الدار ، خافضة الرأس ،
وشعرها الطويل المصفور ينوس خلفها .

وما أغلقت فاطمة الباب حتى شعرت بهدم رضا عن نفسها . لماذا قابلتها
بمثل هذه الحدة ، وقد جاءت مشكورة تستفسر عن زوجها ؟ إنها اعتادت
أن تقابل الناس مرحبة ، فهي مضيافة ليست فيها غلظة ، فما الذى دفعها إلى
إتيان ذلك العمل الذى يتجافى وطبعها ؟ وإذا بصوت اتهام ينبعث من أعماقها ،
إنها غيرتها قست قلبها ، ومساءها أن تتهم نفسها بما كان يتهمها به زوجها ، فحنقت ،
وأغضبها أن تغار من شابة لم يصدر منها ما يحرك الخيرة ، وزاد فى أساها أنها
تغار منها على شيخ تجاوز الستين ، مسجى فى فراشه !

فكرت فى أن تفتح الباب ثانية ، وأن تهرع إلى الدرج تدعو حليلة إلى
الدخول ، وتلاطفها لتسمح من صدرها آثار إساءتها إليها . ولكن كبرياءها منعها
أن تفعل ذلك ، فذهبت إلى غرفة يونس وفى جوفها قلق .
كان الحر شديدا فى الغرفة ، يكاد يزهدق الأنفاس ، والنداب يتساقط
على الوجوه فى إلحاح ، ويطن فى الآذان ، فيزيد النفوس ضيقا ، فالتفت يونس
إلى زوجته وقال :

— افتحى الشباك واطردى هذا الدباب .

فقامت فاطمة تذب الدباب عنه ، وهى تقول :

— ليس لنا أن نضيق به مهما فعل فينا ، إننا نستحق كل ما يجرى لنا
فى هذا البيت .

فقال يونس فى صوت خافت :

— لماذا ؟

— لأن نفودنا كانت معنا ، وكنا نستطيع أن نشترى بيتا آخر فى الشارع ،
ولكننا لم نحتمل فراق الحارة .

— لو صبرت قليلا يا فاطمة لثبتت لك أن هذا البيت كنز ، سيشق هذا الحى
شارع جديد ، وسيقع هذا البيت على ناصية الشارع ، وسيطل على ميدان فسيح ،
ويومها يشهد لى الجميع ببعد النظر وأصالة رأى .

— يا طول ما نصبر ، أوهموك ذلك لتشتري البيت .

— رأيت تخطيط الحى الجديد بعينى هاتين ، ولولا ذلك ما أقدمت على الشراء .

— ليس لنا إلا الصبر ، ولو أننى واثقة أننا لن نرى ذلك الشارع الجديد .

— سنة واحدة وتريق الشمس أشعتها في هذه الغرفة ، وتهب النسائم لطيفة من الميدان الفسيح .
— والله لن نستمتع في هذا البيت إلا روائح الخربة .
— هكذا أنت دائما لا تنفأ لين ،
وفتحت فاطمة النافذة المظلة على الحارة ، فهب الهواء ساخنا يشوى الوجوه ،
فقطبت جبينها ، وقالت :
— يا حفيظ ، هذه طاقة من الجحيم .
— الدنيا صيف ، وموجة الحر في كل مكان .
— فلنبق في هذه الدار ، حتى يجود علينا ميدان الشارع الجديد بالنسيم الرقيق .
وعادت فاطمة إلى مكانها ، تفكر في أسى في تلك الأموال التي وضعت في بيت في الحارة ، بينما راح يونس يفكر في الشارع الجديد ، ويهم في دنيا ينيرها الأمل الحلو البسام .

١٣

انتهت صفية من تجهيز أبنائها للخروج ، فكانت تحية ترتدى ثوبا بسيطا ،
وزكريا حلة متواضعة . وكان خالد في لفائفه البيض . وعلى الرغم من أن ثيابهم لم تكن غالية ، إلا أنها كانت نظيفة ؛ وهبطوا في الدرج ، وقابلوا زهيرة ، فراحت تربت على الأولاد في نفاق ، مظهرة لأهم ودها ، وجعلت توصيها في إلخاف أن تبلغ تحياتها للحاج والست الكبيرة .
واستأنفوا هبوطهم وزهيرة تطل عليهم ، وسمعت عزيزة أصواتا في السلم ،
نخفت لترى من هناك ، فلم تجد إلا أختها زهيرة ، فسألتها :
— مع من كنت تتحدثين ؟
— مع صفية ، إنها ذاهبة لزيارة البرنسية .

فابتسمت عزيزة في شماتة ، فما كانت زهيرة تتحدث عن أم صفية إلا حديث إجلال ، ولو أن حديثها كله ضرب من النفاق ، فلسانها لا ينطق إلا بمسول الكلام ،

وإن كانت أذناها تطربان للسباب ونهش الأعراض ، ونفسها تفتيح لها وإن أظهرت النفور والاستياء ، فلما ذل لسانها وجدت عزيزة في ذلك ما يستوجب الابتسام ، وقالت لها :

— الحمد لله ، أصبح لسانك كألسنتنا ، ولن تعيرينا بعد الآن ؛

فمالت زهيرة في إنكار :

— أستغفر الله ، كنت أريد أن أقول إنها ذاهبة لزيارة الست الكبيرة ، ولكن رؤيتي لك أفلتت لسانى .

— كأن رؤيتي لا توحى إلا بطول اللسان . الله يسامحك !

ولم تقدر طويلا على أن تكبح جماح لسانها ، فقالت :

— إذا كنت أسب هذا وذاك ، فقللى ناصع البياض ، ولكن من يدري مالون قلبك ؟

وتأهبت لتساق أختها بلسانها ، ولكن زهيرة كانت على يقين من أن خير ما تفعله لتنجو من ذلك الشر ، أن تلتزم جانب الصمت ، فلم تنبس بكلمة ، فانسلت في خفة إلى غرفتها ، وبقيت عزيزة لحظة وهى حائرة ، فهى لم تطلق شهوتها للجلبة والصياح ، وسمعت أصوات أبنائها يتشاجرون ، فوجدت نفسها لرغبتها ، فانطلقت صائحة :

— يا مقاصيف الرقبة ، يا عفاريت ، يا أولاد العفاريت .

وتدفق السباب من فمها فى يسر ، فتبخر حنقها ، وبرأ جوفها من تفاعل إحساساتها وهدأت ، كأنما أصغت إلى لحن موسيقى أخاذ يشفى الصدور .

ودخلت صفية بيت أبيها ، فألفت أختها جليلة هناك ، خفت إليها تحييتها في شوق ، وتلفتت تبحث عن لبيب ، فما كانت تراه إلا كلما زارت بيت أبيها ؛ أخذته جدته بعد ولادته وربته ، فتعلق ببيت جده .

وأقبلت أمها عائشة ، تهتأ كتنافها هزات خفيفة فى مشيتها ، تلك الهزات التى تجسمها عزيزة كلما تكلمت عن « البرنسيمة » ، والى تحب زهيرة أن ترى أختها تحاكيها ، وإن انكرت ذلك بلسانها وعابته . وسار لبيب خلف جدته ، فلما أن رآته تفتح قلبها له ، وهفت روحها إليه ، خفت إليه تضمه إليها ، فاستراح

الصبى إلى صدرها قليلا ، وسرعان ما تذكر شيئا ، فتركها وذهب ليطمئن
في حضن جدته . تذكر أنها تلاحظه لتدعوه للعودة معها إلى بيت أبيه ، وهو ينفر
من ذلك البيت ، ولا يعرف له مقرا إلا هنا ، في كنف جدته ورعايتها .

ونفضت عائشة ، وذهبت إلى المطبخ ، ووضعت على النار وعاء به ماء وأربع
بيضات ، لتعد لتحية وزكريا فطورهما ، ودخل عليها زوجها الحاج كرم ، في مشيته
الوثيدة ، وجسمه الضخم ، ونظر إلى الوعاء ، وقال فى إنكار :

— كل هذا الماء لسلق أربع بيضات ، هذا إسراف ، البطر يزيل النعم .
ورفع الوعاء عن النار ، وصب الماء فى الحوض ، ولم يترك منه إلا ما يغمر
نصف البيض وهو يقول :

— « إن المبشرين كانوا إخوان الشياطين » . صدق الله العظيم .
وصمتت عائشة ولم تتحرك شفتاها ، فما كان أحد فى البيت يتحدث إذا تكلم
الحاج كرم .

خرج الرجال من البيت ، وراحت صفية وجليلا وأمهما يتجاذبن أطراف
الحديث ، كانت جليلا تتحدث فى زهو عن زوجها ، فقد عرف الفنى طريق بيته ،
بعد أن كان مأوى للفقير والحرمان ، ومر الوقت ووافى ميعاد أوبة الرجال ،
فأقبل مصطفى وكال وحسين أبناء الحاج كرم ، وقال مصطفى :

— العم متولى جازنا دعانا لحضور زفاف ابنه .

فقال كال فى عدم اكتراث :

— ليس لنا مصلحة فى الذهاب .

وقال حسين :

— ما لنا ولعم متولى ، ضائقى اليوم أن الجنابى لم يدفع ما عليه ، وأرى أن
نأخذه بالشدة ، وإلا طمع فىنا الناس .

فقال مصطفى فى حذر :

— ليس من مصلحتنا أن نأخذه بالشدة ، فهو عميل قديم ، وصديق من
أصدقاء المحل .

فقال حسين فى حدة :

— ليس للمحل إلا صديق واحد هو القرش .

وقال كمال :

— خسارة ، لقد قلت قيمة هذا الرجل .

فقال مصطفى في إيمان :

— وهل تبقى للرجل قيمة اذا ذهب ماله ، الرجل يساوى قرشا إذا كان معه قرش .

فقال حسين :

— من مصلحتنا أن يفتش الرجل ، ليسدد لنا ما عليه .

وظاوا يتحدثون ، هذا يقول : من مصلحتنا ، وذاك يقول : من مصلحتنا ، فما كانوا يرفون للحياة إلا هدفا واحدا ، هو جمع المال ، وكانت علاقاتهم بالناس تتحدد على ضوء مصلحتهم ، ورأوا أن يجاملوا جليلة وصفية ، فراحوا يستفسرون عن علي وبهاء ، ووضع من حديثهم ميلهم إلى جليلة ، لا لشيء إلا لأن جيب زوجها بدأ يعرف أوراق البنك الكبيرة ! قال مصطفى :

— زوجك يا جليلة رجل عبقرى ، عرف كيف يخرج القرش من الصخر .

وقال كمال :

— يا طالما قلت عنه إنه ذكى ، رجل كفاح .

وأخذوا يصفرونه بثنائهم ، ويدعون أنهم كانوا أصحاب فراسة ، وكانوا يترقبون له كل نجاح ، وما كانوا يقدرون الرجل ، ولكن هبط تقديرهم عليه فجأة ، كما هبطت الثروة عليه فجأة ، وهم على استعداد أن يزيدوه إكبارا وإجلالا ، كلما زاده الحظ عظما ورعاية .

ودخل الحاج كرم يتقدم ويثبدا ، فساد المكان صمت ، وتضاءل الرجال في جلستهم ، وتعلقت عيونهم به ؛ إذا تحدث أصغوا ، وإذا قال قولا أمنوا عليه ، لا عن اتفاق ، بل عن يقين واقتناع ؛ كان ولى نعمتهم ، وهدفهم الأسمى ، والقُدوة الصالحة ، والمثال الذى يحتذى !

وسمع طرق على الباب ، فأسرعت الخادم ترى من هناك ، ثم عادت تقول :

— عسكرى بالباب .

فاضطرب الحاج كرم ، وارتبك أبناؤه ، كانوا يهابون رجال الحكومة ، ويرون فيهم نذير شر ، وساد القلق برهة ، ثم قال الحاج كرم لأولاده :

- هل فعل أحد منكم شيئاً يغضب الحكومة ؟
- فأسرعوا كالأطفال ينفون هذه التهمة ، وأشفتت صفة عليهم ، فقالت :
- سأذهب لأرى ماذا يريد .
- فقال الحاج كرم في أنفة :
- أتذهب النساء لمحادثة عسكري ونحن هنا ؟
- وهدأت نفوس أبنائه قليلا ، حسبوا أن أباهم ذاهب لمقابلته ، واسكن
- الحاج كرم صاح :
- اذهب يا مصطفى وانظر ماذا يريد .
- وتحرك مصطفى وذهب ، وغاب قليلا ، ثم عاد يقول :
- العسكري يقول إن الحفير قد بلغ أن مصباحنا انطفأ بالليل ، وعلينا أن
- نذهب لدفع المخالفة .
- فصاح الحاج كرم في الخادم :
- هذا بسببك .
- فقالت الخادم تدفع هذه التهمة عن نفسها :
- ليس لي ذنب في هذا ، فقد أمرتني يا سيدي أن لا أملاً المصباح كله ،
- خشية أن يحدث عنه حريق .
- فصاح فيها في حدة :
- اذهبي ، والله لو أتصفت لاستنزلت قيمة الغرامة من مرتبك . اذهبي !
- وخيل إليه أن هاتفها يهتف به :
- لو ملئ المصباح مرات ، ما بلغت تكاليفه قيمة الغرامة .
- فأربد وجهه ، وشعر بضيق ، وزاد في غضبه أن ذلك الهاتف راح يردد في أذنيه :
- « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين » . فانسحب من المكان يتأهب
- للذهاب لدفع الغرامة وهو ثائر حانق .

١٤

راح يونس يلتقط أنفاسه في جهد شديد ، كأنما لم يبق في صدره إلا ثقب صغير لا يكاد يسمح بمرور الأنفاس الواهنة ، وجملت فاطمة تنو إليه في أسي شديد ، وأحست لوعة تسكاد تحرق جوفها ، فهي ترى في زوجها المسجى أمامها صفحات حياتها تطوى أمام عينها لتقيب في بطن الأبد المجهول .

كانت به محور الدار ، وملاذ أهل البيت ، والسيدة المسيطرة على الجميع ، فإذا ذهب فستصبح تابعة بعد أن كانت متبوعة ، وسيدة كبيرة تستحق العطف والرئاء ، بعد أن كانت ينبوع العطف والحنان ، فشعرت بغصة ، وجرت دموعها حارة على خديها .

وجلس على بالقرب من فراش أبيه ، حزين القلب ، ولكن حزنه كان وقورا ، فلم تنقبض عضلات وجهه ، ولم تظهر في ملامحه آثار ذلك الأسى المنتشر في جوفه ، بينما كان حسان جزعا لا يستطيع أن يستقر في مكانه ، كان ينهض إلى فراش أبيه ، ويتطلع إلى وجهه الشاحب ، ثم يعود إلى مقعده في أقصى الغرفة يذرف الدموع .

ووقفت ثريا وزينب وعزيرة وزهيرة وحميدة ونبيلة حول الفراش ، يتظاهرن بالجزع ، ويبالغن في إظهار الأسى ، ووقفت صفية بالقرب من فاطمة ، كلما لاح الجهد في وجه يونس دنت منها ، كأنما توحى إليها أنها إلى جوارها تواسيها ، وتشد أزرها .

وجلس أزواج البنات صامتين ، يفكرون فيما يؤول إلى زوجاتهم إذا انتقضت الأنفاس الباقية ، فيجدون أنهم قد ورثوه في حياته ؛ أسكنهم بيته ، وأنفق عليهم من فضله ، فإذا مات قطع عنهم ما كان يكسبه في دنياه ، فأشفقوا على أنفسهم من نضوب ذلك المورد القياض !

ولفظ يونس النفس الأخير ، فهبت فاطمة تصك وجهها ، وراحت تولول ، وتأهبت للصوات ، ولكن عزيرة قالت لها زاجرة :

— تريثي حتى نعد له فراشا نظيفا ، ماذا يقول عنا الناس ؟

وانسل على وحسان وأزواج البنات من الغرفة مطرقين ، وذهبت فاطمة
وفي أثرها صفية لتجهيز الفراش النظيف ، ولم يبق في الغرفة إلا جسد يونس
وبناته ، خفت عزيزة إليه ، ودست يدها في صدره وأخرجت حافظه نقوده ،
وغيتها في صدرها ، ومدت زهرة يدها في خفة إلى إصبعه تخلع منه خاتم ،
وأخذت ثريا ساعته ، وأسرعت كل منهن تأخذ منه ما تصل إليه يدها ، كأنما
كان يونس قتيلا من الأعداء وجب سلبه ، وكادت تنشب معركة بين الأخوات
على الفنائم ، لولا إقبال فاطمة وهي تنتحب ، فحمدت الثورة في الصدور إلى حين .
وتم كل شيء ، وضع يونس في فراشه الأخير ، وأعدت الغرفة لاستقبال
الوافدات ، وتأهبت فاطمة لتطلق الصوت إعلانا للموت ، ونداء للجيران ، ليخفوا
للغزاء ، ولكن عزيزة زجرتها مرة ثانية :

— انتظري حتى نبدل ثيابنا بثياب سود .

وغادرت بناته المكان ، لا إلى غرفهن لتبديل ثيابهن ، بل إلى صوان ملابسه ،
للاتهاء من سلبه ، حتى تطمئن قلوبهن ، وفتحت عزيزة الصوان ، وراحت توزع
على أخواتها جلايب أبيها الصوفية ، ولم تكنف بذلك بل أخذت توزع عليهن
ثياب الداخلية ، حتى إذا أصبح الصوان خاويا أسرعن إلى مساكنهن
محملات بالأسلاب .

ومرت لحظات ثم شق السكون صوت عزيزة مجلجا مدويا ، منذرا بالموت
والفناء ، وتبعها أخواتها في الصوات ، ولم تنس زهرة طبعها ، فقالت في نفاق :

— يا خراب يبق ، يا أعز الأحبة ، يا ليتني سبقتك يا حبيبي .

وصوت فاطمة ، فكان صوتها حزينا حارا تقشعر منه الأبدان ، كانت
تنفث في الجو حر حزنها ، كأنما تلفظ قطعا من كبدها .

وهرعت نساء الحى إليهن ، يشاركنهن في العويل والبكاء ، وضعت حليلة
للغزاء ، ولكنها أحجمت عن الدخول ، جلست على الدرج قريبة من باب
الشقة ، تذرف دموعها الصادقة ؛ ولحقتها فاطمة في غدوها ورواحها ، فتذكرت
في غمرة حزنها أنها أساءت استقبالها يوم جاءت تستفسر عن المرحوم ، ورأت
أن تكفر عن إساءتها ، فانطلقت إليها تدعوها للدخول ، فقامت حليلة مطرقة ،

وما إن وقعت عيناها على الجسد المسجى حتى شرفت بدموعها ، فاندفعت فائقة
باكية ، تنتحب في صوت عال .

وصفت كراسى في الحارة ، ووقف على استقبال الوافدين ، وهبط أزواج
أخواته يرتدون ثياب أبيه ، الذى ما زال جسده فى الدار ، فأحس حنقا
لما ارتكبه الثيران ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل فى تلك اللحظة إلا أن
يطوى صدره على غيظه ، فراح يغدو ويروح يصرف أنيابه فى ضيق .

وأقبل الحاج كرم وخلفه ولده مصطفى وكال ، ولم يأت حسين ليشارك
فى تقديم العزاء ، بل بقى فى الدكان يصرف شؤنه ، فما كان الحاج كرم يطلق
حانوته مهما كانت الأحداث ، فالحوادث ذاهبة ، والحل باق لا يزول .

خف على إلى الحاج كرم يصاحفه ، ويتلقى العزاء فى صبر ، ثم جلس إلى الحاج
يحادثه ، فنى فى غمرة الحديث ما فعله أزواج أخواته ، فانتشع حقداه عليهم ،
حتى إنه كان يراهم وهم يتحركون جيئة وذهوبا أمام عينية فى ثياب أبيه ، دون أن
يهيج ذلك غضبه ، أو يثير حفيظته ، فقد كان يغضب لحظة ، فيندب ويتوعد ،
وسرعان ما يتبخر غضبه ، فيراً صدره مما كدره وغيره . كان معدنه نفيسا
لا تعلق به أدران الحقد ، ولا تتراكم فوقه أصداء الحفيظة .

وجلجلت أصوات النسوة بعد خفوت ، معلنة العزى أن جثمان الفقيد
خارج من داره إلى حيث لا يعود ، فقام الرجال عن مقاعدهم ينتظرون ، حتى
إذا لاح لهم المعش ساروا صامتين برهة ، ثم ما لبثوا أن مال بعضهم على بعض
يتسامرون .

وانطلقت الجنازة فى الحارة الضيقة ، وخرج يونس محمولا فى نعشه ،
وقد طوى معه أمه ؛ لم تكتحل عيناها برؤية الشارع الجديد ، ولم يكتب لجسده
أن يسير فيه .

بلغ زهيرة أن صفية بحثت في استدعاء أمها ، لأنها تحس آلام الوضع ، فوجدت في نفسها من أن تلك صفية في بيتها ، وقد اعتادت أن تلد في بيت أبيها ، وخطر لها أن تسرع إليها تخدمها تملقا ، فهي تحب أن يمدحها الناس ، وأن يقال عنها إنها أفضل من أخواتها ، فلو أن عائشة جاءت ووجدتها بجوار ابنتها ، لاهج لسانها بالثناء عليها ، وحفظت لها هذه المكرمة .

وهت بالصمود في الدرج ، ولكن طبعها قهرها ، فهي تحب أن تسمع أخواتها وهن ينهشن أعراض الناس ، ويلسكن سيرتهم ، ويلعن جدودهم ، وهما هي ذى السانحة قد وافتها ، فلو أنها ذكرت لمن ذلك الأمر البسيط الذى وقع في البيت ، لفتحت لمن آفاقا جديدة للسباب . تتدفق من أفواههن في بساطة وهذوء بال ، كأنها قلائد مدح تقلد بها أجياد الضحايا .
دخلت على أخواتها ، وقالت :

— أنا صاعدة إلى صفية ، فقد تحتاج إلى من يخدمها ، حتى تصل إليها أمها .
فقلت ثريا ، وهي تصلح عصابة رأسها :
— مالها ؟ مريضة ؟

فقلت زهيرة ، وهي تتظاهر بأنها سائرة في طريقها ، وإن أرهفت أذنها ، وتباطأت :

— إنها تلد .

فقلت عزيزة في صوت أقرب إلى أصوات الذئب :

— ماذا جرى في الدنيا حتى تلد صفية عندنا ؟

وقالت زينب في استخفاف :

— وكيف يسمح الحاج كرم للبرنسيصة أن تغيب عن بيته سبعة أيام ، ألا يخشى أن تتخطفها العفاريت ؟

فقلت عزيزة :

— الحاج كرم ؟ والله لم يعرفه الدين سموه ، فلو عرفوه لسموه الحاج « قبيحة » .

- ورأت زهيرة أن تنفخ في النار لتزيد لها شجوبا ، فقالت :
- حرام عليك ، ما أدراك أنه (قبيحة) ، الرجل ليس بجيلا ، هل من الضروري أن يبعثر الرجل ماله حتى يعلن عن كرمه .
- فقالت عزيزة وهي تحرك حاجبها سخرية :
- ما أكرمك يا حاج كرم ، ثمانية أعوام وصفية بيننا غارقة في خيرك ، هداياك تتساقط عليها كالنداب !
- فقالت زهيرة في خبث تغلفه البراءة :
- لعله يهديها في السر .
- فقالت عزيزة :
- لا تظلمى الرجل ، والله ما جاء يوما لزيارتها إلا ويد وراء ويد قدام ، لم يتعب يديه بحمل هدية . الله يرحمك يا أباي ، لو كان الحاج كرم أبانا ، لحنقنا وحنق رجالنا ، وطردنا من البيت لنعيش مع الكلاب .
- فقالت ثريا لتنهى ذلك الحديث :
- الله يرحم الجميع .
- وكأنما ساء زهيرة أن يعلق ذلك الموضوع ، فقالت :
- ستلد صفية ولدا ، فهي لا تلد إلا أولادا .
- فقالت زينب في تأكيد :
- بل ستلد بنتا ، فهي مثل أمها : ولدت بنتا وثلاثة أولاد ثم بنتا .
- فقالت ثريا :
- ليس من المحتم أن تكون البنت كأماها في الخلفة .
- فقالت زينب تدافع عن رأيها :
- غالبا ما يحدث ذلك ، فهاهي ذى عزيزة كأماها ، جاءت بولدين ثم أعقبتهم بالبنت .
- فقالت زهيرة لتوجه دفة الحديث إلى صفية :
- ولكن صفية ستلد هذه المرة ولدا .
- فقالت عزيزة في ضيق :

— ولد . . . بنت . . . يستويان . لا ينتظرهما إلا الفقر والعذاب .

فقال ثريا وهي تنو إلى عزيزة :

— من مصلحتك أن تكون خلفتها أولادا .

فقال عزيزة في فزع :

— من مصلحتي ؟ لماذا ؟

— ليتزوج أولادها بناتك .

فقال عزيزة في استخفاف :

— يا وكسة ؟ تمى لبناتى غير هذا ، أكتب عليهن الفقر الأزلى ؟

وسمع وقع أقدام في الدرج ، نخت زهيرة تنظر ، فألفت عائشة صاعدة ،
فهرعت تسبقها ، لتتظاهر بأنها في عون صفية ، حتى لا تحرم من عبارات الشكر
والثناء ، التي ترضى مشاعرها . وأطلت زينب ، فلما وقع بصرها على الصاعدة
هست :

— البرنسية .

فأسرعت النسوة لاستقبالها ، وتقدمت عزيزة منها تصافحها في ترحيب ، وتقول :

— تفضلى استريحى قليلا ، أهلا وسهلا .

كان ترحيبها متكلفا ، فراحت الألفاظ تتعثر في فمها ، كان عسيرا عليها أن
تنطق كلمات مهذبة ، وخشيت أخواتها أن تطول الوقفة فيفلت لسانها ، فأسرعن
يتبادلن مع عائشة عبارات الترحيب والمجاملة .

دأبت عائشة إلى شقة ابنتها ، وكانت نظيفة مرتبة على الرغم من بساطة أثاثها ،
لا تتفق مع الحرارة الضيقة التي انتشرت فيها أكوام القاذورات ، والمستنقعات
المتخلعة من الماء القذر الذي يلقي به من النوافذ والشبابيك ، ولا تتناسب مع
القوضى المنتشرة في أرجاء البيت .

ووضعت صفية وليدها ، ونظرت زهيرة إلى أخواتها نظرة متحدية ، كأنما

تقول لهن ألم أقل لكن ؟ والتفتت ثريا إلى عائشة وقالت :

— مبارك ، يترجى في عزكم !

وقالت زينب :

— سموه كرما .

فقال عائشة في بساطة :

— كنا نحسبه بنتا ، فاتفقنا على تسميته جليلة ، ولكنه جاء ولدا .

فقال ثريا :

— سموه جلالا .

فقال عائشة :

— على بركة الله .

وهبطت النسوة إلى طبقتين ، واجتمعن ينتقدن ما حدث في الولادة ، ويسلقن عائشة بالسنتهن ، لأنها لم تمنح القابلة بالمولود إلابالا ، ولم تظهر فاطمة ، فقد كانت في غرفتها مطرقة ، حزينة على زوجها ، وما كان لحزينة أن تحضر ولادة ، ففي حضورها إداة لها بأنها لم تعرف للمرحوم قدرا !

١٦

غصت الإسكندرية بالجنود الزنوج والإفريقيين والأسترايين والهنود ورجال البحرية البريطانية ، فقد اندلع لهيب الحرب بين ألمانيا والحلفاء ، وترنحت المدينة من حوادث السلب والنهب والشفب والاستفزاز ، حتى إن أغلب الناس كانوا إذا أمسى المساء ، قروا في بيوتهم ، ليأمنوا الاعتداء .

وأقبل الليل موحشا ، مغرقا في الوحشة . كانت ليلة اختفت فيها مصابيح السماء ، وعجزت مصابيح الأرض أن تبدد جحافل الظلام ، وصنرت الرياح وتجاوب صفيحها كهويل الذئاب ، فأغلقت النوافذ ، وساد السكون ، وارتجى الناس في أحضان الكرى ، ولكن أهل ذلك البيت اليقظان في الليل والنهار ، لم تعرف عيونهم النوم ، فعلى وحسان وإسماعيل والثيران يتأهبون للخروج ، ونساؤهم ينتظرن انصرافهم للاجتماع حول موقد ، والأخذ في القيل والقال .

وكرر وقع الأقدام في الدرج ، وسمع صوت انفتاح الباب الخارجى وإغلاقه أكثر من مرة ، وهبط على ومر على أمه قبل أن يغادر الدار ، فلما رأته قالت له في حنان : — ألا تمكث بين أولادك في هذه الأيام ، فالإنجليز أناس أذال .

فقال لها يطمئنها :

— ما لنا وما لهم ؟ إننا نجلس في المقهى بعيدا عنهم .
— البعد عنهم غنيمة ، إذا شربوا ارتكبوا كل الحماقات ، لا أنسى الأيام
السود التي دخلوا فيها علينا ، كانوا وحوشا غلاظ الأكباد .
وشردت فاطمة ببصرها ، وانعكس على وجهها أثر الذكريات ، فتجمد جبينها ،
وضاقت عينها في انفعال ، وأراد على أن ينزل بسدرها الطمأنينة ، فقال لها :
— إننا نسهر في مقهى في الحى ، ونتحاشى الشوارع التي يسرون فيها .
وانصرف على إلى رفاقه يلعب بالنرد ، ويتحدث ويصفى إلى الأحاديث الدائرة ،
وتصرم الوقت ، ووافى سعاد الانصراف ، وإذا بأربعة جنود طوال ، بيض
الوجوه ، صفر الشهور ، تملن ضخامة أجسامهم أنهم من الأستراليين الشداد ، يدفعون
إلى المقهى ، ويتجهون إلى الحوان الجالس عليه طى ورفاقه ، فما عاد فيها سواهم ،
ونظروا إليهم شزرا ، خفقت القلوب رهبة في الصدور ، وتخلخلت الفواصل ،
وقال الجنود في لمجة آمرة : « هاثوا ما معكم » . وفهم الرجال ما ينفون ، وإن
كانوا لا يفقهون ما ينطقون ، فزادت القلوب خفقانا ، واستولى الدعر عليهم ،
وخجل كل منهم أن يمد يده في جيبه ، ليخرج ما به ، خوفا من أن يصبح مسخرة
أصدقائه في الليلة المقبلة ، فترثوا ، فضاق الجنود بجمودهم ، وتقدم أحدهم نحو على
ومد يده في جيبه ، ليخرج ما به ، ففار الدم في عروقه ، وساءه أن يختاره القدر ليكون
محور الأحاديث والنوادر ، ومركب الغمزات والتهكمات ، فدفع الجندي عنه
في حدة ، فثار الجنود لتلك الجرأة ، ولكم أحدهم لكمة أطارت صوابه ، فهاج
وأقلت زمام أمره من يده ، فهجم على من لكمه وأخذ بتلابيبه ، وحاول أن يخنقه
بثيابه ، فخف الآخرون لنجدة زميلهم ، فرأى رفاق على انشغال الجنود عنهم ،
فولوا هاربين ، لا يلوون على شيء .
سددت الضربات إلى على ، ولكن يديه لم تتراخيا عن عنق ذلك الجندي
الذى أمسك به ، وسال الدم من أنفه وانثبق من جبينه ، وانحدر إلى عينيه
فلم يعد يرى شيئا ، وأحس رغبة في أن يمسح دمه عن بصره ، فدفع الجندي الذى
كان بين يديه بكل قوته ، وسرعان ما بلغ أذنيه صوت ارتطامه بالأرض ، ورفع
ذراعه ، ومسح دمه في كفه ، فأنجابت الغشاوة عن عينيه ، ورأى بالقرب منه كرميا
فانقضت يده عليه انقضاض نسر على فريسته ، وما هى إلا برهة حتى كان يطوحه
في الهواء ويهوى به على رؤوس أولئك الذين صوبوا إليه لكمت قاسية ترنح لها .

رأى الجنود الكرسي وهو يرتفع ليهوى عليهم ، ثم يرتفع ليتحطم على رؤوسهم ،
ففرعوا ، فتقدم على ليشق لنفسه طريقا ، فحسبوه يتبعهم ليقضى عليهم ، ففرقوا ،
وامتدحروا تقدمه ، حتى إذا بلغ باب المقهى قذف الكرسي في وجوههم ، ثم لاذ بالفرار .
انطلق خائفا يترقب ، كلما مس أذنيه حفيف ثوبه تلفت ، كان يخشى أن يتبعوه
ليجهزوا عليه ، فأخذ السير ، خافق القلب مضطربا ، ولم يفرخ روعه حتى دلف
إلى الحارة ، فوقف تحت مصباح من المصابيح المعلقة على أبواب الدور يسمح دماؤه ،
ويلتقط أنفاسه .

وبلغ مسامحه وقع أقدام ، فنظر ، وتفرس في القادم ، ثم هتف :
— حسان .

فأقبل حسان نحوه ، فلما وقع بصره على ثيابه المملوطة بالدماء ، قال ملهوا :
— ما هذا ؟ ماذا جرى ؟

فقال على وهو يحاول أن يخفف دمه بطرف ثوبه :
— تحرش الإنجليز بنا :

فقال حسان وهو يخرج منديله من جيبه :

— أنذال دائما ، نعم في الممارك ، وأسود هنا .

وراح يماون أخاه على ضمد جرحه ، وقد ثارت ثأرته ، فأخذت الكلمات
تندفق حارة من فمه :

— ليس لنا أن نسكت على هؤلاء الأوغاد ، سلبونا حريتنا ، وكموا أفواهنا ،
وسرقوا أوقاتنا ، فلماذا نستكين لهم ، يجب أن نثور في وجوههم ، أن نصرخ
بهم أن يخرجوا من ديارنا ، أن نشن عليهم حربا لا هوادة فيها ولا رحمة ، فلن
يجأوا عنا إلا إذا رويننا الأرض بدمائهم النجسة .

فقال على في مرارة :

— لو ثرنا عليهم الآن أبادونا ، ماذا يفعل الأعزل أمام الحديد والنار ؟ !

فقال حسان في حماسة :

— يفعل كثيرا ، ولكننا استكننا للهوان . والله لو سنحت لي فرصة لحربهم

فلن أدعها تفلت من يدي ، فلا يعلم إلا الله مقدار حقدى على هؤلاء الأوغاد .
وانطلق الأخوان إلى الدار ، وقد شغل كل منهما عن الآخر بما يدور
في خلده ، كان على يفكر فيما يقوله لصفية ، ليهون عليها الأمر ، وكان حسان
مطرقا ، يفكر فيما يفعله لقتال هؤلاء الذين يكرههم كراهه للموت .

١٧

دخل إسماعيل على فاطمة وحياها وجلس ، كما هم بالحديث انعقد لسانه ،
فبان الحيرة في وجهه ، ورنث إليه فاطمة ، ففطنت إلى اضطرابه ، وإلى رغبته
في أن يفضى إليها بشيء ، ولكنه لا يجد لسانه ، وذكرها ذلك القلق والإطراق
بين لحظة وأخرى ، بتلك الأيام التي كان يهبط فيها إلى زوجها يسأله نقودا ، حتى
إذا أخذها أنفقها على الأفيون والحشيش ، فانداحت في صدرها سحابة أسي
للذكرى ، كانت تنور في تلك الأيام كلما رآته يمد يده ليأخذ من يونس ما يطلبه ،
وهو يعد برد ما أخذ ، فيا ليت تلك الأيام دامت .

وهت بأن تسأله عما يود أن يفضى به إليها ، ولكنها خشيت أن يلتبس
منها نقودا ، وليس عندها منها شيء ، فلو كانت تملك ما يلتبس به ، لأعطته عن
طيب خاطر ، إرضاء ليونس في قبره ، فما كان يغضبه أن يمنحه ما يطلب ، ولكن
نضب المال في يدها بعد موت زوجها ، فرأت أن تظل في صمتها ، لعله ينصرف
دون أن يشكأ جرح نفسها .

وتعلم إسماعيل في جلسته ، وفتح فمه ، ولكن حبس صوته ، فلاح في وجهه
حنقه على نفسه ، وتيقن أنه ضحك عن أن يفضى إليها بما جاء به ، فقام وانسل
من الغرفة ، وراح يصعد في الدرج مهرولا ، لينبئ زوجته بالخبر الذي ضاق به
صدره ، وجبن أن يحمله إلى فاطمة .

دلف إلى الغرفة كالعاصفة ، وما إن وقعت عيناه على زوجها حتى قال :

— عزيزة ، ذهب حسان لقتال الإنجليز ، ركب المركب ولم يلتفت إلى
توسلاتي ، ذهب . .

ولم تحتمل عزيزة هذره ، فصاحت به :

— أفق يا رجل ، والله لن ترجع عن الحشيش حتى يطير برج من رأسك .
فدنا منها وهو يؤكد حديثه :

— ركب حسان وسافر ليحارب الإنجليز ، لقد رأيته . .

ولم تستطع صبرا حتى يتم حديثه ، فصاحت :

— يوه . . يوه . . الله يلعن الحشيش ومن زرعه ، جننت ولن تدعى
حتى أجن .

وهرعت أخواتها إليها يستفسرن عما حدث ، فقالت عزيزة لهن :

— كتمت قطعة أفيون أنفاسه ، فراح يخرف ؛ حسان سافر . . حسان

ركب المركب ، حسان ذهب يحارب الإنجليز .

وهبط على ليرى سبب ذلك الهياج الذي ساد بين أخواته ، فصك أذنيه

حديث عزيزة ، فانقبض ، واتجه إلى إسماعيل يسأله في لهفة :

— ماذا فعل حسان ؟

فراح يروى ما حدث ، وهو يلتفت إلى زوجه الفينة بعد الفينة :

— قابلت حسان في الصباح وهو يهرول صوب الميناء ، فسألته عن وجهته .

فأخبرني أنه وجد مركبا يحمله إلى إسطنبول ، وأنه مسافر اليوم لينضم إلى الجيش

التركي لمحاربة الإنجليز ، فحاولت أن أثنيه عن عزمه ، ولكن أخفقت كل محاولاتي ،

سألته أن يبقى من أجل أمه الحزينة ، ومن أجل أخواته ، ومن أجلنا ، ولكنه

أخبرني أنه على يقين من أنه لن يغيب عن مصر طويلا ، إن هي إلا شهور حتى

يدخلها مع الجيش التركي المظفر .

لم أشأ أن أتركه فذهبت إلى الميناء ، أتوسل إليه أن يرجع عن عزمه ،

ولكنه تركني ومضى إلى المركب ، ووقفت أنظر وكأنما تسمرت قدمي ، وذهلت

عن كل شيء إلا عنه ، فراحت عيناى تجولان بين الواقفين على ظهر المركب ،

ولكنهما لم تقعا عليه ، وأخيرا رأيته يلوح لى بمنديله ، والمركب يتبعد عن الميناء ،

وغاب عن بصري ، فسالت دموعي ؛ بكيت أنا الذي لم تعرف عيناى البكاء .

فيمغم على في أسي :

— فعلها حسان ، ذهب لقتال الإنجليز ، ذهب يحارب الأوغاد .

وأجهشت النسوة بالبكاء ، ورفعت زهيرة صوتها لتوحى إلى علي أنها أكثر
حنانا من أخواتها ، فقال لها علي :

— ماذا يعدي البكاء ؟ ليس لنا إلا الصبر .

وكأنما كان ذلك حافزا لها على الانقياد ، فصاحت :

— مسكينة يا أمي ، عاذك الزمان .

فهمس علي :

— مسكينة يا أمي ، اللهم أطمعها الصبر .

وكاد لسان عزيزة يفلت ، فتسب الإنجليز أقذع صباب ، ثم تردف بسب
حسان ، وما فعله حسان ، ولكنها كبحت زمام لسانها في جهد ، كانت تهاب
عليها ، وتتحاشى أن تزل أمامه .

وهبط على في الدرج في خطوات ثقيلة ، كان ذهنه يعمل ليفضي إلى أمه
بالنبا الفاجع ، دون أن يزلها ، إنه لمسير عليه أن يخبرها أن ابنها ذهب ولا أحد
يدري متى يعود .

جلس إلى أمه صامتا ، وإن كان وجهه يهبر عن الأساة ، ونطقت ملامحه
بكل شيء ، فانقبض قلبها ، واستشمرت ما جرى قبل أن تتحرك شفاته ، فقالت
في رعب :

— تكلم ، ماذا تخفون عني ؟

فقال وهو مطرق :

— صافر حسان .

— إلى أين ؟

— إلى إسطنبول .

— لماذا ؟

— ليحارب الإنجليز مع الأتراك .

وراح يقص عليها القصة ، وهي واجدة ، تحس نارا تتأجج بين ضلوعها ،
وجمدت عيناها ، وزادت نار جوفها اضطراما ، وشعرت بإحساسات الأسى تمور
في صدرها ، حتى كادت تكتم أنفاسها ، وأخيرا جادت مقلتها بالدموع ، فانهمرت
تطفيء اللهيب اللندلع في أحشائها ، وراحت تولول ، لتنفس عن كربها :

— ابني . . ابني . ابني حسان .

١٨

الغرفة التي اختارها يونس بعيدة عن المارة ليجتمعوا فيها في العصر وفي الأمسية حتى لا تتجاوز أصواتهم الجدران ، وتقرع أذان السارين في الغدو والآصال ، غارقة في الصمت ، ففأطمة مطرقة ساهمة ، يعكس وجهها الأسمر أعمق آيات الأسى ، فقد سدد القدر إلى قلبها سهمين ، مات يونس ، وكان الشعاع الذي ينير حياتها ، وسافر حسان ولم يرحم شيخوختها ، فزاد جراحات الفؤاد .

وصمت على احترامها لصمت أمه ، وكلما هم بالحديث طالعتهم ملامحها الحزينة ، فتنشرب في جوفه مشاعر الأسى والإشفاق ، فيحبس لسانه عن الكلام ، ويلج في الصمت ، ويدبر في المكان عينيه في اضطراب .

وضاقت النسوة بذلك السكون الجاثم على المسكان ، فما كانت عزيزة بقادرة على أن تكبح شهوة الكلام ، فلسانها دائم النبض ، حتى في نومها تتحدث في الأحلام ، فلسانها وقلبها يشتركان في دوام الدق ما دام في الجسد حياة ، وما كانت زهيرة تحتمل العيش دون أن تصفى إلى فواجع الناس ، وإلى أخواتها يخضن في أعراضهم ، ويلعن آباءهم وجدودهم ، وهي متلذذة تبدى التقزز والاستياء ، فرأت أن تخرجهم من ذلك الصمت البغيض إلى نفوسهم ، فقالت :
— مسكينة فوقية ، إنها تستحق العطف والرثاء .

وصمتت ولم تزد على ذلك حرفاً ، وأرهفت السمع ، فقد كان ذلك كافياً لأن يطلق الألسنة من عقالها ، فقالت عزيزة في ثورة :
— آه يا ناري لو كنت رجلاً لشربت من دمه .

فصكت عبارتها أذني على ، فأغارها سمعه ، واستمرت في حديثها :

— الرجل الخائن الدون ، يتركها بعد عشرة طويلة من أجل بنت حقيرة ترددت عليه ، أربعون يوماً مرت من غير أن يدخل عليها يوماً ، أو يرسل إليها ماتنفقه ، مسكينة ، كيف تعيش هي وأولادها الخمسة من غير نفقة ، هذا الرجل الدون يستحق الحرق آه . . لو كان الأمر بيدي لشنقته .
ولاحظت اهتمام على بحديثها ، فقالت له :

— لو رأيت دموعها وهي تقص نكبتها لحزنت ، فنتت دموعها كبدي ،
ولو كنت قادرة على أن أفعل لها شيئا ما ترددت .

فسألها على في اهتمام :

— وأين أهلها ؟

فقال عزيزة في حيرة :

— لو كان لها رجال ما فعل معها ذلك ، مسكينة . . إنها وحيدة . . قطعت
من شجرة .

وتحركت نحوته فقال :

— أنا له ، والله لن أدعه حتى يعود إلى بيته ، أو ينفق عليه .

وهب واقفا ، لم يحتمل البقاء ، وتحرك صوب الباب ، ولكنه تذكر أنه
لا يعرف الرجل ولا يعرف مقر عمله ، فتوقف يستمسر ، حتى إذا ألم بما يريد ،
انطلق هائلا ، وزهيرة تقول له في نفاق :

— ما لنا وللناس ، ان تجنى من عتابه إلا تكبير دمك .

ولم تكن صادقة في قولها ، كانت في قرارها تشتهي أن يذهب إلى الرجل
ويستد معه ، لا حبا في فورية وإنصافها ، فما كانت تحب أحدا ، وإن تظاهرت
بالحب للجميع ، بل ليكثر في البيت القليل والقال ، الذي يسعدها أن تصفى
إليه وتشهيه .

وذهب إلى الرجل ، وما نظر إليه حتى ازدراه ، فقد رآه من خلال أقواله
عزيزة ، رجلا دنيئا ، يترك أولاده بلا طعام ولا عطف أربعين يوما ، من أجل
بنت حقيرة ، فقال له :

— ليس من الشهامة أن تترك زوجك وأولادك أربعين يوما ، لا يجدون
ما ينفقون ، وأنت تبذر مالك على بنت قدرة .

أخذ الرجل ، فرمقه في دهش ، فما دار بخلفه أن يجبهه أحد بمثل ذلك الحديث ،
فتريث قليلا ، حتى إذا خفت حدة المفاجأة ، قال في إنكار :

— وما دخلك أنت بشئوني ؟

يوهن ذلك الاعتراض من إصراره ، فقال :

— لو كنت أمانة على أهلك ، ما تدخل أحد بيتك وبينهم ، ولكنك أسأت إلى الأمانة التي وضعها الله في عنقك ، فحق على الناس أن يقوموا معوجك .

فرنا إليه الرجل في حنق ، وقال له :

— من أنت ؟ وماذا تريد ؟

فقال على وهو يرميه بنظرة احتقار :

— أريد أن تعود إلى زوجك وأولادك .

— وما شأنك ؟ وما صلتك بزوجتي ؟ أبوها ؟ أخوها ؟

— حز في نفسي ما تلاقيه من ظلم على يدك .

— ومن أقامك قاضيا بين الناس ؟

— لن ألتفت إلى اعتراضاتك ، ولا بد أن تعود إلى بيتك ، أو تنفق عليه .

— لن أفعل شيئا من ذلك إكراما لك .

— هجرتها وأسأت إليها وأذلتها لأنك عرفت أنها مقطوعة ، ليس لها رجال ،

ولكني لن أدعك تسيء إليها بعد الآن .

فقال الرجل في غضب :

— وماذا تقدر أن تفعله أنت ؟

فقال على في هدوء :

— أقاضيك .

فنفذ صبر الرجل ، واستولى عليه غضب شديد ، فقال وهو يدفع ذراعيه

أمامه في حدة :

— افعل ما تريد .

فقال على وهو يدور على عقبيه :

— سترغمك المحكمة على أن تدفع نفقة لزوجك وأولادك .

وانطلق وقد عزم على أن يقاضى الرجل ، ومد يده في جيبه بعد ما معه

من نقود ، فلم يجد منها ما يكفي ليدفعه عربونا لحام يتولى الدعوى ، فذهب

إلى صديق من أصدقائه فاستدان منه ، ثم عيم وجهه شطر محام يعرفه ، وما خرج

من عنده حتى كان خالي الوفاة رتاح الضمير ، فقد أرضى نزعة الشهامة

في نفسه ، وهي التي تدفعه إلى وف في وجه انطعيان ونجدة الملهوف .

كان الليل يهيج أشجانها ، فوق أقدام الثيران في الدرج ، وتصفيق الباب الخارجي خلف كل من يفادره ، يذكرها بحسان ، إنها تدخل إلى فراشها وتحاول أن تهرب من الواقع الأليم الذي يخز روحها ، ويعتصر قلبها ، بالاستسلام إلى الكرى ، ولكن النوم ما كان يحنو عليها ، ويطوف بها ، بل كان يمن في الصد ، ويتركها فريسة لأفكارها .

كانت تقف في الشباك تمد بصرها في الحارة ، تحاول أن تخترق حجب المجهول ، الذي يمثل لها في طيات الظلام المتراكمة ، وكان خيالها يمدّها بالأوهام ، فإذا مس أذنبا وقع أقدام ، أو خفيف ثوب ، أو مرور النسيم ، أقنعها وهما أن القادم حسان ، فيرفرف قلبها في صدرها ، وينتابها قلق يسرى معه أمل ، وترهف حواسها ، وما تبين عيناها حقيقة القادم في الحارة ، حتى يذوب الأمل ، وتتبخّر الأحلام ، وينزل اليأس المريع بفؤادها ، ويأليتها استراحت إلى اليأس ، فما أسرع أن يفر إذا لاحت في خيالها بارقة كاذبة من أمل خداع ، ما تلبث أن تخبوا ليعود اليأس إلى جوفها ، كانت مطية ذلولا لأملها وجزعها ، وكانت تذوب من وهج إحساساتها ، كما تذوب الشمعة من طيب نارها .

وضاقت بوقفتها في شباكها كل ليلة تنتظره ، إنه لم يخرج من الحارة إلى صديق من أصدقائه غاب عنه ، أو إلى جلسة في نادي الحزب طالت ، ولكنه ركب البحر وسافر ، ولن يعود إليها إلا إذا لفظه البحر كما ابتلعه ، فأحست رغبة في أن تتطلع إلى البحر الذي حمله ، تذرف دموعها على الداهب الذي قسا قلبه .

واستبدت تلك الرغبة بها ، فتحرّكت ترقى في الدرج واهنة مطرقة ، وقد انتشرت بين ضلوعها مشاعر غريبة ؛ أحست ما تحسه الشكى وهي ذاهبة إلى قبر ابنها أول مرة ، فأوجست خيفة من إحساساتها وتطيرت ، وكادت تنكص على عقبها ، وتعود إلى حجرتها ، تذرف دموعها ، ولكن رغبة التطلع إلى البحر غلبتها ، فاستمرت في صعودها .

ودلفت إلى سطح البيت ، وتلفتت حولها . . . كان الليل خاشعا ، والسماء صافية الزرقة منجمة بنجوم فضية ، والبحر ساجيا داكن الزرقة خائبا ، فتفجرت ينايع الأسى في جوفها .

قلبت وجهها في السماء في انكسار ، ومدت بصرها إلى البحر في ذلة ورجاء ، ولم تتحرك شفاتها ، وإن أحست أن كل خالجة فيها تناجى السكون في خشوع ، وتتوسل إلى البحر في خضوع ، وتبتهل إلى الله في حرارة وصدق ، أن يرحم ضعفها ، ويسيد إليها ابنها .

وشمرت صفية بصعورها إلى السطح ، فزرت أنها فرت من حزنها ، وأنها أرادت أن تنفس عن كربها ، خفت إليها تواسيها في محنتها ، وتشد أزرها . وجدتتها تنو إلى البحر واجمة ، وقد لاح في وجهها الأسى ، فتحركت عواطفها ، ووقفت برهة تنظر ، لا تقوى على أن تفتحم عليها محراب صحتها ، ثم تقدمت إليها في خفة ، وقالت في إشفاق :

— ارحمى نفسك .

فالتفت إليها فاطمة ، وقد ترقرق الدمع في مقلتها ، فقالت لها صفية :

— سيعود . . سيعود يوما .

فانهمرت عبراتها على خديها ، ولم تنبس بكلمة ، فازدادت صفية منها قربا وقالت :

— قلبي يحدثني أنه سيعود . . ليس لنا إلا الصبر .

فقالت فاطمة وهي تشرق بدموعها :

— لو مات أمام عيني لعرفت له قبرا أزوره ، أما الآن فلا أدري ماذا مصيره : أحى أرجوه ، أم ميت أبكيه .

فعادت صفية تكرر أمانها ، فقالت :

— سيعود . . سيعود يوما .

ولفت ذراعها حولها في حنان ، وراحت تعيدها إلى غرفتها ، فانفجرت فاطمة باكية :

— ابني . . آه يا حسان .

٢٥

لم تقفر الحارة من الصبيان ، فما غربت الشمس بعد ، بل كانت تنثر فلولها هنا وهناك ، فبدأ الضياء في الحربة وعلى الجدران كرقع بيض في ثوب أغبر . وأقبل إسماعيل ينظر من بين أشدابه الثقيلة ، فلاحته الحارة لمينيه في هيئة قشبية ، رأى الحربة وقد كسيت بسندس أخضر ، والمعير ترعى فيها ، وقد وهب لها خياله ريشا أشبه بريش الببغاوات ، ثمهل قليلا ينعن النظر في إعجاب في الشاهد الفريدة !

واعترضت طريقه حفرة صغيرة ملئت ماء ، ولكنه رآها بحرا هائلا ، فوقف برهة يفكر فيما يفعله ، ليجتاز اللجة إلى داره ، ثم راح يدور حولها في حذر ، حتى لا يغرق فيها ، فلما تجاوزها تنفس في راحة واستأنف سيره .

وبلغ باب البيت ، فألقى حليلة جالسة ، وأمامها ذلك القفص الذي تصف فوقه الخاوي ، خيل له وهمه أن القفص يسد الباب ، فالتفت إلى حليلة وقال لها : — أبعدى قفصك حتى أدخل .

رمقته حليلة بنظرة خاطفة ، ولم تعترض ، بل زحزحت قفصها ، وتقدم يصعد في السرج على حذر ، وما صعد بضع درجات حتى وقعت عيناه على رجل يهبط ، وقد حمل على رأسه أواني من نحاس ، فمشت إلى ذهنه فكرة : أن ذلك الرجل قد سرق النحاس ، فعليه أن يقبض عليه .

وهم بأن يتقدم إليه ليمسك به ، ولكنه استولى الجبن عليه ، وصور له وهمه أن الرجل سيضربه بالنحاس إذا اعترض سبيله ، ويمر على جسده ، فسرت فيه قشعريرة ، وفر من أمامه مرعوبا ، حتى إذا بلغ حليلة ، راح يقول لها في لهفة :

— صوتي . . . صوتي يا حليلة .

نظرت إليه في دهشة ، ثم قالت :

— لماذا ؟

— سرق الرجل النحاس . صوتي حتى يقبل الرجال ، ويقبضوا عليه .

وجلجل في الحارة صوت حليلة ، خفف إليها الناس ، وما إن رآهم إسماعيل
حتى راح يشير صوب البيت ويصيح :
— أمسكوه . . أمسكوه .
وارتفعت أصوات تستفسر :
— من ؟ . . من ؟
فيقول إسماعيل وهو يخفي خلف الناس
— سارق النحاس .

وبلغ الرجل الطريق ، وأوانى النحاس فوق رأسه ، وخفف الناس إليه
يقبضون عليه ، والرجل يتلفت مذهولا ، لا يدري لجمهرة الناس سببا ، وهبط
على من الدار ، وماجت الحارة ، وتطايرت الأسئلة من الأفواه ، ثم اتضح
أن الرجل لم يسرق النحاس ، بل أخذه ليبيضه ، فتقاص الزحام ، وانسل إسماعيل
مطأطئ الرأس ، وصعد في الدرج ، ووقفت زوجته تستقبله بالصياح :
— يا عار الرجال ! يا وكسني ! يا شماتة الأعداء ! الله يلعن الحشيش
ومن زرعه .

وظلت عزيزة في صياحها ، تقذفه بالسباب وهو هادئ ، ترف على شفتيه
ابتسامة ، كأنما يناغى أذنيه عبارات المدح والثناء ، ووجد أهل الدار مادة
للتندر والحديث ، فأخذوا يعيدون ما حدث وهم يضحكون ، إلا عليا فإنه قر في
حجرتة لا ينبس بكلمة .

حزرت صفية أن زوجها مهموم ، فما كان على يطيق السكون ، فأية حادثة
أنفخ مما وقعت تحرك روح المرح فيه ، فبأخذ في التعليق عليها ، والتندر بنظرها ؛
ولكنه اليوم يعين في الإطراق ، ففي رأسه أفكار تشغله عما يدور حوله من
مفارقات ، فرأت أن تشاطره آلامه ، فدنت منه وقالت في رقة :
— ما الذي يشغلك هذه الأيام ؟ أراك كثير الإطراق والتفكير .

فرنا إليها في ود ، وأحس راحة لسؤالها ؛ كان ينتظر أن تفتن إلى ما هو فيه ،
وأن تسأله عما أهمه ، فيبوح لها بمتاعبه ، فهو يشعر براحة كلما أفضى إليها بهوومه ،
فقال لها :

— اشتريت بضاعة كثيرة ، واستدنت ، وكنت على ثقة من ارتفاع الأسعار ،
ولكن السكساد استبد بالسوق ، وحل أجل الديون ، فحق على أن أسدد ما على
أو أعرض اسمي للعار . إننى لا أطيق أن يقال عني إننى أكلت أموال الناس ،
لا بد أن أدفع كل ما على .

فقلت له صفية في هدوء :

— وماذا تستطيع أن تفعل ؟

— أمتطع أن أبيع كل ما في الدكان بخسارة وأسدد ديوني .

فقلت له في ثبات :

— افعل .

فنظر إليها في تردد وقال :

— والأولاد ؟ لو كان الأمر يتعلق بى وبك لهان الخطاب .

فقلت في إيمان :

— ربنا موجود ، خلق رزقهم قبل أن يخلقهم .

وأحس على كائنا نسائم من الرحمة هبت عليه ، فسكنت الطمأنينة قلبه ؛
لم يعد المستقبل يبدو له غمضا كالألمة الجحيم ، فصفية تمسح بيدها جراحه
فتلتئم ، وتنفخ في روحه أمنا يعينه على أن يخوض غمار الحياة هادئ النفس ،
مستريح الضمير .

٢١

فاطمة مطرقة في جلستها ، ترعى في جوفها إحساسات الحزن العميق ، فحزنها
لا يبلى ، بل يتجدد كل ليلة ، كلما خرج الرجال وقفلوا إلى دورهم عائدين ، إلا حسان
فإنه لا يعود . مرت سنتان وهى قلقة ، لا تجد لها مستقرا ، لا تستطيع أن تلقى
بنفسها فى أحضان اليأس وتستريح ، ولا تستطيع أن تضرب طويلا في طريق
الرجاء ، فسرعان ما يبدد الواقع نور الأمل ، فتتردى في مهاوى الألم . صارت
عرتا الانفعالات المتضاربة ، فلاح في وجهها الأسمر أثر ما تقاسى من قلق .

كانت ترهف السمع ، خافقة القلب ، كلما تحدث أحد عن الحرب الدائرة ، فقد تجسست في مخيلتها وتمثلت في حسان ، إذا اشتدت وكثر عدد القتلى اغتمت ، فكل قتيل قتل فهو ابنها ، وكل جريح جرح فهو ابنها ، وكل أسير أسير فهو حسان ، ولا أحد غير حسان ، وإذا زعمت الأنباء أن الهدوء مخيم على ميدان القتال ، عشت الطمأنينة في جوفها ، فقد رفرف السلام فوق حسان ؛ كانت تعيش كريشة في مهب الأنباء ، لا تعرف لها قرارا .

ومس أذنيها وقع أقدام تقترب ، رفعت رأسها ، ونظرت في تطلع ، وتأهب فؤادها ليمدها بالانفصالات ، وتبينت القادم فإذا به علي ، جاء إليها يسامرها قبل أن يخرج ، فانبسطت أساريرها ، وهدأ قلبها ؛ كانت تحبه وتجد في حديثه العزاء . جلس إلى جوارها يحادثها وهي تصفى إليه ، واستمر ينتقل من حديث إلى حديث ، حتى إذا ما تحدث عن الحرب ، اتسعت عيناها وأرهفت منها الحواس ، فراح يقول :

— الجيوش التركية تقترب من قناة السويس ، وحسان قد انضمت إلى الجيش التركي ، وهو يزحف الآن مع الجيوش الزاحفة صوب مصر ، سيدخلها قريبا منتصرا ، ويتحقق حلمه ، فيا طالما فسكر في قتال الإنجليز وطردهم من مصر ، وها هو ذا أملة يوشك أن يتحقق . سينفتح باب البيت يوما ويدخل منه حسان ، منجده أمامنا فجأة ، كما ذهب فجأة .

وأحيا ذلك الحديث موات الأمل في قلب الأم ، فقالت والسموع تترقرق في مآقيها :

— متى هذا ؟

فقال علي في ثقة :

— عسى أن يكون قريبا ، أقرب مما نظن .

وطوى الحديث ، وغادرها ، وتركها وحدها لتصوراتها ، فراحت الرؤى العذاب تلح عليها ، كانت ترى الباب ينفتح عن حسان ، ثم يندفع صوبها ويرتمي في أحضانها وهو يغمغم : « أمي . . أمي » فتضمه إلى صدرها ، وهي تردد في حنان : « ابني . . ابني » ، وتخلط أنفاسها بأنفاسه ، وتمزج دموعها بدموعه ،

وكانت تفريق من تصوراتها فلا تجدد إلا الهواء الذي تغممه ، وعبراتها التي تنسكب على خديمها .

وتحركت مشاعر الحنان في جوفها ، وغذاها الأمل الذي بذره على في صدرها ، فأحست الحياة تدب في أوصالها ، فقامت إلى الشباك القريب من الحارة تنظر ، فكانت كلما مدت بصرها إلى شيء أحست أن ذلك الشيء يشاركها أملها ، حتى الحربة بدت ليعينها نابضة بالأمل .

ووقعت عينها على حليلة وهي قابضة في ذلة أمام باب البيت ، فأحست ميلا نحوها ، وخطر لها أن تدعوها تسامرها ، وتحركت عوامل الشفقة في صدرها ، فقد كانت مشاعر العطف تنبثق من يتابع الحنان التي تفجرت في فؤادها ، فراححت تهتف في صوت خافت :

— حليلة . . حليلة .

فرفعت حليلة رأسها ، تبحث عن يناديها ، فلما وقعت عينها على فاطمة ، بان فيهما شيء من الدهش ، فما دعته قبل الآن ، وتلاقت العيون ، فقالت فاطمة في رقة :

— حليلة . . اصعدى .

نهضت حليلة ، وراححت تصعد في الدرجات القليلة الفاصلة بين الشارع والطبقة الأولى ، حتى إذا بلغت فاطمة ، ألفتها تدعوها إلى الدخول ، فدلفت إلى الشقة ، ووقفت مترددة ، فدعتها فاطمة إلى الجاوس ، وراححت تجاذبها أطراف الحديث في رقة ، ثم قامت وعادت وفي يدها ثوب جديد من ثيابها ، قدمته إلى حليلة ، فأخذته وهي مأخوذة ، لا تدري أن قلب فاطمة اليوم يسع الدنيا جميعا .

٢٢

ألقى على العباء على زوجته ، فهو يخرج في الصباح يبحث عن رزقه ، ثم يعود إلى صفية ، ويضع في يدها بضعة القروش التي يكسبها ، ويدع لها تدبير أمر البيت بذلك الرزق الضحل ، الذي يحتفظ بجزء منه ينفقه في المقهى على نفسه وعلى أصحابه .

راحت صفية تدبر شئون بيتها في صبر ، تدبر أمر ملء البطون ، وأمر كسوة الأجساد ، وأمر الأولاد الذين يذهبون كل صباح إلى السكتاب . ومرت شهور وهي تكافح ، تحرم نفسها ، لتوسع على زوجها وأولادها ، وشعرت أنها مقبلة على أيام عجاف ، فاضطربت وركبها الهلم ، وإن تجللت أمام من في الدار ، وجاهدت أن تبدو سعيدة قانعة .

ومدت بصرها يوما تحاول أن ترى ما ينتظرها في مستقبلها القريب ، فألفت غيوما وضبابا ، فقد استراح على إلى حياته الجديدة ؛ يكسب قليلا ، وينام في النهار كثيرا ، ويسهر في الليل طويلا ، لا يقاسى ما تقاسيه من التفكير في أمر الأبناء . إنها تمضى سحابة يومها في تجهيز طعام يكفيه ، ويكفي تحية وزكريا وخالدا وجلالا ، وتمضى سواد ليلها في قص ثيابها لتحية ، وتغيير ثياب زكريا لتلائم خالدا ، وتدبير ملابس لجلال ، ثم التفكير فيما تفعله في نهارها لتشبع البطون المفتوحة للطعام . وهجمت عليها الأفكار السود ، فراحت تفكر فيما في بطنها ، إن هي إلا شهور حتى تضعه ، فينضم فم جديد إلى الأفواه الفاغرة ، فيزيد ذلك في متاعها ، ويلقى عليها عبثا جديدا ، ما أغناها عنه ؛ إنها تنوء بما تحمل ، قيات الله يريحها من ذلك الوافد الزاهدة هي فيه .

وراودتها فكرة التخلص منه ، فراح شيطانها يوسوس لها أن ألما زائلا ، خير من ألم دائم ، فما أيسر آلام الإجهاض ، إذا قيست بالوخز المستمر الذي تتحمله كلما وقع بصرها على ابن محروم . وفي ساعة من ساعات ضعفها استسلمت لوسواسها ، فنامت على بطنها ، ودعت خالدا ، وكان أثقل أولادها وزنا ، وأمرته أن يصعد فوق ظهرها ، وأن يأخذ في القفز .

ووقف خالد على ظهرها وراح يقفز ، كلما ارتفع في الهواء وهبط بثقله أسمعته
ألما يزل كيانها ، فتحرق نواجذها ، وتكتم أناتها التي لو انطلقت لأفزعت
ذلك المرتفع في الهواء الهابط على ظهر أمه ، وهو يحسب أنه يلهو ويعبت !
وبلغ منها الجهد ، وتصد العرق وسال ، فراحت تجمع البساط بين أصابعها
وتضغطه ، لعل ذلك يخفف بعض الألم الذي تقاسيه . ولكن أوجاعها
اشتدت ، فأمرت خالدا أن يكف عما هو فيه ، فهبط عن ظهرها وهو يحس تلك
النشوة التي يحسها الأولاد كلما انتهوا من ممارسة رياضة حبيبة إلى نفوسهم !
وجلست تنتظر لحظة الخلاص مما في بطنها . ولكن الجنين أبي أن ينزل
قبل أوانه ؟ كان له في الملهاة الخالدة دور يلعبه على مسرح الحياة ، وكان القدر
يضمه له آمالا وآلاما ، فما كانت هنالك قوة قادرة على أن تحذف شخصية من
الشخصيات التي رسمها المبدع الخلاق .

لم تكن حوادث المستقبل تكتمل ، لو أن ذلك الجنين أجهض ، وما كانت
الصورة التي لم ينشرها الزمن بعد تتضح ، لو اختصرت حياة ذلك الذي لم يشهد
النور ، كان النيب يعرف عنه كل شيء ، حتى الاسم الذي سيطلق عليه ، فقد
أدرج اسم « سعيد » ضمن أسماء ممثلي الملهاة .

وانجابت موجة اليأس التي غمرتها ، ففكرت فيما أقدمت عليه ، فانداحت
في جوفها رهبة ، أقدمت على عمل يفضب الله ، وهي التي تخشى غضبه ، فارتجفت
وزاد في خوفها ذلك السكون المسيطر في الليل البهيم ، وذلك النجم البادي
في رقعة السماء من شباك غرقها ، كانت تحس أنه ينو إليها في عتاب .

واستولى الندم على مشاعرهما ، ورأت أنها لا تملك إلا أن تستغفر الله عما
أقدمت عليه ، فرفعت رأسها ، وتطلعت من خلال النافذة إلى السماء في رجاء ،
ثم غمغمت في حرارة وصدق :

— ساعني يا رب .

٢٢

سقيفة عتيقة ذات باب ضخم مهتلل ، كانت في الليل حظيرة للخيل ، وفي النهار كتابا يلوذ به صبية الحى ، لتحصيل المعرفة والعلم .

أقبل السائس بكرة ، فلما انتهى من الخيل ، راح يزيل الروث ، ثم يفرش الحصير البالى على الأرض التى كان يربطها البول ، وترتع فيها الهوام والجنادب والحنافس ، فلما انتهى من تجهيز المسكن لاستقبال العلمان ، ووضع حصير الشيخ عند المذلف ، وقف فى ثيابه الرثة القذرة على باب السقيفة يرصد إقبال الشيخ ، حتى إذا لمح هرع إليه يعاونه على الجلوس فى صدر المسكن .

وتقاطر الصبيان فى جلابيهم الملونة المرصعة بآثار الطعام ، يعلقون فى أعناقهم ألواحاً من الصفيح كتب فيها بحبر أسود بعض آيات الكتاب الكريم ، ينتعانون نعلاً مزقتها يد الزمان ، ودمغها الفقر والحرمان ، كانت خير مرآة تعكس حالة الدور التى تسعى إليها فى العصر ، وتخرج منها فى الصباح .

وجاء خالد فى جلباب نظيف ، يتدلى اللوح على صدره ، وما وقعت عيناه على الكتاب حتى انقبض ، حاول أن يحفظ الآيات ، ولكنه أخفق ، فقد خائته ذاكرته ، فبات يوجس خيفة من الشيخ ، حتى راودته فكرة الهرب من الكتاب ، ولكن ظهور الشيخ فى قامته الطويلة الهيبة ، وجبته التى كانت ذات يوم سوداء قبل أن تذهب الشمس بلونها ، أطارت الفكرة من رأسه ، وجعلته يتسمر فى مكانه مرعوباً ، خشية أن يثبى « المصفور » بما خطر له .

وتقدم الشيخ ، وقد بدا من فتحة جيبه قفطان الخبط ، وحزامه المزركش ، يحمل فى يده اليسرى فى حرص ضرة يخشى أن يتشتم ما بها ، وفى يده اليمنى عصاه التى لانفارقه ، وما إن رآه الصبيان حتى تعلقت عيونهم به رهبة ، وساد المسكن صمت ، ففطن السائس إلى وصول الأستاذ ، فخف إليه يحبيه فى تملق ورياء .

وجلس الشيخ على حصيره ، وبسط الصرة أمامه ، فراح الذباب يتساقط على ما بها ، كانت قطعاً من الحاوى المتواضعة ، يبيعها الأولاد بأضعاف ثمنها ، وكان الصبيان يدفعون قروشهم فيها اتقاءً أذاه . هرعوا إليه يتنافسون فى الشراء ، يحاول

كل واحد منهم أن يعلن عن نفسه ، وأن يجذب نظر الشيخ إليه ، حتى إذا أخطأ في القراءة ، كان القرش الذي دفعه شفيها له .

وظل خالد بعيدا يفكر . خطر له أن يشتري منه اليوم فرارا مما ينتظره من ضرب ، إذا ما حانت ساعة تسميع القرآن ، ولكنه كان حريصا على قرشه ، يفضل ادخاره على إنفاقه ، فقهره طبعه ، وطرده ذلك الخاطر من ذهنه ، ووطن النفس على الصبر على الضرب ، فذلك خير عنده من العودة إلى الدار ، وقد طار قرشه في الهواء .

وقد الأولاد على الحصار يتسامرون ، ويتصايحون ، وهبطت العصفير من فتحة واسعة في السقف ، وأخذت تزقزق ، وتنتقل بين الكوات الكثيرة في الجدران ، فصارت السقيفة خلية نحل ، ولحق بعض الأولاد الحنافس في غدوها ورواحها ، فأمسكوها ، وغرسوا في ظهورها أعواد الثقاب ، ثم وضعوها في خفة على حصار الشيخ ، وانفلتوا هاربين ، وراحت الحنافس توج على جبة الشيخ ، والأولاد ينظرون ويتفامزون ويضحكون ، فأراد أن يشغلهم في شيء حتى ينتهي من عد الفلوس وحساب الأرباح ، فصاح فيهم ، وكان ينطق القاف جيا : — سنة أولى . (اجرأوا) الفاتحة بصوت عال . سنة ثانية (اجرأوا)

جدول الضرب ، فارتفعت أصوات فريق :

— بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . . .

وصاح الفريق الآخر في نفس الوقت :

— ١ × ١ ب ١ ، ١ × ٢ ب ٢

وجلجلت الأصوات وامتزجت كما تمتزج حمم البركان ، لتنتلق مدوية تصم الآذان ، وانتهى الشيخ من عد القروش وغيبها في صدره ، وأصلح الجبة والقفطان ، ثم تنحنح :

— (جف) .

خيم على المكان سكون عميق ، ونزلت الرهبة بالقلوب ، فقد كان ذلك إيذانا ببدء التسميع ، والبطش والتشكيل .

ونادى طفلا من الأطفال ، نغف إليه ، وجلس أمامه على الحصار ، فمد الشيخ يده ، وأسند رأس الغلام بكفه ، وقال :

— (إجراً) .

وبدأ الغلام في القراءة ، وراح الشيخ يهتز إلى الخلف وإلى الأمام ، وهو يجذب رأس الغلام معه ويبسطها ، فيهتز الانثان في توافق ، ويتحركان حركة المنشار ، فإذا أخطأ الصبي هوى بالعصا على يافوخه وهو يلصق أمه ويسب أباه ، دون أن يتوقف عن الحركة .

ولمح غلاماً يزحف خلف الحنافس ، فرفع رأسه ونظر إلى العصفير ، وفتح عيناً وأغمض اليسرى ، وقال :

— هيه ، ماذا يا عصفور ؟ ماذا يفعل مصطفى في البيت ؟ (جل) إني أسمعك . ويسمع الصبي الزاحف خلف الحنافس اسمه فيرتجف ، ويزيد اضطرابه عندما يصل إلى أذنيه صوت الشيخ الرهيب :

— تعال يا مصطفى .

فيذهب إليه مأخوذاً ، كأنما يجذب إلى مغناطيس ، فيقبض عليه بيده ثم يهوى بالعصا على أم رأسه ، وهو يصيح فيه :

— تب عهما تفعله في البيت ، لا تنكر . أخبرني العصفور بكل شيء . تب . وساد السقيفة صمت ، لا يكره إلا نسيج الطفل المضروب ، واستأنف الشيخ التسميع . واستمر الصبيان في قعود وقيام ، حتى إذا خالدا ذهب إليه ينتفض ، يكاد يسقط من الإعياء .

جلس أمامه ، وأسند رأسه إلى كفه في استسلام ، وراح يهتز معه وهو يرنو في فرع إلى العصا ، فتلعثم ثم أخطأ ، فهوى بالعصا على رأسه وهو يصوب له خطأ . واستأنف خالد التسميع ، ولكن سرعان ما أرتج عليه ، فعقد لسانه ، فثارت تأثرة الشيخ ، وراحت العصا ترتفع في الهواء تهوى على الصبي ، والشيخ يزجر :

— (أسجيه) لك ١٢ (أسجيه) لك يا بن ال . . .

وعاد خالد إلى مقعده يتلوى من الألم ، وانقضى النهار ، فانصرف الأولاد إلى بيوتهم ، لتأهب السقيفة لاستقبال الحيل ، ورجع خالد إلى بيته يحمل همه وآثار الضرب ، وما إن لمح أباه حتى انفجر باكياً ، وراح يقص عليه ما ناله على يد الشيخ .

تحرك الغضب في جوف علي ، وامتلأ حنقاً ، فضم خالد إلى صدره في حنان ، وأقسم :

— والله لأخفقن الشيخ « قرد » بشال عمامته .
وانتهى الليل ، ولم تهدأ ثورة على ضايقه أن يضرب ابنه مثل ذلك الضرب ،
فما إن طلع النهار حتى خرج يحد في السير إلى السكتاب .
رأى الشيخ في صدر الكان ، وفي يده عصاه ، فخرى الدم حارا في عروقه ،
ولم يشعر إلا وهو ينقض عليه ، يحاول أن يخنقه بشال عمامته ، فراح الشيخ
يصرخ ويستغيث ، وحدث اضطراب بين الأولاد ، وأسرع الجيران إلى الشيخ
يحاولون تخليصه .

ومست الكلمات الناعمة أذنى على ، فحركت المشاعر الطيبة في نفسه ، وما أيسر
أن تتحرك ، فترك الشيخ وقد مات غضبه ، وراح يعاتبه في رقة ، محاولا أن يمسح
أثر ما فعله به في سورة غضبه .

٢٤

تأهب على للخروج لبحث عن رزقه ورزق عياله ، وكان منقبض الصدر لذلك
الحارمان الخيم على البيت ؛ أصبح يقاسى شظف العيش ، ويرى زوجه تسكد تنوء
بما تحمل من هم ، وإن كانت تسكدح النهار في صمت ، وتسهر الليل في صبر ،
لتسد على قدر جهدها وموارد زوجها الضحلة حاجات الأولاد ، ولتبدو شفتها
نظيفة مستورة .

إنه يلمح في وجهه صفة آثار الجهد ، ولكنه لا يرى أثرا لاجئ ، فهو
مستسامة لما تأتي به المقادير ، وإن كانت تسكافع بكل ما فيها من عزم ، لتسد من
في البيت ، وإن كفاحها الصادق وصبرها الرزين ، واستسلامها المؤمن ، تحرك
كوا من شجنه ، ونفس مواطن إعجابه ، فتتأجج نار الحب في جوفه ، وترتفع
مكائنها في عينيه .

وفكر فيما يفعله ليعيد الرفاهية لهؤلاء الذين يحبهم ، فلم يهتد إلى شيء ؛ ضاق
رزقه ، وحالته فقره ، بعد أن ذابت تجارتها ، ولم يعد يملك إلا نصيبه في هذا البيت
الذي ورثه عن أبيه ؛ وفكر في أن يبيع حصته ، ولكن لم يدم تفكيره طويلا ،

فإنه باعها لأتفق ثمنها في أشهر معدودة ، ولأضاف إلى مشاعبه إيجار السكن الذي سيضطر إلى الانتقال إليه ، يوم يفرض في نصيبه .

وطافت برأسه أمنية شغل بها ، فلو أن ذلك الشارع الجديد الذي طالما سمع نبأه من أبيه اخترق الحى ، وأصبح هذا البيت على ناصيته ، لارتفعت قيمته ، ولأغراه ذلك ببيع نصيبه ، واستئناف تجارتها ، ولسكان في ذلك مفتاح السعادة لأهله . واستراح إلى تلك الأمنية ، فلج في التفكير فيها حتى نبت في جوفه أمل أدفا صدره ، وألقى على مستقبل حياته بصيصا من النور .

ورث فيما ورث عن أبيه حلم الشارع الجديد ، وإن تباينت الأهداف . كان يونس يرجو تنفيذ الشارع الجديد ليبرهن لزوجته أنه لم يكن قصير النظر يوم وضع كل مآذخره في ذلك البيت ، بينما كان على يرجو تنفيذ لبيع حصته ، ويحطم أغلال الفقر التي كبلته ، وليعيد إلى أهله السعادة والهناء .

وغادر على الدار وهو يحلق وراء أحلامه وأوهامه ، وترك صفية للواقع الأليم ، ليس معها إلا قروش قليلة ، لا تسد الحاجات الكثيرة الفاغرة فاتها لا تنال أصناف ما عندها من نفود ، فجلست إلى طست الغسيل تغسل ثياب الأولاد ، وتطلق لخيالها العنان ، ليرشدنها إلى تدبير أمر النداء ، فاهمها من دراهم قليلة يحتاج إنفاقه فيما يكفي السطون الكثيرة إلى تدبير عبقرى ، وكانت موهوبة في مثل ذلك التدبير .

وجهزت الطعام ، وكان أول ما فعلته أن بعثت إلى الجدة بخدائها ، وسجرت أظفاره لزوجها ، ووضعت باقية أمام أبنائها ، وتناولت رغيفا تسمح به الوعاء ، وكان ذلك طعامها .

وقال على بعد الغداء ، وهبط الأولاد إلى الحارة يلعبون ، وساد الشقة سكون ، ولكن صفية لم تهجع بل كانت تغدو وتروح . كانت تصلح ملابس أولادها ، تثبت الأزرار ، وتبدل المناديل . وتمسح الأحذية : كانت تقدر الترتيب ، وكانت تهتم بنظافة أبنائها .

ومالت الشمس المغيب ، وهى غارقة في أعمالها ، وفتح الباب ودخل زكريا

هادئا نحيلا ، ودنا منها ، وقدم إليها كيسا ، فأخذته وقد انقبض قلبها . وراى
إليه فاحمسة ، وقالت فى حدة :

— ما هذا ؟

فقال زكريا فى هدوء :

— كيس وجدته بجوار الجامع .

وفتحته وعدت ما به ، فإذا ثلاثة ريالات من فضة ، وإذا بمشاعر من الأسى
والقهر تنتشر فى صدرها ، تقاسى ما تقاسيه فى صبر من أجل أبنائها ، وإذا
بأحدهم يعود إليها بكيس لا تدرى من أين جاء به ، وخطر لها أنه سرقة ، فاسودت
الديا فى وجهها ، فصاحت فى حدة غضب :

— قل من أين جئت به ؟

فقال زكريا وقد تعلق عيناها بوجهها العابس .

— وجدته بجوار الجامع .

فلطمته فى خنق ، خيل إليها أنها ترى أملا من آملها ينهار أمام عينيها ،
وصاحت صيحة زلزلت زكريا :

— قل الصدق خير لك .

فقال زكريا ودموعه تطفر من مآقيه ، لامن ألم الضرب ، بل من حرقة
الاتهام الظالم :

— والله العظيم وجدته بجوار الجامع .

وانخرط زكريا فى البكاء ، وبلغ نسيجه مسامع على ، فهب من نومه ، وهرع
إليه ، فما كان قلبه يحتمل بكاء أحد أبنائه ، ولمح صفة تزجره ، فقال :

— ماذا جرى ؟

فقات صفة فى ثورة وهى ترفع الكيس بين أصابعها :

— سله من أين جاء بهذا ؟ يخرج ليلعب ، فيعود بثلاثة ريالات .

أحس على كأن يدا قوية تعتصر قلبه ، خيل إليه أن زوجه تيقنت من فعلة
ابنه السكراء ، فدنا منه ، وقال له فى صوت خافت يتم عما فى جوفه من قلق :

— قل لى : من أين جئت بهذا الكيس ؟

فقال زكريا فى حرارة :

— والله العظيم وجدته بجوار الجامع .

واستشعر على الصدق فى نبراته ، فأقلع قلقه ، وطافت به سكونة ، فالتفت

إلى زوجه وقال :

— إنه صادق فيما يقول . وجد كيسا بجوار الجامع ، فما وجه القرابة

فى ذلك ؟

فقالت صفة ، وقد شعرت ببعض الراحة :

— ولماذا لا يعثر به إلا زكريا ؟ .

فقال لها على معارضا :

— ولماذا لا يعثر به زكريا ؟

فقالت صفة فى صدق :

— ليته لم يجده ، كان ذلك أهذا ألقى .

وفطنت إلى الكيس المتدلى من أصابعها ، فقالت :

— وماذا سنفعل بهذا الكيس ؟

فقال على فى هدوء :

— ما يفعله الناس بما يجدونه من أشياء .

فقالت صفة فى عزم :

— لن يملك هذا الكيس لحظة ، لابد أن يسلم للقسم .

ولم يعترض على ، كان على يقين من أن صفة إذا قالت فلن يثنى عنها قولها

شئ ، فأخذ زكريا والكيس ، وانطلقا إلى القسم ، وذابت الريالات الثلاثة ،

فلم يبق فى الشقة بيضاء ولا صفراء .

وضعت صفيحة مبيدا ، ذلك الذي أبى له قدره أن يهبط قبل أن تكتمل
شهوره ، من ظلام البطن إلى ظلام القبر ؛ كان مكتوبا عليه أن يرى شروق
الشمس وغروبها ، وأن يضيق بحر الصيف وقرائشتهاء ، وأن يجوع وأن يشبع ،
وأن يبتسم وأن يضحك ، وأن تدمع عيناه ، وأن يذرف ذوب النفس ، كان مقدر له
أن يكون إنسانا .

وجاء الحاج كرم يهود ابنته ، وما إن سمع وقع أقدامه في الدرج حتى خفت
ثرثريا وعزيرة وزينب وزهيرة مستطلمات ، فلما رأينه يصعد يد وراء ويد قدما ،
ابتسمن في خبث ، ولم تستطع عزيرة أن تسكبج شهوة الكلام فهمست :
— ليت هذا الرجل يحرق عين الشيطان مرة ولو يهود قصب .

وانسحبن ليفسحن للصاعد الدرج ، وليجتمعن ليسلمن الناس بالسكتين :
قالت زينب :

— كلما رأيت الحاج ، تذكرت ذلك الغنى الذي كان يخصم من الخولى ثمن
الجرجير الذي يشتريه ، لأن الجرجير الذي زرعه تأخر في الظهور .
فابتسمت ثريا وعزيرة وزينب ، وقالت زهيرة في نفاقها المعهود ، وإن
كانت ترهف السمع ، وينشرح صدرها للخوض في أعراض الناس :
— أعوذ بالله ، مالنا وللناس .

ولم تلتفت أخواتها إلى اعتراضها ، كنى يعلمن أن ذلك الاستنكار إن هو
إلا تحريض لمن على الاسترسال فيما هن فيه ، فقالت ثريا :
— إنه يذكرني بذلك البخيل الأحمى الذي كان يطلب من الخادم أن تجهز
له فليجانة واحدة من القهوة ، ثم يخشى أن تنهز عماء ، فتجهز لنفسها فليجانة أخرى ،
فيقوم يتحسس ، حتى إذا بلغ الإناء قاس بإصبعه ما به من ماء .

وقدحت عزيرة زناد فكرها ؛ لم تكن تصفى إلى حديث ثريا ، بل كانت
تفكر في قصة ترويحها عن بخيل ، عز عليها أن تترك الميدان لأخواتها وهي فارسته ،
وأسهفها فكرها ، لابقصة بخيل واحد ، بل بقصة ثلاث بخيلات ، فقالت :

— ما أ كثر البخلاء اكن ثلاث أخوات ورثن عن أبيهن ثروة كبيرة ،
وكن يسكنن معا في شقة واحدة ، فكن يطهون طعامهن في وعاء واحد ، فإذا
ما جاء أوان الغداء قامت بينهن المشاجرات ، كانت كل منهن تتهم أختها باصطياد
اللاحم .

وفكرن في وسيلة يضمن بها حدا لهذه المنازعات ، فاهتدين إلى أن تسلك
كل منهن لحنها في خيط مميز بلون ، فإذا وضع أمامهن الوعاء ، جذبت هذه خيطها
الأبيض ، وجذبت تلك خيطها الأسود ، وجذبت الثالثة خيطها الأحمر .

فقالن ثريا في عجب :

— وما الذي يضطرهن إلى المشاركة في الطعام ؟

فقالن عزيزة :

— الاقتصاد في البصل والسمن والملح والفلفل والبهار والإناء والموقد والنار .

فقالن زعيرة في تأفف :

— أعوذ بالله ا

وصعد الحاج كرم إلى ابنته ، وراح يحادثها في ود ، كان يحبها ، وكان يقدر
صفاتها ، وما كان يخفى تقديره ، بل كان يقول أمام أبنائه : « ليتك كنت يا صفية
الرجل ، وكانوا هم البسات » .

وحملت صفية وليدها ، ودفعته إلى أبيها في حنان ، فحمله في حرص بين يديه ،
كان يخشى أن يبول عليه ، فينجس ثيابه . ومد يده في جيبه ، وأخرج خمسة جنيهات
وضمها في يد الطفل ، وأعادته إلى أمه ، فتمتعت صفية ببعض عبارات الشكر ،
وترجمت نظراتها عن حقيقة فرحتها ، كانت تلك الجنيهات كالطل الهابط من
السماء بهد الجفاف .

جلبة الأولاد تتردد في جنبات الحارة ، كانوا يتصايحون في عدوهم وقتلهم ،
والتجائهم إلى الخربة يخنثون بها ، وكان خالد يشاركهم في صياحهم وعبيهم ،
وجلال يجرى في أعقابهم ، بينما وقف زكريا بيده وحده ينظر ، كان ضعيف
البنية ، منطويا على نفسه ، لا يشاطر صبية الحى لهوهم وإن كان يتمنى أن يخرج
من قوقعة نفسه .

وجلجل صوت المؤذن يؤذن بالعصر ، فنفت في جو الحارة سحرا ، انساب
الرجال في خشوع إلى المسجد ، وتوقف الأولاد عن الصياح برهة ، حتى أولئك
الرجال الذين اجتمعوا في الخربة للعب القمار انتفضوا رهبة ، ولكن سرعان
ما وأدتها الإحساسات الجشعة المتفجرة من القلوب القاسية .

ودنا زكريا من المسجد ، فلما قضيت الصلاة ، دلف إلى الحلقة التي تجتمع
كل يوم حول الشيخ تصفى إلى الدرس الذي يلقيه بين العصر والمغرب ، وجلس
على الحصير بالقرب من المشراف ، وتعلقت عيناه بوجه الرجل ، وأعاره سميه ، كان
حديثه يصادف هوى في نفسه ، وكانت تلك الجلسة ترضيه وتعوضه عن لذة مشاركة
الأولاد في لعبهم . فصار يؤم المسجد كل يوم في العصر ، يزود مداركه ويزداد وحدة .

وظهر في الحارة شاب أصغر قصير ، مفتول الساعد ، يدفع أمامه عربة عليها
أقطان ، فلما رآه الأولاد ، هرعوا إليه يتصايحون :

— النجرو . . . النجرو جاء .

كان النجرو يسرق الأقطان من الميناء ، وكان يخبئها في الخربة حتى يبيعهها ،
وكان سكان الحارة جميعها يعلمون ذلك ، ولكن واحدا منهم لم يفكر في أن يبلغ
عنه ، أو يشي به ، كانوا جميعا يقامسون وطأة الغلاء ، لا يجدون إلا ما يكاد يمسك
الرمق ، بينما يسمعون قصص تجار الأقطان الذين أثروا حتى صاروا يشعلون
سيجارة راقصة بأوراق البنكنوت ، فأصبحوا يمتقنون تلك الطبقة ، ويحقدون
عليها ، ويحقدون فيما يفعله النجرو انتقاما لهم ، وتنفيذاً لحقدهم الدفين .

وراح الأولاد يعاونون النجرو في إخفاء ما سرق ، دون أن يزجرهم زاجر ،
وأخذ خالد يمدو ويروح مع الأولاد ، ولمح رجلا هزيلا واقفا في الخربة وسدده ،
قد برز شعره المنفوش من تحت طربوشه ، وتمزقت ثيابه ، فدفعه حب الاستطلاع
إلى أن يرقبه برهة ، فالفاء يخرج علبة ثقاب من جيبه ويفتحها ، ويخرج منها ورقة
بيضاء ، يصب ما بها على ظهر كفه ، فإذا به مسحوق أبيض ، ثم يستنشقه في
قوة ، وخالد ينو إليه دون أن يفطن لشيء ، فيستأنف غدوه ورواحه في الخربة
مع الغلمان .

ومالت الشمس للغيب ، وأذن المؤذن بالمغرب ، فانسل زكريا من المسجد إلى
البيت راضيا ، فالأصغاء إلى الشيخ لا يتطلب منه الخروج على انطوائه ، ولا يحتاج
إلى مثل تلك القوة التي يقتدر إليها حتى يستطيع أن يشارك أقرانه في لعبهم .

وامتدح خالد في لعبه على الرغم من ذلك الظلام الذي خيم على المسكن ، وظل
جلال يتابعه في جريه ، ودوى في الحارة دق الطبول ، ثم غرقت في الضوء ،
فأسرع الأولاد صوب الخربة ، فقد كان الركب قادمًا من العالية ، من الحى الذى
يقطنه الفلاحون والصيادون .

هبط إلى الحارة حملة القناديل ، ثم تبعهم رجال شداد يقفزون ويلعبون
بعضهم الفليضة وجاء بعدهم نافخ الزمار وضاربو الدفوف ، يسير في وسطهم رجل
ضخم يرتدى سروالا أسود وقميصا مزركشا بالقصب ، وعلى جبهته عصا طويلة
تنتهى بمكعب تكسوه المرايا ، وتدلّى منه الشراريب ، وطفق الرجل يرقص على
الأقدام ، وينقل العصا من رأسه إلى ذراعه ، ثم من ذراعه إلى قدمه الخافية .

وسار الرجال وفي أيديهم هراواتهم أمام عربة العروس وخلفها وعن يمينها
وعن يسارها ، في وجوههم صرامة وعبوس ، كأنما يترقبون الأعداء الذين
سينقضون لاختطاف العروس .

وهبط الركب من العالية ، وانساب في الحارة ، والأولاد من حوله يتصايحون
فرحين ، وتقدم ليخترق حى الصعايدة ، تخف خالد إلى أخيه الصغير ، وجذبه
من يده ، وسحب بهيدا ، كان على الرغم من صغر سنه قد حزر ما سيقع عما قليل ،

فيا طالما شاهد المارك الدائرة بين أهل الحيين الذين نبتت في صدورهم العداوة ،
كما ينبت الحشك في الصحراء .

دنا الركب من مقهى الصعايدة ، فساد الترقب والتحفز ، وقام رجل صعيدى
إلى الزمار ، وقال له في نبرات أمرة :

— سلام ، سلام الرجال .

فنظر الزمار إلى والد العروس يستلهمه ، فهز ذلك رأسه ، فاستمر الزمار
في السير ، وإن أخذ يرقب من طرف عينيه ما يجرى حوله ، تأهباً للفرار عندما
يدور القتال ، وتحرك الصعايدة الجالسون على المقهى ، وخطفوا هراواتهم ، وانقضوا
على الركب ، فتصدى لهم الرجال ، وتقارعت الهراوى ، وهوت على الرؤوس
والأبدان ، ومالت السماء ، وتطايرت المقاعد في الهواء ، وارتفع الأنين والصراخ ،
ثم راح موكب العروس ينقهقر بانتظام ، والصعايدة يتبعونه وهم يصيحون صيحات
الظفر والنصر .

ولاذ الفلاحون بدورهم ، والصعايدة يحجرون خلفهم ، وماهى إلا الخطات
حتى تطايرت الزجاجات المحشوة بالرمل والزلط من الشبايك والأبواب والأسطح ،
الترتطم برءوس الصعايدة فتشممها ، أو بوجوههم فتسيل منها الدماء .

وارتد الصعايدة ، يضمّدون جراحهم ، هزّموا وكثرت إصاباتهم ، استدرجهم
الفلاحون إلى دورهم ، ثم أطلقوا عليهم الزجاجات من كل مكان ، نفس الخطة التي
اتبعوها معهم عرات ومرات ، ولكنهم لم يفطنوا أبداً إلى ذلك السكين الذى
ينصب لهم ، فنشوة النصر تدفعهم في كل مرة إلى السقوط فيه ، لم يتعلموا من
الماضى شيئاً ، ولن يستفيدوا من تجاربه ، مستنسيهم نشوة الظفر الأولى الحذر
من الشرك المنسوب ، فيتردون فيه غافلين .

٢٧

دخل على على أمه مستبشرا ، ينم وجهه عن الفرحة ، وما إن التقت عيناها بعينها حتى صاح مبتهجا :

— أعلنت الهدنة . . . انتهت الحرب .

نظرت إليه أمه في جمود ، كأنما لم تفتح ما يقول ، وجعلت تتطلع إلى وجهه دون أن تنبس بكلمة ، فاندفع في حديثه :

— انتهت الحرب . . انتهت وسيهود حسان . . سيهود إلينا حسان .

وتهدج صوته ، ولم تجد الأم لسانها ، ألفتها المفاجأة ، ولكن طهرت الدموع من عينيها ، وسالت على خديها ، تخفق قلب على الدموعها ، وأدار وجهه ، ومسح بظهر يده عبراته التي تفرقت في مآقيه .

وشردت الأم ببصرها ، وهمست في صوت خافت منادية في حنان :

— حسان . . ابني حسان .

وألقت رأسها على صدرها ، وأجهشت بالبكاء ، فجلس على إلى جوارها ، ولف ذراعه حولها ، وضمها إليه في رقة ، وقال :

— كفكفي دموعك يا أماء ، وابتسمي للرجاء .

فقالت الأم في وله :

— ترى يا بني أين أنت الآن ؟

— في طريقه إلينا .

— ليت يرحمني ويعود .

— اطمئني ، سيعود .

وغادرها على بعد أن حرك الرماد ، فاندلعت في جوفها نار المشاعر التي خبت على مر الشهور وكر السنوات ، كان قلبها يخفق بالأمل البسام ، وسرعان ما تنداح الفرحة وتمحي ، ليحل مكانها انقباض ولده خاطر أسودها جها فجأة ، وراح يوسوس لها أن حسان قد مات .

وصارت مرثيا لمشاعرها المتصارعة ، مشاعر اليأس ومشاعر الرجاء ، وانتصر
الأمل ، فاستشعرت رغبة في أن تتطلع إلى البحر ، تتوسل إليه أن يرحم شيخوختها ،
وأن ينحصر عن حسان ، فراحت ترقى في الدرج خاققة الفؤاد ، حتى إذا ما بلغت
سطح الدار مدت بصرها إلى المائدة التي يهاونها الزبد ، وإلى القبة الزرقاء ،
وظلمت تنزى إلى الفضاء لا تنبس بكلمة ، وإن كانت كل خاطلة فيها تنبض بأحر
صلاة ، كانت تبتهل في إخلاص أن يعود إليها حسان .

وظلمت في وقفها لا تحس مرور الزمن ، حتى دثرها الليل بردائه ، وشاركها
الكون في صمتها ، فدارت على أعقابها ، وهبطت يداعبها الأمل ، وذهبت إلى
فراشها وهجمت ، واستسلمت الأحلام والرؤى العذاب .

ومرت الأيام ، وترادفت الشهور ، ولم يعد حسان ، فاقتلع اليأس بذور
الرجاء ، وانزوت في بيت الأحزان ، وضائق بمشاعرها ، ففرغت إلى البحر
تذرف دموعها ، لعله يرق لحالها ، ويلفظ جثمان ابنها الذي مزق غيابه الفؤاد .
وقفت على السطح ، ونظرت إلى البحر الجبار ، ثم أطرقت في أسى ،
وانهمرت دموعها تغسل وجهها ، ثم غمغمت :
— يارب .

ولم تختمل وطأة إحساساتها ، فانفجرت بالبكاء .
وافتقدتها صفة ، لم تجدها في شقتها ، ففطنت إلى أنها قد صعدت إلى السطح ،
كانت تعرف فيها ذلك الحنين إلى البحر ، إنها تلوذ به إذا انبثق في جوفها بصيص
من نور ، وتلوذ به إذا خبا ذلك البصيص ، فهرعت إليها تواسيها في محنتها ،
وتخفف عنها آلام الأفكار السود .

رأتها في طرف السطح مطرقة ، تكاد كبدها تنشق من البكاء ، فأحست
نحوها عطفًا ، ودنت منها ، وقالت في رقة :
— ارحمى نفسك ، ماذا يفيد البكاء ؟

— ليت يا صفة مات أمام عيني .

وهمت صفة أن تقول لها كما اعتادت أن تقول : « سيعود . . سيعود يوما » ،
ولكنها رأت أن الأمل يمد في حبل العذاب ، وأن في الركون إلى اليأس راحة ،
فكبحت جراح لسانها وصمتت ، ولفت ذراعها حولها ، وراحت تقودها إلى
شقتها وهي تحنو عليها ، وتغمرها بالمواساة .

٢٨

نزع ع لبيب في كنف جده ، وما كان يزور أمه وأباه وأخوته إلا زيارة ضيف خفيف ، كان يمكث معهم سويعات ثم يعود إلى البيت الذي شب فيه . وقت أمام المرأة يرتدى ثيابه ، ويصلح رباط عنقه ، وقد لاح البشر في وجهه النحيل ، فهو ذاهب إلى أمه بعد أن ظهرت نتيجة « السكفاءة » وكان من الناجحين .

وانطلق الشاب النحيل ، أنيقا نظيفا تغمره سعادة ، ويعمر قلبه حنان ؛ تلقى تهناني جده وجدته وأخواله ، ولكن نفسه تتوق إلى أن تسمع رنة الفرح لنجاحه من أحب صوت إليها ، كان يهفو إلى حنان أمه ، وإلى مشاركتها له في بشره ، فصدق مشاعرها نحوه يدغدغ حواسه ، ويفعمه نشوة ساحرة عجيبة .

وانساب الشاب الصغيرة في الحارة ، فألقى إخوته يحرون مع الصبية ويلعبون ، فلم يزجرهم كما كان يفعل كلما رأهم في عبثهم الضائع ، فهو اليوم منشرح الصدر يفقر لهم ، ولكن ما إن وقعت عيونهم عليه حتى كفوا عما كانوا فيه ؛ كانوا يهابونه ، وقد حفظ له هيئته ذلك الغياب الطويل عنهم ، وتلك الأناقة التي ما كانوا يألونها .

وصعد في الدرج ، وقابل عماته ، وتلقى تهنينهم في فتور ، ثم هرع إلى أمه نشوان ، فلما وقعت عيناها عليه انبسطت أساريرها ، وقالت له في صوت عذب :
— مبارك !

كلمة سمعها من أفواه كثيرة ، ولكن نفسه لم تهتز لها كما تهتز الساعة ، إنه يحس بأنامل رقيقة تعبت بأوتار قلبه ، وبنشوة عارمة تقعمه ، وبدموع الفرح تندى مقلتيه ، ولو طأوع نفسه للاذ بالصدر الحنون .

وجاء أوان الغداء ، فقاموا خفافا ، إلا صفية جلست بعيدا تصلح ثوبا تمزق ، فدعاها لبيب لتشاركهم في طعامهم ، فاعتذرت بأنها شبعانة ، فسكت وإن فطن إلى أنها تصوم لتوفر لهذه البطون ما يملؤها .

تفتحت عيناه على الحقيقة ؛ إن أسرته في حاجة إلى عون ، فشرد قليلا يفكر فيما يستطيع أن يفعله ، ليساعد أهله ، فراحت الأفكار تتوافد على رأسه ، كانت

أفكارا نبيلة كلها ، ولم تطرأ على ذهنه فكرة واحدة عن نفسه ، ذابت أنانيته لما اس ما هم فيه من ضيق .

واطمأن إلى فكرة ، فعزم على إنقاذها ، وخطر له أن يفضى إلى أمه بها ، ولكنه فضل أن يترتب حتى ينجح في تحقيقها ، فبقى جالسا معهم بحسمه ، بينما كان فكره شاردا هائما .

وقام مستأذنا ، وخرج ولكنه لم يذهب إلى بيت جده ، بل راح يغذ السير إلى بيت خالته جليلة ، فزوجها الذي نمت ثروته في الحرب وتضخمته حتى فتحت له أبواب العطاء ، خير من يحقق له فكرته .

ووقف أمام الباب الضخم يصلح هندامه ، وتقدم يرقى في الدرج الرخامي ، ثم دلف إلى غرفة واسعة ، انتثر فيها الرياش الفاخر ، جلس في مقعد وثير غاص فيه وما مرت لحظات حتى أقبلت خالته ، وما إن رآته حتى رحبت به وقالت :

— مبارك . سرني نجاحك !

— متشكر .

وجلست قريبة منه ، ثم قالت :

— ماذا نويت أن تفعل ؟

استراح لذلك السؤال ، فتحت له الباب ليلج منه إلى الموضوع الذي جاء يتحدث فيه ، فقال وهو ينظر إلى البساط الفاخر الذي يغطي أرض الحجرة :

— فكرت في أن أبحث عن وظيفة .

فقال في حماسة :

— هذا عين العقل ، أمك في حاجة إلى عونك .

كان يعرف هذه الحقيقة ، وهذا ما دعاه إلى أن يحضر إليها الساعة ، ولكنه أحس كأن كلماتها وخزات إبر تنحز كبرياءه ، ليتها لم تجبه بها في صراحة ، فما أكثر الحقائق التي نعرفها عن أنفسنا ولا نحب أن نسمعها من الآخرين ! فارتبك قليلا ، ولكنه ما كان ليسمع لارتباكها أن يفوت عليه فرصته ، فقال :

— وقد جئت أتمس من خالي أن يعاونني على الالتحاق بوظيفة في الحكومة .

فقال خالته وهي تنهض

— إنه هنا . انتظر حتى أحادثه في هذا .

وتركته وحده في الغرفة ، فراح يبحث بأصابعه ، ويصلح رباط عنقه ، ويقلب وجهه في الستائر وفي المقاعد والثريا الفاخرة ، ويتطلع إلى وجهه في المرآة ، وأحس حركة قريبة ، فرنا صوب الباب ، فإذا بهاتيه وزوجها قادمين ، فنهض يصافح الرجل الغنى .

جلس بهاء بك ، وكان يرتدى جلبابا أبيض . وقال :

— خيرا ؟

فقالت جليلة :

— نال لبيب الكفاءة ، وقد جاء للملحقه بوظيفة في الحكومة . يستجنى في لبيب عقله ، فهذا خير ما يفعله ، أمه في حاجة إلى عونه .

اضطرب لبيب ، وشعر بالدماء تندفق حارة إلى رأسه ، قالتها مرة ، فما الذى يضطرها إلى أن تعيدها على مسمع رجل غريب ، إنه يستشعر أن فى ذلك تعريضا بأبيه ، وما كان زوجها أفضل من أبيه يوما ، لولا ذلك الحظ الذى يرفع ناسا ويحط آخرين ؟

وأراد أن يقتل ذلك الاضطراب الذى ولد فى صدره ، فرفع عينيه ، ونظر إلى زوج خالته ، فألقى نفسه يدقق فى تلك الخفر المنتشرة فى وجهه ، وخشى أن يفتن الرجل إلى ذلك ، فأطرق ، وأرهف سمعه ، قال بهاء بك :

— ولماذا لا يعمل لبيب عندى ؟ ، ما أكثر السرقات فى الدائرة ، إننى أريد رجلا أميناً أثق فيه يحافظ لى على مالى ، ولن أجد من هو أفضل من لبيب .
فقالت جليلة فى حماسة :

— هذا جميل !

وخاضا فى الحديث ، وما دار حول ما يكسبه لبيب من ذلك التوظيف ، بل كان يدور حول ما يجنيانه وما يعود عليهما من توظيفه فى الدائرة ، لم ينسيا نفسيهما حتى فى هذه اللحظة التى هرع إليهما قريب يلتمس النصيح والمساعدة .

وعين لبيب فى الدائرة ، فجمع حوائجه ، وغادر الإسكندرية ، ومافر إلى دمهور ، ولم يدرك بخلد جليلة أن ذلك السفر سيبعده عن أهله ، ويبتلع أغلب مرتبه ، ولن يمكنه من أن يعيد العون إلى أمه — التى تظهر إشفاقها عليها — إلا بالندى اليسير !

٢٩

انقطعت المواصلات بين القاهرة والإسكندرية ، وانطلقت المظاهرات تهتف باستقوط الاستعمار ، وتهوى الشهداء صرعى برصاص القاصب الظالم ، مسجلين بدمائهم صفحات في قصة الكفاح ، إنها الثورة .

دبت في البلاد روح جديدة ، روح فتية قوية ، بعثت الحياة في الشعب الذي استنهم للظلم ، ثم هب من رقاده يزأر في وجه المستعمر ، ويبذل السماء ليتنسم نسيم الحرية .

وسرى البعث في الحارة ، فراح الغلمان يجتمعون في الخربة يرددون الهتافات التي دوت في البلاد ، ويرتلون الأناشيد الحماسية ، حتى النجرو الذي لم يكن لهم في الحياة إلا سرقة الأقطان من الميناء ، عزم على أن يشارك الأمة في ثورتها وكفاحها ، فشرد يفكر فنبئت في ذهنه فكرة شيطانية .

وتلفت في الحارة ، فألقى زكريا في طريقه إلى المسجد ، ليصفي إلى الدروس التي يلقيها الشيخ بين العصر والمغرب ، خف إليه واستوقفه ، وقال له :

— مامعنى « بنت » بالإنجليزية ؟

فرمقة زكريا في شرر ، ثم قال :

— Girl .

فطفق النجرو يقول وهو يهز رأسه ، ويتسم في خبث :

جيرل . . . جيرل .

وابتعد وزكريا يتبعه بنظره مدهوشا ، لا يفقه شيئا ، ثم ينطلق في طريقه إلى المسجد .

ووفد الليل ، وخيم الظلام وساد الكون ، سكون مريب ، وخرج النجرو يضرب في الحارة ، ثم ينساب في الطرقات الهادئة التي لم يكن يعكر صفوها إلا وقع أحذية الجنود الإنجليز الثقيلة ، ودنا من جندي وهو يتسم ، فتلاأت أسنانه في رقعة وجهه الأسود ، وبرقت عيناه . فرمقه الجندي في حذر ، فهمس النجرو وقد اتسعت ابتسامته ، وزادت تألقا :

— بنت ؟ جيرل ؟

فرفت على شفقي الجندي ابتسامة ، وهز رأسه موافقا ، وقد مات حذرد ،
فأشار إليه النجرو بإصبعه أن يتبعه ، وسار النجرو مقتول العضل كالنمر الأسود ،
وانطلق الجندي في أثره على بعد خطوات منه .

خلفا الطريق الممهد الواسع ، ودلفا إلى الحارة ، وشاء النجرو أن يتبسّط
مع الجندي حتى يسكن الطمأنينة قلبه ، ولكنه لم يعرف من الإنجليزية إلا تلك
الكلمة التي تعلمها ، فالتفت إلى الرجل النحيل وقال :

— جيرل ؟

وضم أصابعه وقبلها ثم بسطها في شدة ، وكان ذلك كافيا ليفهم الرجل أن
الفتاة التي يقوده إليها جميلة ، رائعة الحسن .

واقتربا من الحربة ، كان الظلام ثقيلًا لا تقوى على زحزحته تلك الأضواء
الواهنة المنبثقة من المصابيح المدلاة على وجوه المنازل ، وكانت الحارة غارقة
في الصمت ، فقد لاذ الناس بدورهم عقب مغيب الشمس .

وسحب النجرو هراوة كان يخفيها عند حافة الحربة ، وفي مثل لمح البصر
هوى بها على رأس الجندي ، فترنح وسقط على الأرض ، فانقض عليه النجرو
بوسعه ضربا حتى إذا اطمأن إلى أنه قد غاب عن الوجود ، راح يمد يده
يقتش جيوبه .

أخرج حافظة كبيرة ، أخذ ما فيها من نقود ، وصورة فتاة إنجليزية ، ثم أعاد
الحافظة سيرتها الأولى ، وراح يخلع الساعة من يد فريسته ، ثم يلفها حول
معصمه الأسود ، ويتطلع إليها مزهوا ، ولما انتهى من سلبه حملة على ظهره ،
وخرج من الحارة يترقب ، حتى إذا بلغ الطريق العام ألقاه فيه ، وعاد إلى وكره
مسرورا ، وقد بيت العزم على أن يستأنف مغامرته كل ليلة ، فهي مغامرة رابحة
لذيذة عملاً جييه نقودا ، وتتيح له المساهمة في الكفاح والثورة !

٢٠

أقيمت الأراجيسج في الحربة ، فهرج الأولاد إليها يتسابقون ، وارتفع صياحهم ، وامتزج بصراخ الأراجيسج وأناثها ، فدوت الحارة بالجلبة ، وتقضى النهار في خنجيسج وعنجيسج ، وأقبل الليل ولم يفد في ركابه الهدوء ، فقد ولي هاربا أمام جحافل الصبيان الذي انتشروا كالجراد يحملون مصاييحهم الملونة ، يرددون أناشيد الوداع لرمضان .

وفاحت في الحارة رائحة السمن المقدوح ، وسرى الفتية والفتيات في الضوء المنبعث من مصاييح الدور والمصاييح التي تتخلق المئذنة يحملون « صاحبات » الكمك ، كانوا في غدو ورواح ، الفرن قبلتهم ، والقبطة تفعم القلوب ، فلاحت في الجو تبشير العيد .

وهبط خالد إلى الحارة يشاطر الأولاد لهوهم وصياحهم ، فهبط جلال في أثره فما كان يفارقه ، وقبع زكريا في البيت ، وانفرد بنفسه ، وراح يتذكر أحاديث الصوم التي سمعها في المسجد ، كان يحس راحة كلما عاش في فكره .

نظر جلال إلى المصاييح الملونة التي تترجج في أيدي الأولاد ، فتعلقت عيناه بها ، وهفت نفسه إلى أن يحمل مصباحا يطوحه في يده ، واستبدت به شهوته حتى تغلبت على تردده ، فتقدم من غلام وقال له :
— أعطني مصباحك أحمله قليلا .

فرفض الغلام وأعرض عنه ، فألحف جلال في الطلب ، وضاق به الغلام فدفعه بيده ، فسقط جلال على الأرض يبكي بصوت عال ، فانقض خالد على الغلام يضربه ثارا لأخيه دون أن يسأل عن السبب ، كان قويا ، فسكان يعتمد على قوته ، ويحسب أن كل شيء يؤخذ قهرا .

لم يقو الغلام على دفع أذاه ، ولم يستطع أن يبادله ضربا بضرب ، فما إن هجم عليه حتى ارتطم بالأرض ، وطار مصباحه بعيدا ، وقام الغلام يرمقه شزرا ولم يفكر في أن يلتحم معه في شجار وإن نبت في صدره حقد ، وغاب دموعه المترددة في مقلتيه .

وخلف جلال إلى المصباح وحمله ، وجاء به إلى الغلام وقال له :
— خذ مصباحك .

فجذبه من يده في شدة ، ودار على عقبه ، وانطلق لا يابى على شيء .
وشردت صفة ببصرها ، لم تفكر في الكسك ، فما كان يخطر على بالها مثل
ذلك الترف ، فهي مشغولة بتدبير الخبز والطعام لهؤلاء الذين تعلقوا بعنقها ،
وهي مشغولة بأمر كساء تلك الأنفس التي كانت تزيد في كل عام نفسا .
وها هي ذي روائح العيد تعبق في الجو ، فشردت تفكر في ثياب أبنائها ،
إنها تحب أن تدخل الفرحة على قلوبهم الفضة ، ولو كان عندها مال لاشرت لهم
جميعا ثيابا جديدة ، ولكن رزقها يأتمها يوما بيوم ، وما كانت تدخر شيئا .
وانتقت ثوبا من ثيابها ، ووضعت جانبها ، لتصنع منه ثوبا لتحية ، وراحت
تقلب ثياب أبنائها ، فرأت أن تعطى حلة زكريا لحالد ، وحلة خالد لجلال ، وثياب
جلال لسعيد ، وأن تشتري لزكريا حلة جديدة .

وأطرقت تفكر في الدل الذي تشتري به تلك الحلة ولم يبق على العيد إلا أيام
ثلاثة ، فقر رأيتها على أن تدخر جزءا من ذلك الرزق اليومي الذي يمنحها إياه
على ، وإن كانت تعلم أن ذلك على حساب البطون الحاوية .

وجلست ترقب عودة على ، وهي ترجو مخلصا أن يكون الله قد وسع عليه
رزقه في هذا اليوم ، حتى تتمكن من شراء الحلة دون عسر ، ودون أن تلجأ
إلى توفير ذلك المبلغ من أفواه أبنائها .

وسمعت وقع أقدام في الدرج ، واتضح الصوت واقترب ، فتيقنت من عودة
زوجها ، فهرعت إلى الباب وفتحته ، فدلف على منه وهو يحرك خلفه زكية ،
فرمقته صفة مستفسرة ، فجذب الزكية من نهايتها ، فتدحرج بطيخ كثير
في الردهة ، فقالت له صفة في دهش :

— ما كل هذا ؟

— رأيت هذا البطيخ أثناء عودتي فأعجبني ، فاشتريته .

فقالت له في لهفة :

— بكم اشتريته ؟

فقال في بساطة :

— بكل ما رزقني الله به في يومى .

تنوَّض حامها ، فلن تستطيع أن تشتري لزكريا الحلة الجديدة ، وزاد كربها
فقد صار عليها أن تدبر أمر القوت الضروري لغيرها ، فانتشرت في صدرها موجة
من الأسى ، ولكنها لم تحقد على زوجها ، ولم تعاتبه ، فقد راضت نفسها على أن
تنظر إليه نظراتها إلى ابن من أبنائها ، ترضى عن حسناته ، وتغفر له هفاته ،
وتلتمس المآذير لتصرفاته ، وإن كانت تلك التصرفات تزيد في متاعها ،
وتنقص غزلها .

٣١

جلس النجرو في المقهى الصعيدي ، يحتسى كوبا من الشاي ، ويتحدث
مع أصدقائه ، يروي لهم في زهو منامراته مع الإنجليز ، فتطلعت إليه العيون في
إعجاب ، فلأه أنصت الرفاق إليه غرورا ، فنسى دمايته ، وراح يقول :
— لم يشف غليلي ما فعلته برجالهم ، فغزت قلوب نسائهم إيماننا في إذلالهم .
فقال رجل في إنكار :

— حقا ؟

فقال النجرو وهو يسمع بأنه ، ويمد يده في جيبه .
— وهاكم الدليل .

وأخرج صورة الفتاة الإنجليزية ، ودفعها لرفاقه ، فراحوا يتخطفونها وينعمون
النظر فيها وقد برقت العيون ، وأثلج صدر النجرو ، وانبسخت أساريره ، فقال
وهو يتظاهر بالشرود :

— فتاة لذيذة !

فقال له صديق :

— وأين قابلتها ؟

— في الطريق ، سألتني عن شارع ، فقدمتها إليه ، وفي أثناء عودتها قابلتني
في نفس الطريق ، فابتسمت لي ، فشجعني ذلك على السير معها حتى إذا بلغت دارها

دعتنى للدخول . قدمت لى شرابا لدينا أدفأنى ، وسيطر على ، وأطار التشتت من رأسى ، فضممتها إلى . أمضيت معها ليلة من ليالى العمر لن أنساها . . أعطتنى هذه الصورة عربونا للصدقة ، وواعدتنى اللقاء ، إنها لا تطيق فراقى من تلك الليلة .

وشرد بصره ، وابتسم فى راحة ، كأنما يفعل للرؤى الموهومة ، وقطع حبل استرساله فى أحلامه ، صوت صديق يسأله :

— وما اسمها يا نجرو ؟

فقال فى بساطة :

— جورج .

قال أحد الحاضرين :

— ولكن هذا اسم رجل !

فقال النجرو فى ثقة العالم :

— إنهم لا يفرقون بين أسماء رجالهم وأسماء نساؤهم .

وهب النجرو واقفا ، فارتفع أكثر من صوت :

— إلى أين ؟

فقال وهو يغمر بعينه ، وقد انفرج فيه الأدرد عن أسنانه الصفرة :

— إليها .

وانساب النجرو فى الحارة ، وهو مغمم بالنشوة ، دغدغت حواسه نظرات الإكبار التى كان رفاهه يرمقونه بها ، ومر على حليلة وهى جالسة فى ثوبها الأسود جلستها الخالدة ، وهى قابضة بها لا ترسم ، كأنما أصبحت من معالم الحارة الثابتة ، فدنا منها وقال متغزلا :

— مساء الخير يا جورج ، يا قمر .

فغضت حليلة من بصرها ، وأخذت توارى بكها تلك البسمة التى ولدت على شفيتها .

وانطلق النجرو يبحث عن جندى إنجليزى يصطاده ، ويسأله مامعه ، وما إن بلغ نهاية الحارة حتى انبعث من جوفه صوت يردد : « جورج ، بنت ؟ .

جيرل ؟ . جورج ! بنت ؟ . جيرل ؟ » وهز رأسه لشبح جندي تراءى لخياله
أن اتبعني .

وتصرم الليل ، وعاد النجرو إلى وكره في الخوبة يحمل أسلابه ، وما إن مس
جنبه الأرض حتى راح في سبات ، وفيما هو نائم رأى جورج مقبلة عليه وقد رفت
على ثغرها الوردي ابتسامة حلوة ، وأرتمت في أحضانها ، وغابا عن الوجود في
قبلة طويلة حارة .

وهب من نومه ، وقلبه يخفق في نشوة ، والرؤى العذبة التي داعبته في
حلمه عملاً حواسه ، وتغرقه في بهجة لم يذق لها من قبل طعماً ، فشعر بإحساسات
رفيقة تسرى في جوفه ، فعجب لأمره ، حتى كاد ينكر نفسه .

ومد يده في جيبه في رفق ، وأخرج الصورة في حنان ، وجعل ينو إليها
في وله ، يخفق قلبه خفقات حب ، فرفع الصورة إلى فمه وقبلها ، ثم ضمها إلى
صدره وهو يغمغم :

— حبيب جورج .

وانقضى النهار وهو سابح في أوهامه ، أسند ظهره إلى قائم الأرجوحة وتعلق
بصره في السماء ، يفكر في حلمه ، وينسج من خيوط الخيال مشاهد حبيبية إلى
قلبه ، ويخلق في عوالم وردية من التصورات ، حتى إذا أبيض جناح خياله ،
رنا إلى الصورة ، وانهاى عليها ثلثاً وتقبلاً .

وصار الشفق في غيبوبة ، وهو مستسلم لأحلامه ، وعتم الليل وهو شارد
البصر ، وانبعث من العالية أضواء ، ودوى المكان بأصوات الدفوف والصنوج ،
وأقبلت « الزفة » تنهدي وأخذت تهبط الحارة ، وهو في ذهوله ، لا يحس
ما حوله .

وتقدم الركب حتى إذا بلغ المقهى الصعدي ، وقفت الموسيقى تصدح بالسلام
تحية للصعيدة ، فانضم الصعيدة إلى الفلاحين وانطلقوا معهم مستبشرين
بشاطر ونهم فرحهم ، كانت هذه أول « زفة » تمر في الحى بسلام ، دون أن تتقارع
الهراي ، وتتطاير الكراسي ، ويستدرج الصعيدة إلى السكين ، لتلقى في
وجوههم الزجاجات المملوءة بالرمل والزلط ، فقد نامت الحزازات ، ووثدت
النمرات ، واتحد الجميع ككفاح الغاصب الدخيل ، كانت هناك ثورة ، وحدث
الصفوف ، وصهرت النفوس ، ومسحت من الصدور الأحقاد .

٢٢

غصت الغرفة بالفتيات وصغار الأولاد ، يحمل كل منهم في يده قطعة من القماش وقد امتلأ صدره بشرا ، فراح يثرثر فرحا ، يقص ما يتمنى أن يفعله في العيد ، وهو في ثوبه الجديد ، كانوا نسل الثيران هرعوا إلى صفية لتفصل لهم ملابسهم ، فهم يلوذون بها جميعا كلما وفد عيد ، أو جاءت مناسبة تستدعى ثوبا جديدا . وأكبت صفية على « آلة » الخياطة ، تدير عجلها بيد ، وتحرك الثوب تحت الإبرة الصاعدة المأبطة ، وهي ترقبه في انتباه ، ومشى التعب إلى يدها ، فالتفتت إلى صبي قريب منها ، وقالت له :

— أدر العجالة .

فارتفعت أصوات الجميع مدوية في الغرفة :

— أنا يا امرأة خالى ، أنا يا امرأة خالى .

وتدافعوا على يد الآلة ، يحاول كل منهم أن يفوز بها ، وارتفع صياحهم حادا ، فأحست صفية كأن أعصابها تتمزق ، فقالت في حدة :

— لا أنت ولا هو ، سأديرها بنفسى .

كان أهون عليها أن تتحمل ذلك التعب الذى تحسه يدب فى أوصالها ، من ذلك الصراخ الذى يحطم أعصابها ، وانسحب الأولاد إلى أماكنهم ، ولزموا الصمت برهة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يكبحوا شهوة الكلام فى نفوسهم ، فصاحت فتاة :

— أريد حزاما لشوبى .

فأغرى ذلك الجميع بأن يفصحوا عن رغباتهم ، فارتفعت الأصوات :

— أريد جيبا على صدرى . . . أريد وردة . . . أريد أزرا أحمر كبرى ،
أريد . . . أريد . . . أريد . . .

وامتزجت الأصوات حتى صارت دويا ، ودار رأس صفية ، فصاحت :

— هس . . . هس . . .

وساد السكون ، ولكن كيف يطيق الأولاد الركون إلى الهدوء ، فتقدمت فتاة إلى طرف الثوب المتدلى بعد الإبره ، وأخذت تجذبه ، وصاحت فتاة أخرى

محتدة فهي لا تجد مكانا تجلس فيه ، وتشاجرت فتاة مع غلام ، لأنه استولى على مكانها ، وتحملت صفية ، وبهاهدت لشكبت غيظها
ولم يلبس صبي تلك الفتاة الواقعة قبالة امرأة خالتها ، تجذب القماش في رفق ،
لتعاون « الآلة » على أن تمر في سرعة ، فهنت نفسه أن يفعل مثلها ، فانسمل
في خفة ، وذهب إليها ، وجذب معها القماش في قوة ، فكسرت الإبرة . وانفجر
مرجل غضب صفية ، فصاحت محتدة :

— الله ياخذكم أولاد شياطين .

وكأنما اضطهد الغلام لغير ما ذنب فبكي ، وكأنما لم تكن دموعه كافية للاحتجاج
على ذلك الظلم ، فصرخ وهو يذشح بالبكاء ، ليبلغ صراخه مسامع أمه ، فتهيب
لنجدته ، فقامت صفية تربت عليه ، وتمنيه الأمانى ، حتى كف عن النحيب ،
ولو تجاوبت مع نفسها ، وكانت صادقة مع مشاعرها ، للطمته على وجهه ، ونفست
عن ذلك الكرب الذى يضيق به صدرها .

وتم ثوب ، فتقدمت صاحبه وارتدته ، ونظرت صفية إليها وقالت :

— الله . . . جميل ، هيه ؟

فقطبت الفتاة جبينها ، ومطت شفرتها ، وهزت كتفها استياء ، فقالت لها صفية :

— ألا يعجبك ؟

— ثوب تحية أجمل منه .

فقالت صفية فى دهش :

— إنه لا يفرق عن ثوب تحية .

— لا . . . جعلت لتحية جبين ، وليس لثوبى إلا جيب واحد .

وراحت صفية ترضى هذه ، وتنفذ رغبات ذاك ، وتحمل صراخ الجميع ،
وتصرم النهار ، وانقضى من الليل ثلثه ، فأحست رأسها يدور ، وراحت الأشياء
تراقص أمام عينها ، فالتفت إلى الأولاد الباقين فى الغرفة ، وقالت :

— تعبت عيناي ، وهجم الليل ، غدا أقص لكم ثيابكم فى النهار .

فقام الأولاد ، وانسلوا من الغرفة صامتين ، وانصرفوا وهم يحسون مرارة ،
وراحوا يهبطون فى الدرج غاضبين ، ولم تستطع فتاة أن تكتم غيظها ، فأجهشت
بالبكاء ، فهرعت إليها عزيزة تستفسر بصوت عال :

— مالك ؟ ماذا جرى ؟

— فصلت امرأة خالى ثيابهم جميعا ولم تمس ثوبى .

فتألمت عزيزة فى انفعال :

— مال بختنا فى هذا البيت ، لم يعد أحد يحسب لنا حسابا . . سقطنا فى القاع .

وأخذت عزيزة ابتها فى يدها ، وراحت تضمد فى الدرج وهى ترفى وتزبد ، حتى إذا دخلت على صفية صاحت :

— أيعجبك هذا ؟ أرضيك أن تنام البنت وهى حزينة ؟ ! لماذا كسرت خاطرها ؟ ! آه لأنها أبتى ، فلو كانت بنت زهيرة لفصلت ثوبها أول ثوب . ليس لنا فى البيت حبيب .

ولم تنبس صفية بكلمة ، تناولات الثوب ، وراحت تفصله ، فماستقاسيه من جهد أخف من وخزات لسان عزيزة السليط ، فأكبت على الثوب ، وهى تكاد تسقط من التعب .

٣٣

هبط النجرو من الحربة زائع البصر ، يتلفت فى شرود ، ثم يقطب جبينه ويغمغم ويطوح يده فى الهواء فيزداد وجهه عبوسا ، وسار يتكفأ ، حتى إذا بلغ حليلة ، رنا إليها فى حب ، وانبسطت أساريه ، ودنا منها خافق القلب ، ثم قال فى رقة :

— لماذا لم تأت يا جورج ؟ انتظرتك الليل الطويل .

نظرت إليه حليلة ، فلما رأت حدقتيه قد اتسعتا ، وقد اتسعت ملاحظه بالجهد اضطربت ، ولم يفتن إلى اضطرابها ، وراح يقول :

— أعرضت عني لأننى فتحت لك قلبي ، أنسيت يا جورج تلك الليلة التى داعب فيها شعرك الأصفر وجهى ؟ إذا كنت يا جورج قد محوت ذكراها من رأسك ، فلن أنس ما حييت نظراتك الحارة المنبثة من عينيك الزرقاوين ، لقد أثرت تلك الليلة فى قلبي ، حتى الموت لن يستطيع أن يحق مشاهدتها من نفسى .

ودق قلب حليلة خوفاً ، وزاد في خوفها ذلك الليل الوافد ، وذلك السكون
الذى ران على الحارة ، فثبتت في مكانها رهبة . خشيت إن فرت من أمامه أن
ينقض عليها . وازداد قرباً منها ، حتى أحسست أنفاسه الحارة تلفح وجهها ،
وراحت الكلمات تتدفق من فمه :

— أحبيبتيك يا جورج ، أحبيبتيك من كل قلبي ، لا أستطيع أن أعيش وأنت
بعيدة عني ، تعالى يا جورج . . تعالى معي .

ومديد يده يجذب حليلة ، ففزعت وهبت منتصبه ، وقلباها ينهق في شدة ،
وهمت بأن تصرخ ، ولكن مات صوتها على شفيتها ، ولحت شبحاً قادماً ، فأسرعت
نحوه تحتوى به ، واتضح الشبح لأمينها فإذا به علي ، فلما رآها حياها :

— مساء الخير يا حليلة .

فقالت وهي تغد السير :

— مساء الخير يا سيدي .

ورنت تحية على الحليلة في أذن النجرو غريبة ، فراح يرمق عليها في إنكار ،
فلما غاب عن عينيه ، قال في إشفاق :

— يا للمجنون الذى لا يعرف جورج . . . حبيبتي جورج .

وعاد النجرو إلى الحربة ، ينظر في شروود ، ويتحدث إلى شبح حبيبته
المائل لعينه على الدوام ، في الليل وفي النهار .

ودخل على على صفيية ، وما إن جلس حتى قرأت في عينيه رغبة في أن يفضى
إليها نبأ ، كان بسيطاً ، فكانت دخيلة نفسه تقرأ على وجهه ، فقالت :

— هيه ؟

فقال وهو يتسم :

— قابلت الحاج كرم اليوم

— وكيف حاله ؟

— بخير .

ثم اعتدل ، ونأهب ليفضى إليها بالبأ ، قال :

— وقد عرض على أن اشتغل عنده .

وصممت صفية ، ولم تنبس بكلمة ، كانت في قرارة نفسها تشتهي أن يتبدل زوجها عملاً ، ولكنها لم تشأ أن تدخل بينه وبين أبيها ، وأراد أن يخرجها من صمتها ، فقال :

— ما رأيك ؟

— ليس لى رأى فى هذا .

فقال وهو يبتسم :

— قبلت عرضه بعد أن ألح على .

وشاء أن يطمئنها إلى أنه لن يعمل أجيراً إلا لفترة قصيرة إلى أن يستعيد تجارتها ، فقال :

— لن أمكث عنده طويلاً ، فقد تيقنت اليوم أن الحكومة رصدت المال اللازم لشنق الشارع الجديد ، إنها شهرور قليلة وترتفع بعدها قيمة هذا البيت ، سأبيع يومها نصيبى فيه وأستأنف تجارتى ، ولن أبخل بمال أنفقه فى تربية أولادى ، إننى أكاد أشم رائحة الرخاء ، متعود إلينا السعادة .

واسترسل فى أحلامه ، وقد عجز عن أن يرفع صفية معه لتجلق فى دنيا الأوهام ، شدها الواقع إلى الأرض ، كانت تدبر إنفاق ذلك الدخل الثابت الضئيل على بيتها ، ذلك الكراء الذى حددته أبوها لزوجها ، والجنهات الثلاثة التى يبيت بها لبيب فى أول كل شهر ، مشاركة منه فى أعباء الأسرة .

٣٤

استيقظ أبناء صفية فى البكرة ، وأسرعوا يرتدون ثياب الخروج مستبشرين ، فالיום يوم زيارة جدّهم ، وهم يحبون ذلك اليوم ، للعطف الذى تسبغه عليهم جدّتهم ، بعيداً عن عيني الحاج كرم ، الذى كان يلومها ، كلما رآها تسرف فى إطعامهم ، خشية أن تتلف السكظة بطونهم !

وتأهبوا للانطلاق ، فأمرت صفية نحية وزكريا وخالدا أن يسبقوها إلى هناك ، فتعلق جلال بهم ، فقال له خالد :

— اذهب أنت معهم ، وسأبقى مع أمى آخذ بيد سعيد .

وراح خالك يدور حوله أمه ، فقد كان يدور في رأسه سؤال يخشى أن يفسح عنه ، وأخيرا جمع أطراف شجاعته ، ورنأ إلى أمه وقال :
— لماذا لا يعطينا جدى قرشا نشترى به حاوى ؟
فقال له زاجرة :

— هس .
وفسكت عقدة لسانه ، فقال :
— أجدى بخيل ؟
— هس ، اخرس .
— عمى عزيزة تقول إنه بخيل .
فقال في انفعال :

— قلت لك : اخرس وإلا ضربتك ، إياك أن تعود إلى هذا ، وإياك أن تنقل كلاما سمعته .

ورأى الغضب في وجهها ، فصمت على كره منه ، كان يود أن يعيد على مسامع أمه ما سمعه من عمته عن جده ، لا حبا في نقل الحديث ، بل لأن ذلك الكلام يصادف هوى في نفسه ، فلو أن جده أعطاه قرشا كلما زاره ، لأغضبه تعريض عمته به ، ولو أنه أعطاه برتقالة من ذلك البرتقال الكثير الذى يوضع أمامه ليأكله وحده ، دون أن يخشى على معدته ، لثار في وجه عمته كلما ذكرته بسوء ، ولكنه كان يرى في سخريه عمته به ، وتندرها ببخله ظلا من الحقيقة ، فكان يصغى إليها دون أن يغضب أو يثور .

وبلغوا دار الحاج كرم فاندفعوا مهرولين ، ينقبون عن جدتهم ، حتى إذا وجدوها ، التفوا بها فرحين مهللين . فاستقبلتهم في بشاشة ، وجمعتهم حول مائدة في المطبخ ، وقدمت لهم الفطور ، فأكبوا عليه مسرورين ، كان الطعام أحب شيء إلى نفوسهم في ذلك البيت الكبير .

وجلست صفية إلى جليلة ، وأخذتا في الحديث ، قالت جليلة :

— بهاء مسرور من لبيب ، انتظمت الدائرة ، وقلت السرقات ، إنه لا يذكره إلا بالخير ، كان عمله عندنا كسبا لنا ، إننى أحب لبيب ، فهو رجل يقدر المسؤولية ، وأرجو أن يقدر أولادك الظروف كما قدرها .

انتشرت في صدر صفية موجة من السكدر ، فكلام أختها يهز روحها وخرأ ألبا ، فإذا كانت الحاجة اضطرتها إلى أن تقبل أن يحمل لييب على عاتقه النقص بعض أعباء الأسرة ، فلن تسمح أبدا أن يخرج أبناؤها إلى مسترك الحياة قبل أن يشتد عودهم ، وأن تسلمهم بأسلحة ماضية تيسر لهم شق الطريق ، ستتجمل العباء كله وحدها ، ستجاهد وتضرب ، حتى تأخذ بأيدي أبنائها إلى السبيل المفروش بالآمال والوعود ، ولو اضطرت إلى أن تتمد على بطنها حجرا ، لتسكت ألم الجوع .

وانقضى النهار ، وآب الرجال إلى البيت ، فحظ أبناء صفية إلى أخوالهم يتوددون إليهم ، فقابلوهم في فتور ، كانوا ينظرون إليهم كشمرة صفقة خاسرة ، وزاد في نفور الأخوال منهم ، أن أباهم أصبح عندهم أجيرا .

ولمحو أبناء جليلة ، فانبسط أسارىهم ، وذهبوا إليهم يداعبونهم ، ويضمونهم إلى صدورهم فرحين ، فهم يضمون إلى أفئدتهم أموالا عزيزة ، فكل طفل منهم يبدو لأعينهم الحاسبة ألوا وفدا دين .

ولمخ خاله درية ابنة خاله تحبو ، ففرح بها ، وذهب إليها وحماها ، وضمها إليه وهو يحس في أعماقه أنه يحمل شيئا ملك يمينه ، فاستشعر راحة ، ولو خطر على قلب خاله ما يدور بخلد الغلام ، لحطف الطفلة من ذلك الفقير ، خشية أن ينتقل الفقر إليها بالعدوى .

٣٥

إسماعيل سائر في الحارة بجسمه ، تائه عما حوله بالرؤى العجيبة التي يمدده بها ذهنه الذي خدرته قطعة المنزول . ومس أذنيه صوت المؤذن يؤذن بالعصر رقيقا ككلم جميل ، فأغراه ذلك بدخول المسجد ، والجلوس عند المحراب في خشوع ، وطاف برأسه لحن ماجن ، فجعل يردد في أعماقه ، وامتلأ نشوة ، فبرز رأسه ذات الشمال وذات اليمين ، ثم أخذ يهتز بكل جسمه ، حتى إن من يراه يحسبه غارقا في التسبيح .

ونودي على الصلاة ، فقام الناس ، وعرضوا على إسماعيل أن يصلي بهم ،
أخراهم هديوه وخشوعه وتسميته ، فتقدم يؤم المصلين في وقار ، وصلى الركعة
الأولى ، ووقف يفتح الركعة الثانية ، فصور له خياله أن الصلاة طويلة طويلة ،
لأن تنهى ، فسلم وهو واقف ، وخرج من الصلاة ، والتفت إلى من خلفه وقال :
— لا تؤاخذونا ، أنتم أصلاتكم رحمكم الله .

وتقدم رجل يؤم المصلين ، فحسبه قد تحرك ليشيعه حتى الباب ، فقال له :
— متشكر . لا تنعب نفسك ، أعرف الطريق

وانطلق في الحارة ، فلما بلغ الدار ألقي حليلة رابضة في مكانها ، إنه يراها
في غدوه ورواحه ، فخيّل له وهمه أنها لا تريم ، حتى خطر له أن يمد يده
يتحسسها ، فمن يدري فقد تكون عملا ، ولكنه عاد وأحجم ، وقال وهو
يدخل من الباب .

— السلام عليكم يا أم الهول .

فنظرت إليه في دهش ، ثم راحت تنظر إلى نفسها ، لعلها تجد ما تنكره ، فلم
تجد شيئا ، إنها هي حليلة ، في ثوبها الأسود . وطرحتها التي كلج سوادها ، فما
بال النجرو يأتي إليها بهذيانه يدعوها جورج ، وما بال إسماعيل يدعوها اليوم
أم الهول ؟ وشغلت بالتفكير في ذلك ، حتى كادت تدعو جارا تسأله عما طرأ عليها
من تبدل أو تغيير .

وصعد إسماعيل إلى شقته ، فإذا بجلبة صياح ، وإذا بزوجه عزيزة وأختها
زهيرة واقفتان تتحدثان ، فقال :

— ما شاء الله . . . ما شاء الله ! البيت دائما نابض بالحياة .

فقالت زهيرة وهي ترنو إلى أختها من طرف عينها :

— قبل سيد وسليمان وزكريا وخالد في المدرسة الابتدائية .

فقالت عزيزة وهي تلوى قمحا في استخفاف :

— يا وكسة ! لماذا كل هذه الضجة ، أفتحت لهم أبواب الدواوين ، والله

لو أنصفوا لأراحوا أنفسهم من تعب القلب ، إنهم من العنابر ، وليس لهم عيش
إلا في العنابر .

فقالت زهيرة في نعومة :

— حرام يا عزيزة ، من يدري ؟ !

وفطنت عزيزة إلى أن أختها تقول لها : « استرسلى » فقالت :

— ألى من العنابر وأزواجنا من العنابر ، وأولادنا للعنابر ، فلو أنصفنا
لأعدنا لهم من الآن الثياب الزرق ، بدل المدارس وتعب القلب .

فقالت زهيرة لتلقى على الحديث نارا :

— لا أظن أن صفية ترضى أن تشغل أبناءها في العنابر .

فقالت عزيزة في سخرية :

— إذا كانت لا ترضى بالعنابر ، فدكاكين الحدادين والتجارين والحلاقين

واسعة .

وراحت عزيزة ترسم لصفية وأولادها المستقبل الذى يترقبهم ، لم يكن فيه
بشيء من نور ، وزهيرة تصغى إليها متلذذة وإن تظاهرت بإنكار الحديث ،
والإعراض عنه خوفا من الله ورهبة !

وكانت صفية فى شقتها تحاول أن تثنى خالدا عن تصحيحه الخطأ ، قبل
فى المدرسة مجانا ، وقبل زكريا بالمصروفات ، فرأى أن يحتج على ذلك القرار ؛
ولما كان يحسب أن كل شيء يؤخذ قهرا ، فقد رأى أن يؤدب المدرسة بأن لا يذهب
إليها حتى تقبل زكريا مجانا مثله ؛

راحت صفية تبصره فى تودة إلى خطئه ، وأن ذلك لن يعود إلا عليه وحده
بالحسران ، ولأنه ركب رأسه ، فلن يحيد عما عزم عليه ، إلا إذا عادت المدرسة
فى ذلك القرار .

ومر أسبوعان ، ولان لحديث أمه ، فذهب إلى المدرسة ، ولأن المدرسة
رفضت أن تقبله إلا إذا سدد المصروفات ، فاضطرت صفية إلى أن تدفع مصروفاته ،
بعد أن دفعت مصروفات زكريا ، فزاد على الأسرة عبء جديد ، كانت فى غنى
عنه ، لولا رغبة خالد فى أن يقهر المدرسة ويؤدبها !

فاطمة ترى في نومها يونس محمدا في فراش أبيض ، وقد ارتدى ثوبا أبيض ،
تملأ وجهه صفرة ، إنه يبدو كالليل ، بعد يده وينادي : « أشرب ، أشرب . .
قليل من الماء . . أنا عطشان . . عطشان » ، فلا يجيبه أحد .

وانجحت تلك الصورة ، وإذا بها ترى نفسها ، تسير في طريق قفر ، محاولة
الشعر ، حافية القدمين ، في أعماقها حزن ، وسرعان ما انجحت هذه الصورة
لترى البحر هائجا مأججا ، يتدفق صوبها حتى يفرقها ، ترفع يديها وتجاهد ،
لتنقط أنفاسها .

واستيقظت من نومها مفروعة ، يدق قلبها دقات عالية متتابعة ، تدثرها
رهبة ، ميفشها قلق ، فتجلس في فراشها وتتلفت ، فيزيد في خوفها ذلك الظلام
الجاثم في الغرفة ، وتحس جفافا في حلقها ، فتنهض إلى القلة ، وترفعها بيد مضطربة ،
وتعصب مابها في جوفها .

وانجحت إلى الشباك وفتحته ، فلفح الهواء البارد وجهها ، وأفرخ روعها ،
فعدت إلى فراشها واضطجعت ، فإذا بها تفكر في حلمها برغمها ، فتنبض وتستعيد
بالله من الشيطان الرجيم .

وأشرقت الشمس ، وقامت فاطمة تغدو وتروح ، وهي مشغولة بحلمها ، فهو
حلم قاتم يثير المخاوف ، فباتت تخشى المجهول ، وأحست رغبة في أن تتحدث إلى
أحد ، لتنفس عن ذلك التشاؤم المكبوت في صدرها ، وما إن رأت زهرة مقبلة
لتؤنسها في وحدتها حتى قالت لها :

— رأيت الليلة حلما مفرعا .

فقالت زهرة في اهتمام :

— خيرا ، اللهم اجعله خيرا .

— رأيت أباك مريضا ، يطلب شربة ماء ، ولا يجد من يسقيه .

فأطرقت زهرة أسفا ، ولم يكفها أن يبدو عليها ذلك الأسف الطبيعي ،
فأرأت أن تبالغ في إظهار شعورها ، لتؤكد لأمها رقة مشاعرها ، إنها تحب أن
تمدح ، وأن يقال عنها إنها رقيقة القلب كريمة خيرة ، لاندم أحدا خشية من الله
ورغبة ، فقالت وهي تتظاهر بكفكفة دموعها بظهر يدها :

— ساعننا يا أبى ، فإذا كنا قصرنا فى حقلك ، فإننا نستحق صفحك ، لمذهب
لزيرة قبرك ، شغلنا الدنيا عنك ، ولكننى آتية إليك يوم الجمعة لأسقيك . . .
سأسقى السطشى على روحك حتى تروى .

واستشمرت فاطمة بعض الراحة ، وهمت بأن تفضى إليها بتلك الرؤيا التى
تترامى لعينها ، إنها ترى نفسها محمولة الشعر حافية القدمين ، وترى البحر
المزجر الطائل يغمرها ، ولكنها أحجمت خشية أن تنفخ زهرة فى نار مخاوفها .
وعادت زهرة إلى شقتها ، وبقيت فاطمة وحدها تهيش فى فكرها ، وبينما
هى تستعيد ذكرياتها إذ سمعت طرقا على الباب ، كان متتابعاً متصلاً ، فانداحت
فى خوفها رهبة ، وأحست قلبها يتفزع ، حتى ليكاد يئب من فهمها ، كانت رؤيا
الليلة تستبد بها ، فتتضخم انفعالاتها .

وذهبت إلى الباب مضطربة ، وفتحته ونظرت ، فاستع عيناها دهشاً ،
ثم صاحت فى صوت مدهوف :

— أبى حسان . . حبيبي حسان .

وارتمت فى أحضان ابنها ، وراحت تقبله وهى فى غيبوبة لذيذة ، تداعب
أذنيها غمغمته :

— أمى . . أمى .

وامتزجت الدموع ، وانبثق من قلبيهما أرق الإحساسات .
وراحت تتحسس يدها ، إنها لا تكاد تصدق عينيها ، وظلت تنو
إليه وتهتف :

— حسان . . أبى حسان .

وأفعمت بالنشوة ، فأخذته من يده إلى أقرب أريكة ، وقالت :

— اجلس . . اجلس يا حبيبي .

وهرولت إلى الدرج ، وهتفت فى فرح :

— على . . حسان جاء . . ثريا . . زينب . . عزيزة . . زهرة . .

إسماعيل . . تعالوا ، لقد جاء حسان . . عاد حسان . . عاد حبيبي .

وهرعت إليه تذرف دموع الفرحة .

جلس الحاج كرم في صدر الدكان ، ووقف أولاده حوله يصغون إلى حديثه ،
ويوافقون على كل ما يقول ، كان يتحدث عن التجارة ، ويبصر أولاده بما يفسلون ،
وجلس على كل كرسي من كرسي المقهى القريب من مدخل المحل ، وأقبل زبون ،
فدعاه إلى الجالس ، ومر صبي المقهى ، فطلب على الزبون كوبا من الشاي ،
وسرعان ما تذكر الحاج كرم ، فشعاره عدم تقديم مشروبات للمعاملين ، فالمحل
أسس للتجارة لا للترفيه عن الوافدين ، فرمقه بطرف عينه ، فألفاه مقطب الجبين ،
فمد يده في جيبه ، وأخرج قرشا ، ودفعه للصبي ثمن ما طلب .

كان على يعرف طبع الحاج كرم ، ولكنه لم يقو على قهر طبعه ، فهو رجل
عجالات ، لا يستطيع أن يقابل أحدا دون أن يحجيه ، وأن يطلب له طلبا ،
حتى ولو لم يكن معاملا ، وكان يدفع ثمن ما يطلب من جيبه ، وإن لم يكن ذلك
ليعفيه من وخزات الحاج كرم .

وباع على الزبون بضائع كثيرة ، وتسلم منه ثمنها ، وذهب إلى الحاج ، ودفع
إليه بالنقود ، فجعل يعدها في حرم ، ثم أعادها إليه وهو يقول :
— القيمة ناقصة .

فقال على في بساطة :

— ناقصة قرش صاغ .

فقال الحاج في صراحة :

— لا نستطيع أن نترك قرشا لهذا وقرشا لذلك .

وأخذ على النقود ، ورجع إلى الزبون يعيد إليه نقوده ، وهو يعجب
في نفسه من الحاج الذي يرفض سبعين جنيا ، لأنها ناقصة قرش صاغ واحد ،
وكان الحاج وأولاده يرمقونه في نفس الوقت ، وفي قلوبهم إنكار ، أفصح عنه
أحدهم بقوله :

— لو سرنا على هواه لأفلسنا كما أفلس .

ورأى الحاج كرم أن يلقيه درسا في التجارة ، فناداه :

— علي ، تعال .

فأقبل عليه ، وهو يحسب أنه يريد له لتجهيز طالب ، ولكنه فوجئ ،
وهو يقول له في لهجة فيها رنة تأنيب :

— ما الذي يضطرك إلى قبول ثمن البضاعة ناقصا ؟

— كانت هذه النقود كل مامع الزبون ، كانت القيمة تنقص قرشا واحدا ،
فلو أننا قبلنا منه المبلغ لكسبنا مبعين بغيرها وكسبنا الزبون .

فقال له الحاج وهو يضغط على الكلمات لترسب في أذهان أولاده :

— إذا أردت أن تتصدق فلا تشغل بالتجارة ، التجارة شيء ، والإحسان
شيء آخر .

ثار علي ، ورأى في وجوه أبناء الحاج إعجابا وموافقة ، فزادت ثورته ،
وكاد ينفجر ، ولكنه كان يعرف نفسه ، فهو إذا ثار لا يبقى ولا يذر ، فكبح
جراح نفسه على مضض ، حتى لا يئضب صفية ، ولا يحملها لها جديدا على المسموم
الكثيرة التي تحملها صابرة ، دون أن تتذمر أو تنبس بكلمة .

راح علي يعمل صامتا ، يأخذ النقود كاملة من المبتاعين ويدفع بها إلى الحاج
كرم ، وفي ذات مرة بينما كان الحاج يتناول منه النقود ، إذ سقطت من كفة قطعة
من ذات القرشين ، فقام يبحث عنها ، وأخذ أولاده يعاونونه دون جدوى ، ولما
يئس من العثور عليها ، التفت إلى علي وقال :

— مستحمل قرشا وأتحمل قرشا .

وحسب علي أنه يمزح ، وأنه ما قال ذلك إلا ليصالحه . وجده صامتا طوال الوقت ،
فأراد أن يخرج من صحته ، وأن يمسح ما خلفته في نفسه إساءة الصباح ، ورأى
على أن يجاريه في مزاحه ، فمد يده في جيبه وأخرج قرشا دفعه إليه ، وكم كانت
دهشته لما رأى الحاج كرم يضع القرش في صندوق النقود ، دون أن يحتاج
في وجهه خالجة .

٢٨

وفد الليل ، فدفبت الحياة بعد فترة قصيرة من المدوء في البيت الذي يدوى
تخيلية نحل ، فالتيران منابطون للسهر ، والنسوان على رأس الدرج يذكرنهم بأشياء
يأتون بها عند أوتهم ، فاختلطت الأصوات الحادة بالأصوات الفليضة ، فكان
لها في بئر السلم رنين ثقيل على الأذن ، فهروا الرجال في الدرج ، للخروج من
الصخب البغيض .

وفي الحارة تقابل حسان وإسماعيل ، سارا معا حتى إذا بلغا أول الشارع ، قال
إسماعيل في استخفاف .

— إلى أين ؟ إلى نادى الحزب ؟ !

فكدت صفحة وجه حسان موجة خفيفة من الأسى ، لم يشأ أن يستسلم لها ،
فقال وقد انفرجت شفاته عن أسنانه :

— ذاهب لأرطب حلقى بكأسين .

فقال إسماعيل ، وهو يجذبه في طريقه :

— مرحبا بالرفيق الجديد ، أنت ضيفي الليلة .

— أشكر لك هذه الدعوة ، فما كان مهي ما يكفينى من نقود .

فرنا إليه إسماعيل وقال :

— إننا لا نكرم الضيف إلا ليلة .

— يكفينى أن أعيش الساعة .

— وغدا ؟

— يتكفل بنفسه .

فقال إسماعيل مرتاحا :

— من علمك هذه الحكمة ؟

— قصف المدافع ، ودوى القنابل .

فقال إسماعيل مزهوا :

— أحمد الله أننى اهتديت إليها وحدى ، لم أركب فى سببها مخاطر وأهوالا .

فقال حسان وقد شرد بعصره :

— شربت لأنسى ما رأيت من فظائع ، وأنت لماذا تغرق في الشراب ،
ماذا تريد أن تنسى ؟

فقال إسماعيل وقد رقت على فمه ابتسامة :

— أقولها ولا تنضب ، شربت لأنسى أختك وأهوالها .

وبلغا حانة متواضعة ، تناثرت فيها أخونة ذهب طلاؤها ، فبان خشبها ،
ووضعت حولها كراسى تمزق قشها ، وقد غصت ببعض الصيادين في سراويلهم
السوداء المخرجة وقد لفوا حول كروشهم أحزمة عريضة بيضاء وحمراء
وسوداء ، وغطوا رموسهم بطواق زخرفت بثقوب ، وبعض الجمالين في ثيابهم
الوطنية ، وعمال العنابر في جلابيهم البلدية ، وجلس في ركن من الحانة حوزى
في ثياب ممزقة ، قد برز شعره الأبيض من تحت الطربوش المفبر ، رفع عقيرته
بالقناء وهو يسند خده بكفه :

« حمامة بيضة ومنين اجيها * * طارت يا نينة عند صاحبها »

وقف إسماعيل على باب الحانة يدور بهينه في المكان ، يبحث عن رفاقه ،
وإذا بصوت ينادى :

— يا إسماعيل . . ياسى إسماعيل .

فالتفت فألقى أصدقاءه جالسين حول خوان كبير ، ومعهم أناس لا يعرفهم ،
فذهب إليهم وحسان يسير إلى جواره ، وقد تأخر عنه خطوة ، حتى إذا بلغوا الحلقة ،
ألقى إسماعيل السلام ، فقال أحد أصدقائه فى زهو يعرفه السجودين :

— إسماعيل أفندى ، أكبر شريب فى حيننا .

فقال أحد الغرباء ، وهو يشير إلى رجل مكثز اللحم ، ذى كرش ضخم :

— المعلم سلطان ، شريب دولى .

وجلس إسماعيل وحسان ، ودارت الكئوس ، وما إن شرب حسان كأسين
حتى شرد واجما ، وظل إسماعيل يلقي بما فى الكئوس فى جوفه ، فقال صديقه :

— إنه يشرب برميلا ولا يدور رأسه .

فقال نصير المعلم سلطان :

— المعلم يشرب بحرا دون أن يفقد وعيه .

وضايق صديق إسماعيل ذلك التحدى فقال :

— الحمر موجودة ، والله يكذب الفطاس . فليشربا ، فإذا دار رأس إسماعيل — وأنا واثق من أنه ان يدور — دفعت أنا الحساب ، وإذا دار رأس المعلم دفعت أنت الحساب .

فقال نصير المعلم في حماسة :

— موافق .

وجىء بالحمر ، وانتشر في الحانة خبر ذلك الرهان ، فاجتمع الناس حول المائدة ينظرون ، وملئت الكؤوس ، وأفرغت في الجوفين دون أن يبدو الوهن في وجهيهما ، أو يظهر في العيون أثر ذبول ، والتفت إسماعيل إلى نصير المعلم وقال له :

— سأنهى هذا الرهان الآن رافة بك .

فابتسم الرجل في سخرية وقال :

— والله لا يستحق الشفقة إلا صديقك .

وأخرج إسماعيل من جيبه قطعة من الأفيون ، قسمها نصفين ، وأذاب قطعة في كأسه ، وأذاب القطعة الأخرى في كأس المعلم ، ورفع الكأس وقد تعلقت السيون به ، ونجرتها دفعة واحدة ، ثم مسح فمه بظهر يده ، وظل ثابتا كالطود ، ينظر إلى منافسه في تحد واستخفاف .

وقبل المعلم ذلك التحدى بأن رفع كأسه ، وشمخ برأسه ، وألقى به في جوفه ، وماهى إلا لحظات حتى رأى المعلم الحانة تتراقص أمام عينيه ، ثم سقط على الأرض ، فالتفت إسماعيل إلى نصير المعلم وقال له :

— ادفع الحساب قبل أن تحمله .

وخرج إسماعيل يتبعه حسان في وجومه ، وحمل المعلم سلطان إلى داره ، ليملك فيه ثلاثة أيام ، غائبا عن الوجود لا يفتح له فم .

وانطلق إسماعيل وحسان إلى البيت ، وقد لاح في الأفق الشرقى ضوء فضى قائم ، خلفه على صفحة السماء الزرقاء تنفس الفجر ، ودخل حسان غرفته وأصوات

الديكة تتجاوب في الفضاء ، ورأى الفراش يرحب به ، فألقى نفسه فيه ، وروى
في أذنيه صوت أمه ، فخيّل إليه أنه يحلم ، ولكنّه فتح عينيه في جهد ، فألمحها
تنظر إليه في أسى ، وتقول :

— ألا ترحمنى يا حسان !

وأسبل جفنيه ، وراح في سبات ، ولم يشعر إلا وهى تهزه وتعنفه :

— هذا حرام ، من ذا الذى سيدفع لك ثمن هذا السم ، حرام أن تبقى عبثاً
على أخيك ، ليته يستطيع أن ينهض بعثته ، وقد جاءه ولد جديد . ما الذى تنتظره
يا حسان ، إننا لانتك شيئا ، فهلك أن تكسب قوتك لا تكن حملا علينا ، لماذا
لا تذهب إلى عمالك ؟ يجب أن تعمل من الغدا يا حسان .

فهمهم :

— غدا ، سأذهب إلى العمل .

وغط في نومه ، فتركته وهى تنكره ، لم يكن هذا حاله قبل أن يذهب ،
إنه ليخيّل إليها أن حسان الذى أحبه فقدته ، وعاد إليها حسان آخر .

وأشرقت الشمس ، وصر الضحى وأذن المؤذن بالظهر ، ومالت الشمس
وهو فى فراشه ، ثم استيقظ ، فلما رأى أمه ، هتف :

— آكل .

فراحت تعد له الطعام الذى أرسلته صفيّة ، كانت تبعث إليها أطيب ما عندها
من طعام ، حتى فى أقصى أيام ضيقها ، ونهض يلتمسه وهى ترمقه دامعة العين ،
كسيرة الفؤاد .

انسل زكريا إلى المسجد ، فقد توطدت الصداقة بينه وبين شيخ الجامع
الضرير ، كان يقرأ له الأحاديث ، وتفسير القرآن ، ويلقى عليه خطبة الجمعة مرة ،
فيسمعها دون أن يشلج أويبى منها فقرة ، وأعجب زكريا به ، فكان يحاكيه
في إلقاءه إذا اشرد بنفسه ، فانطلق لسانه ، حتى بات يتمنى أن يصعد إلى المنبر يوما
يلقى على الناس خطبة .

وذهب خالد وجلال وسعيد إلى رفاق الحارة يلعبون ، وراحوا يتدافعون ،
فدفع غلام جلالا ، فذهب خالد إليه وضربه ، كان نفس الغلام الذي ضربه يوم
أراد جلال أن يأخذ منه مصباحه ، فنظر الغلام إليه في غيظ ، مداه أن يضرب
في كل مرة ، وأحنقه ذلك الاضطهاد ، ولولا يقينه أنه أضعف منه لمجتم عليه
ينتقم لنفسه .

واستأنف الأولاد لعبهم ، وحسب خالد أن ما بينه وبين ذلك الغلام قد انتهى ،
كان يدفع في ثورته ، فإذا ما انقضت نسي كل شيء ، فما كان يحقد على أحد ،
ولكن ذلك الغلام كان يتربص الفرصة ليشفى تلك القرحة التي تأكل صدره ،
فما إن وجدته مشغولا عنه وقد أولاه ظهره ، حتى تقدم منه وضربه برأسه في مؤخر
رأسه ، فسقط خالته منشيا عليه ، وولى الغلام هاربا .

ورأت حليلة ماجرى ، فقامت مهرولة وحملته ، وعادت به إلى مكانها ،
وراحت تعالجه حتى فتح عينيه ، فأجلسته إلى جوارها يستريح ، فتقدم جلال
وسعيد يتمسحان به اطمئنانا عليه .

وأقبل النجرو ، وقد استرسل شعره ، واستطالت لحيته ، يرتدى قميصا
من الخيش ، ويدير حول عنقه مسبحة طويلة ، حباتها من الخشب ، وقد وضع
تحت إبطه ورقا أصفر ، ووقف ينو إلى حليلة في نظرات شاردة ، فتعلقت
عيون الأولاد به ، ومشيت في قلوبهم رجفة .

وبان في وجهه الغضب ، خفق قلب حليلة خوفا ، ولولا خشيتها أن تفرع
الأولاد ، لولت فرارا ، ولكنها افتعلت الهدوء ، وجعلت تعيد تنظيم الحلوى

فوق قفص الجريد ، وإن كانت ترقبه من بين أهدابها ، وفاض غضب النجوى .
فانهجر قائلاً :

— إن كنت أحببتك يا جورج ، فلا يعني ذلك أن تستدلى رقبتي ، فتحت لك قلبي ، فأعرضت عن حيي ، بعد أن مددت لي حبل الوصال ، عشت يا جورج رجلاً ، وأحب أن أعيش رجلاً ، لا أخفض الرأس لامرأة ، فإذا كان قلبي قد خائى وخفق بحبك ، فسأ كتم أنفاسه . . سأذك يا جورج كما أذلتني ، انتظرتك الليل الطويل أرصد مجيئك ، ولكن الليالي مرت وأنا أترقب ، وبالمראה الملاحظات التي كنت أهتدي فيها إلى الحقيقة الأليمة ، حقيقة أنك تتعمدين إزلائي ، ولكن لا يا جورج ، لن أذل لك أبداً ، وسأذك . . سأجعلك تسكبين الدمع من عينيك الزرقاوين الخائنتين ، سأقطع كل ما بيني وبينك ، ولن ينطق لساني باسمك ، لا تتوسلى إلى ، فلن أصفى إليك ، وقد أغلق باب قلبي دونك ، برئت من مرضى ولم أعد أحبك .

ومد يده وتناول الورق الأصفر من تحت أبطه ، وأخذ يلقيه في وجه حليلة وهو يزجر :

— هذه هداياك ، لا حاجة لي فيها ، وإن كنت آسفا على شيء ، فأسفي على قبلاقي الحارة التي طبعها عليها ، ليتني أستطيع أن أمحو آثارها ، أو أسترد حرارتها . وبسط ورقة طويلة ، وتفرسها ملياً ، ثم قال في صوت متهدج :

— هذه ورقة الطلاق ، جئتك بها لأقطع كل ما كان بيننا .

والنفت إلى الأولاد وقال :

— اشهدوا ، إنها طالق . . طالق . . طالق .

ودار على عقبه ، وسار صوب الخربة ، والأولاد ينظرون إليه ويتسمعون ، وحليمة ترنو إليه ، والدمع في عينيها يترقرق ، وما ابتعد خطوات حتى هتف من كل قلبه :

— نظرة يا جورج . . . يا جورج نظرة .

٥

انطلق زكريا وخالد وابنا شمتهم سيد وسليمان في طريقهم إلى المدرسة ، وهم يتحدثون ، واجتازوا جسر الحمودية ، وانسابوا في الطريق الذي اصطف على جانبيه صنوف من الصفايدة ، وقد اقترشوا الأرض يتناولون فطورهم ، وكان قرصا صغيرا من البتاو ، وقطعة جبن حلووم وضعت في علبة مستديرة من الصفيح ، كانت في ذات يوم وعاء لحفظ طلاء الأحذية . وكان الصفايدة يحجون كل صباح إلى هذا المكان ، فمن بعد حظه استدعى للعمل في « شون القطن » ، ومن أعرض عنه الحظ عاد يجر أذيال الإخفاق والمسغبة ، يعني النفس بالفرج في اليوم التالي .

كان الأولاد يشاهدون ذلك المشهد كل صباح ، فكان زكريا يفكر في هؤلاء البائسين ، يحاول أن يجد بذهنه وسيلة لرفعهم من ذلك الحضيض ، كان يفكر فيما تقع عليه عيناه ، يرى أمثال ذلك المشهد مشا كل تحتاج إلى حلول ، أما خالد فكان يحس إشفاقا عليهم ، فذلك المشهد يفجر منابع الرحمة في نفسه ، فيرمقهم وفي جوفه أسي عميق ، أما سيد وسليمان فكانا يلتقيان عليهم نظرة عابرة ، فهما يريان ذلك البؤس ظاهرة طبيعية كشروق الشمس وغروبها ، واكفهرار السماء وصفائها ، وحر الصيف وقر الشتاء .

ولف الأولاد سكون برهة ، قطعه سيد متمنيا ؛ كان يتهته ، وكان لسانه حبيسا ، قال :

— لولو . . لو ووجدنا المدرسة محرقة !

وصادفت هذه الأمنية هوى في نفس سليمان فقال :

— يا ليتنا نجدها قد انهارت أو تهدمت أو حدث بها ما يعطلها .

وكان خالد يتعمى في قرارة نفسه مثل هذه الأمنية ، ولكنه صمت ولم يفصح

عنها ، أما زكريا فقد قال :

— لماذا تكرر هون المدرسة ؟

فقال سليمان في ضيق :

— في حصة الحساب ضرب ، وفي حصة العربي ضرب ، وفي حصة الترجمة

ضرب ، وفي الإنجليزي ضرب ، وتمر النهار ونحن نتلقى اللطائف والصفحات والركل .

وقال سيد :

— أنا أكرهها لله في الله .

وساروا وأمنية وجود المدرسة منفلقة لسبب من الأسباب التي كانوا يتصورونها تداعبهم ، حتى إذا بلغوا المدرسة وألفوا أبوابها مفتوحة تستقبل الوافدين ، اغتصوا ودخلوها مطرقين ، وفي صدورهم حنق ، لأن القدر لم يحقق لهم أبسط الأمنيات ، ودق الجرس ، فاصطف التلاميذ صفوفًا ، ولم تحفّت ضوضاؤهم ، فأقبل مدرس وفي يده خيزرانة ، وصاح :

— مدرسة سكوت .

ولم تحف الجلبة ، فأخذ المدرس يجتاز الصفوف ، ويضرب هذا وذلك ، وسقطت الخيزرانة على أصبع خالد ، فانفجر باكيا ، وأحس العيون تتطلع إليه ، فساءه أن يبدو ضعيفا ، فتجلد على الرغم من الألم الشديد الذي يشعر به ، وكف فكف دسوعه ، ثم صاح في حنق شديد :

— والله لأنتقم مني وإن طال الزمان .

ومر الوقت في المدرسة وئيدا بغيضا ، وما دق جرس الانصراف وفتحت الأبواب ، حتى هرعوا يتدافعون كطيور حبيسة في قفس وجدت منفذا للفرار . وتنفس الأولاد نسيم الاطمئنان ، فساروا جماعات يتسامرون ، واجتمع زكريا وخالد وسيد وسليمان ، وقفوا إلى الدار عائدين .

مروا على الكتاب ، وألقوا الشيخ جالسا على حصيره ، وأمامه طبل قد أسند رأسه بكفه ، وأخذ يجذبه معه ويطلقه في اهتزاز ، وهو يسمع له القرآن ، فقفز إلى ذهن سيد خاطر ، فقال :

— تمتعوا لننضرب الششششيخ قرد .

ولم ينتظر رأيهم ، فقال يلتقط أحجارا ، ثم صوبها إلى الشيخ ، وأطلق ساقيه للريح ، فجري زكريا وخالد وسيد في أثره خشية انتقام الشيخ .

وأصبح ضرب كتاب الشيخ حسن بالحجارة في برنامج سيد اليومى ، كتناول طعام الفطور ، وتلقى اللطائف في حصة المطالعة ، وفي حصة المحفوظات ، وفي ذات يوم صوب الحجارة كهاتمه إلى الشيخ ، وهم بالفرار ، وإذا بصبيان شداد يخرجون إليه من كل فج ، ويلقون القبض عليه . سقط في الفج الذى نصبه له الشيخ وساول سيد أن يقاومهم ، وأن يشق له طريقا ، ولكنهم حقاوه فيما بينهم ، فراح يصيح :

— يديا مسسليمان . . . يديا مسسليمان !

وأخذ إلى الشيخ حسن ، فوضع قدميه في الفلقه ورفع الأولاد ، فصار رأسه في الأرض ، ورجلاه في الهواء ، وانهار الشيخ ضربا على قدميه العاريتين بالحيزرانه ، وأحس سيد قدميه تتمزقان ، جمل يهتف وهو يبكي :

— أأأه . . . تنقبت والننبي . . . والننبي .

٤١

نادى الحاج كرم بائع العنب ، فذهب الرجل إليه في صدر الدكان ، ووضع أمامه القفص ، فراح الحاج رفع العناقيد في يده ، وياتقط من كل عنبه يذوقها ، فلما اطمان إلى جودة العنّف ، بدأت المساومات ، الرجل يطلب ثمنا ، والحاج يهرض نصفه ، فيرفض الرجل ، ثم يأخذ الحاج في زيادة ما عرض مليا مليا ، وعلى رقب ذلك وهو ضيق الصدر ، فهو يعتقد أن الصدقة الخفية في البيع والشراء . وانتهت المساومات ، واطمان الحاج إلى أنه قد اشترى بأرخص ما يمكنه من أسعار ، وبدأت عملية الوزن ، فأصر الحاج على أن يزن الأثنين على أربع مرات ، كل نصف أقة وزنة ، فرمقه على في دهش ، غابت عنه حكمة ذلك الإصرار ، وظن أنها نزوة ، وما درى عقله المسرف أن الحاج يكسب بذلك بضع عنبات !

وجاء رجل يسعى لا ليشتري حاجاته من محل الحاج ، بل ليشتري بضاعة كان على اشتراها لحسابه بما ادخر من مال ، كان يرجو أن يكسب فيها بعض ما يمكنه من أن يوسع على أولاده ، وقد ارتفع ثمن هذه البضاعة ، فجاء ذلك الرجل يشتريها .

وجلس الرجلان يتفاوضان ، والحاج يصيغ سمعه الجديد إلى ما يدور من حديث ، وما هي إلا كلمات حتى اتفق الرجلان . وجد علي في هذه الصفقة مكسبا يرضيه ، وكان يتحمل بالحديث الذي يبارك الرجل السمح في البيع ، السمح في الشراء .

وأخذ الرجل البضاعة ، ونقد عليها ثمنها ، والحاج يرمق ما يدور أمامه ، وعقله يعمل ، كان يحسب ما كسبه علي في هذه الصفقة ، وما انصرف الرجل حتى صاح الحاج في علي :

— بأي حق تستحل ما كسبته الآن ؟

فنظر إليه علي في دهش ، وقال :

— بشرع الله ، اشتريت البضاعة بمال الحلال ، وبعيتها بالحلال .

فقال الحاج كرم في حدة :

— هذا المكسب ليس من حقتك .

فقال علي في انفعال :

— فمن حق من ؟

فقال الحاج كرم في هدوء :

— إن الله لا يستحي من الحق ، هذا المكسب للدكان .

والثقت الحاج إلى أولاده ، فhezوارء وسهم موافقين ، وثار الدم في عروق

علي ، وشاء لو ينفجر في الحاج ، ولكنه كبت ثورته وقال :

— وبأي حق يستحل الدكان هذا المكسب ؟

— أنت هنا تأخذ أجرك ، سواء أكسب المحل أم خسر ، فكل ما تنتج

فهو من حق الدكان .

فقال علي متحديا :

— أكان المحل يتحمل الخسارة لو خسرت البضاعة ؟

فقال الحاج في بساطة :

— المحل لا يتحمل أخطاءك ، ولكنه يدفع لك أجرك ، ليستفيد من عملك .

فقال علي في حنق :

— على الغرم ، وللمدخل الغنم !

— هذا حق .

ولم يصادف ذلك هوى في نفسه ، لم يكن يهمه كثيرا أن يدفع المكسب ،
ولكن ذلك يخالف مبادئه ، وينضب نزعة القروسية المأصلة فيه ، فأحزنه ما جرى ،
واستبد به غضبه ، فأخرج من جيبه ما كسبه ، ودفعه إلى الحاج وانصرف حائقا ،
عاقدا العزم على أن لا يعود .

وتناول الحاج النقود ، ووضعها في الجزارة وهو يقول لأولاده مستعجبا :

— والله لا أدري لماذا يفضب الناس من الحق ؟ !

١٢

حسان يتقلب في نومه كالمحموم ، يلوح في وجهه الجهد ، ويتفصد منه العرق ،
ويلتقط أنفاسه كأنما يلتقطها من ثقب إبره ، فربق القذائف يهرر بصره ،
وانفجارات القنابل تدوى في أذنيه ، ومشاهد الأشلاء المتناثرة تمزق أعصابه ،
جهاجم محطمة ، وأرجل متطايرة ، وأذرع مفصولة ، وجثث وجثث ، وبرك من
الدماء ، وقرقة سيارات . وآلاف البنادق مصوبة إليه ، فصرخ صرخة مفزوع ،
وهب من نومه وجلس في فراشه يتلفت في رعب وقلق .

وخفت إليه أمه ملهوفة ، ولفت ذراعها حوله ، وضمته في حنان ، وراحت
تجفف له عرقه المتصبب وتقول :

— ماذا بك ؟

هدأ قلقه قليلا ، واطمأن إلى وجود أمه بالقرب منه ، فقال :

— لا شيء . . لا شيء كنت أحلم .

وأحس جفافا في حلقه ، ورغبة في الشراب ، وراحت تلك الرغبة تستبد به ،
وتستولى على حواسه ، فجعل يمرر لسانه على شفثيه ، واحتلت أقطار رأسه
صورة زجاجة وكأس ، وقام مسلوب الإرادة يرتدى ثيابه لينطلق إلى الحانة ،
ولكنه تذكر أنه لم يشرب بالأمس لافتقاره إلى المال .

وذهب إلى صندوق أمه وفتحته ، وراح يبعثر مافيه من ثياب ، كان يبحث
عن نقود ، فلما لم يجد ما ينبغي لاح في وجهه ضيق ، يريد أن يشرب ، وأن يطفىء
ذلك الظمأ الذي يستشعره في روحه ، فتركز فيه كل حواسه ، وتوجه إليه
كل إشعاعات فكره ، وتتدخل له كل إرادة وتدير .

يريد أن يشرب ، فهذا غايته من الحياة الساعة ، فراح فكره يعمل ليحقق
له هذه الغاية ، فزين له أن يلجأ إلى إسماعيل ، وإن كان قد قرر ألا يلجأ
إليه بعد أن باع له قيراطا من نصيبه الذي ورثه في البيت عن أبيه ، أخذ ثمنه منه
قروشا أنفقها على الخمر جميعا ، فذهب إلى الدرج كوسيط يحركه منوم ، وراح
يرقاه شارد اللب والبصر ، يمرر كفه على فمه ، كأنما يحاول أن يمسح عنه جفافه ،
ودخل على إسماعيل وما إن رآه حتى ابتدره قائلا :

— أريد نقودا .

فقال له إسماعيل ، وقد تعلقبت عيناه بلسانه الذي كان يبلى شفتيه :

— من أين وقد أخذت ثمن القيراط الذي اشتريته منك .

— أقرضني ريالا .

— أقسمت ألا أقرض أحدا .

فقال حسان في لهفة :

— أبيعك قيراطا آخر .

— بكم ؟

— بالثمن الذي تراه ، أعطني الآن ريالا .

— لن أدفع ما دفعته في القيراط الأول .

— ادفع ما تريد ، هات ريالا .

— بعد أن توقع على البيع .

وراح إسماعيل يكتب عقد البيع . وحسان يرقبه نافذ الصبر ، زائغ البصر ،

قلقا متبرما ، يضمنيه ذلك الظمأ الروحي الذي يشيع في حواسه ، فهتف يستحمله :

— هات أوقع لك .

ودفع إسماعيل إليه العقد ، فوقعه دون أن يقرأ منه حرفا ، ولو أصر إسماعيل

على أن يشتري منه ذلك القيراط بكأس واحدة ، فما كان في وسع حسان إلا أن يقبل .

وأخذ حسان الريال ، وانطلق يغد السير إلى تلك الحانة المتواضعة ، التي يفرق فيها شومه وينسى نفسه ، وما إن دخل من بابها حتى صاح يطالب كأساً ، وراح يلقي بالكشوس في جوفه ، فلما تحدرت حواسه ، شرد بصره ، وراحت عبراته تتفجر من عينيه ، وتنسل وجهه ، فاستشعر كأنما آلامه ذابت في الدموع .

ودخلت فاطمة غرفتها ، فألفت صندوقها الكبير مفتوحاً ، وقد بعثت ثيابها ، فغضبت وانتشرت في جوفها موجة من الأسى ، وخطر على ذهنها حسان ، فحفظ قلبها شفقة ورهبة ، فهي تشفق عليه بما آل إليه ، وتخاف مغبة ذلك الشهور الغريب ، الذي تولد في نفسها غب عودته ، فهي تنكره أحياناً ، وتثور عليه ، حتى يكاد ينغرس في قلبها كرهه .

وراحت تجمع ثيابها وهي حزينة ، وأغلقت صندوقها وهي تغتمغ :
— ويل لي منك يا حسان غائباً وسائراً .

وترقرفت الدموع في عينيها ، هنا دموع تذرف ، وفي السبابة دموع تذرف ، هنا دموع أم فجعت في أمل من آمالها ، وهناك دموع شاب كانت له في الحياة مثل يتحمس لها ، رآها أمام عينيه تتبخر ؛ لم تكن حقيقة بل كانت وهماً ، فراح يضرب في بيداء الحياة بلا مثل ، وما أقساها حياة بعد أن تفتحت عيناه على زيف المجتمع .

٤٣

صفية في المطبخ تترف الطعام من أوان كبيرة صفت أمامها على نضد ، إنها ترسل ابنتها تحية بالقداء إلى الجدة ، كانت تبعث لها بطعام يكفي اثنين ، لتأكل ويأكل حسان الذي ينفق على الشراب ولا يهتم لطعامه شيئاً .

ووضعت الصحف أمام أبنائها الذين تحلقوا حول الحوان ، فانقضت الأيدي تلتمهم ما أمامها في عجلة . كانوا في سباق ، فكل منهم يحاول أن يملأ بطنه ؛ قبل أن يغيب الطعام في الكروش الأخرى ، حتى أصغرهم يحس أن يدفع من حوله بمنكبيه ، لتحرك يده في سرعة دون أن يقف في سبيلها عائق .

كان جلال يأكل في شهوة ، فهو يحتفى بالطعام ، وتشبه أسارى ، إنه
أقول لا يعرف أنه شبع إلا إذا أحس كظنة الطعام في بطنه ، ومرت صفة عليهم
ونظرت ، فألفت الصحف فارغة ، وأبناءها يترقبون مزيدا من الخبز والإدام ،
ثمالت وأخذت الصحف ، وصبت فيها ما كانت تبقيه لنفسها ، دون أن تمس
ما احتجزته لزوجها ، وعادت إلى الأولاد ، ليستأنفوا ما كانوا فيه من سباق .

وأقبل على ، فأعدت له صفة طعامه ، فالتفت إليها وقال :

— اجلسى وكلى معى .

فمالت صفة وهى تنصرف :

— لست جائعة ، لما طبخت فقدت اشتها الطعام .

وأكل على حق شبع ، ورفعت صفة الصحف من أمامه ، ودخلت إلى
المطبخ ، وتناولت رغيفا رامت تأكل به ما تخلف فى الصحف وهى واقفة ،
كانت وحدها تحمل هم تدبير إطعام ذلك الجيش ، وكانت وحدها التى لاتهنأ
بشمة تدبيرها ، فما أكلت مرة حتى شبع كاشبع حسان وزوجها .

وذهب على يقيل ، وانصرف الأولاد إلى الحارة يلعبون إلا زكريا ، فقد دلف
إلى المسجد يقرأ لشيخ الجامع الضرير ، ودخلت صفة إلى المطبخ تفسل الأوانى
والصحف وثياب أبنائها التى اتسخت .

وجاء رسول من عند الحاج كرم ، يطلب من على أن يوافي الحاج الساعة ،
فهو ينتظره فى الدكان ، فارتدى ثيابه على عجل وانطلق ، فلما بلغ الحاج أقبل عليه ،
ورحب به ، وراح يبثه قلقه ، قال :

— وقعت نفرة بينى وبين أخى ، فادعى أن له نصيبا فى الدكان ، وراح
يدعو على فى صلاة الجمعة ، وهو على المنبر يخطب الناس ، كان ينظر إلى وهو
يقول : « اللهم من كادنا فكده » فارتجفت وأحسست رهبة ، وإن كنت على
ثقة من أن الله لن يستجيب دعاءه . لم أفعل له شيئا يغضبه ، ولم يكتف بذلك ،
فأقام دعوى على يطلب الحجز على الدكان . إننى لم أدخل قسما فى حياتى ،
ولا أعرف طريق المحاكم ، وأخشى إذا وقع الحجز على الدكان ، أن يذهب من
يدنا ، لا أدري ماذا أفعل ؟ وأولادى لا يعرفون من الخصومة شيئا ، فرأيت
أن نستعين بك .

ونظر على إلى أولاد الحاج نظرة خاطفة ، فألفاهم مطرقين ، فأحس راحة ،
فهم يلجئون إلى معونته بعد إساءتهم إليه ، ولما كان فارما بطبعه ، فقد نسي كل
إساءة ، وقال من قلب صادق :

— ان ينال منا شيئا .

فقال له الحاج في ذلة :

— مستقبلي ومستقبل أبنائي بين يديك .

— لا تخف .

— وماذا تفعل لو وقف الأمر الصادر بالحجز على المحل .

— لى صديق يوناني أثق فيه ، إنه حماية ، سأؤجر له المحل ، فإذا جاءوا

ليحجزوا على المحل ووجدوه مؤجرا لأجنبي بطل الحجز .

فقال الحاج في قلق :

— أثنق في الرجل ؟

— أثنق فيه كل الثقة ، وليس أمامنا إلا هذا ، إما أن تؤجر له المحل ،

أو يحجز عليه .

فقال الحاج في استسلام :

— افعل ما بدا لك .

وظل أبناء الحاج مطرقين ، لا ينبس أحدهم بكلمة . وانصرف على وهو

يحس راحة ، لأن ضعافا لاذوا به ، فحق عليه نصرهم .

٤٤

ضوء مصابيح النفط لا يكاد يبدد ظلام الحانة ، وظلال الموائد تنعكس على

الحيطان ، فتبدوا كأشباح سود ، وصيحات متباينة ترتفع من هنا وهناك ، صيحات

فرح ، وصيحات أنين ، تنبع من نفوس مخمورة ، تخلخلت ضوابطها .

وجلس إسماعيل إلى رفاقه يحتسى الكئوس ، ويروي النوادر ، فترن

الضحكات ، وتتجاوبها أرجاء الحانة ، وتمتزج بغناء ذلك الحوذي الهرم ، الذي

يرفع عقيرته بالأنعام كلما سكر ، وهو على الدوام سكران لا يفيق .

وقيع حسان في ركن بعيد ، فهو يشرب وحده ، ثم يشرد ويلوح في وجهه سهوم ، ثم تهمر من عينيه الدموع ، كان يجد في البكاء راحة وعزاء ، وكان رواد الحانة يطمقون عليه « الشريب الصامت الحزين » .

أسرف حسان في الشراب ، فإذا بالمشاعر الراسبة في أغوار نفسه تطفو على سطح ذهنه ، وإذا بعقدة لسانه قد حلت ، وإذا به يحس رغبة في الثروة والكلام ، فصاح : — إذا ادعى الترك أنهم يحبونكم ، وأنهم يريدون الخير لكم ، وأنهم ما فكروا في غزو بلادكم إلا لطردهم الإنجليز ، ومعاونتكم على نيل استقلالكم ، فلا تصدقوهم ، إنهم يريدون استعبادكم ، وحمل خيراتكم إلى بلادهم ، إنهم أنانيون منافقون ، سلوني كيف كانوا يعاملونني أنا المصري الذي انضم إليهم متطوعا لقتال الإنجليز .

وإذا ادعى الألمان أنهم يحاربون الإنجليز لأنهم يرفضون الاستعمار فلا تصدقوهم ، فهم أنانيون منافقون ، إنهم استعماريون لا يرضون عن الاستعمار إلا إذا كان استعمارا ألمانيا .

وإذا ادعى الإنجليز أنهم أصدقاؤكم ، وأنهم ما جاءوا إلا للعمل على إسعادكم ، فلا تصدقوهم ، فهم رأس النفاق ، وبحر الأنانية . إنهم يريدون أن يسلبواكم وأنتم عنهم لاهون العالم كله خداع منافق كذاب .

وثار حسان ، فراح يدق على النضد بفيضته وهو يزأر : — إنني أكره هذا العالم كله ، أكرهه لأنه يسوق أبناءه إلى الجازر كالغنم ، لمصلحة من هذه الحروب ؟ وفي سبيل من تذهب آلاف النفوس ؟ في مصلحة حفنة من الزعماء الجالسين في البيوت .

وذهب إسماعيل إليه ، وحازل أن يهدي ثورته ، فدفعه بيده ، وصاح : — إذا ادعى إسماعيل أنه يحبني فلا تصدقوه ، إنه يتودد إلى ليسرق مني القراريط التي ورثها عن أبي ، خذها يا إسماعيل ، فما عاد يسعدني أن أملك الأرض وما عليها ، خذها وستتركها يوم تذهب ولا تعود . والتفت إلى من في الحانة وقال :

— كلكم منافقون خداعون وحوش ، أكرهكم كلكم ، لأنني أكره المرائين ، وأكره نفسي ، لأنني منكم ، من العالم الخبيث .

وجلس مبهور النفس ، وساد الحانة وجوم ، وراح يلقي في جوفه الكئوس
ونفض وخرج يترنح ، فأحس الموجودون كأنما انزاح عن صدورهم كابوس .
فارتفع صوت الخوذي الحرم يثنى :

« حمامة بيضة : ومنين اجيبها . طارت يا نينه . عند صاحبها » .

واستأنف إسماعيل ما كان فيه ، يروي نوادره ، فتجلجل في جنبات الحانة
الضحكات المخمورة .

وانطلق حسان في الطريق يترنح ، ودلف إلى الحارة يرتطم بالحيطان ،
كانت قدماه لا تقويان على حمله ، وبلغ مسامعه صوت النجرو وهو يصيح في
جوف الليل : « نظرة يا جورج . . يا جورج نظرة » ، فغمغم حسان وهو يتمايل :
« نظرة . . نظرة » .

وبلغ الدار وهو يكاد ينوء ، ووقف أمام الشقة ثم هوى ، وشمرت فاطمة
بارتظام رأسه بالباب ، فهرعت تنظر ، فألفت ابنها على الأرض ممددا ، فصاحت
في لهفة :

— حسان . . حسان .

ورن صوتها في سكون الليل ، فهرع إليها على وصفية وبناتها ، وحملوا حسان
بينهم ، ووضعوه في فراشه ، وصبوا الماء على وجهه ، وقربوا من أنفه بصلة ،
ولكنه ظل في غيبوبته ، فالتفتت صفية إلى زوجها وقالت :

— أحضر الطبيب حالا .

نخرج على يهرول ، وماهى إلا دقائق حتى أقبل الطبيب ، وأخذ يفحص
عن حسان والجميع ينظرون واجمين ، وقد غاب عن أذهانهم التفكير في تدبير
أجر ذلك الذى لبي نداءهم في الهزيع الأخير من الليل ، ولم يخطر لهم ذلك على
بال ، فما كان أحدهم يحب أن يفكر في مثل هذا الأمر ، ونظرت صفية إلى
الواقفين في هدوء ، فاضطربت ، كانت على يقين أنهم جميعا لا يملكون أجر
الطبيب ، وإذا كانوا يملكونه فهم لا يحبون أن يدفعوا إليه ثمن قوتهم ليمضوا
أياما في جوع ، فانسلت إلى شقتها ، وأخرجت حصالة خالد ، وفتحتها وأخذت
سما بها ، كان يدخر جنيهين ، فوجدت فيهما كفايتها .

وفتح حسان عينيه ، ووضعت صفيحة في يد الطبيب أجره ، فانسبل شاكر ،
والتفتت فاطمة إلى ابنها وقالت :

— والله يا حسان لن أكلمك ما حيت إذا عدت إلى الشراب .

وأسبل حسان عينيه وراح في سبات ، وعاد أهل البيت إلى شقة هم ، وصوت
النجرو يدوى في الحارة :

— نظرة يا جورج . . يا جورج نظرة .

٥

اجتاز زكريا المرحلة الابتدائية في تفوق ويسر ، بينما ظل خالد وابنا عمته في
مدرستهم يقاسون ذل الاضطهاد ، كان سيد أعسر ، يكتب بيده اليسرى ، فكان
مدرسوه ينهونه عن ذلك ، ويلومونه ويقرعونه ، ويضربونه أحيانا ، وكان أكثرهم
قسوة عليه مدرس اللغة العربية ، كان يضرب بكفه على قرص طربوشه حتى يفوق
إلى أذنيه ، ويصيح به « يا أعسر » فكان الأولاد يحسبون أنه يقصد « يا أزرع »
فيضجون بالضحك ، فيضطرب سيد ، ويقر في ذهنه أنه شاذ بين الأولاد ، فيفقد
ثقتهم بنفسه وتزداد لجلجته .

وكان التلاميذ يلتفون حوله في الفسح ، يصيحون به : يا أزرع ، وكانوا يعنون
في مشاكسته فيحاكونه : « يبييا سسسيد . . يبييا أأزرع » فيطيش صوابه
ويجري خلفهم كالحنون ويصيح :

— يبييا أأولاد . . المالكاب .

حاول أهله أن يعودوه استعمال يده اليمنى بدل اليسرى ، فأغلظوا له ، فاضطرب
وتلجلج كلامه في صغره ، وجاء إلى المدرسة فإذا مدرسوه يحاولون أن يرغموه
على الكتابة باليد اليمنى ، فازدادت علاته ، وعاونت مشاكسة التلاميذ له على أن
تصبح لجلجته عيبا لا يقوى على قهره .

وكان سليمان يضيق بالمدرسة ، ويعجب لإصرار أبيه على إرساله إليها ، فأمه
لا تفتأ تذكر له أنها ستلحقه بدكان حداد يتدرب فيه ، حتى يصبح أهلا للانحاق

بالعنابر ، ويومها يصبح رجلا كأييه ، وهي لا تفتأ تمنيه الزواج إذا كبر ، فلماذا يتحمل كل هذا التعب ؟ ! أمنيته في الحياة أن يكبر ، وأن يلحق بالعنابر ، وأن يتزوج ، وأن يصبح واحدا من هؤلاء الذين يراهم في البيت يغدون ويروحون ، هؤلاء الذين كان يطلق عليهم يونس بحق « الثيران » .

وكان خالد يرتجف فرقا كلما أقبلت حصاة الترجمة ، شاع بين التلاميذ أن مدرسها كان ناظرا ، وأن الوزارة أعادته إلى التدريس ، لأنه خلع ذراع تلميذ من تلاميذ مدرسته ، وثبتت هذه الشائعة في أذهان الأولاد قسوته ، كان يضربهم في الشتاء القارس ، على أصابعهم بخافة المسطرة ، ولم ينج خالد من هذه « القرمعة » بل كان له فيها أوفى نصيب ، كان يتحمل الضرب وهو يئن ويتوجع ، ولكنه لم يعد يتوعد ضاربيه ، كما توعد يوما ذلك المدرس الذي ضربه على إصبعه ، وأصابه بعاهة ، وأقسم أن ينتقم منه وإن طال الزمان ، فإذا ما توعد كل من يضربونه قالويل لجميع مربييه .

ودخل إلى فناء المدرسة شاب صغير ، يرتدى ثيابا صفرا ، ويعلق في ذراعه محفظة كبيرة من الجلد الداكن ، وتبدل على صدره صفارة ، إنه تذكري في الترام ، ولما لمح التلاميذ التفوا به فرحين ، كان تلميذا معهم وخرج ليعمل قبل أن يتم دراسته ، وجاء اليوم يسحب أوراقه .

تطلع الأولاد إليه تطلعهم إلى بطل من أبطال الأساطير ، كان بالأمس القريب معهم يتلقى اللطامات مثلهم من المدرسين ، وإذا به اليوم طليق ، يتحكم في ترام طويل ، ويجي من الناس النقود ، وإن كانوا مدرسين !

وأغرت الصفارة المتدلية على صدره بعض الأولاد ، فمدوا أيديهم إليها يتبادلون النفخ فيها ، فيسرى صوتها الحاد إلى آذانهم سريان اللحن الجميل ، ورناسيد إليه ، ودنا منه وراح يقول :

— ضضضمنا إذا رركبنا التتtram فلن نندفع ثمن التتندكرة .

ضحك الأولاد ، وصاح خبيث .

— ضمن الأزعر أن يركب الترام مجاناً .

كان يرمى إلى نحريض التلاميذ عليه ، ولكنهم كانوا في شغل عنه ، بذلك

الذى حقق حلمه ، وصار رجلا يكسب قوته ، دون أن يمد يده لأهلته يلتهمون
قرشا ، قد يعطونه وقد يمنعونه .

وانصرف الشاب الصغير ، والعيون تتبعه ، وقد أنبتت زيارته في كل ذهن
خاطرا ، كان خالد يراه محظوظا ، أصبح شيئا له قيمة ، وكان سيد يعنى نفسه أن
يصادفه كلما ركب الترام ، حتى يعفيه من دفع ثمن التذكرة ، أما سليمان فقد تذكر
أحاديث أمه له ، فرأى نفسه بعين خياله في العنابر يخطر شامخ الأنف ، مرفوع
الرأس ، وخطرت في رأسه فكرة الزواج ، فاستشعر نحو الشاب الصغير حسدا ،
إنه يستطيع أن يتزوج الآن بعد أن كسب رزقه ، بيدنا عليه أن ينتظر حتى تلحقه
أمه بـدكان حداد ، على رغم إرادة أبيه ، يتدرب فيها ، ليصبح أهلا للعمل بالعنابر ،
وزفر زفرة كأنما يضيق بالأيام التي تفصل بينه وبين تحقيق أمنيته ، التي غرستها
أمه فيه ، وراحت تمد جذورها في نفسه ، كلما ضمته إليها وأخذت تناجيه .

٤٦

غابت الشمس وراء الأفق ، وبدأ نور الصباح يتقلص ، وتألق القمر في رقعة
السما كسكرة فضية باقصة ، وهن بريقها ، فلم تبعث إلى الأرض ضياء ، وقام
حسان من نومه على قرع طول ورنين صنوج ، كان منبع الصوت تلك العالقة
التي يقطنها الملاحون والسيادون ، هؤلاء الذين يزوجون أبناءهم إذا ما طرت
شواربهم ، أو برزت لمن النهود ، فالزواج عندهم ضرورة من ضرورات الحياة ،
كلما والمواء ، لا يعرض عنه إلا الأموات .

ومزق الرنين وكاء أفكاره ، وفجر وعاء خواطره ، فإذا بها تتدفق إلى
رأسه ، لا يرسب منها إلا المرارة في أعماق نفسه : « ما بال الغافلين يتزوجون ؟ !
لينجبوا على رغم أبوفهم أولادا ، ليدفعوا ثمن لحظة من لحظات المشوة راحتهم
وأعصابهم ، ليحملوا مدى حياتهم النغم والتفويض . . . وما مصير هؤلاء الذين
جاءوا إلى الحياة برغمهم ، دون أن يرتكبوا إثما ، أو يحصلوا لذة ؟ ! سيدساقون
إلى المجازر البشرية زمرا . . سيكونون حصيدا المدافع ، وهدفا للقنابل ، ومن

ينجوا منهم من ذلك الأنون ، سيموت على فراشه ، ويقدم بأيدي أحبابه إلى موائد الدود . لماذا تزوج أبى ؟ لو استشارنى لتوسلت إليه أن يعرض عن الزواج رافة بى . »

ودوت الطبول ، ودوت فى جوفه أفسكاره التى كانت تساوره فى قوة كفا أفق من سكره ، فذهب إلى النافذة ينظر ، ليفر من تلك الحواطر التى تضنيه ، فإذا بركب العروس ينحدر من العالية إلى الحارة ، وينطلق صوب مقهى الصعايدة ، وإذا بأحد الصعايدة يقف أمام الموسيقى ، ويطلب منها أن تدق السلام تحية ، وإذا بوالد العروس يمز رأسه نفيا ، فهو يرفض أن يوصم بعار تقديم التحية للصعايدة ، وإذا بالنوتر يسود الحارة ، وماهى إلا لحظات حتى كانت الكراسى تتطاير والهرافات تهوى على الرؤوس ، والأناث تمزق السكون ، فإن كانت الثورة الوطنية قد وجدت الأهداف ، فنامت الخصومات ، وحولت البغضاء إلى المستعمر البغيض ، فقد تبددت نار الثورة ، وخدر الشعب بالأمانى والوعود ، فعادت إلى الصدور النعرات وشغل الناس بالتفاهات ، فما عاد صعيدى يقبل أن يجلس إلى فلاح ، أو يلقي عليه تحية .

وبدأ ركب العروس فى الانسحاب ، وراح الصعايدة يتبعونهم ، وهم يصبحون صيحات الظمر والانتصار ، ورفت على قم حسان بسمة سخرية ، لم يكن وحده يعرف ما بعد ذلك الانسحاب ، فكل من فى الحارة على يقين مما سيتبع احتفاء الفلاحين بدورهم ، إلا الصعايدة ، الذين كانت خمرة النصر تدير فى كل مرة رؤوسهم ، فينساقون إلى السككين مستبشرين فرحين .

وأطلقت الزجاجات المحشوة زلطا ورملا عليهم من كل مكان ؛ من فوق الأسطح ، ومن النوافذ ، ومن الشقوق ، فسالت دماؤهم ، وانسحبوا مهزومين . ولم يتعلموا من تجاربهم شيئا ، فلو قامت بينهم وبين الفلاحين معركة فى الصباح ، لانساقوا إلى الشرك من اللين مكبرين .

وعادت الحارة لتغرق فى الصمت ، وراحت الأفسكار تتوافد على حسان ، فيضيق بها ، وأراد أن يشيح بوجهه عن دنيا الآلام ، فارتدى ثيابه ، وتأهب ليخرج إلى الحانة ، فرارا من الحواطر السود التى تراوده وتضنيه .

وقابلته أمه في الردهة في أثناء ذهابه إلى الباب ، فقال لها في رنة :
— مساء الخير .

فقطبت جبينها ، وأعرضت عنه ، وذهبت إلى غرفتها دون أن تنبس بكلمة ،
نفرج وهو يحس أسى ، فما كان يحب أن يغضب أمه ، وأغد السير ، حتى إذا ما بلغ
الحانة أكب على الشراب ، ليقضى على ذلك الوعي الذي يسومه ألوان العذاب ،
وشكول التغيص .

وظل جالسا وحده ، شارد البصر ، يذرف من عينيهِ الدموع ، حتى إذا وافى
ميعاد أوبته ، انصرف وصوته يرن في جوفه : « حسان ، إذا عدت إلى الشراب
فلن أحذئك ناحيتك . حسان . ارحمني وارحم نفسك . حسان ، عار عليك أن
تستحل عرق أحبك . عد إلى رشدك يا حسان ، حسان ، لست ابني . . . ابني
مات يوم هجر الدار ، أما أنت فاست ابني . . لا أدري من أين جئت . . . أمي
غضبي ، حاقدة على . . . كيف يحمق الجاني على الضحية ؟ !

إن كنت كريها بغیضا ، فأنا سيئة من سيئاتها . . لم أخلق نفسي ، ولم ألتبس
منها أن تأتي بي إلى هذا العالم » .

وفتح الباب ودخل ، فوجد أمه ترنو إليه في غضب ، فاضطرب ، وقال لها
وهو يتلثم .

— مساء الخير .

فدارت على عقبها برمة به ، وأواته ظهرها ، وذهبت إلى غرفتها تكفكف
دمعه اليأس الحائرة في مقلتها .

٤٧

أطلت زهيرة وعزیزة من النافذة ، وإذا بـ زكريا وخاله وجمال ينطلقون
في الحارة ، وقد ارتدوا ثياب الخروج ، وإذا بسعيد ويحيى يجدان خلفهم ، كانوا
في طريقهم إلى بيت الحاج كرم ، فقالت زهيرة لتجر عزیزة إلى الحديث الذي
تجبه وتشتهي :

— يعجبني في صفة عنايتها بأولادها ، لا تهملهم ، ولا تضيق بخدمتهم ، فهي
تكاد تقتل نفسها من أجلهم .

فقلت عزيزة في هدوء :

— والله إني أشفق على بنت البرنسية ، حرام أن تقتل نفسها في سبيل أحلامها ، إنها تظن أنها تعد أولادها ليكونوا حكاما .

ولم يعجب زهيرة هدوء عزيزة ، إنها تريد أن تشنف أذنها بالسباب ، وأن ترضى حقدها الدفين الذي تحسه نحو الناس جميعا ، وإن حاولت أن تخفيه بإظهار الحب والتودد إلى كل من تجالسه في تعلق ورياء ، فقلت :

— نجحت في تربية زكريا ، فهو الآن في المدارس الثانوية ، بينما يعمل سيد وسليمان في الدكاكين ، ليتعلما حرفة .

فقلت عزيزة :

— لا فرق بين أن يعمل زكريا كاتباً في مخبز ، أو أن يعمل سيد صانعاً ، كلها وكسة ، ولو أنصفت بنت البرنسية لأرسلت جميع أولادها إلى الدكاكين وأراحت نفسها من تلك المصاريف التي تدخرها من فمها وفم أبنائها .
وخرجت صفية ، وسارت في الحارة وإلى جوارها تحية وقد اكتمل نموها ، فجعلت عزيزة ترقبها صامتة هادئة ، بينما كانت زهيرة تشمر بالحسد ينرش جوفها ، وزاد في ضيقها صمت أختها ، فقد كان السباب المتدفق من فمها على الدوام البلسم الشافي لمرض قلبها .

وبلغ الأولاد بيت الجد ، فلما رآهم الحاج كرم قابلهم ببشاشة مرحبا ، وكان صادقا في ترحيبه ، حتى خطر له أن يعطى كلا منهم قرشا ، ولكنه أعرض عن ذلك ، خشية أن يصير الدفع ضريبة حتمية ينبغي سدادها في كل زيارة ، وخوفا من أن يصبح الدفع للأولاد من تقاليد الأسرة !
ولمح زوجه قادمة ، فهتف بها .

— عائشة ، جهزي الأولاد طعامهم .

وكانت هذه أول مرة بحث فيها الجدة على تجهيز الطعام لأولاد صفية ، بعد أن كان ينهأها عن أن تكثر لهم الطعام ، إشفافا عليهم من أمراض الكظه !
وشعر الأولاد بحرارة الاستقبال فامتثلوا غبطة ، وكان جلال أكثرهم فرحا ، فاطعام أشهى شيء إلى نفسه .

ودخلت صفية ، خفت إليها أبوها يستقبلها ، وجلس إليها يتحدثها ، فراح يقول :

— كنت أود أن ترى عليا في المحكمة ، لن أنسى ما حييت ما فعله من أجلنا ، كادت الدكان تذهب من أيدينا ، ولكنه أجرها لصديقه اليوناني ، وهو حماية ، فتمنر الحيز عليها ، وأقام محاميا يدافع عنا حتى كسبنا القضية ، آه يا صفية لو رأيت وجه عمك ساعة نطق القاضي بالحكم بدفع تعويض بسيط له ، وساعة أن قال على في المحكمة إننا لا نقبل دفع ذلك التعويض إلا كإحسان منا ، كان وجه عمك أشبه بوجوه الأموات ، لا أكتفك يا صفية أنني فرحت في ذلك الشيخ الذي يدعو على من فوق المنبر في كل جمعة .

وتهدج صوته ، واضطرب رهبة :

— لماذا يدعو على ، إنني لم أفعل ما يستوجب غضب الله ، هذه الدكان دكاني ودكان أولادي ، فكيف يستحل أن يفتصبها منا ؟

واستمر الحاج يتحدث في حماسة الأطفال ، وصفية تصفى إليه مسرورة ، فهذه أول مرة تسمع فيها مدحا في زوجها من أهل بيتها ، وانقضى النهار بهيجا لطيفا ، وجاء مصطفى وكال وحسين ، فلما رأوا أولاد على ، أقبلوا عليهم بلا طمأنينة ، ويظهرون لهم ودهم ، كان أثر ما فعله أبوهم لازال عالقا بأذهانهم ، ولكن سرعان ما يسدل النسيان ستارته على ذلك الأثر ، وسرعان ما يتبخر الاعتراف بالجميل من رءوسهم ؛ فتعود نظرتهم إلى أولاد الرجل الفقير إلى ما كانت عليه ، فما كان ذلك الجليل الذي أسداه إليهم ليغير من طباعهم ، فهم لا يصيحون إلا إلى زنين الفضة ، ولا يهرهم إلا ضياء الذهب ، ولا يستولى على احترامهم شيء مثل كداس أوراق « البنكنوت » .

٨٨

فاطمة مسجاة في فراشها ، ووجهها ذابل تعاورة صفرة ، وشعرها الأبيض بارز من المنديل الذي تعصب به رأسها ، وأولادها يتقاطرون عليها في الصباح ، يستفسرون عن صحتها ، وأولاد علي الذين يبيتون معها في شقتها يندون ويروجون ، ينظرون إلى الجدة صامتين ، ثم يغادرون البيت إلى المدرسة .

ودخلت زهرة على أمها ، وقالت وهي تحاول أن تظهر الوله والاهتمام :
— كيف أنت الآن يا أمي ؟

فقالت فاطمة وفي نظراتها وهن :

— أحس مناشير تنشر عظامي ، ، ومطارق تدق رأسي .

فقالت زهرة وقد قطبت جبينها ، وقد علا وجهها صرامة :

— ليتني أستطيع أن أحمل عنك هذه الآلام

فنظرت إليها عزيزة نظرة استخفاف ، ولولا أمها المريضة لأطلقت لسانها عنانه ، ووخزت ذلك النفاق ، ولما لم تستطع أن تنفس عما في خاطرها ، نظرت إلى أخواتها ثريا وزينب وحميدة نظرة استخفاف ، كأنما تقول لهن : « اسمعن هذه المرائية » .

وأقبل على وجلس على حافة الفراش ، وقال لها في رقة :
— كيف حالك ؟

فانفرجت شفاتها عن أسنانها ، وقالت :
— الحمد لله .

وجاهدت حتى فتحت عينيها ، ورنّت إليه رنوة طويلة ، كأنما تتملاً منه . كانت تحبه ، وتحس راحة إذا أقبل عليها يحادثها وتحادثه ، وجاءت صفية تحمل كوباً به قليل من شراب الأيسون ، وقالت لها :

— اشربي هذا ، فما دخل جوفك شيء من البارحة .

فقالت فاطمة في ضعف :

— لا أقدر .

فأخذ على الكوب من زوجه ، ورفع رأس أمه فى حنان ، وراح يحسب لها الينسون وهى تجاهد نفسها ، وترغمها على الشراب حتى ترضيه ، ثم أعاد رأسها على الوسادة فى رفق وهو يقول :

— بالشفاء إن شاء الله .

وامتدقظ حسان من نومه ، فذهب إلى حيث ترقد أمه ، ومال عليها وقال :

— لعالك بخير اليوم يا أمى .

فأشاحت بوجهها عنه ، وقد زوت ما بين حاجبيها ، وبان فى وجهها الأسى ، فشعر بموجة من الحزن تجتاحه ، وأطرق هنيهة ، وزاد فى تعذيبه أن صك أذنيه صوت زهيرة وهى تقول :

— دعها الآن يا حسان .

فانسحب من الغرفة وهو يحس وخزات من الألم تخز روحه ، واتجهت إلى زهيرة نظرات أخواتها الغضبي تكاد تفتك بها ، ولم تستطع عزيزة أن تكبح جماح لسانها ، فقالت :

— لا تحاولى أن تظهرى الود لأمك على حساب حسان ، يكفى حسان ما ناله . وكادت زهيرة تزل ، فينبطلق لسانها بما تحسه نحو أخيها ، كادت تقول : « إنه مكير ، لا يرجى منه خير ، فإذا كانت أمى تبغضه فهى محقة فى ذلك البغض ، وإنى أشاطرها مشاعرها » . ولكنها صمتت وإن رنت هذه الأقوال فى جوفها ، ثم غلبها طبعها المنافق ، فقالت :

— أشفقت على أمى ولم أقصد إساءة حسان .

ونفضت وهى تقول :

— إنى ذاهبة إليه أصالحه ، وأطيب خاطره ، فلا يمون على أن يفضب أخى منى . وخرجت إلى حيث كان حسان ، ومال على أمه وقال :

— بالله يا أمى لا تغضبي على حسان ، إنه يستأهل صفحك .

فغمضت فاطمة فى حزن :

— أقسمت ألا أحادثه ما دام فى نفس يتردد . فضل الحمر على .

فقال على فى صدق :

— إنه يستحق العطف فلا تحرميه عطفك .

فقال فاطمة في وهن :

— هيات أن أصفح عنه ، سأمت وقاي عليه غضبان .

وغرقت العرفة في الأسى ، وسادها صمت ، ولو سمعت زهيرة ذلك القرار
لتنافرت مشاعرها مع مشاعر الحزن التي انبثقت من الأفئدة ، فهي تنشرح
لمصابب الناس ، كأنما بينها وبينهم عدا .

ومر النهار ، ووفد الليل ، واشتد المرض على الجدة ، وحاول حسان أن
يمكث إلى جوار أمه ، واسكن الأفكار السود راحت تساوره في قوة حتى كادت
تفتك به ، فخرج إلى الحانة ليخدر نفسه التي تذيبه ألوان الاضطهاد كلما استيقظت
أو أفاقت من غيبوبتها .

وفي هدأة الليل جلست صفية إلى جوار الجدة تسهر على راحتها ، حين كانت
بناتها في فراشهن ينعنن بلذات النوم ، وفتح الباب ، ودلف منه حسان ، ودخل
في هدوء ، وجلس بالقرب من أمه يرنو إلى وجهها الدابل ، فتترقق الدموع
في مقلتيه .

وفتحت فاطمة عينها ، فشعرت كأنما تنظر من غشاوة ، ورأت بالقرب منها
شبهتين ، ميزتهما في جهد ، كانا حسان وصفية ، فهتفت في صوت واه :
— حسان . . حسان . . أشرب .

فخف حسان إليها بكوب الماء ، وتجرعت منه جرعة ، ثم أصبلت عينها وألقت
رأسها على صدرها ، وسلبت منها الحركة إلى الأبد ، فارتمى حسان على صدرها ،
وراح يهتف في وله ، ودموعه تغسل وجهه :
— أمي . . أمي .

وخفت النسوة إلى أمهن وهن يولولن ، ونظرت زهيرة إلى وجهها ، وصاحت
لسميع الجيران ، ليشهدوا لها بالبر والوفاء :

— ليتني قديتك يا أمي . . ليتني مت قبلك .

والتفتت إليها أخواتها ، كانت نظراتهن تصرخ فيها : « كذابة » ، وشغلن
جميعا بتنسيق المكان ، أملا في النجاة من السنة المعزيات ، وياله من أمل عزيز المنال !

وجاء الصباح ، وتنافس الأولاد في ارتداء ثياب المدارس ، كانوا يحسبون أن موت جدتهم شفيح لهم في الغياب ، ولكن بما إن لمحتهم صفية حتى نهرتهم ، وأمرتهم بالذهاب إلى مدارسهم ، فما كانت تقبل أن يقف حائله في سبيل تحصيل أبنائها علومهم ، وما كانت تعتقد أن موت فرد يستوجب أن تكف عجلة الزمان عن الدوران .

٤٩

هبط الأولاد إلى الحارة يلعبون ، فهم في إجازتهم السنوية ، راح خالد يلعب الكرة ، وهي لميته المفضلة في الحارة وفي المدرسة ، ولولا تعلقه بها ، ورغبته في الالتقاء زملائه في فريق المدرسة ، لكانت الدراسة عبثاً ثقيلاً على نفسه ، ولراودته فكرة الفرار منها ، مقتنيا آثار ابني عمته سيد وسليمان .

وانضم جلال إلى رفاقه ، كانوا يفضلون اللعب (بالبل) ونوى المشمش ، وقد ظهرت على جلال أعراض للمقاومة ، فهو يجازف بكل ما معه من « بلى » أو نوى ، على أمل أن يكسب ما مع الأولاد جميعاً ، ولكنه كان غالباً ما يثوب إلى البيت وقد خسر كل ما معه .

وأخذ سعيد ويحيى يلعبان مع الأطفال الذين كانوا في مثل سنهم ، كان سعيد يحمل نبلاً دائماً ، يلتقط الحصى من الأرض ويصوبه إلى العصافير الموشحة في الحربة ، وحول إطارات الشبايك ، وفي كرات المنازل ، وما كان اللعب يشغله عن رعاية يحيى ، كان ينتظره إذا قصر في الجرى ، ويأخذ بيده إذا تعثر ، وما كانا يفترقان أبداً ، يعدوان معا في النهار ، ويشتركان في فراش واحد إذا مالف الليل السكون في ردائه الأسود .

وكان زكريا يعرف طريقه ، إذا ما غادر المنزل ، كان يتجه إلى المسجد ، يقرأ للشيخ الضرير ويناقشه فيما يقرأ ، فقد صار يستشعر لذة روحية كما قرأ أو ناقش . وتفتق ذهنه بعد أن أصبح شاباً ، وقطع مرحلة طويلة في الدراسة الثانوية . كان صوت الكرة يتجاوب في الحارة ، وصيحات اللاعبين تنبعث حارة حادة ، وخالد يلعب بكل حواسه ، يبذل كل جهده أن لا تطيش منه الكرة ،

وكان يضايقه أن يلعب لعبة سناطة ، لم يكن ليثور إذا ما اتهم بالتقصير في الدراسة ، ولكن كان مر جلي غضبه ينفجر إذا ما قيل له — ولو على سبيل إثارة — أنه تقاعس في لعبه ، أو أن هدف فريقه قد أصيب بسبب خطائه !

هجم خالد على الكرة مندفعاً ، وهم بضربها ، ولكنه يقن أنه لو ضربها لأصاب مباريه الذي تشترك الكرة بينه وبينه فأحجم ، وإذا بالمهاجم يصيبه في رجله ، فيسيل منها الدم ، فخرج يحففه ، ولحمه جلال ، فقال له :
— اصعد وكل ، لتعوض اللم الذي نزع منك .

لم يكن جلال يعرف غير الأكل لتطبيب الجروح ، ومداراة الأسقام ، ولكن خالداً لم يصغ إليه ، بل جفف دمه ، وعاد إلى اللعب وقد تعلم أن لا يحجم إذا هجم ، ففي الإحجام إصابته ، بينما في الهجوم إصابة سواء .

واندمج سيد في اللعب ، ولكنه كان ضيق الصدر ، كان يرى أحد الفيلان يخط على الأرض خطاً أبيض ، ويرغم غلاماً آخر على عدم تجاوزه ، مهدداً إياه إذا ماخطاه ، والغلام المضطهد ينفذ ذلك في ذلة وانكسار ، ثار سعيد لذلك الهوان ، وما أسرع أن تتحرك شففته إذا ما وقعت عيناه على ضعف أو اضطهاد ، فذهب إلى الغلام المطرق في ذلة ، ووضع يده فوق كتفه ، وصاح في وجه الاستبداد :
— سنتجاوز هذا الخط ، ونذهب حينئذ نشاء ، وسنرى ماذا تستطيع أن تفعل .

وصمت الأولاد جميعاً ، ونظروا وقد اشرأبت منهم الأعناق ، وتقدم سعيد وهو يضغط كتف الغلام ، يشجعه ويشد أزره ، فتقدم الغلام وهو يضطرب ، والطفل المستبد يرميه بنظرات يتطير منها الشرر ، ترتجف لها فرائصه ، ولكنه أخذ يتقدم لا يقوى على النكوص على عقبيه ، فسعيد يجذبه معه في تقدمه ، لا يترك له فرصة الإحجام .

بلغ الغلام المنطقة المحرمة ، فأحس — على الرغم من دقات الخوف المدوية في صدره — راحة تكنتفه ، انعكست على وجهه ، وانداحت حتى غمرت الأولاد جميعاً ، فانبسطت أساريرهم ، إلا ذلك الطاغية الذي أحقنه أن تتحطم كبرياؤه ، وأن يذوب سلطانه ، فاربد وجهه ، وطاش صوابه ، فاندفع صوب سعيد ، وأخذ

بتلايبيه ، وقد عقد العزم على أن يعيد هيئته التي تقوضت بضرب ذلك الذي هب
يؤاب عليه الضمء .

وتلاحم الغلامان ، كل يحاول أن يطرح الآخر أرضا ، وكاد سعيد يفتنر تحت
ضغط ذلك المستبد الذي استمات في القتال ، ولكنه استجمع كل قواه ، وتحمل
الضغط في صبر ؛ ساءه أن يتحدى الطغيان ، ثم يكون نصيبه الإخفاق .

ولف سعيد ذراعه حول عنق الغلام ، ووضع مفاكه خلفه ، ثم دفعه بكل قوته
فاختل توازنه وسقط ، وسقط سعيد فوقه ، وكان ذلك فصل المراك ، استسلم
الطاغية للهزيمة ، فنهض ينفذ التراب عن جلبابه في خزي ، ثم سار مطأطئ
الرأس لا يلاوى على شيء .

وجاء من أقصى الحارة غلام يسعى ، في يده صحيفة ، وما إن لمح رفاقه حتى
صاح وهو يعدو مرحا :

— نجحت . . . ظهرت النتيجة . . . نجحت !

فخف إلية خالك ، وراح يقلب في الصحيفة خافق القلب مضطربا ، ثم صاح
وهو ينطلق كالعاصفة صوب البيت :

— نجحت . . . نجحت !

وصعد الدرج قفزا ، ودخل على أمه يصيح :

— نجحت !

فرنت صفية إلية في حب وقالت :

— مبارك !

وانبثقت في جوفها سعادة ، وانبعث في ظلام المستقبل بصيص من الأمل ،
وهبط خالد منشرحاً يزف البشرى إلى من في الدار ، وما كان يفعل لها أحد ؛
نظرت إلية عزيزة في استخفاف ، كأنما تقول له : يا وكسة ، وتغير قلب زهيرة ،
فقد غمرتتهما موجة من الحسد ؛ أما عماته الأخريات فما كان أمر نجاحه أو رسوبه
يعنيهن في قليل أو كثير .

ووقف في الحارة بين رفاقه يتحدث ، ورأى سيدا وسليمان قادمين ، فهرع
إليهما ، وقال :

— نجحت ! ظهرت نتيجة الابتدائية .

فقال له سيد وهو ينظر إليه في زراية :

— أنت تتلميذ لا أكثروولا أقل ، أأما أنا ففرجل أكسب نقودا .

وقال له سليمان :

— تركنا المدارس ، وأصبحنا رجالا ، إن هي إلا شهورة تموت ثم تزوج .

وفي جوف الليل أخذ على وصفية يتناجيان ، كان على يعرف في قرارة نفسه أن زوجه تنهض بالعبء كله ، وأنه لولاها لتقوض المنزل فوق رأسه ، فما يقدمه لها من مال قد قل ، وإن زادت تكاليف الأسرة ، وما كان ذلك ذنبه ، فقد ضحل رزقه ، حتى لكانه ينبع من الصخر ، ولولا حسن تدبيرها لتماسوا جميعا ذل الحرمان . فرأى أن يدفئ صدرها بحرارة الأمل ، فقال :

— قابلت اليوم مهندسا في الحكومة ، أكد لي أن الوزارة شارعة في شق الشارع الجديد ، إنني أنزب ذلك اليوم لأبيع نصيبي في البيت ، وأنفقه على تربية الأولاد ، فقد أصبحوا في حاجة إلى مال كثير ، إنني على ثقة من أن ذلك اليوم قريب . ولم تحلق صفية معه ، فما كانت تبني مستقبل أبنائها على الأوهام ، إنها ترى الطريق طويلا ، فبينها وبين تحقيق أهدافها كفاح مرير ، فلن تنال بغيتها إلا بالصبر الطويل ، فقالت لزوجه في إيمان عميق :

— اطمئن ، ولا تطمع إلا في رحمة الله ، إن الله لا ينسى عباده .

• •

النجرو جالس على حجر في الخربة ، يعبث في السبحة الخشبية الطويلة التي يديرها حول رقبته ، وقد تغيرت لحيته ، واتسخ قميص الخيش الذي يرتديه . وشخص ببصره إلى الفضاء ، وإذا بورقة يعابثها الهواء ترقص في إغراء أمام عينيه ، فتنبسط أساريه ، ويهتف في الشراح :

— رسالة من جورج .

وينهض خفيفا ، ويمسك بالورقة بين يديه ، ويتفرس فيها بإمعان ، فيتقطب جبينه ، ثم تهمل أساريه ، وسرعان ما يعود إلى التقطيب ، وطوى الورقة الصفراء .

ووضعهما بين صدره وقيصه الحشن ، وسار حتى بلغ حافة الخربة ، ووقف يحدث
المارين في الحارة المنخفضة ، فبدأ تكلم على منبر ، يتأهب لحض الناس على
التقشف والزهد ، قال :

— أرسلت جورج إلى رسالة تتوسل فيها أن أسافر لمقابلتها ، فهي لا تطيق
البعد عني ، فقلها يدق بحبي ، إنها لا تستطيع أن تنسى تلك الليلة التي أمضتها
بين أحضاني ، ولكنني لن أضنى إلى توسلاتها ، لن أنظر إليها ولو جاءت من
بلادها زاحفة على ركبتيها . حاولت مرة أن تعرض عني لثدي ، ولكنني رجل
لا يذل لامرأة ، حتى ولو كانت جورج . أقسمت أن لا أنطق اسمها ، وقد بررت
قسمي ، لم يأت اسمها على طرف لساني ، فأنا رجل لي كرامة ، لا أغفر إساءة
امرأة ، ولو كانت جورج .

وابتسم الرجال في استخفاف ، وانطلقوا ساخرين ، وكانت حليلة تصفي
إليه ، يكاد قلبها يدمى أسي ، فحشيه يحرك أشجانها ، وينفخ في جرة الحرمان
المتوقدة بين جوانبها ، فتلسع روحها ، إنه يذكرها بهول المناظر والمشاعر التي
تحتاجها كلما رأت في الخربة كلبا وكلبة .

وأخرج النجرو من جيبه الورقة الصفراء ، ونشرها وقال :

— تريدون أن تسمعو رسالتها ؟ أصغوا إلى .

واعتدل في وقفته ، ولاح الجسد في وجهه ، وتأهب للقراءة ، ولكنه صاح

في فزع :

— لا ، لن أقرأ رسالتها بنفسي ، أقسمت أن لا أذكر اسمها .

ولم يدر بخله أنه لا يعرف القراءة ، ولكن كبرياءه تيقظت ، فراح يدير
عينيه في الحارة ، يبحث عمن يعهد إليه في قراءة رسالتها ، فلمح سيدتين
سائرتين بالقرب منه ، كانت أحدهما تسير وقورا ، ترتدى ثيابا تألفها أعين الحارة ،
وكانت الأخرى تنطلق في ثياب غالية لأعهد للحارة بها ، فذهب إلى السيدة
المتأنقة المتألقة وقال ، وهو يقدم إليها الورقة الصفراء القذرة :

— اقرئي أنت رسالتها .

فأربد وجه جليلة ، ونهرته في قسوة ، نفضت إليها حليلة تعتذر عنه ، وتلتحس

منها أن تصفح عما ارتكبه ، فما يدري ما يفعل ، فالتفتت جليلاً إلى أمها وقالت في ضيق :

— لماذا يترك مثل هذا المجنون يهكر أمن الناس ؟ !

وعرجتا على البيت ، وجليلة ضيقة الصدر متبرمة ، كانت تأنف من السير في الحارة ، بعد أن تبرع زوجها ببعض أمواله ، ومنع رتبة الباشوية ، وصارت زوجة الباشا ، فما كان للحارة أن تتشرف بها ، لولا اضطرارها لزيارة أختها .

وأقبلت صفية على أمها وأختها ترحب بهما ، وكانت تغادرهما أحياناً ، فقد شغلت عنهما بتدبير أمر غداً بهما ، كانت تتمنى أن تقدم لهما أشهى الأطعمة ، وليكنها كانت تعلم أن ما تقدمه لهما على حساب بطون أبنائها ، فإذا بذرت اليوم ، فليها أن تقتر غداً .

واستدعت خالداً ، وأعطته خمسة قروش ، وطلبت منه أن يشتري سمكاً من الصيادين ، فراح الصبي يقطع أميالاً ليمود إلى أمه بسمك كثير ، كانت على ثقة بأن ما تقدمه تافها إذا لم تتفنن فيه ، فبذلت كل مهارتها لتقدم لزوجها الباشا طعاماً شهياً .

وملئت البطون ، ودخل على فراشه ، ونام ملء جفونه ، ومالت الشمس نحو المغرب ، فانصرفت الجدة وجليلة بعد أن دار الحديث حول الباشا ، ولم تذكر جليلة اسم لبيب مرة ، فحز ذلك في قلب صفية ، فقد كان يسرها أن تسمع من أختها إعجاب الباشا بابنها ، وبما يبذله في الدائرة .

ونفض على من نومه ، وراح يرتدى ثيابه ، ويتأنق في مظهره ، كان يتأهب للخروج للسهر مع رفاقه ، ومرت به صفية ، وأصلحت قفطانه ، ووقفت تنظر إليه وهو ينصرف حتى غاب عن عينها .

ودخلت إلى المطبخ تغسل الأواني والصحاف ، ثم ذهبت إلى الحمام تغسل الثياب التي اتسخت ، ووقف خالد ينظر إليها في إعجاب وإشفاق ، فهو يراها تتحمل أعباء البيت وحدها ، حتى أبوه ألقى عليها عبأه ، فهو يضع في يدها قروشاً قليلة ، ثم ينصرف إلى المقهى ناعم البال ، مرتاح الضمير ، وقفزت إلى رأسه فكرة ، فدنا منها وقال :

— ما الذى يضطرك إلى أن تحي هذه الحياة القاسية ؟ لماذا لا تنهبين إلى بيت أريك ، لتعيشى هناك عيشة ناعمة .

فرنت إليه فى حب ، وقالت وقد رفت على شفقتها ابتسامة عذبة :

— إن من ترزق أولادا مثلكم لا تفكر فى أن تفر من قسوة الحياة وتتركهم

لأزمن يطعنهم ، إننى هنا سعيدة مادمتم أنتم سعداء ، إننى هنا من أجلكم .

وشردت ببصرها ، فلم يكن أبناؤها وحدهم الذين يشدونها إلى هذا البيت ،

فقد خفق فيه قلبها بالحب لأول مرة ، كانت تحب زوجها ، تحب فيه بساطته وطيبته

وفروسيته ، وتأسى على إخفاقه !

٥١

أكب إسماعيل على الطعام ، كلما ملأت له زوجه الصحف غيب ما بها فى

جوفه ، ومالت عزيزة تتناول الصحف الفارغة ، وهى ترمقه فى إنكار ، ثم انطلقت

إلى المطبخ حائرة تزجر :

— خرق المحروق بطنه فلم يعد يشبع .

وعادت تحمل الصحف ، ووضعتها أمامه ، وقالت فى حدة :

— بالله قل لى ما الذى تستفيد من الحشيش ؟ ! خرب جيبك وخرب بيتنا !

فقال إسماعيل ، وهو يأكل ولا يدرى :

— انسجام . حتى الحديد « تكيف » .

فقالت عزيزة وهى تحرك ذراعها فى الهواء يائسة :

— يا وكسة .

فقال وقد توقف عن الطعام ، وشرد بصره :

— وضعت مرة فى فرن القطار قطعة من الحشيش ، فانطلق فى سيره منسجما

عاطر الأنفاس ، ما أ كثر القطر التى قدتها ، ولكنى لم أر فى حياتى قطارا

ينطلق منسرحا كما انطلق ذلك القطار فى تلك المرة .

فقالت عزيزة فى ضجر :

— اعقل يا رجل ، سيدعج المحروق بشمالك .

فرنا إليها من بين جنبيه المنكسرين وقال :

— احترت معاك ، إذا سكرت غضبت ، وإذا حرقت المحروق غضبت

بالله قولى لى ماذا أشرب ؟

فقالت عزيزة نافذة الصبر :

— أصوت ؟ أصوت ؟ والله إن لم تسكت أصوت وأملأ عليك البيت ناسا .

فقال إسماعيل وهو ينكمش :

— خرسيت .

وأخذ يحيى وابن عمته يعثمان فى الشقة ، كان يحيى يقضى أغلب أوقاته عندهم ، وكان إسماعيل يرسله مع ابنه لشراء « مكيفاته » ، فإذا احتاج إلى الحشيش أمرها أن يشتري له مكيف حرف ح ، أما إذا أراد شراء أفيون فكان يأمرها بشراء « شيكولاته مكيفة » وقد اكتسب الغلامان فى شراء هذه المكيفات خبرة !

وعثر الولدان على قطعة صغيرة من الشيكولاته اقتصماها وأكل كل منهما نصيبه ، ومر بعض الوقت وإذا بهما ينظران إلى الأشياء فى بلاهة ، وإذا يحيى يقول لابن عمته فى دهش :

— انظر إلى الجمل الخارج من المرأة !

فينظر ابن عمته إلى الصوان المفتوح ويقول :

— فخنة لحم معلقة فى صوان الملابس !

ومرت عزيزة بهما فأنكرت حالهما ، ووقفت تصغى إليهما قليلا ، فحزت كل شىء ، فأحست ضيقا فى صدرها ، فذهبت نائرة إلى حيث كان زوجها ، وصاحت فيه :

— تعال انظر ماذا فعل أفيونك بالأولاد ، انفلق إذا أردت أن تنسجم أنت

وقطارك ، أما الأولاد فلا أسمح أبدا بإفسادهم .

فقال وقد بان الضيق فى وجهه :

— كفى صياحا .

— سأصوت حتى أجمع الناس عليك ، ليزوا ماذا فعلت . . يوه يوه !

فقام غاضبا وهو يقول :

— ماعون أبو الناس .

وذهب إليها ، ولف شعرها على يده ، وجذبها إلى الأرض وهو يلطمها على وجهها بيده الأخرى ، وهى نصوت وتصيح :

— يا وحش . ! يا حشاش . ! يا سكرى . . يا بن السكاب .

وخف من في الدار إليهما ، واكتظت الشقة بالأولاد ، ودوت الأصوات ، فقالت زهيرة :

— هس . . كفى صياحا . سيمسمع الناس صوتنا .

وهبت الرياح في الخارج مزججة ، وهطأت الأمطار غزيرة ، فانسل ميد من بين الواقفين ، وهم بالانصراف ، ولفقت حركته الأنظار ، فقالوا له :

— إلى أين يا سيد ؟

فقال وهو يهبط في الدرج :

— بخارج .

فقالوا له في خبث :

— في هذا المطر ؟

— إذا انقض البيت عليكم فمن يبيستدعى الإسماعيل غيري ؟ ووإذا تم

تحت الانقاض ، ففمن يققوم ببدفنكم غيري .

وانساب في الحارة مهرولا ، فما كان يبيت في البيت إذا هبت عاصفة أو هطل مطر ، كان يخشى انهيار البيت فوقه ، فكان يفر بنفسه ، لا يفكر في أحد سواه .

وهبات ثورة البيت ، مخلفة الميدان لثورة الطبيعة ، وساء زهيرة أن تستكين أختها بعد ذلك الضرب ، ودنت من حجرتها ، وأرهفت سمعها ، لعلها تشنف أذنها بسيل من السباب الذي يشفي صدرها ، ولكنها سمعت ضحكات أختها ، فلوت

شفتها في امتعاض ، وغمغمت في ضيق :

— والله إن أمرك يا عزيزة لعجيب .

تأهب الليل ليدثر السكون في رداءه الأسود ، فترك يحيى الحارة ، وذهب إلى البيت ، فهو يخشى الظلام ، ويرتجف إذا ما صعد في الدرج المغمى وحده ، كان يتوهم أن شخصا سيقتحم عليه من خلفه ، فنضطرب أنفاسه ، ويتلفت مذعورا وهو يهرول كلما صعد درجة .

وكان يقبع في الأمسية إلى جوار أمه وإخوته ، لا يجرؤ أن يذهب ليشرّب أو يطل من نافذة على الحارة ، كان يصور له وهمه أن الشياطين والمردة تخرج في الحربة ، وكان ينتفض هولا إذا ما سمع في الليل قصة مفزعة ، فقد كان ذهنه يتفتق للتصورات المزعجة ، فيتقبض ويتقلص ومشاعر الخوف تعذبه وتضنيه .

ووضع العشاء ، فهرغوا إليه خفاقا ، وبدأ السباق ، وما هي إلا دقائق حتى كانت المائدة خواء ، والصحاف فارغة ، وجلال يترقب مزيدا من الطعام ، فقد قام إخوته وظل جالسا ، وكيف يقوم وهو لا يحس ضغط الأكل في بطنه ، فهو لا يقتنع بأنه شبع إلا إذا أحس وطأ الكظة .

وراح يحيى يتمسح في سعيد ، فالنوم يداعب عينيه ، ولكنه لا يجرؤ على أن يذهب إلى الفراش ، فهو لا ينام وحده ، بل يشارك سعيدا في سريريه ، وما كان يدخل للنوم إلا إذا حن عليه أخوه ، وذهب معه إلى الفراش .

وجلس يهوم ، كان جفناه يسبلان برغمه ، ورأسه يسقط على صدره ، ولكنه كان يجاهد أن يقهر الوسن ، فهو يعرف أنه إذا استسلم له ، حملوه ودسوه في الفراش وحده ، وتركوه في الغرفة للجن والغفاريت .

ولمحتة صفية وهو يتفزع في جلسته كلما حاول النوم أن يضعه إلى صدره فأشفقت عليه ، وقالت لسعيد :

— أخوك يغالب النوم ، خذه واذهبوا إلى فراشكما .

ونهمض سعيد ، وأخذ أخاه من يده يقوده إلى السرير ، فانقاد له وهو مستريح ، واندسا في الفراش ، والتصق يحيى بظهر أخيه ، ولم يكن ذلك كافيا ليسكن بالطمأنينة قلبه الواجف ، فسحب اللحف وغطى به وجهه ، حتى لا يرى أشباح

الأشياء المنعكسة في ضوء المصباح الواهن على الجدران ، قدس كان يجسمها له
وهو ، فيراها تمد إليه أذرعة قوية بشمة ، تبني أن تقتله من جوار أخيه ،
أو تسكن أنفاسه .

ومشى إليه النوم ، فراح في سبات ، ودر الليل هادئا ، وإذا بصوت سائل
يمزق السكون ، ويرن في هجمة السكون رنين الجرس :

فإذا شكوت إلى العباد فلما تزداد من ضرر المصوم وتندم
فهب يحيي على الصوت مرعوبا ، وراح قلبه يتفزع في صدره ، حتى يكاد يفر
من فيه ، ولفته رهبة فتعلق في عنق أخيه ، ودوى الصوت الأجش :

وتنال حرمان المقاصد حينما تشكو الأمور إلى الذي لا يرحم
وخيل للعلام أن العرفة ملئت أبالسة وشياطين ، ولم يقو على احتمال ذلك
الخوف الذي أريق في جوفه فصرخ ، وهب سعيد على صراخه ، يسأله في لهفة :
— ماذا بك ؟ ماذا جرى ؟

وأجهش يحيى بالبكاء ، وهو يرتجف ، وارتفع الصوت مناديا :
وقلت للنفس قولا لست تأباه يا نفس صبرا على ما قدر الله
وفطن سعيد إلى ما يرعب أخاه ، فقام إلى النافذة وصاح :
— كفى صياحا يا رجل ، واذهب من هنا .

ولكن الرجل رفع عقيرته :

لا ينبغي للقضاة ولا جزع .

فضايق سعيدا إعراض الرجل عنه ، وعز عليه أن يتجاهل أمره ، فالتفت
في غضب يبحث عن شيء يقذفه به ، فرأى قلة على حافة النافذة ، فاخطفها
في حنق ، وصوبها إلى الرجل بكل قوته ، فدوت في الحارة دويا ، وقفز يحيى فرعا ،
وانهمرت دموعه تغسل وجهه .

وساد السكون سكون عميق بعد أن قرر السائل أن ينسحب في صمت ، قبل
أن تنال على رأسه الأواني والقلل ، وعاد سعيد إلى فراشه مطمئنا ، ولكن
ولى ذلك الاطمئنان لما ألقى يحيى ينتفض ، ويشرق بدموعه .

الحاج كرم ساهم راجم ، فالليل ينقضى وهو شارد وراء أفكاره ، والنهار يمر وهو منقبض الصدر حائق ، كان يكثر على نفسه ، ويقل يده إلى عنقه ، ليوطد مركز دكانه ، ولكن الكساد طاف به ، وزعزع أركانه ، فإذا لم يتداركه الله برحمته ، انهارت تجارته وأهون شئ على نفسه أن ينكب في أعز ما عنده إلا في ماله .

كان الحاج يفتح كالوردة كلما ربت أرباحه ، وكان ينشرح صدره كلما فكر في مستقبل أبنائه ، سيترك لهم محلا يضمن لهم حياة رغدة سعيدة ، فلن ينحشوا الفقر ، أو يهابوا الحرمان ، أما وقد أصاب تجارتهم البوار ، وراحت أرباحه تتسرب من بين يديه وهو راغم ، فقد ركبته الهمة ، وانتابه القلق ؛ بات ينحش المسغبة ، ويرنجف فرقا إذا ما فكر في أولاده ، فذوى وذبل ، وصار حليف السهاد ، لا تغمض عينه إذا هجع الناس ، ولا يسترخ رأسه من ترادف الأفكار التي كانت تساوره في قسوة وإصرار .

ولم يحتمل الجسم الواهن استبداد الدهن الواجف ، فسقط الحاج مريضا ، ولزم فراشه ، ولم ترحمه نفسه . كانت تغذيه بأفكار معمعة في الدكنة ، تذيب روحه وتهدي كيانه ، حتى إذا ما جاء مع المساء أبنائه مصطفى وكمال وحسين ، ودخلوا عليه مستفسرين عنه ، راح يسألهم في لهفة عن حال الدكان ، ويرشداهم إلى ما يفعلونه ، ويأمرهم أن يتركوا ما يحسب أنه يستعصى عليهم ، حتى يعود إلى عمله معافى ، بارثا من مرضه .

وازداد ضعفه وهزاله ، وخطر لأبنائه أن يستدعوا طبيبا يهودي ، ولكن لم يجرؤ أحدهم أن ينفذ ما دار بخلفه ، أو حتى يعرض عليه الفكرة ، كانوا في حضرته لا يفكرون ولا ينطقون ، فهو الرأس المدبر ، وهو اللسان الناطق ، فعليه أن يشير ، وعليهم أن يلبوا الإشارة دون تدبر أو تفكير ، وكان ذلك يرضى كبرياءه ، ولو خطر له أن أحدهم فكر في أن يفكر لأحنقه ذلك ، وعده جحودا وعقوقا .

وراحت صفية تعود أباهما ، وكانت تستصحب معها في كل زيارة والدا
من أبنائها ، فكان كل منهم يذهب إلى بيت جده وفي قلبه إحساس يتحقق به ،
وكانت الأفكار والمشاعر مختلفة متباينة ، فزكريا ينطلق إلى ذلك متراخيا متبرما ،
ولولا حرصه على أن لا يخرج أمه لأحجم عن مصاحبته ، فهو يرى تقرب أخواله
من أبناء خالته ، وتفورهم منه ومن إخوته ، وإن كان ذلك النفور محجبا بحجاب
رقيق من الجمالة التي تחדش الكبرياء ، وتخلف في القلب قطعا سودا لا يحورها
الرياء . إنه ليفطن إلى أن ما يجذبهم إلى أبناء خالته هو جاه أبيهم وأمواله ، وأن
ما ينفرهم منه فقر أبيه ، وإنه ليجب من ذلك الانجذاب وذلك النفور ، فما كان
غنى زوج جليلة برافهم ، وما كان فقر زوج صفية يخافضهم ، ولكنهم كعباد
الشمس الذي لا يستطيع أن يتحرر من رقه ، أو الوثني العا كف على صنمه ،
الغارق في البله والجهود .

وكان خالد يذهب إلى بيت جده مستفتح النفس ، منشرح الفؤاد ، كان يقبل
على درية أينة خاله ، يخادشها ويشاركها في لهوها ، وكان يستشعر راحة بقربها ،
حتى إنه لم يكن يفطن إلى ذلك الهوان الذي خدش كرامة زكريا ، ووخز كبرياءه
وجعله يفكر أكثر من مرة في أن يقيم بيته وبين ذلك البيت صدا .

أما جلال فكان بيت جده يتجسم في مخيلته في جدته ، فعائشة تحنو عليه ،
وتضع أمامه طعاما كثيرا يغيبه في بطنه ، كان يحب ذلك البيت ، وكانت جدته
موضع إحلاله وحبه ، فشب يعظم البيت الذي يكتظ بالأطعمة ، ويحترم الناس
الذين تحفل مواعدهم بما لذ وطاب .

وراحت صفية تعنى بأبها ، ترفعه لشرب أو ليا كل ، على رغم إصراره ،
أنه شعبان ولا رغبة له في الطعام ، وتريحه وتغطيه وترشده إلى ما يفعله ، وإلى
مالا ينبغي أن يفعله ، فينقذ إشاراتها ، وما كان يقبل أن يشير إليه أحد بكذا
وكذا ، وهو السيد في البيت ، ولكنه كان يطيع صفية ، ويحترم آراءها ، ويحس
راحة إذا أعارها سمه ، وأصغى إلى حديثها الرتيب .

ورنا إليها بهينه الواهنتين ، ورف على شفثيه المرتجفتين شبح بسمة ، ثم

غمغم :

— ليتك يا صفية كنت الرجل ، وكانوا هم البنات .
ولم تدفعه رعاية صفية وعنايتها ، ففي ذات مساء دخل أولاده عليه ليقصوا
عليه أخبار الدكان ، ويتلقوا منه أوامره ونواهيته ، فألقوه قد مات ، فوقفوا
ذاهلين ، لا يدرون ما يفعلون ، ليت الروح يرد إليه برهة ، ليأمرهم بما يريد .
وفيما هم في حيرتهم إذ جاءهم الأمر من صفية ، قالت :
— ما لكم هكذا تسمرتم في الأرض ، اخرجوا للملاقة العزيز .
فغادروا الفرقة مطرقين ، وماقبلوا رجال الأسرة حتى راحوا يتلقفون آراء
هذا وذاك ، تعودوا أن يفكر الحاج لهم ، وأن يقودهم إلى الطريق ، فلم
يتخلصوا بعد من ربة الحاج وإن كان قد مات .



انساخت أشهر الإجازة الصيفية ، فشغلت صفية بأمر المصروفات المدرسية :
أصبح زكريا وخالد في المدارس الثانوية ، وجلال وسعيد ويحيى في المدارس
الابتدائية ، فعلمها أن تدبر القسط الأول ، حتى يتمكن أولادها من دخول المدارس ،
والسير في الطريق الذي رسمته لهم .
إنها لا تستطيع أن تعتمد على زوجها ، فهو يضع في يدها القروش القليلة
التي يكسبها ، وهي تذكر أنها شكت إليه مرة حاجتها إلى نقود ، فأطرق مهموما ،
ثم أنبأها أنه صرف على إصلاح البيت مبلغا ، وأنه ليس وحده صاحب هذا البيت ،
سيطالب أخواته بنصيبهن في الإصلاح ، ولما كانت تعرف أنهن لن يدفعن شيئا ،
وأن مطالبتهن لن تخلف إلا المرارة في النفوس ووجع الرأس ، التمت منه
ألا يفتحهن في هذا الأمر ، فمن أين تأتي عزيزة وزهيرة وزينب بما تدفعنه له ،
وهن ينفقن كل ما يصل إليهن يوما بيوم .
وخطر لها أن تلجأ إلى إخوتها ، فقد ورثت عن أبيها حصة في بيتين وفي
الدكان ، لم تأخذ من ريعها شيئا بعد ، فأخوتها في ضيق ، وكانت تحب أن تترث
حتى يأتي الفرج . ولكن مستقبل أبنائها معلق بخيط ، ولا تحسب أن العشرة
الجنهات ، وهي كل ما تحتاج إليه لتفرج ضيقها ، ستزيد في أعباء إخوتها .

وراضت النفس على الذهاب إلى بيت أبيها . وأغراها بالذهاب أنها لن تستجدي أحدا ، فهي تطلب حقا من حقوقها ، وفي الصباح الباكر خرجت لتقابل إخوتها قبل ذهابهم إلى الدكان .

دخلت عليهم ، فقابلوها بالترحاب ، وأخذوا يتوددون إليها في الحديث ، حتى إذا ما قالت : « إني في حاجة إلى عشرة جنيهات » اربدت الوجوه ، وألجأت الألسن ، وساد الوجوم ، وسيطر السكون برهة ، حتى قال مصطفى في صوت أجش :

— لماذا ؟

فقلت صفية في هدوء ، وإن حزرت موجة القلق التي انداحت في الصدور :
— أريد أن أدفع مصروفات الأولاد .

فقال كمال في ضيق :

— ومتى كانت المرأة مكلفة تعليم أبنائها ، إنك ترهقين نفسك .

فقال حسين في استخفاف :

— إذا كان على لا يستطيع أن ينفق عليهم ، فلماذا تحملين نفسك ما لا تطيقين .

وانطلقت الألسن من عقالها ، وانتهالت الخويزات وصفية تتجلى ، وإن كانت تحس جرات النار تلسع روحها . ودت أكثر من مرة أن تنفجر في هؤلاء الذين يلومونها على الإنفاق على أبنائها لينقذوا عشرة جنيهات ليست من حر مالهم ، ولكنها رأت أن تتحمل إساءاتهم في صبر ، تلك الإساءات التي زادتها عزما وأصرارا ، قال مصطفى :

— لماذا لا يعمل زكريا ويحمل نصيبه من أعباء البيت . ولماذا لا يعمل خالد في دكان بدل جريه في الحارة ؟

ورأوا في عينيها إنكارا ، وإن لم تنبس بكلمة ، فقال حسين :

— ليس العمل في الدكاكين عيبا ، فالدكاكين مصير أبنائنا جميعا .

هت صفية أن تقول له إنهم ليسوا بخيرين في ذلك ، فأبناؤهم لم يفلحوا في المدارس ، بينما أبناؤها يسرون في طريقهم ، ولكنها كبرت زمام لسانها ، وإن استسلمت للحزن الطاغى ، الذي انتشر بين جنبها .

وانصرفت ساهمة ، تساورها أفكارها ، فتزيد في آلامها ، وراودتها فكرة الذهاب إلى أختها ، تفرج عن صدرها ذلك الكرب الذي يكاد يكتم أنفاسها ، وتلمس عونها ، فإذا كانت قارب إخوتها قست وتحجرت ، فستجد عند أختها برء الجراح قلبها ، فانطلقت إلى القصر وقد انبثق في ظلام نفسها بهيص من الأمل .

وفي الغرفة الفاخرة تقابلت الأختان اللتان صنعتهما الحظ ، الحظ العاثر والحظ السعيد ، والحظ المقبل والحظ المدبر ، وعلى الأريكة البديعة راحتا تتناحيان ؛ قالت سفية وسكين تمزق أحشاءها :

— إني في حاجة إلى عشرة جنيهات لأدفع مصاريف الأولاد ، وقد ذهبت إلى إخوتي . . . ولم تدعها جليلة تكمل حديثها ، فقالت :

— إنك ترهقين نفسك يا صفية ، لافائدة من تعليمهم ، هذه جهود ضائعة ؛ الأولاد ينزعون لأهلهم ، وأهلهم جميعا من العنابر ، جدهم سائق قطار ، وأزواج عماتهم سائقو قطار ، وأبوه رجل مسرات وسهرات ، فلماذا تصرين على تعليمهم ، إن يكونوا إلا كأهلهم ، اسمعى نصيحتي وألحقهم بالمصانع ، وأعديهم للعنابر ، حرام هذا المال الذي تبشريه ، وحرام هذا الحرمان الذي تقاسينه من أجلهم .

واندفت جليلة في حديثها ، وصفية تشمر بالأرض تميد تحت قدميها ، وأحست قسوة المستقبل ، فخطر لها أن تنصرف فرارا من تلك الشياطين التي تلهب كرامتها ، وتطمئن كبرياءها ، ولكنها وأدت رغبتها ، خوفا من أن تغضب أختها التي لم تترفق بها وهي تنحرفها .

وانصرفت صفية وأنين روحها يتجاوب بين ضلوعها ، وانطلقت حزينة يكاد حزنها يصدع كبدها ، ومساءها أن تستسلم لنوازع نفسها ، فرفعت رأسها في كبرياء ، وجمعت أطراف شجاعتها ، ووطنت النفس على أن تسير بأبنائها في الطريق الذي رسمته لهم ، وهي أكثر قوة وأشد إصرارا ، عاقدة العزم على أن لا تلمس العون من أحد ، ولو اضطرت إلى أن تربط على بطنها حجرا .

استيقظوا من نومهم مبكرين ، فأنفوا ثيابهم مرتبة مطوية عند رؤوسهم ، وأخذتهم عند الصوان تتلألاً ، فراح زكريا يرتدى ثيابه ، وهو يفكر في ذلك الجهد الذي تنفقه أمه في البيت ، إنها لتمضي سحابة يوماً في تجهيز الطعام ، وغسل الأواني والثياب ، وكثيراً من ليالها في رتق الجوارب وتثبيت الأزرار ، وتصليح الملابس وتفصيلها ، وإنه لجهد كبير تنفقه من أعصابها ، فاستشعر إشفاقاً ، وقبح ذهنه يفكر فيما يفعلونه ليشاطروها حمل هذا العبء الثقيل ، فوجد أن خير وسيلة لإراحتهما ، تشغيل خادم تشاركهما في تنسيق البيت وتنظيفه ، ولكن أين النقود ؟

وراح خاله يرتدى ثيابه في عجلة لينطلق إلى مدرسته الثانوية ، يلعب مع رفاقه في الصباح بالكرة ، كانت كرة صغيرة من المطاط أحياناً ، وكانت من الجوارب المتيقة في أغلب الأحيان ، وكان في العصر لا يغادر المدرسة ، بل كان يكثر بها يشاهد فريق الكرة وهو يتدرب ، يداعبه أمل أن يصبح من أفراد الفريق ؟ كانت الكرة هي المغناطيس الذي يجذبه إلى المدرسة ويحببه فيها .

وأخذ جلال يرتدى ملابسه فوق جلبابه ، فدرس الحساب يضربه ضرباً مبرحاً ، فهو يحاول أن يجعل بين جسمه وبين الخيزرانة درعاً من الثياب ، فكان يسير محشواً أشبه بكرنية كثيفة الأوراق .

ووقف سعيد في الشباك ، فرأى عصفوراً على حافة نافذة الجيران ، فأغراه ذلك أن يشد نبله ، وأن يطلق حصاة لاصطياد العصفور ، وإذا بامرأة تهرول إلى النافذة ، وهي ترغى وتزبد ، وتسب وتصرخ ، فأقبلت صفية تعتذر إليها في رقة ، ثم انتهالت على سعيد ضرباً ، وهو يتحمل الأذى صابراً ، لا تدمع له عين . كان عصي الدمع ، يتلقى الجزاء دون ضجر ، فما كان يتأوه أو يبدي تأففاً من العقاب ، إذا ما ارتكب ما يستحق عليه الضرب .

وخرج الأولاد إلى مدارسهم ، وجلس جلال إلى قمطره هادئاً ، كان متفوقاً في اللغة العربية ، فكان يقبل على حصصها مطمئناً ، وأقبل الأستاذ ، وجعل يلقيه

خطبة سيلقيها أمام رئيس الحكومة في حفلة المدرسة السنوية ، فراح جلال يخطب في ثقة وفرح ، فصدوره ينشرح إذا أحس اهتماما به ، وألقى الأنظار تتطلع إليه . واطمأن الأستاذ إلى إلقائه ، فأخذته إلى غرفة الناظر ، وهناك أعاد جلال الخطبة مزهوا ، وما مست أذنيه كلمات الإعجاب التي ترددت حتى انتشى ، وراح قلبه يرتقص في جوفه فرحا .

وعاد إلى فصله مزهوا ، ورأى أستاذه يكتب اسمه على السبورة بالألوان ، فغمزته سعادة عارمة ، حتى استشعر أنه يهيم في عالم وردى من الرؤى المذاب . ودق الجرس ، وانصرف الأستاذ ، وأقبل مدرس الحساب ، ونظر إلى السبورة ، وقرأ الاسم المكتوب عليها مزخرفا جميلا :

— جلال على يونس ، من هذا ؟

فقام جلال منتشيا ، وما إن وقعت عينه المدرس عليه ، حتى قال في إنكار :

— أنت ؟ ! ولماذا يكتب اسمك بالألوان ؟

فصاح الأولاد :

— إنه قوى في العربي ، سيلقى خطبة المدرسة أمام رئيس الوزارة .

فقال له المدرس في حدة :

— تعال هنا .

وذهب إليه جلال ، فقبض عليه بيد قوية ، وقال له وهو يهزه :

— لماذا أنت خائب في الحساب ؟

ولم ينبس جلال بكلمة ، وإذا بالخيزرانه تهوى عليه ، ولم يكتب المدرس

بضربه ، بل صاح به :

— امسح السبورة .

فسار جلال إلى السبورة وهو حائق ، وراح يمحو اسمه بيده وهو حزين ، يحس خنجرا يفوس في قلبه . لم يدعه مدرس الحساب لأحلامه البهيجة ، ضربه وأهانته وأذله ، فجذبه من السماء إلى الأرض ، وكأما عز عليه أن يتركه فوقها ، فمرغه في التراب .

وانقضى اليوم ، فرجع جلال إلى أهله مسرورا ، تبخرت إهانة مدرس الحساب

وعاد إليه زهره ، فراح يقص على أمه وإخوته أنه وقع عليه الاختيار ليلقى كلمة المدرسة أمام رئيس الوزراء ، وأخذ ينقل بصره بينهم ، فلما لمح أنهم يتطلعون إليه في اهتمام ، ثلج صدره ، واستشعر معادة غامرة .

وأخذ خالد يروي النبأ لكل من يقابله ، ويتحدث عن جلال ويفخر به ، فقد كان يحس راحة إذا ما تحدث عن إخوته أو أصدقائه وعدد محاسنهم ومناقبهم ، فقد كان يشعر أن تلك المحاسن والمناقب تنعكس إلى نفسه .

ووفي اليوم المرتقب ، يوم الحفل الذي ما كان لجلال حديث غيره ، فذهب على إلى المدرسة وفي جوفه بذور قلق ، كان يشفق على جلال ، ويخشى أن يهاب الموقف ، فيرتج عليه ، ويحبس لسانه ، ومر بين الزينة التي تفنت المدرسة في إبرازها ، فلم تجذب بصره ؛ كان مشغولاً بالقلق الذي بدأ يزحف في صدره .

وأقبل رئيس الوزراء ، فراح قلب الوالد يخفق بين جوانحه كجراح حمامة ، لم يكن على ليهاب أن يكتب إلى اللورد كرومر ، أو يرفع شكايته من الشركة البريطانية المتعسفة إلى وزير خارجية بريطانيا العظمى ، أو يقف في وجه الشيطان ، ولكنه يضطرب خشية ألا يثبت ابنه أنه أهل لما ندب له .

ووقف جلال مزهواً أمام رئيس الوزراء بينما تضائل على في مقعده ، وجلجل صوت جلال ثابتاً ، وأريق في أذني على حلاوا ، فهدأت أنفاسه المبهورة ، وعاد إليه هدوءه ، وفر القلق ليحلى الطريق لمشاعر الفرح المتزجة بخنان عجيب ، لا تنبع إلا من قلب والد مزهو بولده المتفوق على أقرانه من الأولاد .

وانتهى جلال من خطبته ، فدوى المكان بالتصفيق ، فأحس كأنما صيغ من السعادة ، وفاضت إحساسات على حتى ترقرت السموع في مقلتيه ، وأرهفت حواسه ، وتركز بصره في ابنه ، فألفاه يتقدم إلى رئيس الوزارة ، فبربت عليه ، ثم يمنحه أربعة جنيهات من الذهب ، وشاءت مشاعر على الطاغية أن تتبدى ، فسالت عبراته على خده ، فأخرج من جيبيه منديله يكفف به دموع الفرح .

أولاد الحاج كرم في حيرة ، لا يدرون ماذا يفعلون وقد كسدت التجارة ، وأصبحوا على شفا الإفلاس ، إنهم يرون في المتجر كل آمالهم ، فإذا ذهب من أيديهم ضربت عليهم النلة ، وصاروا فقراء ، وإن مجرد فكرة الفقر ترجفهم وتزلزل كيانهم ، وتجعلهم يقدحون زناد أفكارهم للبحث عن طريق للفرار من وجه ذلك الغول البشع الفاعر فاه لبيتلهم .

وخطرت لهم جميعا فكرة واحدة ، فما كان أمامهم غيرها ، أن يستدينوا مبلغا من المال ينقدون به الدكان ، وقامت في سبيل إنقاذ هذه الفكرة عقبات ، فمن ذا الذي يقرضهم المال ، ولماذا يقرضهم ، وأين الضمان ، وكادت هذه العقبات تفت في عضدهم ، وتجعلهم يركنون إلى اليأس ، ولكن شبح الفقر أفزعهم فيما يفعلونه ، ليلوذوا بأذيال النجاة :

ورفع حسين رأسه وقال :

— أرى أن نرسل لعل نستشير ، ونعرض عليه أمرنا .

فرمقه أخواه في دهش . كانوا يعرفان عنه أنه أكثر قدحا في على ، فهو يحط قدره ، ويتهمه بالحول والأناية وتبدل الإحساس ، فما باله يفكر فيه الساعة ، ويقترح أن يضع مستقبلهم بين يديه ؟ ولم يشاء أن يثيرا جوا من الجدل ، كانوا يتلهفان على الخروج مما هم فيه ، فقالا :

— فلنبعث إليه .

وجاء على في جلبابه الصوفى ، وطربوشه الداكن الطويل ، وجلس يصغى إليهم ، حتى إذا ما انتهوا من قصتهم ، قال :

— صديق ستاورو يقرضكم المال ، ولكن لا بد أن نرهن عنده عقارا .

فقال مصطفى في قلق :

— ولكن العقار ليس لنا وحدنا .

فقال على في بساطة :

— على إقناع صفية بأن تقبل رهن العقار معكم إنقاذاً للمكان ، ستقبل ذلك ،
فأنا أعرف مقدار حبها لكم ، أتم لها كل شيء .
وقال كمال :

— وجميلة ؟

فقال مصطفى في ثقة :

— دعوها لى . أنا قادر على إقناعها .

وانصرف على وقد اتفقوا على أن يجتمعوا في المساء في البيت الكبير ،
ولما وافى الميعاد ذهب على إلى بيت الحاج كرم ، فألقى كمالا ومصطفى وحسينا
يرقبونه في قلق ، ولمح سحابة من الأسى تكسو وجوههم ، فرأى أن يخفف
عنهم ما يقاسونه ، وأن يثلج صدورهم بما عنده من نبا ، فقال :

— رحبت صفية بالفكرة ، وقالت لو أن في مقدورها أن تفعل شيئا آخر
لفعلته .

فقال مصطفى في صوت خافض حزين :

— رفضت جميلة أن تذهب إلى المحكمة لتوقع على عقد الرهن .

فقال على :

— الأمر سهل ، يذهب الموثق إلى بيتها .

— ورفضت أن يأتى أحد إلى قصرها ، ففي ذلك عار لها .

وأطرقوا جميعا صامتين ، وعز على على أن يخفق في إنقاذ أناس ألقوا إليه
قيادهم ، فانتشر في صدره ضيق ، وراح يفكر ليجد مخرجا ، وقفزت إلى رأسه
فكرة حمقاء ، ولكنه رحب بها ، فأهون عنده أن يرتكب حماقة وأن يقاسى
نتائجها وحده ، من أن يخفق في تحقيق أمنية من لاذ به .

ورفع رأسه وقال :

— وجدت حلا .

فنظروا إليه بعيون واسعة ، وقالوا :

— ماهو ؟

فابتسم على وقال :

— أرى أن توقع صفية على الرهن باسمها وباسم أختها .

فقالوا في خوف :

— ولكن هذه جريمة .

فقال على في حماسة :

— لا شأن لكم بها ، هذا شأن صفية .

ولم يعترضوا ، بل أحسوا راحة ، كانت أنفسهم أعز عليهم من على وصفية ، وإنهم على استعداد لأن يضجوا بمن هم أحب إليهم منها ، إذا كان في تلك التضحية إنقاذ لأموالهم ، وإبعاد لشبح الفقر عنهم .

وذهبت صفية إلى المحكمة ، ووقعت باسمها ، وذهبت مرة أخرى ، ووقعت باسم جلييلة ، مضحية بنفسها في سبيل إخوتها الذين رفضوا أن يقرضوها عشرة جنيهات من مالها ، تنفقها في تعلم فلذات كبدها ١ .

٥٧

مالت الشمس المغيب ، وبدأ القمر كقرص فضي يسبح في اللجة الزرقاء ، للاح قريبا من الأرض حتى أغرى ذلك سعيدا أن يضع في نبلته حصاة ويصوبها إليه ١

وساح الأولاد في الحارة ، كل يتجه إلى بيته ، فقد أقبل الليل ، كان خالد يتصبب عرقا بعد ذلك الجهد الذي بذله في اللعب بالكرة ، وجلال يحمل كيسين صغيرين ، في أحدهما بلى وفي الآخر نوى الشمس ، وسعيد يتلفت يبحث عن شيء يصوب إليه نبله ، ليختم لعب النهار ، وكان يحيي يلتصق به خوفا ، ويتوسل إليه أن ينصرف إلى الدار ، كان يخشى أن يصعد في الدرج وحده .

ولمخ سعيد بائع العرقسوس وعلى صدره قدر من الفخار ، فعبثت به فكرة ، أشرق لها وجهه ، وتناول من الأرض حصاة وضعها في النبل ، وصوبها إلى القدر ، فصدر منها رنين ، كان صدها في نفسه أحلى من الأنعام المنبعثة من أنامل فنان ١

وارتفعت زجاجة بائع العرقسوس ، وتدفق سبابه ، فولى سعيد هاربا وهو
نشوان ، وجرى يحى فى أثره مفزوعا ؛ لم يكن يخشى أن يبطش به الرجل ،
بل كان يرتجف فرقا من الظلام .

واجتمعوا فى الشقة ، وراحوا يطلبون العشاء ، وكان جلال أكثر الخافا
فى طلبه ؛ ادعى أنه يريد أن ينام ، ووضع أمامهم الطعام ، وماهى إلا دقائق حتى
اختفى ما على الحوان .

وجاءت صفية إلى زكريا وقالت :

— جاءتنا الليلة رسالة .

ودفعها إليه ، فحمل يقلبها ثم قال :

— إنها من لبيب .

فقالت صفية فى لهفة :

— اقرأها .

ففضها ونشرها وأخذ يقرأ ، وقد ساد السكون :

أبى العزيز .

أبعث إليك وإلى أمى بأشواقى ، وأرجو أن يكون إخوتى بخير ، وبعد فأكتب
إليك هذه الرسالة والحزن يملأ جوانحى ، فالباشا زوج خالى قرر تخفيض مرتبى
نظرا لكساد السوق !

حز هذا القرار فى نفسى ، فما كنت أنتظر أن يكون هذا جزائى ، بعد أن
أذبت روحى ، وأنفقت عصارة ذهنى فى تنظيم الدائرة التى كانت مرتعا للفوضى ،
ونهبها لدوى الصمائر الحربية من أقارب الباشا ورجاله . إننى سهرت على ماله كما
يسهر الإنسان على ماله ، حتى زادت إيرادات الدائرة ، ولم يفكر الباشا فى ذلك
الوقت أن يرفع مرتبى ، أما وقد كسدت التجارة ، فقد خفض مرتبى جنبها ،
كأنما ذلك الجنيه سيزيد فى آلافه .

إننى ضيق الصدر بهذا القرار الظالم ، برم به ، ففيه غبن لى ، أفكر فى أن
أترك خدمة زوج خالى ، وهذه الفكرة تستبدي ، وتلاقى هوى من نفسى ،
فلن أعجز عن أن أجد عملا أفضل من هذا العمل المضى ، الذى لا يلاقى ما يستحقه
من تقدير .

وصمت زكريا ، واران الحزن على وجه صفيه ، كانت تجاهد أن تتجلى أمام أولادها ، وأن لا تظهر الجزع ، ولكن رسالة لييب مزقت قلبها ، وهزتها فأفلتت منها ضوابط نفسها ، وانتقل الحزن منها إلى أبنائها ، فجعلوا يتبادلون نظرات قلقه ، وجثم على المكان كابوس ، وأراوت أن تخرج صغارها من ذلك الوجوم ، فقالت :

— اذهبوا إلى فرشكم .

فقاموا مطرقين ، وانطلقوا إلى السرير ، وناموا إلا زكريا وظالما لم تغمض لهما عين ، كان زكريا يفكر في مستقبل لييب إذا ترك خدمة الباشا ، وبوازن بين مستقبله وأمه ، أما خالد فكانت كلمات أخيه المغبون ترن في أذنيه ، فتحرك أوتار قلبه ، وتهايج شجونه ، فتسيل عبراته غزيرة على خديه ، وفسكر في أسرته ففطن لأول مرة أنها تقاسى الحرمان والضيق ، فعقد بينه وبين نفسه أن يجد وأن يبذل غاية ما في طوقه ، لينتهى من دراسته ، ويحمل على عاتقه بعض أعباء الأسرة .

٥٨

سيد ينطلق في الطرقات يرتدي بذلة متواضعة ، وعلى رأسه طربوش مغبر . يميل إلى اليسار قليلا ، إنه منشرح الصدر ، يدندن في نبرات حلوة ، فيزداد نشوة ، فهو إذا غنى لنفسه انساب الأغنية عذبة ، دون أن يتعثر لسانه أو يتلعجلج .

تحققت أمنيته ، فالتحق بالعنابر ، وأصبح رجلا كرجال أسرته ، وإن هي إلا سنوات قليلة حتى يصبح سائق قطر ، ويتناول أجرا يمكنه من أن يحرق الحشيش ، ويشرب الخمر ، فيلحق بأصله الذي زرع في مصلحة السكك الحديدية ، وفرع في الغرز والحانات .

رأى فتاة لفت جسمها المعتلى في ملأه سوداء ، وأسدت من فوق أنفها نقابا أسود شفافا ، فخطر له أن يغازلها ، فقدم لها وهي تنو إليه بعينيها السوداوين الواسعتين .

دنا منها ، وسار خلفها يسمعها رقيق الفزل .

— ننظره . . ننظره بيا غزال .

وأسرعت الفتاة في سيرها ، فراح يقتني آثارها ، ويقول :

— خنخفة . . . خنخفة وواللهي .

وتنهلت الفتاة قليلا ، فخنق قلب سيد ، وأسرع ليصبح بإزائها ، فقد حسب أنها لانت لفزله وفصاحته !

رفعت الفتاة النقاب عن وجهها ، فدوى قلب سيد دويا ، ثم أحس به يفوس في قدميه ، وقالت في تهديد :

— سيد : سأقول لأهلك .

كانت الفتاة ابنة خالته ، فقدر ما سيقاسيه من سخرية الألسنة الطويلة التي لارحم ، فقال لها في ذلة واستعطاف .

— تتنبت . . . تتنبت وواللهي .

وانصرفت الفتاة وهي تبسم ، ووقف سيد جامدا مقطب الجبين ، يفكر في عودته إلى الدار فيرتجف ، ويزيد في اضطرابه صورة خالته عزيزة ، ولسانها الذي لا يكل ولا يتعب وقد احتلت ذهنه .

وتقدم في الحارة متمهلا ، فلما بلغ الدار لفته رهبة ، فلم يفتن إلى حليلة القابعة عند الباب ، تتطلع إليه ، فما كان يمر عليها دون أن يحيطها . وصعد في الدرج خافق القلب ، واستشعر حركة غريبة في البيت فتضاءل ، دار بخلد أن ابنة خاله قد صنعت من الحبة قبة .

ودلف إلى الشقة ، فلم يهتم به أحد ، فتعجب ، كانوا يمرون بجواره دون أن يكلموه أو حتى يلحظوه ، فتقدم من أخيه سليمان وقال :

— ماذا يجري هنا ؟

فقال سليمان :

— عادوا بإسماعيل محمولا لا ينطق ولا يتحرك .

فأحس سيد راحة ، فمرض إسماعيل أنقذه من الهزء والسخرية .

وأقبل حسان يعود إسماعيل ، فجلس إلى جواره ، ونظر إليه ، فألفاه زائغ

البصر ، اختفى سواد عينيّه ولم يبق إلا بياضهما ، فاستشعر حزنا ، ولكنه تجدد
وشاء أن يرفه عن إسماعيل ، فمال على أذنه وشمس :

— ما رأيك في كأس الآن ؟

ولم تحتاج في وجه إسماعيل خالجة ، لم يسمح له فما عاد يحس شيئا مما حوله انقبض
حسان وأحس كأن يدا قوية تجبذ فؤاده ، فراح ينو إلى إسماعيل ، وقد نسي
أن المسجى أمامه قد سلبه كل ما ورثه عن أبيه في البيت كفاء بضعة كئوس .
وراح الواقع الأليم يخرز روح حسان ، فاشتدت آلامه ، ولم يمد يدها ، كانت
نفسه تن في جوفه فتعذبه وتضنيه ، ورأى أن يفر من وعيه ، فهرع إلى الحانة
يحب الكئوس .

وفي جوف الليل شق الصوات السكون ، فهب الناس من نومهم مفزوعين
يستفسرون فإذا بإسماعيل قد مات ، فخيم على الحارة وجوم .

وفي الصباح طلبت عزيزة الرجال المختصين بالجنائز ، وقالت لهم :

— أريدها جنازة يتحدث الناس بها .

فقال أحد الرجال :

— أترغبين في أن يخرج والأفندية يسيرون أمامه أو يخرج بكرامة ؟

فقالت عزيزة في تأكيد :

— يخرج بكرامة .

وأقبل المعزون ، وما إن هبط النعش إلى الحارة ، حتى راح الدين يحملونه

يعدون به ، فهرول المعزون خلفهم ، وهم يصيحون ، فقد أخذتهم الجلالة :

— الله . . . الله . . . الله . . . الله . . .

ورأى الفلاحون في العالية النعش وهو يطير ، فأطلقت الزغاريد ، وباتت

الحارة تتحدث عن الكرامة التي أظهرها إسماعيل

الأولاد يتعاونون على نظافة البيت ، خالدا يتسلق نافذة ويمسح زجاجها ، وجلال يمسك مكنسة ولكنه لا يكتس بها إلا إذا لمع أمه مقبلة عليه ، كان يحب أن يلفت الأنظار إليه ، ويتلقى المديح دون أن يبذل مجهودا يؤهله المدح والثناء ، وراح سعيد يغسل الحيشة في دلو ، ثم يمسح بها الأرض ، ويحيي يمدو خلفه يعبت في الماء .

انطلق خالد إلى رفاقه يلعب الكرة ، وذهب جلال إلى الحربة حيث يجتمع الأولاد للعب بالأكر ونوى المشمش ، ولكنه ألقي صحابه قد هجروا النوى وراحوا يقاتلون بالملايم ، فوقف يرنو إليهم وفي صدره رغبة ، إنه يشتهي بكل جوارحه أن يشاطرهم ذلك اللعب ، ولكن لم يكن معه نقود ، فجعل يرقبهم وهو يستشعر نشوة ، لا يحس شيئا مما حوله فلم يمد يري إلا الملايم المتداولة بين الأيدي الصغيرة ، والزهر العاجي الذي تميزت أسطحه بنقط سود .

وراح سعيد يصوب نبله إلى العصافير والطيور ، ويحيي يهرول خلفه يناوله ما يجمعه من الحصى ، ودفع يحيي في عدوه صيبا من صبيان الحارة ، فقال له الصبي معبرا :

— يا أبا سن ذهبية .

فأطرق يحيي خجلا ، سببت له هذه السن متاعب لم تدر بخلافه يوم بكى وأمعن في البكاء ليركب سنا ذهبية ، فالصبيان يفتقدونه كلما رأوه حتى صار ينجل أن يفتح فيه ، صارت له نكدا في الحارة وفي المدرسة ، فالشيخ يطلب منه أن يقرأ فيحاول أن يفعل دون أن تبدو السن فيتلعثم فينهال على أم رأسه السباب ، لقد راودته أكثر من مرة فكرة خلع هذه السن ، ولكنه كان ينجل أن تسخر أمه منه ، فيئد الفكرة على مضض

وعاد الأولاد إلى البيت لما وافى ميعاد الغداء ، ولولا الطعام مادخاوا الدار ، والتفوا حول الخوان ، وقد جلس أبوهم بينهم فأحسوا انشراحا ، فما كانوا يقابلونه إلا نادرا ، كانوا يذهبون إلى المدارس وهو غارق في نومه ، ويعودون إلى الدار وقد خرج للسهر .

نظر على إلى زكريا وقال له :

— ماذا تنتوى أن تفعل إذا حصلت على البكالوريا ؟

خفق قلب زكريا ، إنه يعلم مقدار ما تقاسيه الأسرة من ضيق ، ولولا ذلك لنزر اليسير الذي يبعث به لبيب في كل شهر ، والدخل المحدود الذي لا يكاد يذكر الذي ورثته أمه ، وذلك الرزق الذي ينبثق من الصخر الذي خص الله به أباه ، حلت السكارثة بأشله ، وهو يعلم حاجة الأسرة إلى عونه ، ولكن فكرة دخول الجامعة كانت تلح على ذهنه ، وما كان بقادر أن يبوح لأبيه بهذه الرغبة ، فأطرق دون أن ينبس بكلمة ، فقال له على مشرق الوجه :

— أرجو أن أراك غاميا تنصر الضعفاء والمظلومين .

فتلالت أسارير زكريا ، ودبت الحياة فيه ، فراحت السمكات تتدفق منه طارة ، كان يبث أباه آماله ، ويسده أن يبذل غاية جهده ، ليحقق أمله فيه .
وتطرق الحديث عن الكورنيش ، والهمة المبذولة لالتهاء منه ، وكأنما ذلك الحديث أحيا أسلا كان قد خبا في نفس على فقال :

— الحكومة مهتمة بتحسين الإسكندرية في هذه الأيام ، وقد علمت أنها ستشرع في شق الشارع الجديد ، ستنتهي منه ولا شك قبل أن تصبح محاميا يازكريا ، وسيطال بيتنا هذا على الميدان ، وسأخصص لك فيه مكتبا تبدأ فيه عملك ، ولو وضعت على هذه الترفقة لافتة كبيرة كتب فيها « زكريا على يونس محام » ، فإنها ستجذب أبصار المارين .

وشرد على ببصره ، وفي وجهه بسمة الأمل ، وأطلق الأولاد لأخيلتهم العنان ، وحتى صفية التي ما كانت تحب التحليق وراء الأوهام ، هامت في دنيا الرجاء ، وانداحت في جوفها إحساسات بهيجة رقص لها قلبها .

وجاء الليل فخرج على إلى رفاقه ، وأكب زكريا وإخوته على دروسهم ، كان خالد يبذل لأول مرة جهدا صادقا في استيعاب ما يقرأ ، أثرت فيه رسالة ، لبيب ، حتى أحس أنه قد تبدل ، لم يعد له أن يتراخى أو يركن إلى الكسل ، والأسرة في حاجة إلى جهودهم مجتمعة .

وتتصرم ساعات الليل وصفية جالسة تنظر إليهم ، وينزل التعب بهم ، فينساون
واحدا إثر واحد ، وبقي جلال يتظاهري بالقراءة ، يحس بهجة لأنه قد لفت نظر
أمه إليه ، ورآها تهوم في جلستها أكثر من مرة ، فزاد سروره ، فقد تيقن
من اهتمامها به ، وعدم رغبتها في الدخول إلى فراشها لتستريح ، قبل أن تطمئن
إلى أنه قد انتهى من استذكاره . وأنه قد دخل فراشه ونام .

٦٠

صفية منشرة الصدر ، تستشعر زهوا ، نال زكريا البكالوريا ، ونجح أولادها
جميعا في هذه السنة ، وأرادت أن تبر لأولادها عن سرورها ، فقالت لهم :
— منمغى الصيف في المكس .

وارتفعت الأصوات تستفسر في مرج :

— متى نذهب ؟ . . من يذهب معنا ؟ ماذا نأخذ من أثاث ؟

وصفية تجيب عن الأسئلة المتدفقة في حنان وسعة صدر .

وفي الطبقة الثانية ، اجتمعت عزيزة وزهيرة وثريا وبعض أبناء الثيران ،
كانوا يتحدثون عن أولاد صفية ، قالت زهيرة :

— نال زكريا البكالوريا ، ونجح إخوته جميعا .

وصمتت وهي تنو إلى عزيزة من بين أهدابها ، تنتظر أن تسمع من أختها
تعليقاتها اللاذعة ، ولكن عزيزة لجت في الصمت ، وقال سيد :

— كلكم مرتب الحاصل على البكالوريا ؟

فقال أخوه سليمان :

— ستة جنيهات .

فقال سيد وقد امتعض :

— يا خسارة التعب ، لو كان معنا في العنابر ، كان مرتبه الآن سبعة جنيهات

ونصف . أنا آخذ سبعة جنيهات ونصف .

فقال سليمان في افتخار :

— بقيت لأهلى مصروفات المدرسة ، وأنفقت على نفسي .

فقالت زهيرة لتحرك أفتها العمامته على غير عاداتها :

— لو تقدمتا لخطبة فتاة وتقدم هو لخطبتها لفضله أهلها عليكما .

فأحس سليمان قهرا ، إنه لا يفكر إلا فى الزواج ، ولا يعيش إلا على هذا الأمل ، وإذا بخالته تلطمه بهذه الحقيقة ، كان على يقين من أن أهل أية فتاة يفضلون الموظف على العامل ، فحق سليمان ، كأنما قد توظف زكريا ، وراح ينافسه فى فتاة بينهما ، فقال فى غضب :

— إن أهل هذه الفتاة الذين يفضلونه علينا ليس فى وجوههم نظر .

وكأما شجع هذا الكلام سيدا فقال :

— أليس للخفة ثمن ؟ !

ونظرت زهيرة إلى عزيزة منكرة صمتها ، فقالت لها :

— مالك ؟ مم تشكين ؟

فقالت عزيزة فى اقتضاب :

— لا شىء .

فقالت زهيرة وهى تبسم :

— والله أنت مريضة ، هذا لا شك فيه .

ولم تنبس عزيزة بكلمة ، كانت تقاوم رغبتها فى الثروة ، فهى تخشى أن تحدش زكريا وقد كبر ، أصبحت تطمع فى أن تزوجه بنتا من بناتها ، فكانت تجاهد فى كبس جراح لسانها ، وإنه لجهاد عسير .

وهبط أبناء على إلى الحارة يلعبون ، وبقي جلال فى الشقة يغدو ويروح ، فرفاقه هجروا اللاعب بنوى الشمس والأكر ، وأصبحوا يلعبون بالنقود ، خطر له أن يطلب من أمه بضعة قروش ، ولكنه كان على ثقة من أنها لن تعطيه ، فأحس ضيقا ، وأطرق يفكر فيما يفعله ليحصل على نقود .

ولمح جلاباب أبيه معلقا فى المشجب ، فألقى نفسه ينجذب إليه ، ويمد يده فى جيبيه وهو كالماخوذ ، ووجد عشرة قروش أخذها خافق القلب مضطربا ، ثم انصرف إلى رفاقه يشاركهم فى لعبهم .

أُكِب على اللعب بكل حواسه ، واستبدت به حمى القمار ، فراح يجازف بكل ماله من قروش ، وراح يكسب فكان الكسب يزيد في جرأته ، وما قام حتى كان معه ريال .

ذهب واشترى شيكولاتة وأكلها ، وفكر في أن يشتري بما بقي معه ما يملأ به بطنه ، ويحس كظة فيه ، ولكنه رأى أن يحتفظ ببعض النقود ، حتى يستطيع أن يعاود اللعب في أيام الإجازة الطويلة .

وصعد إلى غرفة نومه ، وراح يبحث عن مكان أمين يخفي فيه ماله ، فلم يجد الأريكة وقد صفت فوقها الحشايا ، فذهب ليخفي فيها النقود ، ودخلت أمه عليه وهو يرفع طرف الحشية ، فقالت له :

— ماذا تفعل ؟

فانتفض مفزوعا ، وقال وهو يتلعثم :

— وجدت ريالا في الحارة . . .

— أرني .

فقدم لها النقود ، فتناولتها وفي جوفها ضيق ، ثم قالت :

— هذه فكّة ، وهل يعقل أن تجد ريالا مفكوكا .

فقال ونبراته تنم عن كذبه :

— وجدت ريالا اشتريت منه شيكولاتة ، وهذا ما بقي منه .

فصاحت فيه في حنق :

— كذاب ، إذا لم تقل لي من أين أتيت به قتلتك ضربا .

فارتجف ولم ينطق حرفا ، فهجمت عليه ، وراحت توسعه ضربا ، وأقبل إخوته ينظرون ، ووجدوه يكاد يغشى عليه من الضرب ، ولكن لم يجروا أحدهم على أن يتقدم ليخلصه من يديها ، كانوا يعرفون أنها تغفر لهم كل شيء إلا السرقة .

جلست صفية في تلك الغرفة الخشبية المتواضعة ، التابعة على شاطئ المسكن في ذلة ، تعد الطعام ، وقد راح أولادها يمرحون مسرورين ؛ كان خالد يلعب بالكرة على الرمال مع بعض رفاقه ، وجمال وسعيد ويحيى يعومون ، بينما جلس زكريا على كرسي ينظر إلى الماء وإلى السماء ، ويقلب وجهه في الغادين والرائحين . تعلم سعيد ويحيى العوم فكانا يذهبان حتى البراميل ، بينما قصر جلال في الاحقاق بهما ، ولكنه كان يكره أن يفطن أحد إلى تفوقهما عليه ، فكان يجازف في العوم ، ويذهب في آثارهما ، وما كان يعوم في حرص المبتدئين ، بل كان يحب أن يجذب أبصار المستحمين إليه ، فكان يحاول أن يطفو في رشاقة ، وأن يضرب الماء بأناقة ، وأن ينساب في خفة أبطال السباحة ، وهو يتلفت ليطمئن إلى اهتمام الناس به . كانت نظرات الإعجاب ترضيه وتدغدغ حواسه .

وخاض سعيد ويحيى في الماء ، وراح جلال يجاهد أن يلحق بهما ، وأحس تعباً ، وهب حرصه يهيب به أن يعود إلى الشاطئ ، ولكنه كبريائه صاحت به أن يستمر ، فأطاع كبريائه ، وأخذ يشق الماء في ضعف وقد نال منه الجهد والإعياء .

وشعر بقواء تخور ، وألغى نفسه ينجذب إلى القاع ، فندت منه صرخة ، فالتفت صفية إلى البحر تنظر ، فألفت جلالاً يفرق ، فهبط قلبها في جوفها ، وراح يدق دقات متتابعة ، وخطر لها أن تهول صوب البحر ، وأن تصيح تطلب النجدة ، ولكنها تجللت وقد ثبتت عيناها على ابنها ، وأرهفت منها الحواس .

وسمع سعيد ويحيى صرخة جلال ، فخفا إليه ، ورأتهما صفية وهما يدنوان منه ، فازداد وجيب قلبها ، ودار رأسها ، ولحنتها وهما يمدان إليه يديهما فلم يفرخ روعها ، بل كان فؤادها يخفق في جوفها كجنح حمامة ، صارت تخشى أن يجذب جلال أخويه معه ، فيفرق الجميع .

وجذباها حتى إذا بلغا به الشاطئ تركاه ، فاستشعرت أمه نحوه ثورة طاغية ، لم تستطع كتمها ، فذهبت إليه وجذبت من يده ، وراحت تضربه وتقول له :

— إذا كنت لا تحيد العوم ، فما الذى يضطرك إلى العوم . . . ؟
فتضايق ، وزاد في هوانه تطلع الناس إليه ؛ كان يحب أن ينظروا إليه
نظرات إعجاب ، نظرات لا تصوب إلا إلى الأبطال ، أما نظرات الإشفاق التى
كانت تسدد إليه ، فهى أبغض النظرات إلى نفسه .

وحان وقت الغداء ، فهرعوا إليه خفافا ؛ قوت نسائم البحر شهوتهم إلى
الطعام ، وما كانوا فى حاجة إلى ما يقوينها ، وأكب جلال على ما أمامه ، نسى
ما أصابه من هوان فى الصباح ، وكان ينسى كل شيء إذا وضع الطعام أمامه ،
حتى رغبة جذب أبصار الناس إليه كانت تملع عنه فى هذه الحالة ، كان يتمنى
وهو يأكل أن تعمى عنه العيون .

وانتهى الطعام ، فتمدد زكريا وخالد وسعيد ليرجحوا أعصابهم ، وتمدد جلال
من ألم الأكل الذى يشعر به فى بطنه ، وخرج يحيى يتحشى على الشاطئ ، فلمح
فتاة يونانية ممثلة الجسم بيضاء البشرة ، صفراء الشعر ، صافية العينين ، فأحس
نحوها انجذابا ؛ كان على رغم صغره تستهويه الأجسام الممثلة البضة ، فوقف بعيدا
يرنو إليها فى إعجاب .

وجلست الفتاة على الشاطئ ، تصطاد السمك ، وصرا الوقت ولم تصد سمكة واحدة ،
فأشفق يحيى عليها ، وكان صادقا فى شعوره ، وأنعم النظر فى الحيط المتدلى
فى الماء ، فلم يجد به عوامة من الفل ترشدها إلى أن السمكة فى الشص ، فذهب
يرشدها إلى ذلك ، فلما دنا منها قال فى براءة :
— فى الحيط خطأ .

ولم تشجعه على أن يسترسل فى حديثه ، بل أشاحت بوجهها عنه ، وأولته
ظهرها ، ولم يفهم ذلك الإعراض ، فقال لها :
— لا بد من تثبيت عوامة فى الحيط .

ومد يده فى جيبه وأخرج قطعة من الفل وقال :

— عندى عوامة يمكنك أن تثبتها فى الحيط .

فنظرت إليه الفتاة شزرا وقالت :

— لا تتدخل فيما لا يعنك .

وصعد الدم حارا إلى وجهه الأبيض ، وارتجفت رموش عينيه ، وابتعد عنها
مطرقا ، يحس ضيقا ، وإبرا تحز روحه ، تزيد فى اضطرابه وضيقه .

راحت تعد له حقائبه مسرورة ، ففدا يسافر إلى القاهرة ليلتحق بالجامعة ، وأخذت الأفكار المشرقة تراودها فتزيدها بهجة ؛ لمحت بسمة الدهر بعد اكفهراره وعبوسه ، ورأت شعاعا من الأمل يخترق ظلام الليل السرمدي ، إن هي إلا سنوات ثلاث تنقضي في كفاح ، ثم نجى ثمار صبرها الطويل ، وجهدها المضني الشاق ، فلطالما قاست ذل الحرمان ، لأنها كانت تعيش لذلك اليوم الذي ترى فيه أبناءها رجالا من الصفوة .

وخطر لها أنها نجحت فيما لم ينجح فيه أحد من أسرتها ، فها هو ذا زكريا يذهب إلى الجامعة ، وسيتبعه خالد وجلال وسعيد ويحيى ، بينما لم تظأ قدم أحد من أسرتها بابها ، حتى أولاد إخوتها الذين يسرت لهم موارد العلم ، اختصروا الطريق ، وعرجوا على دكاكين آبائهم التي كانت تنتظرهم ، فاستشعرت غبطة ، ومثلت عزما على النضال ، حتى تبلغ غاية آمالها .

وجاست خلال غرفة النوم ، فألفتهم يغطون في نومهم ، فرنت إليهم وقد تدفقت في جوفها مشاعر الحنان ، فمدت يدها تحكم الأغشية فوقهم ، وبلغت زكريا ، فوقفت تتطلع إليه برهة ، وإذا بدموعها تملأ عينها ، فتمسحها بظهر يدها وتغادر الغرفة .

وأشرقت الشمس ، وهب الكون من نومه ، وراح زكريا يغدو ويروح قلقا حائرا ، لم يغادر الأسرة من قبل ، فأخذ قلبه يدق بين ضلوعه ، رهبة من المستقبل ، وأحس رغبة في البكاء ، ولسكنه كان يقاوم رغبته ويتجلىد ؛ كان كلما رأى أمه مقبلة تشاغل عنها ؛ كان يتجاشى أن تتلاقى العيون فتخونه دموعه .

وأكبت صفة على عملها ، رافعة رأسها ، باذلة ما في طوقها لتبدو في طبيعتها ، كانت تحب أن تظهر أمام أبنائها أبية قوية ، فلم تستسلم لقلبها الخافق ، ولم تترك لمشاعر الحنان الطاغية ، فلم تجلس إليه تبثه نجواها ، بل ظلت في غدو ورواح تعد طعام الإفطار ، تنظف شقتها وتنسقيها ، وإن كانت تذوب شفقة ، ولوطاوعت فؤادها لهرعت إليه تضمه إلى صدرها .

وخرج على من غرفته ، فلما رأى زكريا أقبل عليه يحدثه ، لم يكن في قوة

صفية ، فلم يقو على كبت عواطفه ؛ أخذ يترجم له عما يحسه في صدق ، فهز حديثه ابنه ، وملاً صدره حرارة ، حتى إنه عاهد نفسه على أن يحقق آماله فيه .
وحانت ساعة الرحيل ، فحمل خالد وجلال الحقائق ، وهبطوا بها إلى العربى المنتظرة أمام الباب ، وكأنما كان هبوطهما إنذاراً لمن فى الطبقة الثانية ، فخرجوا جماعات إلى السلم ينتظرون توديع زكريا .

صافح أمه وفى حلقه غصة ، ولم ينبس بكلمة ؛ كان يحبس عواطفه ، ولو حاول أن يحرك لسانه ، لكانت العبرات أسبق من الكلمات ، فانصرف مسرعاً وأمه تتبعه ، حتى إذا بدأ يهبط فى الدرج ، قالت له فى صوت مرتجف مضطرب ، فضع مكنون صدرها :

— مع السلامة ، فى حفظ الله .

فطفرت إلى عينيه دمعة ، فمسحها سريعاً ، وأخفاها كما يخفى الخاطى زلته .
وهرع إليه أبناء عماته وعماته يصاحفونه ؛ قال له سيد وهو يضغط يده :

— أأصحك أن تتخصص فى قضايا الخدرات ، إنها قضايا مربحة .

فقال له سليمان :

— متموت من الجوع لو سمعت نصيحتته ، فلن تترافع إلا عن النازلين فى هذا البيت ، ولن يعطوك أجراً .

وصاحفته عزيزة فى حرارة ، كانت صادقة فى شعورها ، فقد ربط خيالها بينها وبينه ، فلطالما صور لها وهما أنه سيتزوج بنتاً من بناتها ، وصاحفته زهيرة ولسانها يقطر عسلاً ، بينما كان قلبها يتنزى بالحسد والغيرة . وارتفعت الأيدى المصافحة ، وارتفعت الأصوات المودعة ، واستمر فى هبوطه وهو مأخوذ ، حتى إذا بلغ الطبقة الأولى وجد عمه حسناً يستقبله وهو باسط ذراعيه ، ثم يضمه إليه ويأخذ فى البكاء ، ثم يتركه ويدلف إلى شقته باكياً ، وسيظل فى بكائه حتى يخرج إلى الحانة ، يغرق نفسه فى الغيبوبة التى تنام فيها مشاعره .

وخرج من باب البيت ، وقبل أن يضع رجله فى العربى ألفى حليلة واقفة تنرنو إليه ، فمد يده يصاحفها ، فمالت عليه وقبلته ، فأفلت منه زمام نفسه ، وجرت دموعه على خديه ، وأسرع إلى العربى ، وركب إخوته معه ، وانطلقت العربى فى الحارة ، وإذا بصوت النجروين :

— نظرة يا جورج . . . يا جورج نظرة .

٦٣

لف الظلام الحارة ، ولكن لم تهدأ الرجل ، بل دبت فيها حياة ، وكثر الندو والرواح ، لكنما كانت مقبلة على أمر جليل ، ووقف الصبيان عند الجامع يرقبون ، فلما أضيئت المصابيح المتعلقة بالمئذنة ، أخذوا يصيحون وهم يهرولون :
— صيام . . . صيام .

وتكونت في البيوت حلقات للسمر ، كان الموسرون يقدمون فيها اللوز والجوز ، وكان الفقراء من نزلاء الحارة ، يبسطون قراطيس اللب ، فتتمد إليها الأيدي في خفة وتتابع ، وكانت الأحاديث تتدفق وتشعب وتتناثر مع قشر اللب الذي تلفظه الأفواه دون حرص أو عناية .

وجلست صفية وأولادها يتحدثون ، فقال سعيد :

— سأصوم هذا العام .

فالتفتت الأم إلى جلال وقالت :

— وأنت ؟

— لا أستطيع أن أصوم .

— سيصوم سعيد وهو أصغر منك .

فقال جلال في يقين :

— سأموت إذا مكثت النهار كله دون أن آكل .

فأرادت أن تغريه ، فقالت له :

— إذا صمت ضاعفت لك طعامك ؟

فابتهج وقال :

— حقا ؟

كان يريد تأكيد ذلك الوعد قبل أن يعد بالصوم ، فوزت له رأسها تثبت ما قالته ، فقال :

— إذن سأصوم .

وراح يحيى يهرم في جلسته ، لم يكن الخوف وحده يمنعه من الدخول إلى فراشه لينام ، ولكن كان يترقب السحور ، ليشاركهم في الطعام دون أن يصوم

وتنقضى الوقت وهم في سمر لنديد ، ومرت رجل يضرب بمصاه على طبل ويصيح :
— وحدوا الله ، يا عباد الله .

ووقف على باب الدار يهتف :

— يا حسان أفندي وحد الله . . . يا سيد أفندي وحد الله . . . يا سليمان
أفندي وحد الله . . . يا علي أفندي وحد الله ، يا خالد أفندي وحد الله .

وأرهف جلال سمعه يتأهب لأن يسمع اسمه يجلبجل في الحارة ، خفق قلبه
خفقة فرح ، ولكن الرجل ابتعد دون أن يهتف باسمه ، وراح يقول وهو يضرب
الطبل بمصاه :

— وحدوا الله يا عباد الله .

فانقبض صدر جلال ، وأحس ضيقا وقهرا ، ولم يحتمل كتمان غيظه ، فقال :

— والله إن أصوم حتى ينادي هذا الرجل باسمي .

فقامت له أمه في إنكار :

— أتصوم للناس ؟ !

فقال لها جلال :

— إذا كنت سأصوم ، فلماذا لا يعرف الناس كلهم أنني صائم ؟
فقال له خالد :

— هذا نفاق .

فقال جلال في عدم اكتراث :

— نفاق نفاق ، أحرم الطعام نهارا كاملا ثم لا يعرف الناس !

فقال سعيد في استخفاف :

— لا تحزن ، سيعرف كل الناس أنك صائم .

ونهمز إلى النافذة وفتحها وصاح في صوت قوى جلبجل في ذلك
السكون العميق :

— يا جلال أفندي وحد الله .

ولو كان غير جلال لأغضبته هذه السخرية ، ولكن جلالا أحسن الهتاف
باسمه يدغدغ حواسه ، وغشى وجهه بالبهجة وقال :

— غدا سأقابل هذا الرجل ، وأطلب منه أن يهتف باسمي .
فقال له خاله :

— إنه غلام شيخ الحارة ، يجلس في مقهى الصعايدة ، غدا أذهب معك إليه .
ولو أن خالدا كان على ثقة من أن ما يفعله جلال إن هو إلا ضرب من
النفاق ، إلا أنه كان صادقا فيما عرضه ، إنه يستشعر سعادة إذا عاون أخاه
أو صديقه على أن يحقق أملا من آماله .

وأقبل على ، فجهازت صفة السحور ، وجلست مع زوجها وأولادها تأكل ،
وإذا بصورة زكريا تحتل رأسها ؛ إنه بعيد عنها ، هناك في القاهرة وحده ، ترى
ماذا يفعل الآن ؟ ومن يعد له سحوره ؟ ومن ذا يهتم بأمره ؟
وراحت الأفكار تلح عليها ، فعافت الطعام ، ولم يفتن أحد إلى ما طرأ
عليها من فتور ، كانوا جميعا في شغل عنها بذلك الطعام الآخذ في النقصان ، حتى
على لم يلمح ذلك السهوم الذي لاح عليها .

٦٤

راح على وإستاورو ، ذلك المرء الشيعي القمى ، يتجاذبان أطراف الحديث ،
في ركن هادئ في المقهى ، قال إستاورو :

— سدد أبناء الحاج كرم ديونهم ورفع الرهن عن العقار
فقال على :

— فتبح الله عليهم .

فقال إستافرو في بساطة :

— ماذا ستفعل زوجك بنصيبها ؟

فقال له على في هدوء :

— ستبيعه .

— تبيعه ؟ لماذا ؟

— الأولاد في حاجة إلى مصروفات كثيرة .

— أنا مستعد أن أقرضك ما تريد .

— ليس لى فى هذه الدنيا إلا أولادى يا إستاورو ، ولا أحب أن أربهم بالربا ، إننى لم أفعل ما يغضب الله فى حياتى ، وإنتى على ثقة من أن الله سيبارك لى فيهم .

وشرد بصر على ، ورنأ إليه إستاورو الشيخ فى حب ؛ كانت بساطته وشهامته وتلك الفروسية التى اتصف بها تقربه من نفسه ؛ كان الشيخ يعجب بالصفات الكريمة ، وإن لم يكن يحب أن يتحلى بها .

وساد الصمت برهة ، ثم قطعه صوت إستاورو :

— وكيف حال الأولاد ؟

— زكريا متفوق فى الجامعة ، أعجب الممتحنين به ، حتى إن أحدهم أشار عليه أن يلتحق بالآداب ، ولكنه أخبره أنه سيلتحق بالحقوق بعد نجاحه ، تحقيقا لرغبة عزيزة عليه .

وأشرق وجه على ، وقال إستافرو :

— أشرت عليه بالالتحاق بالحقوق ؟

— أجل ، وأرجو أن أراه محاميا نابها .

— وخاله ؟

— سيتقدم لامتحان البكالوريا .

— وماذا تتمنى أن تراه .

— كل ما أرجوه من الله أن يوفقهم جميعا فى الحياة .

وأقبل رجل وسلم عليه ، فقال له على :

— تفضل .

وأراد أن يكرمه فطلب له طلبا ، وجاء آخر فأكرمه على بطلب آخر ، وجاء ثالث فطلب طلبا ، ولم يكن فى جيب على ما يسد أثمان هذه الأطلاب ، ولكنه يندفع وراء طبعه ، فيتراكم عليه حساب القهوة ، حتى يرزقه الله من فضله ، فيسدد أول ما يسدد هذا الحساب .

واتسعت الدائرة ، وتشعب الحديث ، فبدأت نفس على تتفتح ، كان محدثا

لبقا ، يهوى الحديث ، وكان يستشعر راحة كفا تدفق ؛ كانت هذه الجلسة في جوف الليل في ركن من أركان المقهى هي الحياة .

وجاء رجل يسبح ، واتجه إلى علي ، ومال عليه ، وأسر في أذنه كلمات أربد لما وجهه ، فقام في انفعال ، واستأذن من صحبه وانصرف ، فلما ابتعد عن المقهى أقبل على الرجل يستفسر :

— ومتى قبض عليه ؟

— منذ نصف ساعة .

— وأين هو الآن ؟

— في القسم

وراح على يضرب في الظلام ، يفقد السير والرجل يتحدث ، وهو يهرول خلفه ، وما كان على يلتفت لحديثه ، كان مشغولا بالحزن الذي تفجر في جوفه .
ودخل القسم مندفعا ، فلما وقعت عيناه على أخيه اضطرب ، وقال له في صوت فيه رنة حزن ولهفة :

— حسان ، ماذا حدث ؟

فلم ينبس حسان بكلمة ، كانت عبراته أسرع من بيانه ، فأحس على يدا قوية تنصهر فؤاده ، وماهى إلا لحظات حتى اقتيد حسان وأصداؤه إلى «التخشبية» ، وأغلق الباب خلفهم ، فانصرف على وسكاكين تمزق أحشاءه ؛ كان يعرف أن أخاه يتهافت على المخدرات ليفر من الحياة ، فيا طول عذابه من اليقظة ، وأية يقظة ! يقظة حبيسة بين جدران .

وانطلق على يدثره حزن عميق ، ودخل على أخواته ، وقال :

— قبض على حسان وهو يحرق مع أصحابه الحشيش .

فندت من النسوة أصوات دهش واستنكار ، ثم ساد المكان صمت عميق ، أطرقت عزيزة وما كان في قلبها أثر للانفعال ، كأنما لم يكن الأمر يعنينا في قليل أو كثير ، وأطرقت ثريا وزينب وحميدة وفي صدورهن سحب من الأسى ، وما كان ذلك الحزن على حسان ، بل على ما سيلحقهن من عار ؛ وكانت زهيرة أكثرهن تقطيعا ، وإن أحست في أعماقها راحة ، كانت ترى في حسان عبثا ، وإن لم تسكن تمدد بشيء ، وإنها لتستشعر الساعة كأنما انزاح ذلك العبء عن صدرها .

جلال يقلب الصحيفة ، وثبت عيناه على أنباء الطلبة الناجحين ، الذين دفعوا
أجر نشر التهنئة لأنفسهم جنهات ما أسرها على أمثالهم من المؤسرين ، فتفجرت
في جوفه عواويل الغيرة ، فهو يشتهي أن يرى اسمه مطبوعا في جريدة ، يقرؤه
الناس ، ولولا يقينه من أن أمه تقاسى في سبيل توفير الطعام لهم ، لالتبس منها
أن تدفع له ثمن الإعلان عن نجاحه ، وتزجية التهنئة له .

ونحى الصحيفة عنه ، وشرذ يفكر ، فرأى بعين خياله « جلال على يونس »
بحروف كبيرة ، فأحس راحة ، واستسلم لخياله ، وإذا بصوت سعيد ينبعث حادا .
— أنا سعيد باشا ، أنا سعيد باشا .

فنظر إليه في إنكار ، أخرجه من إحلامه ، فحسب سعيد أنه يزدرى آماله ،
فقال له في نكد :

— لماذا تنظر إلى هكذا ؟ ! أتستكثر على أن أكون سعيد باشا ، ولكني
مأصبح سعيد باشا ، إذا أردت أن تكون شيئا ، فما من قوة على الأرض تمنحك
من أن تكون ذلك الشيء إذا عازمت .
فقال له جلال في استخفاف :

— أنت باشا .

ولم يقبل سعيد هذه السخرية ، فقال في ثقة :

— سأصنع نفسي بنفسي ، كل إنسان من صنع يديه ، إنني أعرف الطريق ،
العمل ولا شيء غير العمل ، وسأعمل حتى أصبح باشا ، سعيد باشا .

فقال له جلال :

— يمكنك أن تكتب ذلك الآن بيدك .

فقال له سعيد :

— سيكتب ذلك الزمن .

كانت صفية في غرفة قريبة ، يصل إلى مسامعها ذلك الحوار ، فنهضت
ودخلت عليهما ، وقالت لسعيد :

— ستكون باشا لو ساعدك الحظ كما ساعد بهاء باشا .

فقال سعيد في اعتداد :

— لا دخل للاحتظ في هذا ، عمل زوج خالتي على أن يكون باشا ، فأصبح
باشا ، وسأعمل وأحقق ما أريد ؛ إنني أعرف الطريق .

فقلت صفيّة في حنان :

— أرجو يا بني أن تسعد أيامك ، وأن يصفوا لك زمانك ، وأن تحقق ما تريد .

وسمع صوت أقدام تقترب ، فنظرت صفيّة في تشوف ، ولاح القادم وإذا به
خالده ، في يده مسطرة ونشافة وعدة أقلام ، فلما وقعت عينها عليه خفق قلبها ،
ومشي الخوف في جوفها ، وقالت :

— لماذا عدت من الامتحان ؟

فقال خالده :

— ألقى امتحان البكالوريا والكفاءة ، اتضح أن أسئلة الامتحان تسربت
إلى الطلبة .

فصاح سعيد في انفعال :

— فوضى . . . فوضى ، هذه فوضى ، لو كان الأمر بيدي .

فقال جلال وهو يبتسم في زراية :

— بيد الباشا . . .

فاعتدل سعيد ليقول ما يفعله لو كان الأمر بيده ، ولسكن خالدا لم يدعه يتكلم ،
بل راح يقول لأمه :

— خسارة أن يلغى هذا الامتحان ، كنت مطمئنا إلى إجابتي ، وكنت

وائقا من النجاح .

فقال سعيد :

— الأمر بيدك لو أردت أن تنجح

وتحرك خالده صوب الباب ، فقالت له أمه :

— إلى أين ؟

فقال خالده وهو منطلق إلى صحابه :

— إلى الشارع أرفه عن نفسي ، أحس رأسي يكاد يتسدد .
وهبط خالد إلى الحارة ، وأسرع جلال وسعيد خلفه ، وراحوا يلعبون ، وإذا
بسيد يهبط وقد ربط عينيه بشاش أبيض ، يقوده سليمان ، فلما رأها يحني هرع
إليهما ، فهو يحب أولاد عماته ، ويمضى أغلب وقته عندهم ، وقال :

— إلى أين ؟

فقال سليمان :

— إلى المستشفى .

وما ابتعد قليلا ، حتى خطر لسليمان أن يهابث أخاه ، فقال له وهو يسحبه :

— ما رأيك يا سيد لو مررت على المقاهي الآن أتسول بك ؟

فصاح به سيد في غيظ :

— يديا مجرم .

فقال سليمان في همس يبلغ مسامع سيد :

— يارب . . . يا كريم .

فثار سيد وصاح :

— يديا سافل . . . يديا منحط .

فقال سليمان في صوت مرتفع قليلا :

— إحسان لله . أحسنوا على العاجز الفقير .

فضاق سيد بعيب أخيه ، وقال في حنق :

— يديا بن الكلب .

فتركه سليمان في وسط الطريق وحده . ولما كان سيد يرتجف على حياته

فقد راح يصيح في رعب :

— يديا مسليمان . . . يديا مسليمان . . . يديا بن الكلب .

فعاد إليه سليمان يسحبه ، ولا يكف عن مضايقته ، كان يحلو له أن يشاغبه ،

وأن يتلقى مباحه منشرحا .

٩٦

نبتح خالد في الدور الثاني ، بعد أن قصر في الدور الأول ، فذهب إلى أمه
يناجيها ، قال لها :

— أريد أن ألتحق بالمدرسة الحربية .

فصمتت صفة برهة ، فقد باعت آخر ما ورثته عن الحاج كرم وأنفقته عليهم ،
ولو كان عندها ما يكفي لمصروفات الحربية لقدمته إليه راضية ، ولكنها تحس
الضيق يضيق حلقاته حولها ، حتى يكاد يخنقها ، ومشيت موجة من الأسى في
صدرها ، ففكرت في أن تمنيه حتى لا تصدمه مرة واحدة بالحقيقة ، ولكنها
ما كانت تحب أن تدعه يهرج إلى السماء على حبال واهية من الأوهام ، فقالت له
في نبرات حزينة :

— هذه المدرسة تحتاج إلى مصروفات كثيرة .

ولم يحزر خالد ما ترمى إليه ، كانت ترجو أن يفهم أنها لا تقوى على الإنفاق
على إخوته الذين أصبحوا في المدارس الثانوية ، وعلى زكريا الذي يطلب كتباً
غالية ، وقد أصبح في السنة النهائية بكلية الحقوق ، وعليه في المدرسة الحربية ؛
كانت ترجو أن يكون لما حاك يكفيها مئونة سر ذلك عليه ، ولكنها قال في حماسة :
— المدرسة الحربية توافقي وترحب بي ، إنها تهتم بالرياضة البدنية ، وأنا
أحب هذه الرياضة ، وترحب بالرياضيين ، وقد لعبت في فريق مدرستي ، وفي
فريق النادي . هذه المدرسة تعرفني وترحب بي .
فقالت له أمه في رقة :

— ولكنها تحتاج إلى مصروفات كثيرة .

فقال لها وهو يحملق فيها :

— لن تقبلني الجامعة مجاناً ، فقد نجحت في الدور الثاني ، فإذا كنت سأدفع
مصروفات في الجامعة فالأفضل أن أدفعها في الحربية .

لم يعد أمامها إلا أن تبصره ، وأن تشرح له حاله ، وما كانت تحب أن تخوض
في ذلك الحديث ، حتى مع زوجها ، فقالت في صوت شجن أسى :

— لا أستطيع أن أدفع لك مصروفات يا خالد ، إن ما يرسله إلينا لبيب لا يكاد يسد جانبنا من حاجات البيت ، وإن ما يكسبه أبوك أصبح قليلا ، لا يكاد يكفي طعامنا ، وهؤلاء إخوتك في مدارسهم لم يكملوا دراساتهم الثانوية ، ولا أستطيع أن أخرجهم من مدارسهم قبل أن ينتهوا من هذه المرحلة ، ولا تزال الطريق أممى طويلة يا خالد ، لو كان عندي شيء يباع لبعته ، ولكنني بعث كل ما عندي . وأطرق خالد وقد ران عليه حزن ، وفعطن إلى ما يجب عليه أن يفعله ، صار عليه أن يعمل كما يعمل لبيب ، ليشاطر في حمل أعباء الأسرة ، ورفع رأسه ورنا إلى أمه ، وقال :

— سأبحث عن عمل من القدر .

فقالت له أمه وهي تبعد عنه ، حتى لا يرى أثر انفعالها الذي كانت تحاول أن تكبته :

— وفقك الله !

وذهب خالد إلى مصلحة السكك الحديدية ، وقدم طلبا ليلتحق بعمل من أعمالها الكتابية ، وراح يمر على مصالح الإسكندرية يبحث عن عمل ، وأخذت الأيام تمر ، وهو في جريه وبحشه ، حتى دب اليأس إلى قلبه ، واكتنفه ضيق ، وقدرأت عزيزة وزهيرة وعماته في ضيقه بعض العزاء لهن ؛ قر في أذهانهم أنهم كن على صواب يوم أخرجن أولادهن من المدراس وألحقنهم بالعنابر ؛ أبقين مصروفات المدارس ، وضمن لأولادهن رزقا .

وكان سيد وسليمان يتندران به ، حتى إذا قابلاه عرضا عليه أن يأتي معهما إلى العنابر يشتغل لهما صبيا .

وعاد خالد إلى الدار ذات يوم ، يتصبب منه العرق ، ضيق الصدر ، باسر الوجه ، يرريده على وجهه في انفعال ، ورأته أمه في قلبه ، فنظرت إليه في إشفاق ، فاختلط عليه الأمر ، وحسب أنها ترنو إليه في عتاب ، فقال في ذلة :

— ماذا أفعل ؟ مررت على جميع المصالح أستفسر عن طلبى ، فلم أفر بشيء ، نفس الجملة في كل مكتب : ليس في المصلحة أما كن خالية ، إننى لم أقصر ، بذلت كل ما في جهدى ، ماذا أستطيع أن أفعل ؟

فقال أمه لترفعه عنه :

— إني على يقين من أنك فعلت كل ما تستطيع أن تفعل ، ولكن لماذا كل هذا الحزن ؟ إننا لا نكلفك شيئا ، ولا نحب أن ترهق نفسك ، واعلم يا خالد أن الله لا ينسى الناس .

فقال خالد في حدة :

— أحس أني أصبحت عبئا عليكم ، هاهي ذى سنة قد مرت ولم أجد عملا ، إني ضقت بما أنا فيه ، أريد أن أعمل ، أن أشتغل أى شيء ولو أقطع الحجارة . أصبحت أخجل من الناس ، وصرت أفر من سيد وسليمان كلما لمحتهما في الطريق ، كما أنما ارتكبت جريمة . أحس أني صغرت وتضاءلت كلما صوبت عمائي إلى نظراتهن ، لماذا كل هذا العذاب . . لماذا كل هذا الاضطهاد ؟ إني لم أقصر ، ولكن معذورات ، فهن يرين شابا قويا مثلى لا يعرف كيف يكسب قوته . إني أستحق هذه الزرابة ، إني لا أصلح لشيء .

واختلق بالكلمات ، ولحت صفية دموعه تترقرق في عينيه ، فانقبضت وراحت توأسيه ، وتمسح على ظهره في رفق وحنان ، وتقول له :

— غدا ينفرج هذا الكرب ، إن فرج الله قريب .

٦٧

تخرج زكريا في الجامعة ، وأصبح الأستاذ زكريا ، إنه اجتاز مرحلة الدراسة ولم تكن تلك المرحلة كل شيء ، فأمامه شوط طويل لا بد أن يقطعه قبل أن يتم له تحقيق أمنية أبيه ، ويصبح محاميا .

تلفت زكريا فوجد الأسرة في ضيقها لا تستطيع أن تنتظر كفاحه حتى يصبح شيئا ، كانت أطماعه واسعة ، وهو قادر على أن يراود نفسه على الصبر حتى يحقق أهدافه ، ولكن هذه الأسرة التي كفلته تربيته وتنتظر منه أن يتقدم ، بعد أن اشتد ساعده ، ايعاون في حمل بعض أعبائها ؛ صار من حقها أن تأخذ منه بعد أن حرمت نفسها وأعطته فوق طاقتها .

وراح يفكر ، فألفى أن عونهُ يكون أثم لو تريت الأسرة وتركته يكون نفسه ومستقبله . ولكن أمن المفقول أن يلتبس من الجائع أن يصبر على جوعه الذى يكاد يورده موارد التهلكة ، على أمل تقديم وجبة دسمة فى يوم بعيد ، قد يأتى بعد هلاكه ؟ إن كسرة خبز حاضرة ، خير له وأبقى من أكلة فاحرة ، لا تزال فى طيات الأوهام مغيبة .

وقهر نفسه ، ووأد رغباته ، وفكر فى أن يعمل موظفا ، مضجيا بآماله وأحلامه فى سبيل هؤلاء الذين يحبهم ، ويرفع عن أمه بعض ذلك الحمل الثقيل ، الذى تكاد تنوء تحته ؛ وما إن قرأ إعلانا عن وظيفة فى مصرف ، حتى تقدم إليها ، وتأهب لامتحان المسابقة الذى سيمقد لاختيار أفضل المرشحين .

وحزن على فى أعماقه ، وطوى حزنه ، فما كان يحب أن يرى زكريا موظفا ، فيما ظالمه رآه بعين خياله فى رداء « روب » الحمامين الأسود ، يصول ويجول فى قاعات المحاكم التى يعرفها ، وكانت نشوة الأفكار تغمره وتختلط المشاهد فى ذهنه ، حتى يرى نفسه محاميا يترافع فى القضايا الكبرى ؛ كان يشتهى أن تتاح له فرصة الدفاع عن المضطهدين والمستضعفين ، وكانت نزعة الفروسية المتأصلة فيه ، تغذى هذه الشهوة ، ولما كان من العسير عليه أن يحقق هذه الرغبة ، كان يخفف عنه ويهزبه أن ابنه سيحققها ، وها هو ذا يرى ابنه يتقدم إلى وظيفة عادية ، فتقوض صروح آماله ، وتنهار القصور التى شيدها فى خياله ، فيعتصر قلبه أسى ، ولكنه يابح فى صمته كارها ، لا ينبس بكلمة .

واستشعرت صفة أن ابنها يضحي بنفسه فى سبيل أهله ، فقامت نفسها بسحب من الحزن ، كانت ترجو له أن يحقق آماله ، ولكنها أكرت فيه هذه التضحية ، فهى بطبعها تقدر التضحيات وتحترمها ، فقد ضحيت بأموالها وصحتها فى سبيل أبنائها ، بل كادت تضحي بنفسها فى سبيل إنقاذ إخوتها الذين أبوا أن يقرضوها عشرة جنهات تقيم عليها مستقبل أبنائها .

ونجح زكريا فى امتحان المسابقة بتفوق ، وتم تعيينه فى المصرف ، فلم يفرح ، بل صار حزينا شاردا ؛ فجع فى آماله ، وبدأت لعينه تضحيته كرهة بشعة ، وجاء أوان خروجه أول يوم إلى مقر عمله ، فراح يرتدى ثيابه فى تراخ ، ولمح خاله فى وجهه الأسى ، فزر ما يعمل فى جوفه ، فقال له :

— لا تذهب ، لم تخلق للوظيفة ، بل خلقت لتكون محاميا .
فقال زكريا في صوت واه :
— قد تضطارنا الحياة إلى فعل ما لا نصلح له .
فقال له خالد في انفعال :
— لا تضع بنفسك من أجلنا ، صبرنا طويلا ، ونستطيع أن نصبر .
واستمر زكريا في ارتداء ثيابه ، فهتف به :
— إنك كاره هذا العمل يا زكريا ، فلا تذهب ، فما أتعس العيش إذا ذهب
الإنسان كل يوم إلى مكان يكرهه !
فقال له زكريا في ضعف :
— أكره هذا العمل ، ولكني مضطر إليه .
فقال له خالد :
— لا تذهب .
وجذب منه الجوارب الذي أخذ يدس قدمه فيه ، فذهب زكريا يخلع ثيابه ،
ويقول في عزم :
— لن أكون إلا محاميا .

٦٨

راودت خالدا فكرة التقدم إلى المدرسة الحربية . تصرمت سنة وهو يبحث
عن وظيفة . حتى كالت قدماه ، ودب اليأس إلى قلبه ، وتشبث بهذه الفكرة ؛
وجد فيها منفذا لآماله ، فلو وفق إلى دخول الحربية ، لتفتحت أمامه أبواب
مستقبله ، وأراح نفسه من ذلك التعب الثقيل الذي يقاسيه الباحث عن الوظيفة .
وشجعه على الاسترسال في هذا الأمل ، أن النادي الرياضي الذي يلعب له ،
وعده المعاونة ، سيوصى عليه ويزكيه ، لأنه من أفذاذ لاعبيه ، ولم تكن أمامه
إلا عقبة واحدة ، وهي تدبير المال اللازم لمصروفاته ثلاث سنين !

اعتذرت له أمه أكثر من مرة بذلك الضيق الذي يأخذ بتلابيبها ، فهي
تكافح في سبيل الآخرين ، بعد أن أصبح قادرا على أن يسلك طريقه وحده ،

كألاف الشبان من أمثاله ، الذين حصلوا على البكالوريا ؛ وخطر له أخواله ، فقد استردوا مكائهم التجارية بفضل تضحية أمه ، وشجاعة أبيه ، ولكنه كان على يقين من أنهم لن يعاونوه ، مادامت المعاونة مادية تستلزم دفع جنهات ، فلم يجر وراء هذا الوهم طويلا .

وأسدل الستار في ذهنه على أخواله ، ليفتح عن خالته جليلة ، أصبحت غنية ، غارقة في الغنى ، على الرغم من ذلك الجنيه الذي استقطعه زوجها مرة ثانية من مرتب لبيب ، بحجة الكساد المالي في الأسواق ؛ إنها لو تكفلت بمصروفاته في هذه السنوات الثلاث التي يقضيها في الحربية ، ما نقصت ثروتها إلا ما ينقصه النهر إذا ارتوى عصفور من مائه ، ولكنه لم يكن يطمع في أن تتكفل به ، فكل ما يرجوه منها أن تقرضه بمصروفات الحربية ، على أن يسدها إليها أقساطا بعد أن يتخرج ، ويصبح له مرتب .

وعقد العزم على أن يذهب إلى خالته ، يلتبس منها العون ، وأغراه تفاؤله ذلك ، وأيد فكره ومنطقه ذلك الإغراء ، فما أيسر أن تدفع إليه خالته جليلة ذلك المبلغ ؛ وخطر له أن يكتب لها صكا ، ولكنه ازدري ذلك الخاطر ونفاه من رأسه .

وارتدى حلة نظيفة ، وانطلق إلى خالته يداعبه الأمل ، ودخل عليها بقمته المعتدلة ، فانتابته موجة من القلق ، ولاح الاضطراب في غيظه السوداوين ، وفي صفحة وجهة الأسمر ، ورغب في وأد مخاوفه ، فأقبل على خالته يحياها . نظرت إليه جليلة وقالت له :

— ماذا تفعل الآن ؟

فقال خالد وهو يستجمع قواه ليفضى إليها بما جاء من أجله :

— لا شيء ، بحثت عن وظيفة سنة ، ولكن لم أوفق إلى أن أجد عملا .

وماد الصمت بينهما برهة ، ثم قال خالد :

— ضاعت سنة ، ليتنى التحقت فيها بمدرسة أو معهد .

فقات خالته له في إنكار :

— أتمضون أعماركم في المدارس ؟ هذا حرام ، ارحموا أمكم ، قد ذابت

من أجلكم .

وبداً القلق ينبت في جوف خالد ، ولكنه راح يجاهده ، وقال :
— إننى لم أقصر ، بحثت عن وظيفة حتى كنت قدماى ، فلما يئست فكرت
فى أن أعود إلى المدارس .

فقال له جلييلة وهى ترمقه :

— أتريد أن تلتحق بالجامعة ؟

فقال لها فى حماسة ، وإن تهيج صوته :

— أريد أن ألتحق بالحرية ، ثلاث سنوات ، ثم أضمن مستقبلى ، أمى توافق
على ذلك ، ولكن ليس معها مصروفات المدرسة ، وقد جئت أقترض مصروفات
هذه السنة ، على أن أسدها إليك عقب تخرجى .

فانفجرت فيه جلييلة :

— عيبكم يا أبناء صفية أنكم تنظرون إلى فوق ، ترهقون أمكم ، ولا تنظرون
إلا إلى أنفسكم ، أصبحت رجلا تستطيع أن تدك الجبل ، فلماذا لا تعمل ، وتخفف
عن أمك ما تقاسيه من ضيق ؟ لا تقل لى إنك بحثت عن عمل ، فلو كنت جادا
لوجدت أكثر من محل يقبلك ، ولكنك لم تبحث ، استمرأت ما أنت فيه ؛
ماذا تريد أكثر من هذا ؟ تأكل وتشرب وتلبس وتنام دون أن تنضح قطرة
من العرق ، ولكن هذا ليس عيبك ، هذا عيب صفية التى تدلللكم وترككم
على هواكم . اسمع نصيحتى يا خالد ، إذا أردت أن تكون رجلا ، لا تعد إلى أمك
قبل أن تلتحق بعمل ، أى عمل ، فإنه أكرم لك أن تكون حمالا من أن
تكون عاطلا .

وأحس الأرض تميد به ، غصة فى حلقه ودوار فى رأسه ، وأشباح الأثاث
تتراقص أمام عينيه ، ووخزات موجعة تخز روحه ، وأنات مكتومة تمزق أحشاءه ،
وسياط أليمة تلهب حواسه ؛ ارتجفت فيه كل خالجة ، وثار كل شعوره ، ولكنه
لسانه اعتقل فى فمه ، فلم يترجم عن ثورة نفسه الطاغية ، وإن عبر وجهه عن أعماق
الأسى والحزن .

وانسل من بيت خالته مطرقا ، كان مذهولا عن كل ما حوله ، مشغولا
بينابيع الألم المتفجرة فى جوفه ، حتى إذا دخل البيت انزوى فى ركن ، وترك

نفسه فريسة لحواطره وأوجاعه ؛ وجاءت صفيه ، وما وقعت عينها عليه ، حتى فطنت إلى عبوسه وتجهمه ، فذهبت إليه ، وقالت له :

— ماذا بك ؟

فقال في حشرجة :

— خالي جميلة .

نخفق قلبها اضطرابا وقالت :

— ماذا حدث ؟

وراح يقص عليها قصته ، ولكنه لم يقو على الاسترسال في حديثه ؛ خنته عبراته ، ثم انفجر باكيا ، وأمه ترمقه ، وفي جوفها زفقات ، وفي قلبها دموع ، فما كانت تحب أن تبدو أمام أبنائها ضعيفة باكية .

٦٩

كان على محس قهرا كلما سمع أن أمنية خالد أن يلتحق بالمدرسة الحربية ، فكانت تثور في نفسه عوامل السخط ، على الرغم من طبيعته القانعة الهادئة ؛ كان عميق الإيمان في القدر ، يترك زمام أموره دون أن يجهد نفسه في التفكير في توجيهها ، وكان متفائلا دائما ، يعيش على أمل أن الغد أفضل من اليوم ، فكان تفاؤله وقناعته وطبيعته الراضية تتعاون جميعا على إبعاده ، فقلما كان يحنق أو يستخط على الحياة .

وكانت صفيه تحمل عنه همومه وهموم أولاده ، فما كان يفكر في إطعام الأولاد أو كسوتهم أو تعليمهم ، وما كان يفكر حتى في أمر نفسه ؛ إنه ليضع في يدها القروش التي يرزقه الله بها كل يوم ، ثم يصفو ذهنه من متاعب العيش ، بعد أن أدى ما عليه ، وما كانت صفيه تحاسبه على تقصيره ، أو ترهقه بطلباتها وشكاياتها ، عاهدت نفسها أن تعتبره ابنا من أبنائها ، ترعى شؤنه ، وتقوم بأعبائه ، فزاد ذلك في سعادته ورضاه .

كان ينطلق كل ليلة إلى المقهى ، صافي الذهن ، خلى البال ، ولكنه خرج الليلة عابسا مقطبا ؛ بلغه ما جرى بين ابنه وزوجة الباشا ، فانتقبض ، وأحنقه

ماذا ذاقه ابنه من ذل وهوان ؟ لو أن ابن جليلة جاءه ذات يوم يطلب منه مالا —
يوم كان ذا مال — لمنحه ما يطلب عن طيب خاطر ، وإن ابنه لم يلتبس من
خالاته ما يرهقها ، لم يطلب منها أن تهب له المصروفات ، وليكنه سألها أن تقرضه
بضعة جنيهات ؛ كل ما يطلبه أن تخرج هذه الجنيهات التي يملؤها التراب من
خزائنها ، ثم تمديد ثمانية إلى الخزانة ، فإذا كان يمز عليها فراق هذه الجنيهات
سنوات ، فقد كان في مد العون لابن أختها بمعنى العزاء عن ذلك الفراق !

وجسم أحزانه أنه يخف سريها لنجدة الغرباء ، فلما لمس تقاعس الحالة عن
نجدة ابن أختها استهول الأمر ، وراح ينفخ في سمرة غضبه ، ويستسلم للأساء ،
ولما لم يكن يطيق وطأة الأحزان ، راح يجد في السير ، ليبلغ مقهاه ، ويقابل
صديقا — أي صديق — يفضى إليه بخبيئة نفسه ، ينفس عن صدره تلك الإحساسات
التي تمر فيه فوارة ، فتعذبه وتخزه وخزات تؤلم روحه وتضنيه .

وبلغ المقهى ، ولمح إستاورو جالسا ، وشعره الأبيض يبدو فوق رأسه
كالقطن المنفوش ، فذهب إليه وحياء ، وجلس مطرقا برهة وإستاورو ينو إليه
مليا ، ثم يقول :

— ماذا جرى الليلة ؟

ارتاح على إلى ذلك الاستفسار ، كان مطرقا يفكر من أين يبدأ حديثه
وإذا باستاورو يفتح أمامه الأبواب المغاليق ، قال :

— يريد خالك أن يلتحق بالمدرسة الحربية .

ولم يتركه إستاوري تم حديثه ، بل قال وقد اتسمت عيناه :

— هذا نبا جدير بالفرح ، فعلام العبوس ؟

فقال على في بساطة دون أن يحاول أن يلف أو يدور :

— تعلم أنني لا أستطيع أن أدفع له مصروفات المدرسة .

فقال إستاورو وهو يغط شفته السفلى :

— هذا أمر يسير .

فرنا إليه على في بلاهة ، ثم قال :

— ليس يسيرا بالنسبة لى .

— بل أيسر مما تظن ، إننى أقرضه ما يريد .
فقال على فى فزع :

— لا . لا يا إستاورو .

— لماذا ؟

— تعلم أننى لا أحب أن أرى أولادى بالربا .

فرنا إليه إستاورو فى عتاب وقال :

— ومن قال لك إننى سأقرضه بالربا ؟ !

فقال على فى صوت خافت ، فيه رنة أسى :

— ولكننى لن أستطيع أن أسدد لك هذا الدين .

فقال إستاورو فى هدوء :

— ولماذا تسدده أنت ؟ ! يسدده هو وقتما يحلو له ، بعد أن يتخرج .

وأراد على أن يشكره ، ولكنه لم يجد لسانه ، أفعمته نحوه ذلك الشيخ الربى ،
فمد يده إلى يد الشيخ الموضوعة فوق النضد ، وضغط عليها ضغطة ، كانت أفصح
من لسانه فى التعبير عما يختلج فى صدره من مشاعر الشكر ، وعرفان الجميل ،
فقال له إستاورو :

— النقود ليست كل شيء فى الحياة .

وانتشعت سحب الغضب من صدر على ، فما أسرع ما يرتد إلى طبيعته الراضية ،
واستشعر رغبة فى أن يدخل الفرح على قلب ابنه الحزين ، فاستأذن وانصرف
يغذ السير ، لينهى خالدا أن الله قد جاءه بالفرج .

٧٠

تهض زكريا من نومه ، وأراد أن يطلب صحيفة الصباح من خالد ، فلم يجد
صوته ، وحاول أن يهتف ، فلم يتجاوز هتافه شفتيه ، فارتجف وهب من نومه
مفزوعا ، وذهب إلى أمه ، وقال لها فى صوت واه ، كأنما ينبعث من غور مسحيق :

— حبس صوتى !

اضطربت الأم ، ولكنها جاهدت نفسها ، وقالت له فى هدوء تكلفته :

— لا تحزن ، عارض يزول .

وراح قلبها يدق في رهبة ، ويمد صدرها بمشاعر الحزن والأسى ، وجلالت ذهنها الأفكار القائمة ، فاشتد جزعها ، حتى إنها كانت تفر من أولادها ، وتذهب إلى المطبخ تذرِف الدموع .

جاهدت وصبرت ، فلما كاد يشمر جهادها ، إذا بهواصف هوج تذهب بثمارها ، كانت تحمل بنجاح زكريا ، وتتمنى أن تراه محاميا عظيما ، وتستشعر غبطة كلما استسلمت للرؤى العذاب ، وإذا بصوت ابنها يذهب ، فتندك حصون آمالها . وأطرق زكريا مهموما ، فراح إخوته يرنون إليه بعيون زائغة ، لم تتحرك شفقا أحدهم بكلمة ، كان الحزن يذثرهم ، وقد انخلعت قلوبهم رهبة ، انهار أمام عيونهم أول أمل من آمالهم .

وخطر لسعيد أن يقول لأخيه ، إن أمر شفائه بيده ، إذا جمع عزيمته وآزرها في قتال مرضه قهره ، أما إذا ترك ذاته فريسة لطبعة لأوهامه ، فسيقهره المرض ، ولكنه ألنى الجو غير مهيا للفلسفة ، فسكت ولج في إطراقة وصمته .

واستيقظ على في الضحى ، ومشى إليه نبأ ابنه ، فأربد وجهه ، وانه أساء ، كان أهون عليه أن يبلغه مرض زكريا بمرض آخر غير انحباس صوته ، فما أعسر عقد الآمال على محام لا يسمع صوته ، وانتشر الضيق في صدره ، فقام وارتدى ثيابه على عجل لينصرف ، فلم يعد يطيق البقاء في الدار .

وفكر زكريا في حاله ، فأحس ألما محضا ، وزاد في آلامه ذلك الهاتف الذي يهتف في أعماقه أنه ارتكب جنابة في حق الأسرة ، يوم تبطر على الوظيفة ، فلو أنه قبلها لكان الخطب ، ولكن ذهاب صوته أمرا هينا ، إنه ليأصح الحلح في الوجوه ، ويحزر الألم النازل بالأفئدة ، فيربو ضيقه ، ويتكاثف حزنه ، ويحس جمرة متوقدة في حلقه ، ولولا خجله للاذ بالبكاء من أساء .

وساح في البيت الحبر ، تخفت عزيزة وزهيرة إليه تستفسران عنه ، وما كان في قلبهما ذرة من القلق أو الاضطراب ، كانت الشدائد الهابطة على أبناء صفية تنزل على قلوب العبات بردا وسلاما ، كن يجدن فيها برهانا على أنهم كن على صواب يوم اختصرن الطريق ، وألحقن أولادهن بالمصانع والعيابر ، لم يكابدن مشقة في إعدادهم ، وما أسرع ما جنين الثمار .

وقالت عزيزة وهي تمصص شفيتها :

— حسدوه .

وقالت زهيرة في رياء :

— أحزننى والله ذهاب صوته ، ليت صوتى انحبس بدل صوته .

وكأنما خشيت أن يكون الله استجاب لها ، فقالت في صوت مرتفع ، لتطمئن على صوتها .

— أعطيه يا صفية سكر نبات .

فقالت عزيزة في توكيد :

— حسدوه ، حسدوه والله ، فإذا جاء الليل أوقدى المجرمة ، وقصى قطعة

ورق «عروسة» وأخرق عينها بدبوس ، ثم ألقى بها في نار المجرمة ، ثم بخريه ، يذهب عنه الحسد .

فقالت صفية وهي تزفر :

— ربنا موجود .

فقالت لها زهيرة . وهي تتظاهر بالإشفاق .

— والله إنى أحب زكريا من كل قلبى ، مسكين ، يا خسارة سهر الليالى

وتهب السنين ، افعل ما قالته عزيزة ، وسيشفى بإذن الله .

فقالت صفية في إيمان :

— الله هو الفعال .

وأتى المساء ، وتأهب الرجال للخروج للسهر ، فقال سليمان لأخيه سيد :

— تعال نصعد نسأل عن زكريا قبل أن نخرج .

اضطرب سيد ، إنه يخشى على نفسه هبوب النسيم ، فقال :

— لا . لا . لا . أخاف أن أصاب بالمدوى .

فقال له سليمان وهو يجذبه إمعانا في مضايقته :

— تعال ، انحبس الصوت لا يعدى .

فجذب سيد نفسه منه ، وهبط في الدرج مسرعا ، حتى إذا بلغ الخمار ،

وقف يندندن بصوته الرخيم ، ليطمئن على صوته .

وبلغ مسامعه رنين موسيقى نحاسية ينبعث من بعيد ، فزر في لمح البصر

ما سيجرى في الحارة عما قليل ؛ ستهبط الزفة من العالية ، وتنطلق في أمان حتى تصل إلى قهوة الصعايدة ، ثم تبدأ المركة ، ويهبطها انسحاب مدبر ، يقع بعده الصعايدة في الكمين ، ثم تطلق الزباجات المحشوة بالرمل والزلط في وجوههم ، إنها بمركة تقليدية ، يعرف خطوطها ويعلم نتائجها كل من في الحارة ، إلا الصعايدة ! وخاف سيد أن يصاب في هذه المركة المرتقبة ، فراح يعتمد من الحارة مهرولا . وخيم السكون على الحارة بعد المركة ، وذهب الناس إلى فراشهم ، وبقيت صفية مهمومة مطرقة ، وألحت عليها نصيحة عزيزة ، فقامت إلى المجرة وأوقدتها ، وتناولت مقصا وصحيفة ، وأخذت تقرأ أكثر من «عروسة» ، وجاءت بدبوس وسحبت أول عروسة ، وراحت تحرق عينيها ، وقد قفرت إلى ذهنها عينا زهيرة ، ثم ألقت بالعروسة في النار ، وسحبت عروسة ثانية ، وراحت تحرق عيني عزيزة ، وتناولت عرائس بعدد من في الدار ، وخرقت عيونهن وألقت بالعرائس في النار ، فلما أتمت تحريق عيون العمام وأولادهن وبناتهن ، وضعت في المجرة بنحورا ، ثم ذهبت إلى حيث يرقد زكريا تبخره من عيون حاسديه .

٧١

فتح باب السجن ، ولفظ أربعة رجال ، ثم أغلق ليطبق على الدنيا العجيبة الشاذة التي تنبض واهنة خلفه ؛ فتح في سرعة وأغلق في سرعة ، كأنما يهاب الحارس أن يتسرب نسيم الحرية إلى داخل السجن فيفسد جوه ! وهرعت نسوة وأطفال إلى ثلاثة رجال ، فتكونت ثلاث حلقات قطعها سجين طليق ، يتلقى الأجسام التي ترتدى في أحضانه في شوق ، وقد دمعت عيناه ، وهزته حرارة اللقاء ، وصهرت في لحظة في ذاته أيام السجن ولياليه ، وبقي زجل واحد يتلفت في ذهول ، فلما لم يجد أحدا ينتظره اختلجت أهدابه ثم أطرق ، كان ذلك الرجل حسان .

رفع رأسه ، ونظر إلى ماحوله قبل أن ينساب في طريقه ، فإذا بمشاعر الحنان تتدفق في جوفه ، أحس رغبة في أن يضم أحدا إلى صدره ، وأن يذرف على كتفه عبراته ، وخطرت في ذهنه خاطرة ، لو أنه تزوج لجاءت زوجته وأبنائها

يترقبون خروجه في تشوف ورجاء ، ولا رتقوا في أحضانه يطفئون لرغبة الشوق .
فتبترد تلك المشاعر الحارة الجوالة في جوفه ، التي تسكاد تورده موارد الهلاك .

وأفزع ذلك الحاطر ، أكان يرضى لأبنائه وزوجه هذا المهران ؟ أيرضى لهم
أن يقفوا على باب السجن يرصدون خروجه ؟ وزاد في فزعه أنه يفكر في الزوجة
وفي الأولاد بعد أن قهر نفسه وراضها على أن تقبل العيش وحيدة ، مضحيا
بأنانيته ، حتى لا يكون سببا في أن يأتي إلى هذا العالم البغيض بأبناء يسامون
فيه العذاب .

إنه لا يغفر لأبيه زلته ، جاء به إلى هذه الدنيا في لحظة من لحظات الرغبة ،
إن الذشوة التي انتشأها يونس للحظات قصار من أربعين سنة ، لا تقاس بما قاساه
حسان من عذاب كل هذه السنين الطوال .

وسار وحيدا يضرب في الطريق المغير المنساب بين الأتقاض . كان أشبه
بطريق حياته ، وكان يوحى باليأس والأحزان ، وإذا بصوت يصرخ في أعماقه :
لماذا حبسوك ؟ ولماذا أطلقوك ؟ وهل أطلقوك حقاً ؟ يا للسخرية ! أخرجوك من
السجن الذي صنعوه ، إلى السجن الكبير الذي يغيب الناس جميعا في غيابه ،
فكل من على هذه الأرض سجين ، وإن أسدت على العيون غشاوات من
الوهم والضلal .

وتتابعت الحواطر في ذهنه ، فلاحته لعينيه صورة أخيه وأخواته ، لم يفكر
أحد منهم أن يأتي لزيارته يوما ، حتى يوم خروجه لم يرسلوا إليه من ينتظره ،
ولو نفاقا ، ليشعروه أن هناك أناسا يذكرونه ؛ وأحس ضيقا ، وعجب لتلك المشاعر
التي تتحرك برغمه ، لماذا يفضب على أخيه وأخواته ؟ إذا كانوا لم يأتوا إليه فهم
معذورون ، لماذا يأتون ؟

وهتف به هاتف : أصبحت عارا ، ينفر منك أقرب الناس إليك ، وأراد أن
يؤد ذلك الهاتف المقيت ، ولكنه غلب على أمره ، واستسلم مقهورا لأفكاره :
إذا كنت قد سجن ، فذلك لأنني ضبطت لسوء حظي متلبسا بما اصطالح الناس على
اعتباره جريمة ، ولو أن كل من ارتكب جريمة وقع تحت طائلة العقاب ، لرج
بالناس جميعا في السجون . الناس كلهم عار ، ولست عارا وحدي ، حتى أمي

لا أبرعها من الإثم ، ألم ترتكب في حياتها الحافلة خطيئة ؟ ! أما أبي فما أكثر خطاياها ، أنجب شقيا وخمس شقيقات ، جادوا إلى العالم بجيش من الأشقياء ، وإنها لخطيئة بشعة لا تغتفر .

وأحس جفافا في حلقه ، فراح يتحسس النقود التي في جيبه ، النقود التي ادخرها السجن له ، ليبدأ بها حياة شريفة بعد إطلاقه ، فأغذ السير ، كأنما كان يفر من شبح يجد في أثره ، حتى إذا بلغ حانة دخل ليتخلص من تلك الصحوة الأليمة ، التي امتدت أياما وليالي وأسابيع وشهورا وأعواما ، ويالها من صحوة أليمة أذاقته صنوف الضنى والعذاب .

وراح يعب الكئوس ، حتى إذا ما امتشعر غمامة تظلل ذهنه ، وتحجب بينه وبين الأفكار ، هدأت وساوسه ، وخرج هادئا لينطلق إلى الدار .
ودخل على أخواته ، فلما لمحنه صحن في اهتمام :

— حسان . . حسان !

وقامت إليه عزيزة تعاقبه ، وراحت زهيرة تقول له في صوت تحاول أن يبدو فيه التأثير :

— حمدا لله على السلامة ، والله أحزننا ما جرى !

وأخذت كل واحدة من أخواته تبثه إحساسها ، فلم تمس كلمة من كلماتهم وترا في نفسه ، كان يستشف في كلامهن رنة الرياء ، ولمح صفة ترنو إليه في عطف ، فوضع يده على فمه ، فما كان يحب أن تشم رائحته وهو سكران ، كان ينظر إليها نظرة إعزاز وإكبار ، وصالحها في حرارة ، ثم انصرف من البيت ليهيم على وجهه وحيدا ، يفر من نفسه ، ونفسه تجد في أثره تلهبه بسياط السخط والنقمة والاضطهاد .

٧٢

ذهبت صفية وأولادها إلى البيت الكبير ، فلم يحفل بهذه الزيارة إلا الجدة ، كانت في إقبال وإدبار بين المطبخ والغرفة التي جلست فيها صفية وأولادها ، فلما دخلت بعض زوجات أبنائها لمعاونتها في تجهيز الغداء ، تركت المطبخ وجلست إلى حفيدتها تتحدث وقد ملئت نشوة .

وجاءت درية وقد صارت شابة في الثالثة عشرة ، تفتحت وترقرق ماء الشباب في وجهها ، فأخذ خالد يرقبها ، يهزه شعرها الأصفر الذي طفق ينوس خلفها كلما غدت أو راحت ، ويحس مشاعر الغبطة كلما التفتت نحوه بعينها الزرقاوين الصافيتين ، كان يعد حركاتها وسكناتها ، بينما شغلت عنه بالحديث الدائر بين الجميع ، حتى كادت لا تفطن لوجوده .

وأقبلت أختها روحية ، كانت في الثامنة عشرة ، حلوة جذابة ، وسملت على الحاضرين ، فصاحتها صفية في شوق ، وصاحتها زكريا في اهتمام ، فقد كان زكريا وأمه يعرفان أنه سيكون لروحية اليوم شأن في حياة الأسرة .

وغصت الغرفة بالشباب والفتيات ، والأمهات والجدة ، فانقسم الموجودون إلى حلقات يتجادلون الحديث ، وقد حرص خالد على أن يكون في الحلقة التي فيها درية ، كان يجد روحه تنجذب إليها ، ويستشعر نشوة إذا رنا إليها ، أو مس حديثها أذنيه .

ووفد أولاد الحاج كرم للغداء ، خيوا صفية ، وأرادوا أن يحاملوا أبنائها ، فأخذوا يحادثون زكريا ، حتى في المجاملة لم تفارقهم عقليتهم الحاسية ، فقد أصبح زكريا بعد أن تخرج في الحقوق ، حقيقا بالانتقادات ، وإن لم تملأ النقود جيوبه بعد ، قال له كمال :

— كيف حال صوتك الآن .

— الحمد لله في طريقه إلى الشفاء .

وقال حسين :

— وماذا نويت أن تفعل ؟

فقال زكريا في اضطراب :

— وجدت مكتبا صغيرا أبداً فيه عملى .

وقال له مصطفى وهو يكاد يضطجع في جلسته :

— أنظن أنك تستطيع أن تكسب من المحاماة ، أكثر من الوظيفة ؟

فقل زكريا في هدوء :

— أرجو ذلك .

ودعوا إلى الغداء ، فلبوا الدعوة خفافا ، وأكب جلال على الطعام لا يلتفت إلى شيء مما يدور حوله ، وطفق خالد يسترق النظر إلى درية بين لحظة وأخرى ، ولم يشغله ذلك عن التهام ما أمامه في سرعة ، وما هي إلا دقائق لاتتجاوز أصابع اليد الواحدة ، حتى كان أولاد صفية قد ملئوا ، ولكن جلالاتهم لم يكف عن الأكل ، بل استمر يأكل ، وإن أحس الكثرة .

ورفع الطعام ، فتفرقوا في الغرف ، وراحت صفية تتحين الفرص لتخلو بحسين ، لتحدثه فيما جاءت من أجله ، وأتيحت لها الفرصة ، ووجدت نفسها وأخاها في الغرفة وحدهما ، فقالت له :

— كبر لبيب ، وهو بعيد عني ؛ إنه في حاجة إلى من ترعى شئونه ، ففكرت في أن أزوجه .

وطافت بحسين موجة من القلق ، لم يرتح إلى هذه المناجاة ، فسمت وأطرق ، ولم تطفن صفية إلى ذلك السهوم الذى ران على وجهه ، فقالت في اندفاعها :

— وجدت أن روحية خير من تكون له زوجة ، فجئت أستشيرك في هذا الأمر .

ذعر حسين ، ولم يقو على كتمان مشاعره ، فرنا إلى أخته بعينين واسعتين ، فيهما إنكار ورعب ، أزواج ابنته من ابنها ، وليس له إلا مرتبة الضئيل الذى يعاون منه أسرته ؟ ! لماذا تتطلع صفية وأبنائها إلى فوق دائماً ؟ ! فقال في جفوة :

— روحية لا تزال صغيرة ، لم أفكر في زواجها .

وغرقت صفية في الصمت ، ونم وجهها عما يعمل في جوفها من أسى ، فما دار بخلدتها أن يرفض حسين زواج ابنته من ابنها ، واستشعرت حرجا ،

فخطر لها أن تنسحب ، تخرج أذيال خجلها ، ولكنها لم تستجب لذلك الخطر .
وظلت في إطاراقها الحزين ، ولم يكتف حسين بالسهم الذي سدده إلى سويداء
قلبها ، بل راح يقول لها :

— اسمعى نصيحتي يا صفية ، لا تفكرى فى زواج ابنك الآن ، حرام عليك
أن تعلقى فى عنقه أسرة ، وهو لا يقوى على القيام بتكاليفها ، دعيه حتى يكون نفسه ،
هذه نصيحة .

واستمر فى نصحه ، وهى لا تصفى إلى حديثه ، شغلت عنه بأحزانها .
وخرجت صفية إلى أبنائها ، وما وقعت عين زكريا على أمه ، حتى فطن إلى
ما جرى بينها وبين أخيها ، فانقبض ، وغامت صفحة وجهه ، ولم يدار عواطفه ،
فقال وهو ينظر إلى أخواله :

— اسمحوا لنا بالانصراف ، وقد أثقلنا اليوم عليكم .
وانصرفوا ، خالد مسرور بعد أن امتلأ من النظر إلى درية ، وجلال راض
كل الرضا ، مادام قد ملأ بطنه ، وسعيد ويحيى فى غبطة ، وصفية وزكريا يدثرهما
الحزن ، يحسان ألم الصفعات التى نالت كرامة الأسرة ، وزاد فى حنق زكريا
وأمه أن روحية خطبت فى نفس الأسبوع الذى قال فيه حسين إن ابنته لا تزال
صغيرة ، ولا يفكر فى زواجها !

٧٣

القطار ينهب الأرض ، وخالد متبرم من ذلك الوقت الذى يالوح أنه لن ينقضى ،
فهو يتمنى أن يغمض عينيه ويفتحها فيجد نفسه فى الإسكندرية ، إنه فى ثياب
طلبة الحربية يستشعر زهوا ، وإنه يتلفت يبحث عن يعرفه ، ليريه نفسه وهو
فى فخره ، ولكنه لم يجد فى القطار أحدا من معارفه ، فأصبح يتطلع فى شوق
إلى اللحظة التى يخطر فيها فى شوارع الإسكندرية ، يرد تحية الأصدقاء والزملاء ،
ويتخيل دخوله الحارة ، فيخفق قلبه طربا ، فهذه أول مرة يعود فيها إلى أهله ،
وأزواره الصفر تتألق ، وشريطه الأحمر يجذب الأبصار .
ووصل القطار إلى الإسكندرية ، فسار خالد مرفوع الرأس وقد تأبط عصاه

الصغيرة ، ولكن عينيه كانتا تتجولان في حشود المنسابين من القطار ، فإذا لمح أحداً ينظر إليه أشرق وجهه بالابتسام ، وإن لم تنفرج شفاته .

وركب الترام وهو يحس أنه خلق خلقاً آخر ، ففي صدره عزة ، وأمام عينيه آمال ، ومر أمامه قاطع التذاكر ، فأنجابت عن ذهنه السنون في مثل لمح البصر ، تذكر ذلك اليوم الذي جاء فيه إلى مدرسته الابتدائية تذكر أي كان تلميذاً فيها ، وأقبل يأخذ أوراقه بعد أن نزل إلى معترك الحياة ، وكيف راح يرتو إليه يومذاك في حب وإعجاب فرفت ، على شفتيه ابتسامة ، ثم حنى رأسه شكراً لله .

وهبط من الترام ، وعرج على الحارة ، فراح قلبه يدق منتشياً ، وسار مسرعاً فلما لمح إخوته هرعوا إليه فرحين ، كان جلال يحييه ، ويتمنى في قرارة نفسه لو أنه هو المائد إلى الحارة في ذلك الثوب الرسمي ، فهو كفيل بأن يجذب إليه الأبصار ، وكان سعيد راضياً ، لأن خالداً حقق أمنيته بمشايرته ، وهذا يؤيد ما يذهب إليه ، إنه يقول دائماً إن الإنسان يستطيع أن يصنع نفسه بيده ، أما يحيى فقد راح يقفز كما يقفز الأطفال إذا ما أفعموا بالعبطة .

والتف الأولاد حوله بعد أن صافحوه ، فوقف يحادثهم وقد ملأه نشوة ، كان نسيج وحده ، الأزوار الصفرة تلمع ، والقصب على الأكتاف ، والشريط الأحمر يأخذ بالآلأب ، بينما صاحبه كانوا في الجلأبيب وقد اتسخت .

وغادرهم واتجه إلى الدار ، فإذا حليلة في مكانها عند الباب ، نفس قفص الحلوى ونفس الجللسة . ولولا الشعر الأبيض ، والتجمعات في صفحة الوجه وتحت العينين ، لحسب الناظر إليها أن الزمن ثابت لا يتحرك ، تقضت سنوات طوال منذ جلست في الحارة أول مرة ، يوم كان عليها مسحتان ، مسحة من فقر ، ومسحة من جمال ، ولكن السنوات ذهبت بالجمال وتركتها بين براثن الفقر تقاسى النل والحرمان :

التفت إليها وقال وهو يطأ الوصير :

— كيف حالك يا حليلة ؟

— الحمد لله ، حمداً لله على السلامة ، اسم النى حارسك .

ونظرت إليه في حنان دون أن يكدر صدرها حسد أو غيرة .
وصعد في الدرج خفيفا . ودلف إلى حيث كانت عماته وأولادهن ، وإذا
بصديحات الترحيب تنبعث من قلوب الصغار حرة طليقة ، وإذا بالكبار يزجون
إليه تهنئاتهم مغلفة بالرياء والملق ، مبطنة بالضيق والحسد ، كأنما يسوؤهم أن يبلغ
أحد غيرهم ما يحب وما يتمنى .

وراح يرقى في الدرج ، ودخل على أمه ، وما إن رآها حتى ذاب إليها شوقا ،
فهرع إليها يرمى على الصدر الحنون ، الذي انداحت فيه موجات الفرح ، ولم تقو
صفية على كبت عواطفها ، فراحت تكفكف العبرات التي جاشت في مقلتيها .
ولم يمكث في البيت طويلا ، فلما لبث أن خرج ، فهو يريد أن يمر على أحبابه
ومعارفه وأعدائه ، ليعرض عليهم نفسه في زيه الجديد ، ليشاطره الأحبة بهجته ،
ويكمد شائئيه ، وكان أول بيت خطر له زيارته بيت أخواله ، وقد برز من بين
الوجوه الكثيرة النازلة بالبيت الكبير وجه واحد رقيق احتل أقطار رأسه ، كان
وجه درية ، بشعرها الأصفر ، وعينها الزرقاوين ، وبسمة خفيفة توجت شفيتها ،
بسمة ترحيب .

وغادر البيت الكبير وهو فرحان ، كان موضع عطف جدته ، وقد أقبل
عليه أخواله ، كان قطب الرحى ، ومحور الحديث ، وزاد في غبطته أن صور له
وهو أن درية كانت تديم النظر إليه ، وفي عينها الصافيتين بريق .
وجاء المساء ، ولم ينته بهدمن زيارته ، فرأى أن يستأنف ما بدأه في الصباح ،
وفي أثناء أوبته إلى البيت ، قابل عند مدخل الحارة صديقا من أصدقائه ، فقال له
وهو يصاحفه :

— والله إنى مشتاق إليك يا حامد .

فقال له حامد وهو قابض على يده .

— أريد أن أحادثك طويلا ، كيف أنت ؟ وكيف حالك ؟ تعال ، تعال ،
معى نتسامر .

وجذبه حامد ليصعد معه ، وما كان خالد يرفض دعوة صديق ، فسار معه
وإن أخذ يعتذر :

— ههجم الليل ، ولم أر أبى بعد .

فقال له حامد وهو يبتسم :

— تعال ، لا تزال أمامنا فسحة من الوقت ، ومتى كان أبوك يعود فى مثل هذه الساعة ؟

وجلس الصديقان يتسامران ، ودخلت سهام ، وهى فتاة فى الثانية عشرة ، ممتلئة الجسم ، أبرز ما فيها شعرها الأسود كاليل حالك الظلام ، وعيناها السوداوان المتألقتان أبدا ، وخفة ودل ، وأنوثة طاغية ، رنت إليه فى ود ، وأضاء وجهها بالبشر ، ثم قالت له :

— التحقت بفريق الكرة ولا شك .

فقال لها وهو يبتسم :

— لولا الكرة ما قباونى .

فقالت له فى اهتمام :

— هل اشتركت فى ناد من أندية القاهرة ؟

— لا أستطيع أن ألعب لأندية القاهرة ، لأنى لا زلت مقيدا للنادى هنا .
فقالت وقد ضيقت عينيها ولوت شفقتها .

— خسارة ، لو لعبت فى القاهرة للمع نجمك ، ألم تكن ضمن منتخب الإسكندرية فى السنة الفائتة .

— نعم .

فقال لها أخوها وهو يرنو إليها فى عجب :

— من أين لك كل هذه المعلومات ؟

فقالت فى بساطة :

— قرأت ذلك فى الأهرام . الصحف تذكر أسماء اللاعبين ، وقد قرأت اسم خاله أكثر من مرة .

ودار الحديث لينا لطيفا ، ثم استأذن خاله وانصرف وقد سره حديث سهام ولكن ما ابتعد عنها حتى قفزت إلى ذهنه صورة درية ، وهى تبتسم له بسمة الترحيب التى خلقها خياله .

وانطلق فى الحارة كالطيف السعيد ، ومس أذنيه أصوات إخوته وأبناء عماته ، فخرر أنهم مجتمعون يتسامرون ، فهرع إليهم ، وما إن رآه سيد حتى قال :

— محمد رحبا . . محمد رحبا .

وارتفعت الأصوات . فلما هدأت قليلا ، عاد سيد إلى الحديث :

— الحمد لله أنك ضابط جيش .

فقال له خالد وقد انفرجت شفته عن أسنانه :

— وإذا كنت ضابط بوليس ؟

— لللا . . لللا . . . بيننا وبينهم حد الله .

وجاء على فلما لمح ابنه في ثيابه الأنيقة ، أقبل عليه يصاحفه منشرح الصدر ، ثم قال له :

— لا تخرج في الصباح ، حتى تخرج معا .

وانقضت الليلة ، وخالد في غمرة السرور ، ولما أصبح الصباح كان أول ما فعله أن ذهب إلى ثيابه الرسمية يرتديها ، وراح يرقب أباه ، وهو يرجو أن يستيقظ مبكرا ليخرج ، فأمامه أكثر من زيارة يبغى أن يقوم بها قبل عودته إلى مدرسته في آخر النهار .

وفي الماشرة استيقظ على كمادته ، ثم قام إلى ثيابه فارتداها ، وخرج على وابنه يغذان السير ، ترفرف عليهما الغبطة ، وانطلقا حتى إذا بلغا إستاورو ، الشيخ اليوناني المزاني ، قال له على :

— هذا ابنك خالد .

ثم التفت إلى خالد وقال له :

— هذا صاحب الفضل عليك .

فقال خالد عليه ، فقبله الشيخ في جبهته ، وراح يربت عليه ، وخالد ينظر إليه في شكر ويغمغم بكلمات غير واضحة ، ولكن كل خالجة فيه كانت تعترف المرابي بفضله .

وانصرف خالد وقد ترك أباه والشيخ يتسامران ، وفيما هو في طريقه استشعر رغبة في أن ينطلق إلى بيت خالته ، إلى بيت الباشا ، واستبدت به هذه الرغبة ، فذهب إلى خالته جليلة ، ليؤكد لها — وإن لم يتكلم — أنه حقق أمنيته ، وإن لم يخلت بأن تمع إليه عونها ، وأن أبناء صفية سينظرون إلى فوق دأعا .

٧٤

غابت الشمس ، وأضيئت القناديل في الحارة ، وتكديس الأولاد أمام بيت
يونس ، وتوافدت النسوة وقد لطخن وجوههن بالأبيض والأحمر ، وارتدين
ثيابا زاهية فضفاضة ، فبين كقردة تزينت .

وانبعثت دقات الطبول ، ونغمت الأيادي المصفقة في توافق ، وأصوات حادة
تردد أغنيات راقصة بلدية ، انتشى بها بعض الصبية ، فطفقوا يرقصون في الحارة ،
ويتمايلون في غبطة ، وإن أحسوا رغبة في التطلع إلى النسوة الراقصات
في الطبقة العليا .

كانت الليلة ليلة زفاف سليمان ، ظلت أمه تمنيه الزواج وهو صغير ، حتى شب
والزواج هدفه ، فلما اشتد عوده أخذ يلح عليها أن تبر بوعددها ، فقررت أن
تزوجها وأخاه سيدا في ليلة واحدة ، فما أكره الفتيات في البيت ، ولكن سيدا
رفض أن يتزوج ولج في الرفض ، فعزمت على أن تزوج سليمان ، وأن تقبم له
ليلة واحدة ، كيدا لسيد الذي قهرها برفضه ، ونال منها بعدم الاستجابة
إلى نصحتها .

وتقاطر زملاء سليمان في العنابر ، فقادهم إلى غرفة منعزلة في الطبقة الأولى ،
وجلس معهم منشرحا ، يصغى إلى أحاديثهم وهو يضحك ، وأقبل سيد وراح
يصاحفهم ، فقال له أحدهم :

— العقبى لك .

فقال سيد في فزع :

— ككفى الله الششر .

فقال له آخر :

— لماذا لا تتزوج ؟

فقال سليمان وهو يبتسم بخبث :

— لأنه ليس رجلا .

فأربد وجه سيد ، وقال في حنق :

- يبييا مخففل . . . يبييا بن الككب .
فقال سليمان إغاضة له :
— يخشى أن يموت وأن يترك أولاده . . .
فقال سيد وقد اتسعت عيناه :
— ككل ما أخشاه أن تموت أنت وتستريح ، وتترك لي أولادك في عنقي ،
اسمع رأيي من الآن . ألا تعتمد على . . سأتركهم يستجدون .
فقال له سليمان وهو يضحك :
— اطمئن ، لن أعتمد على نذل .
فقال له سيد وهو ينظر إلى الضاحكين :
— ببسبب المخففل أن الزواج كنأس خمر ، إنه برميل قطران .
فقال أحدهم مستدركا :
— فوqe قيراط غسل .
فقال آخر :
— لم أجد في برميلي قطرة واحدة من الغسل .
فقال ثالث وهو يضحك :
— لعلك فتحتة من القمر .
وقال شاب منهم يحاول أن يبدو أنيقا :
— الزواج نعمة لماذا تنفرون منه الناس ؟
وشمخ بأنفه وقال :
— تزوجت ثلاثة ، وسأزوج الرابعة .
فقال أحدهم على زميله وهمس :
— الزواج عنده تجارة رابحة ، كلما تزوج زاد رأس ماله ، فهو يشغلهم .
وقال سيد جادا :
— حرام أن يتزوج ممن كان مثلنا ، الزواج يحتاج إلى أموال ، لن
أتزوج إلا إذا ربحت ورقة يانصيب .
وهم رجل منهم أن يؤيد سيده ، وثمن يذكر مأساته ، وروي لهؤلاء العاشقين
كيف يقاسى في تيسير قصعة الفول كل صباح لأولاده التسعة ، كيف شبت بناته

وهو في حيرة من أمرهن ، فهو كلما فكر فيهن دار رأسه ، لن يتزوجن لأنه
يعجز عن أن يجهزهن ، وكيف يجهزهن وهو قاصر عن أن ييسر لهن ثيابا
فتيات جميلات لا يدري ماذا يفعل الفقير بهن . جاشت الكلمات في فمه ، ولكنه
لم يحرك شففيه ، فظن إلى أنه جاء يشاطر سليمان فرحة ، لا أن يضع على عاتقه
ثوم الدنيا ، فصمت مطرقا لا يتكلم وإن نطق وجهه بما يقاسى من ألم .

وراح كل منهم يروى ما فعله ليلة زفافه في مبالغة ، ويضفي على نفسه بطولة
أمدته بها خياله ، كان كل منهم بطلا ، حتى العامل المتأنق طفق يروى مغامراته
مع أزواجه الثلاث ، وسليمان يصفى إليه في إعجاب ، بينما أخذ معارفه يتبادلون
النظر ، وتنفرج الشفاه عن أسنات استخفاف ، وتنطلق من العيون
غمزات هازئة .

وتصرم الوقت ، والتفت أحدهم إلى سيد وقال :

— ألا تغنى لنا في هذه الليلة السعيدة ؟ .

فقال سيد دون تكلف :

— للوططاوعت نفسي ، لأحضرت ندابة .

فقال له سليمان في غيظ .

— يابن السكاب . . . لو كنت رجلا لتزوجت .

وحانت اللحظة الفاصلة بين حياتين ، فقام سليمان مذمرا ، وأسرع إليه
رفاقه يحاول كل منهم أن يزجى إليه النصيحة الأخيرة ، فراح الهمس يتناثر :

— عندما تدخل عليها . . . وإذا دخلت عليها . . . وأول ما . . .

وانسل سليمان ، وراح يصعد في الدرج ، وهو بين جلال وسعيد ، وزغاريد
النسوة تدوى في الليلة الصاخبة .

وانصرف الرجال ، وغصت الحارة بالنسوة والأولاد ، وسرعان ما خفت
الرجل ، وخيم السكون ، وأقبل حسان محمورا ، وإذا بالرميل الأصفر أمام الدار ،
وقنديل يرسل أشعته الوهاجة ، فاربد وجه حسان ، وغغم في أسى :

— ارتكبت الليلة في هذا البيت جريمة . . . جريمة فظيعة على دق الطبول ،

ورنين الزغاريد .

٧٥

فتحت أبواب الدور في البكرة ، واستقبلت الشوارع وفود الكادحين
والعاملين ، ينطلقون وفي رؤوسهم أفكار متباينة ، وفي صدورهم آمال تراضعت ،
وآمال شمخت بأنوفها ، وفي قلوبهم مشاعر مختلف مذاقها ، مشاعر حلوة ،
ومشاعر مريرة .

وانساب في الحارة باعة اللبن وأسراب الصعايدة والفلاحين ، الخارجين
للبحث عن القوت ولا شيء غير القوت ، وجماعات العمال الذين يحنون النفس
بالعودة إلى الدور مع الليل وفي أيديهم بعض الفاكهة الشعبية ، التي تدخل
السرور على قلوب العمال ، وزرافات التلاميذ يتخايل لهم المستقبل بساما مشرقا ،
لا يعلم وجهه غبرة ، ولا يعرف العبوس أو التقطيب .

وانطلق سيد في الحارة ، ضيقا بفقره ، فهو يستيقظ مع الفجر ، يعمل طوال
النهار ، يتصبب عرقه في سبيل قروش لا تيسر له أن يعيش في سعة ، إنها لتكاد
تمسك رمقه ، وهو يطمع في أن يرتدى حلة نظيفة ، وأن ينعم بسهرة ممتعة .
وأن يأكل أكلة دسمة ، ولكن أجره أضيق من أن يتسع لآماله ، إنه في حاجة
إلى جنينيات يشتري بها سمادته ، فأقبل على ورق اليانصيب ، يقتنى منه ورقة كل
يوم ، تجدد أماله ، وتجمل حياته الرائدة هدفا .

وخرج سليمان منشرحا ، يتسم للكون ، يحسب أن الحياة مشرقة دائما ،
فهو يحب من قيراط العسل الذي يطفو فوق برميل الزواج الممتلىء قطرانا ،
كان في حلة كحلية نظيفة ، يزين صدرها منديل أبيض ، يسير في أناقة المترفين ،
كان مظهره يخدع مادام صامتا ، أما إذا تكلم فما أيسر أن يضعه السامع في طبقته ،
وأن يعيده في غمضة عين إلى عنابره !

وهبط جلال وسعيد ويحيى إلى الحارة ، في ثيابهم النظيفة ، يتأبطون كتبهم ،
جلال وسعيد يتبادلان الآماني ، فهما في البسكالوريا ، يحملان بالحصول عليها ،
والذهاب إلى القاهرة للالتحاق بجامعة ، كان هدف جلال أن يكون جامعا
ليزداد في أعين الناس رفعة ، أما سعيد فهدفه أن يصبح طبيبا ، وهو يعمل

لبلوغ ذلك الهدف جادا ، ولن يسمح لعقبة أن تقف في سبيله ، أو تصرفه عن طريقه ، فهو يؤمن أنه قادر على أن يصنع نفسه بيده ، وأن يشكل نفسه بعزمته كما يشتهي .

وذهب يحيى إلى مدرسته الثانوية ، رأى أخوته يذهبون إلى المدارس ، فسار في آثارهم ، لا يعرف للحياة طريقا آخر غير ذلك الطريق ، ووقر في ذهنه أن الذين تنكبوا ذلك السبيل اضطروا إلى ذلك لافتقارهم إلى الاستعداد الشخصى ، لم يفتن إلى قسوة الحياة التى تجرف الناس إلى المسالك الوعرة ، وتركهم طوال حياتهم لصراع دائم بينهم وبين الأنواء والأعاصير والزوابع ، شب فوجد الأسرة تنعم ببعض اليسر ، بعد أن اشتغل زكريا بالمحاماة ، فلم يعرف حرارة العيش ، ولم يقاس ذل السكفاح ، فهو إذا رفع عيذه يجد ما يزهو به ، أخوه الأكبر الأستاذ زكريا ، وأخوه خالد طالب فى الحربية ، يتطلع إلى أن يكون طيارا ، وجلال وسعيد فى البكالوريا ، وإن هى إلا أشهر قليلة حتى ياتحقوا بالجامعة ، ولولا أبناء عماته وهذه الحارة التى شب بها ، لحسب أنه من أسرة أرستقراطية ، تعانى بعض الضيق !

وخرج على والأستاذ ، وسارا فى الحارة يتحدثان ، كان على مزهوا بابنه ، انطلق معه إلى المحكمة ، ليصغى إليه وهو يترافع فى أول قضية كبيرة أسندت إليه ، كان على يعجب بالمحاميين ، وإن إعجابه بابنه الأستاذ أشد وأعظم .

وبلغا المحكمة ، ودلما إلى قاعتها ، وتقدم زكريا إلى الصف الأول وجلس مرفوع الرأس ، فهو وإن كان ضعيفا فى بدنه ، إلا أنه كان قويا فى ثقته بنفسه ، وقبّع على فى مقعده ينو إلى ابنه ، وقد مشى فى صدره قلق ، ولسكنه قلق لليد ، يحاكى ذلك الذى يحسه العاشق وهو يرقب محبوبته

ودبت الحياة فى القاعة ، وبدأت القضايا وعلى يصغى فى شغف ، حتى إذا ما وقف زكريا خفق قلبه فى جوفه ، وانبثقت مشاعر الحنان وتفجرت فيه ، فإذا بخواسه ترهف ، وإذا كله عيون وآذان وأعصاب مشحوزة متلهفة .

وتدفق زكريا فى دفاعه ، حتى استحوذ على المحكمة ، فأحس على لذة عارمة ، ولاحظ العيون الشاحصة إلى ابنه ، فأثلج صدره ، واستشعر زهوا يملأ جوانحه ،

وما انتهى ابنه من مرافقته ، حتى دوت في أعماقه صيحة راحت تتردد بين جنباته :
« براءة . . براءة » .

وتأهبت المحكمة للنطق بحكمها ، فنبت القلق في صدر على ودثرته رهبة ،
خيل إليه أن المحكمة تستعد للنطق بحكمها على ابنه ، فلما دوى صوت القاضي
« براءة » كاد يصيح فرحا ، ولكنه جاهد نفسه ، وراح يدير عينيه في القاعة
ينظر إلى الوجوه المستبشرة من بين السموع التي غامت بها عيناه .

٧٩

وجاء الصيف ، ورحلت الأسرة إلى المكس ، فكانت صيفية تمضي الضحى
في إعداد الطعام لهؤلاء الذين يقوى هواء البحر شهوتهم ، وهي قوية على الدوام ،
فإذا ما فرغت منه ، جلست أمام الحجرة الخشبية القابعة في ذلة على الشاطئ ،
وأخذت هي وزوجها يتجاذبان أطراف الحديث ، وما كان يدور حديث بينهما
إلا على الأولاد .

وراح سعيد ونحى يمرحان في الماء ، فهما يهويان السباحة ، ويجدان فيها لذة
ورياضة ، بينما كان خالد يلعب بالكرة مع ثلة من أصحابه على الرمال ، فهو ينجذب
إلى حيث تكون الكرة دون تدبر أو تفكير .

وأخذ جلال يذرع الشاطئ ، جيئة وذهوبا ، ينظر إلى الجالسين والجالسات
تحت المظال ويتفرس في وجوه الفتيات ، لعله يلمح نظرة إعجاب تصوب إليه ،
فترضى غروره ، وفيما هو في تجواله ، إذ لمح فتاة تتأود في مشيتها ، وقد رنت إليه
بهنين منكسرتين ، ورفرت على شفقتها بسمة ، ثم استأنفت سيرها تتأود وتتثنى .
كانت في ثوب من ثياب البحر ، ممتلئة قليلا ، وكان أبرز ما فيها دعوة عينها
الصارخة ، ونهدها الشاخصين المرتجيين في رعونة . فأحس جلال دما حارا يتدفق
في عروقه ، وخيل إليه أن كل خالجة فيهما تهتف به أن تقدم ، تخفى قلبه في
صدره ، واستبدت به رغبة محادثتها ، فمديده وحمل كرسيه ، كان قد وضعه على
الشاطئ ليستريح عليه ، وقدمه إليها وهو يقول في نبرات فيها رعدة ، لها وقع
عذب في آذان الفتيات :

— تفضلي . استريحى .

وجلست وهى تتلوى ، وقالت وهى ترفع شعرها الأسود بيديها فى دلال ،
فبيد ومدرها الناهد من ريا ، يزيد جلالا اضطرابا :
— متشكرة .

وساد الصمت بينهما برهة ، ثم وجد جلال لسانه ، فقال :

— أرجو أن تسمعنى لى أن أعبر عن إعجابى .

وتظاهرت بالإطراق ، وإن كانت تنو إليه من بين أهدابها ، واستمر
فى حديثه منشرحا ، فأصفاؤها إليه دليل على اهتمامها به ، وما دار بخلد أنها مثله
تتصيد الإعجاب لترضى غرورها .

— فى عينيك صفاء مس قلبى ، وبين جنيتك روح طاهرة هفت إليها روحى ،
أحس إليك انجذابا يستولى على نفسى : بهرنى حسنك ، فأطلق لسانى بالتسبيح
بحمالك ، إنك رائمة ، فهذا الشعر الأسود ، وهذا الوجه الصبيح ، وهاتان
العينان السوداوان المتألفتان تحفة ، إنك قطعة رائمة لفنان مبدع .

وتوجت شفقتها بسمة ، كأنما تقول له استرسل فى حديثك ، واستشعر جلال
زهوا ، فهو يذكر أنه قرأ مثل ذلك الذى يردده على مسامعها فى قصة لكاتب
عاطفى يحبه ، ولكنه يحس الكلمات تتدفق حارة من فمه ، ويرى أثرها فى وجه
الفتاة ، الذى كان يشى بسرورها ، قربا سروره ، وجد من تتلذذ بحديثه ، وتهم
بأمره ، وكانت كل أمانيه أن يجذب إليه اهتمام الناس .

وتفرس فى وجهها مليا ، ثم قال :

— ما اسمك ؟

فقال فى ثبات ، دون أن يتهدج صوتها ، أو تتورد وجنتاها بحمرة :
— عفاف .

وكانت كل ما فعلته أن أشاحت بوجهها فى دلال الخبيرات ، كأنما تقسم له
بالله أنها خجلة ، فقال وقد شمع بأنفه ، معجبا بفتوته التى أسرت فتاة مثل هذه
الفتاة الماضجة .

— تشرفنا . وأنا جلال على يونس ، حصلت على البكالوريا هذا العام ،
وسألتحق فى أول العام بالجامعة ، سأصبح أستاذا .

- ورنا إليها طويلا ، ليترجم نظراتها بما تهوى نفسه ، فلما أيسر أن يترجمها
بنظرات وله وإعجاب ، ثم قال لها :
— أين يمكنني أن أجده ؟
— في شارع محرم بك .
— أنتظنين هناك ؟
فقالت وهي تبتسم :
— لا . . بل أعمل هناك .
— في محل ؟
فقالت وهي تهز رأسها :
— نعم .
— ما اسمه ؟
فقالت وقد انفرجت شفتاها عن أسنانها ، وهزت أصبعها أمام عينها .
— لا . . هذا سر .
— وكيف أقابلك ؟
فقالت وهي تصلح شعرها في إغراء :
— تنتظر في أول شارع محرم بك .
— في أية ساعة ؟
— في الساعة الواحدة ظهرا ، أو الساعة مساء .
وصمتت قليلا ، ثم قالت :
— لا تحاول أن تبحث عني في محال الشارع ، فلن تعثر علي .
فقال لها وهو يبتسم .
— سأنتظرك غدا .
فقالت له وهي تنفض عن الكرسي :
— إلى الغد .
وانطلقت تتأود وتتثنى ، وجلال يتبعها بنظره ، وفي صدره راحة وإشراح ،
فهذه الفتاة التي تجذب إليها الأبصار ، اهتمت به ، وانجذب بصرها إليه ، حتى إنها
أحبته ، وواعدته اللقاء !

٧٧

خالد على الشاطئ ، يلعب بالكرة ، يجري في خفة ، ويقفز في رشاقة ، على الرغم من ثقل وزنه ، كان عريض الكتفين ، ممتلئ الساقين ، ربعة لا هو بالطويل الأحق ، ولا بالقصير القمى ، وكانت سهام جالسة على الرمل ، وقد امتلأ صدرها واستدار ، وأثرت الشمس في بشرتها البيضاء ، فأحمر وجهها ، كانت تقبل كل يوم مع أخيها حامد ، فإذا اندمج في اللعب بالكرة مع خالد وأصحابه ، مدت ساقها ، وراحت تعيث في الرمال دون وعى ، وهى ترقب حركات خالد وسكناته ، كانت تستشعر خدرا لذيذا كلما رنت إليه ، أو مس أذنها صوته .

وهزت رأسها وطوحت به إلى الخلف ، لتبعد شعرها الأسود الفاحم ، الذى عبث به النسيم عن عينيها ، فلمحت فتاة أمامها ترصد الشبان الذين يلعبون بالكرة فى اهتمام ، وصور لها وهما أنها تتبع خالدًا بعينيها أينما ذهب ، فاغتاظت وضاق صدرها ، وتحركت غيرتها ، فأخذت تنهش جوفها .

وراحت ترقب الفتاة ، فربا ضيقها ، كانت فتاة حلوة جذابة ، ذات أنوثة طابعية ، فلم تحتمل أن تظل فى جلستها ترصد حركات عينيها ، خطر لها أن تقبض من الرمل قبضة ، ثم تلقى بها فى وجهها ، لتعمى هذه العيون التى سلبت راحتها ، وحركت مخاوفها . فراحت تقبض على الرمل فى حركات عصبية ، ولسكنها لم تجرؤ على انفاذ ما يحول فى رأسها .

ومدتها غيرتها بفكرة ، فنهضت وسارت ثابتة الخطو ، حتى إذا بلغت مكان الفتاة ، جلست أمامها ، وحجبت بظهرها عينيها ، خالت بينها وبين رؤية اللاعبين اللاهين عن كل ما يجرى حولهم ، فقد ركزوا اهتمامهم فى الكرة !

أدارت سهام رأسها ، ورنات من فوق كتفها العاجى تبترق النظر ، فألفت الفتاة قد شخصت ببصرها إلى اتجاه آخر ، فأحست راحة ، وانقشعت مخاوفها ، ولاح الرضا فى وجهها المعبر ، فقد كان مرآة صافية يـكس فى وضوح انفعالات نفسها . وجلس على وصفية يتناجيان ، كان النسيم اللطيف يداعبهما ، ولولا القلق النابت فى جوفهما ، لأنعش الفؤاد ، قال على وجفناه يرتجفان :

— يريد أن يلتحق بالطيران ، وإني أخشى عليه ، والله يا صفية إني حائر .
قلبي لا يطاوعني إذا فكرت في نصحه . ليهجر هذه المسكرة ، يعز علي أن أحطم
بيدي أمانيه ، وقلبي يعذبني كلما فكرت في أنني أدفعه إلى الهلاك بيدي ، الطيران
لا يزال خطرا ، فلماذا تهون عليه روحه ، ويرمى بنفسه في نار المخاطر ! ليته يقلع
عن هذه المسكرة من تلقاء نفسه ، فلو أنه فعل لأراحني من العذاب الذي أقاسيه .

فقلت صفية ، وهي تلتقي ببصرها إلى البحر الساجي :

— لن يهود عن فكركه ، أنني أعرف خالدا .

— لا أدري ، لماذا تمتلئ المخاوف في جوفي .

— خير ما نفعله أن ندع أمورنا لله ، فهو صاحب الأمر ، يصرفنا كما يشاء .

وأقبل قريب لهما ، فصاخبهما ، وجلس يحادثهما ، ولم يستطع على أن يشد
مخاوفه ، أو يطوى صدره على قلقه ، فأقبل على الرجل يناجيه :

— يريد خالدا أن يلتحق بالطيران ، وقلبي لا يطاوعني .

فقال الرجل في فزع :

— الطيران ؟ لا . لا . لا .

فقلت صفية في عجب :

— ولماذا لا يذهب إلى الطيران ؟

فقال الرجل في حماسة :

— لا أقبل أن يقتله بأيدينا ، أما قرآنم الصحف ؟

فقال علي في رهبة :

— لا . وماذا في الصحف ؟

— سقط علي أبو المسعود بطائرته وقتل .

وران صحت عميق ، وانقبضت صفية ، وأخذ قلب علي يخفق في جوفه كجنح
حمامة ، ودثرته رهبة ، وانبثقت منابع الخوف تغذي مخاوفه ، وضايق صفية أن
تستسلم للأوهام ، فقلت في نبرات قوية :

— الأعمار بيد الله !

خيل لعل أن ما قالته صفية شيئا جديدا ، فإذا بالعاثاة المسدلة على عينيه
تتهتك ، وإذا بالقلق الهابط بصدرة يتبخر ، وإذا بالمخاوف المتلبدة في جوفه
تنقشع ، وإذا بإعانه يرتد إليه ، فيثلج صدره ، فيغمغم في راحة :

— حقا . الأعمار بيد الله !

٧٨

تأنق جلال وذهب مرفوع الرأس ، يرقب عناف في خيلاء ، كان على ثقة
من أن أناقته ستستولى على لبها وتبهرها ، وراح يلتقي الألفاظ الشعرية الرقيقة
التي سيسكبها في أذنيها ، ليوقظ كوامن الإعجاب في نفسها ، فهو يفرحه أن يرمى
ومضات الإكبار في العيون ، وإن نظرة وله به ، وبسمة حب من أنثى ترضيه ،
وتنزل به بهجة ، يرقص لها قلبه طربا .

وبلع شارع محرم بك ، فراح يقطعه رشيقا يتلفت ، كان يرجو أن تقع عليها
عيناه بين الفتيات الداهيات إلى الدور للغداء ، وأن ينطلق معها يسايرها ، يعرض
عليها لباقته وأناقته ، وانساب أسراب الفتيات في الطريق ، وهو يتفرس في
وجوهن ، ولم يعثر عليها ، فبدأ قلق ينبت في جوفه ، خطر له أنه قد لا يراها ،
فاستشعر ضيقا ، أحزنه أن يبالغ في أناقته ، وأن يسرق من ملابس أخوته خير
ما عندهم ، ثم يعود دون أن تراه .

ومر الوقت وهو يتلفت وأحس تعباً يدب في أوصاله ، ولكنه لم يقنط ،
فهو إذا كان لم يرها في ذهابها ، فسيراها في إيابها ، واستمر يقطع الشارع وعيناه
في وجوه الفتيات تتجول ، وبدأت الفتيات يعدن إلى الشارع زرافات ، حان
وقت أوبتهن إلى العمل بعد الغداء ، فدب فيه الأمل ، ورفع يده يصلح رباط
عنقه ، والمندبل الأبيض البارز من جيبه ، واستأنف بحثه في نشاط .

وخفت الرجل في الشارع ، اختفت العاملات في المحال وفي الدور ، يتأهبين
لاستقبال الحرفاء الوافدين في الأصيل ، بعد أن تحبوحدة الشمس ، ويهب النسيم ،
وظل جلال في تجواله يحفف عرقه ، الذي كاد يفسد أناقته .

ومر بمقهى على ناصية الطريق ، فدلف إليه وجلس يستريح ، ويرقب مرور
الزمن ، فقد عقد العزم على لقائها ، فإذا كان قد أخفق في مقابلتها في الظهر ،
فلن يخفق أن يجدها في المساء .

وراح الوقت يمر وئيدا وئيدا ، وبدأت الشمس في الاحتضار ، فعادت إليه
آمال جديدة ، وما أيسر أن تفرخ آمال الشباب ، وطفق يفكر فيما يفعله حتى

لا تفر من عينيه ، كما فرت في الندو والرواح ، فاهتدى إلى أن خير ما يفعله أن يقف عند رأس الطريق لا يتحرك ، يفرز الفتيات .

وأرعى الليل غلالة رقيقة سوداء ، كان ينفذ من خلالها ضوء النهار الذي لم ينسحب بعد من الحركة المتجددة كل يوم ، بين الليل والنهار ، فغادر جلال المقهى ، ووقف على ناصية الطريق إرسادا لعفاف .

وراح الليل يرعى غلالة فوق غلالة ، حتى ساد الظلام ، فأضيئت المصابيح والأنوار ، وسقطت الأضواء الخافتة على وجوه الفتيات ، فزادت من فتنة ، أثرت في نفس جلال ، وأمدته بخيالات جديدة شاعرية ، زادت رغبة في لقاءها ، ليسحبها أعذب مناجاة .

ولحها قادمة ، تتثنى في دلال ، فأشرق وجهه ، وخفق قلبه ، ورفع يده يصلح رباط عنقه ، وهب يخف إليها ، يستقبلها في بشاشة ، ولكن سرعان ما أربد وجهه ، وانقبض قلبه ، واستشعر غضبا ، لم تكن مقبلة وحدها ، بل كانت قادمة وقد تعلقت بذراع فتى ، ليس أوسم منه ، ولا تقارن أناقته بأناقته !

خفق قلبه حزنا ، حتى خطر له أن يرتكب حماقة من حماقته ، فكفر في أن يتقدم إليها يصاحفها ، ثم يعاتبها على إقبالها في مياعده في رفقة شاب آخر ، ولكن قبل أن يستجمع شجاعته لينفذ هذه الوسوسة ، كانت قد اقتربت منه ، فارتبك ، وركز كل همه في أن يلفت نظرها إليه ، ليرميها بنظرة ازدراء .

ومرت بجواره ، حتى كاد كتفها يلمس كتفه ، ولكنها ازورت عنه ، فلم تتلاق العيون ، فتعطل العتاب والازدراء ، خفق وتصاغت نفسه ، فأطرق ذليلا ، وسار في خطا ثقيلة ، ترهقه أفكاره .

ورفع رأسه برغمه ، ينظر إليها وهي تمايل في رعونة ، فامتلاء أسي ، كان يطمح في أن يسير إلى جوارها يناجها ، وقد شبك ذراعه بذراعها ، فإذا به يسير خلفها ، وهي تتعلق بذراع آخر ، ينعم باهتمامها وإعجابها !

وضايقته أفكاره ، ونالت من كبريائه ، فراح ينفذ السير متبرما ، ثائرا على نفسه ، لاستسلامها لذلك الهوان ، وإن خير ما يفعله أن ينسى ما جرى ، ويعجو آثاره من نفسه ، ولكن كيف ينسى أنه أهين ، وكيف ترضى كبرياؤه هذه

الجروح ، دون قصاص ، فلن يجو ما لحقه من عار إلا أن يرد لها الإهانة صاعا بصاع ، ولطمة بلطمة ، فما كان ممن يزدرد الإهانات .
ودخل فراشه لينام ، ولكن لم تغمض له عين ، ولم ترحمه هواجسه وأوهامه ، فصار يتقلب تقلبه على الجمر ، طعن في غروره ، فنبت عنه الراحة ، وجفاه الاطمئنان ، فلجج في قلقه وأرقه ، يفكر في أن يذيقها الإذلال ، ويمرغ أنفها في الرغام ، ليسترد ثفته بنفسه التي كادت تزعزع ، ويعيد إلى ذاته هيبتها ، فما أمر أن تهون نفسه على نفسه .

وقر رأيته أن يخرج في البكرة ، يتصد قدومها ، فإذا ما قابلها وأهداها على اللقاء ، إنه لا يطمع إلا في أن تلبى دعوته مرة ، وهو على ثقة من النتائج بعد ذلك ، ستعلق به ، وتحببه ويشفقها غراما ، وبعدها سيعرف كيف يثار منها ، ويرضى غروره ، وينفتح في كبريائه ، فكل ما ينبغي أن تسقط في شباكه .

وانقضى الليل وهو في تقلبه ، وقد توافدت إلى رأسه أفكار وأفكار ، وجرت على مسرح ذهنه حوادث وأحداث ، لو قدر لواحدة منها أن تبرز على مسرح الواقعية ، لشمخ بأنفه ، يدق في جوفه أناشيد النصر ، وأهازيج الظفر .

وبزغ الفجر ، وانداح في السماء الضوء الفضي الوليد الواهن ، فلم يهر ضوء الهلال المتألق في الزرقة الصافية ، ولم يطق جلال صبرا حتى تشرق الشمس ، فقام من فراشه يرتدى ثيابه وفي صدره قلق ، وتجهز للخروج ، ولكنه لم ينطلق من توه حائقا ثائرا ، بل ذهب إلى المراة ، ووقف يديم إليها النظر ، ليطمئن على أناقته !

انساب في الحارة مع باعة اللبن ، والصمايدة الخارجين للعمل من شروق الشمس حتى غروبها لقاء ما يمسك الرمق ، والصيادين الناهيين إلى البحر يعتمدون على الحظ في رزقهم ، وكان بهؤلاء أشبه ، فهو خارج للصيد ، كل اعتماده على حظه ، وإن تباین الهدف !

ووقف على محطة سيارات قريبة من شارع محرم بك ، فهي تقبل في سيارة من هذه السيارات العمومية من بيتها إلى عملها ، التقط ذلك من حديثه معها على الشاطئ ، ولكنه لم ينجح في أن يعرف مقر عملها ، أو محل إقامتها .

كانت الساعة الخامسة والنصف ، وعلى الرغم من ذلك كان يصعد كل سيارة تمر به يبحث عنها بعينه ، ثم يهبط حين لا يجدها .
وصل الوقت ، ودبت الحياة في المدينة ، وأقبلت السيارات وقد تسكدست ، فكان البحث عنها عسيرا ، ولكنه لم يقنط ، ولم يستسلم ليأسه ، بل ظل في صعود وهبوط دون أن يتسرب إليه ملل ، أو يفكر في الارتداد على عقبيه .
وكادت الساعة تكون الساعة ، وراح عقرب الدقائق يجد في سيره ، وجلال يجد في تنقيبه ، وتصرفت ساعتان وهو يتفرس في وجوه ركاب السيارات ، وأخيرا لمحا جالسة ، فحفر قلبه ، وخف إليها ، وقعد إلى جوارها وهو يهمس :
— صباح الخير .

فرمته بنظرة منكرة ، ورمقه في دهش ، كأنما لم تره قبل الآن ، فلم يززع ذلك ثقته ، وراح يهمس :
— انتظرتك بالأمس ، واسكنك أخلفت اليعاد ، وهذه خصلة سيئة لأحبا .
ولاح على شفيتها شبح بسمة ، وأسبلت عينيها في دلال ، كأنما تخشى أن يقرأ فيها شيئا تحب أن تخفيه عنه . وشجعه ذلك على الاسترسال :
— سأنتظرك اليوم ، في المساء ، ولا تحاولي أن تفرى مني ، أو تأتي معك . .
وصمت قليلا ، لم يشأ أن يفرها ، ورأى أن يغير ذلك الحديث ، فقال :
— اسمعي . إذا عزمت على شيء فما من قوة في الأرض تقف في سبيل إنفاذي له ، وعلى الأخص إذا كان ذلك الشيء مقابلة فتاة . وقد قررت أن أقابلك الليلة .
فقال له :

— سأقابلك في الواحدة بعد الظهر .
وبلغت مقر عملها ، فنهضت ، ونهض معها ، فقالت له :
— أرجو ألا تهبط معي . . . إلى اللقاء .
وابتسمت له ، وهبطت وهي تتمايل وتنثني ، وهو يرمقها من خلف الزجاج راضى النفس ، حتى غابت عن عينيه .
ووافت الواحدة بعد الظهر ، وهو راibus ينتظرها ، ولكن انقضى الوقت ولم تظهر عفاف ، فحنق ، وزاد في حنقه أنه ما جاء إلا لإذلالها ، انتقاما لكرامته ، فإذا بها تدله ، وتسفك دم غروره بغير حساب .

سعيد يجلس منشرحاً في سيارة فاخرة إلى جوار ابن خالته ، ابن الباشا ،
السيارة تنهب طريق « الكورنيش » ، والهواء يهب من البحر رخاء ، ينعش
الأفئدة ، ويوظف المشاعر الرقيقة الحاملة ، فأسبل سعيد عينيهِ منتشياً ، كأنما
يخشى أن تفر منه السعادة الطارئة ، ولم يفتن إلى وجه ابن خالته العابس ، الجالس
خلف عجلة القيادة .

وقطع على سعيد سلسلة تصوراتهِ الرقراقة الصافية ، صوت ابن خالته الأَجَشْ ،
الذي كان أقرب إلى خفيج الأَفْصَى ، قال :

— متى نزيك في زوج خالتك يا أختي ؟

وزفر في ضيق ، فانطلق زفيره محموماً مقبباً ، يقطر سما ، فالتفت إليه سعيد
مذعوراً ، وقد اتسعت عيناه دهشاً ، فما دار بخلفه يوماً أن يتمنى ابن موت أبيه
وأن يضيق بحياته ، وأن يتمجل وفاته ، إنه يحب أباه من كل قلبه ، بكل جارحة
من جوارحه ، على الرغم من أن أباه لم ييسر له حياة هنية رغدة ، كما وفر الباشا
لأبنائه تلك الحياة الناعمة المترفة .

وفطن ابن الباشا إلى نظرات الدهش والإنكار المصوبة إليه ، فقال في زراية :
— أباي عجيب في تحصيل المال ، وفي كسب بغض كل من يتصل به ، إنه ناجح
في كل شيء ، حتى تنفير الناس منه . نجح في أن بث في قلوب كل من في بيتنا
الكراهية والحقد ، كل واحد منا يشتهي أن يزول الآخرون من طريقه ، أن
ينهبوا . . . أن يختفوا . . . أن يموتوا .

إننا أسرة متسافرة عجيبة ، أسرة متحفزة متريثة على مضض ، كلنا نترقب
اللحظة الفاصلة لنثب كالجياح على الأكلة الدسمة ، إننا نصبر كارهين ، وما أكثر
ما نضيق بالصبر فنثور ، وتهيج عواطفنا المقيتة ، فنتراشق بالسباب تراشق الأعداء
بالسهام القاتلة .

إننا متباغضون ، لا يربط بيننا إلا إحساس واحد ، هو خشيتنا أن يطول
انتظارنا ، لماذا لا يموت ؟ ! وما قيمه حياته ؟ ! إنه حارس على أموالنا ، فلماذا
لا يذهب الحارس ، إذا كان من يحرس لهم أموالهم لا يريدون ، ويمقتون حراسته ؟ !

لا تنظر إلى هكذا في دعر ولا تنزع ، فلن تخيفني نظراتك ، كفاني الرياء
الذي نحيا فيه في البيت ، حياتنا كلها نفاق في نفاق . أريد أن أنفس عن صدى
ما يكرهه ويضنيه ، وأن أتكلم مرة في صراحة ، وأن أقول كل ما أريد ، فإنني
أخشى إن كتبت حقيقة مشاعري أن انفجر ، أن أموت كذا ، وما أريد أن أموت
قبل أن يموت .

وصمت قليلا ، ثم قال وهو يهز رأسه في استخفاف :

— حتى أمي قسا قلبها وتحجر ، تحسب أن كل من فزع إليها يلتمس عونها طامع
فيها ، ينبغي أن يسلبها نفودها ، هدفه أن يفقرها ، بلغ بها الأمر أن تتحزز منا ،
وأن تصرخ فينا أننا نريد سرقتها ، فوأت في أفئدتنا بصيص الحنان الذي كان
يبدد بعض الظلمات المتراكمة في نفوسنا طبقات بعضها فوق بعض ، إننا نعيش
على أمل واحد ، أن يأتي ذلك اليوم الذي تتحطم فيه سلاسل استرقاقينا ، وأن
يعيش كل منا بعيدا . . حرا . . طليقا . . إنه أمل حاو . . ولكن أخشى
ما أخشاه أن يطول ترقبه ، ويطول ما نحن فيه .

ووقفت السيارة أمام محل فاخر من محال الحاوي ، وهبط ابن الباشا ، وبقى
سعيد في السيارة يتلفت ، وهو يعجب من أمر ابن خالته الذي فتح عينيه على
دنيا كريهة ، دنيا تافهة ، ما كانت تخطر على باله ، كان يعتقد — لحداثة سنه
وحماسته — أن الناس يكافون بأيديهم ليصنعوا أنفسهم ، وما كان يفكر أن هناك
ناسا ؟ لا هم لهم في الحياة إلا ترقب موت قريب ، ليكونوا شخصيتهم المستقلة ،
وفكر فيما كان يفعل لو كتب عليه أن يكون من هؤلاء الناس فامتعض ، وترجم
عن امتعاضه بأن التفت إلى الطريق وبصق .

ولمح في الطريق عربة « نقط » يجرها حمار ، ويقود الحمار شاب يعرفه ،
إنه ذلك الطفل الذي كان يخط في الحارة خطا بالجير الأبيض ، ويأمر طفلا آخر
أن لا يتجاوزوه وإلا نكل به ، وفي مثل لمح البصر قفزت إلى ذهنه حوادث ذلك
اليوم الذي ثار فيه على ذلك الاضطهاد ، وحطم فيه ذلك الذل ، فرفت على شفثيه
ابتسامة ، وتدفقت في جوفه مشاعر الود ، فهبط من السيارة ، وانطلق إلى الشاب
يصاحفه في حرارة ، ويحادثه منشرحا ، وإذا بصوت ابن خالته يناديه :

— سعيد . . سعيد .

فعاد يصافح الشاب في شوق ، وذهب إلى السيارة ، وما إن جلس في مكانه حتى قال له ابن خالته في زراية .

— من هذا ؟

فقال سعيد متلجلج الوجه :

— صديقي ، زميل من زملاء الطفولة .

وانطلقت السيارة ، وكل منهما يفكر في ذلك التافه الجالس إلى جواره !

٨٠

خاله ينطلق في الحارة في ثيابه العسكرية ، ينظر إلى حليلة الثابتة في جلستها ، وإلى الخربة التي تكدست فيها القمامة ، وصارت مشتلا للذباب والحشرات ، وإلى البيوت العتيقة المتداعية فيستشعر امتعاضا ، إنه يحن إلى هذه الحارة ، ويذكر أيام الصبا فيها ، ولكن صار يضيق بقذارتها ، ويتمنى أن تمسحها يد الإصلاح فتبدو في حلة قشبية ، جذيرة بمستقبله ، إنه يفكر في أن يشتري يوما سيارة ، فكيف يدخل بها هذه الحارة ؟ وقد يأتي لزيارته زميل ، فيالسوء الأثر الذي ستركه في نفسه .

وخطرت له فكرة الشارع الجديد ، ولاحت لخياله كلمة لزيد ، فراح يجري وراء أوهامه ، سيطل بينهم على الميدان الفسيح ، الذي تتوسطه نافورة رائعة ، وتربض به السيارات الفاخرة ، وتقف سيارته بينها ، وكاد يستسلم لتصوراته اللذيذة ، ويتبنى فكرة الشارع الجديد ، كما تمنها أب له من قبل ، ولكن الحقيقة الراهنة لطمته ، مرت عربة الرش إلى جواره ، فسكادت تنلف له ثيابه ، فهبط من سموات الخيال إلى الأرض ، وقد علا وجهه الأسمر عبوس ، بعد أن فرت أثار الرؤى العذاب .

ودلف إلى بيت صديقه حامد ، ووقف أمام باب الشقة يطرقه ، وفتح الباب وإذا سهام في ثوب أزرق ، محاولة الشعر ، يبدو وجهها ناصع البياض بين هالة سوداء ، فلما رآته ابتسمت عيناها ، وانبسطت أساريرها ، وقالت في ترحيب :

— أهلا وسهلا . تفضل .

ومدت له يدها فصاخبها ، وسارت أمامه مرحلة تفسح له الطريق ، حتى قادته إلى غرفة متواضعة ، فلما جلس جلست بالقرب منه ، ترنو إليه في الشراح ، فقال لها :

— أين حامد ؟

— سيقبل في الحال .

وساد الصمت قليلا ، ثم قالت سهام في رعونة :

— ماذا في إصبعك الأصفر ؟

عجب خالد في نفسه ، عجب لفطنتها إلى العاهة التي أصيب بها في إصبعه ، صافح مئآت البشر ، ولم يفطن أحدهم إلى ما به ، حتى درية لم تكشف ذلك ، وإن كان يترك يده في يدها مدة ، وقال في هدوء :

— ضربني عليه ذات صباح مدرس بالحيزرانة ، فتعقد منذ يومها ، وقد أقسمت في ذلك الوقت أن أنتقم منه مهما طال الزمن ، لأنه ضربني دون سبب .
فقال سهام وهي تبتمس :

— أتبر بقسمك لو قابلته الآن ؟

فقال خالد في جد :

— والله لو قابلته لأضربنه ولا أتركه حتى أخلف به عاهة ، كان فظا لا يستحق الرحمة ، آه . . لمتنى أقباله .

ملأ السرور عينها السوداوين ، وانفرجت شفتاها عن أسنانها النضيدة ، وأشرق وجهها الذي كان أقرب إلى وجوه الأطفال ، وهزت رأسها طربا ، فراح شعرها السبط الأسود ينوس في رعونة محببة ، وقبل أن تسترسل في حديثها ، دخل حامد ، وأقبل على خالد يحويه ، وغرقا في الحديث ، وهي ترقبهما بمنشرة .

وتصرم الوقت ، ثم نهض خالد وهو يقول :

— لن أتمكن من رؤيتك قبل مغربي ، لأنني مسافر في الصباح الباكر :

فقال له حامد :

— مع السلامة ، نراك في المرة القادمة طيارا .

وصافح سهام وهو صامت ، فقالت له :

— نرجو أن نقرأ عنك في الصحف كثيرا .

ورنت إليه رنود ، لو كان ممن يفهمون لغة العيون لكان تفسيرها عينا ، كانت تتوسل إليه أن لا ينقطع سيل رسائله ، ولكنه لم يفهم شيئا ، وقال في غبطة :

— تتبعوا صفحة الألعاب الرياضية .

وخرج ، وراح يجد في السير إلى البيت الكبير ، وقد نسي كل ما قالته سهام ، فقد مشغل بالتفكير في درية ، احتلت صورتها أفطار رأسه ، وعبثت عيناها الزرقاوان بأوتار نفسه ، فهقا روحه إليها ، إن قلبه يخفق في حنان كلما فكر فيها ، فهو يهواها وإن لم تلاحظ ذلك الهوى ، وتغمره نشوة كلما كان في مجالها .

اشتعلت نار حبه وتوهجت لما رأى أنه صار قريبا منها ، إن هي إلا سنوات قليلة ، ثم يصبح طيارا ، ويتقدم لخطبتها ، وهو على ثقة من أن خاله لن يرفض مصاهرتة ، كما رفض ابنيها لما تقدم لخطبة أختها الكبرى .

ودخل على جدته يصافحها ، فرحبت به ، ودعته إلى الجلوس عندها ، ولكنه لم يلب دعوتها ، فما جاء يسامرها ، إنه جاء ليرى درية ، فذهب يتقب عنها ، كان إذا أراد شيئا هدف إليه ، لا يحيد عنه ، ولا يدور حوله .

وألفاها جالسة ، وقد ارتدت ثوبا أبيض انتثر فيه ورود حمر دقيقة ، كان منسجما مع بياضها وصفرة شعرها ، وزرقة عينيها ، فأبرز جمالها ، فرماها بنظرة خاطفة والهة ، خفق لها قلبه ، وذهب إلى امرأة خاله ، وصافحها في ود ، ثم عزم إليها وحياتها في حرارة ، وجلس يتحدث ، بهم في عوالم من الخيال تلتذ لها روحه ، وتفتتح لها نفسه .

وهجم الليل ، وهو ذاهل عن الزمن الذي كان يتسرب ، وأقيل خاله ، واشترك في الحديث الدائر دون رابطة أو ضابط ، وفطن خاله إلى مرور الزمن ، فقام مستأذنا ، وقال وهو يصافحهم :

سأُصافِر غدا صباحا .

فَقَالَتْ امْرَأَةٌ خَالَهُ :

— مَعَ السَّلَامَةِ .

وَلَمْ تَنْبَسْ دَرِيَّةً بِكَلِمَةٍ ، وَانْصَرَفَ رَاضِيَ النَّفْسَ مِنْشَرِحًا ، تَزُودُ مِنْهَا قَبْلَ
مَسَرِّهِ ، وَخَيْرَ الزَّادِ نَظْرَةٌ مِمَّنْ خَفَقَ بِجَبْهِ الْقَوَادِ .

٨١

جَلَّالٌ عَلَى مَحْطَةِ « الْأَتَوَيْسِ » يَتَرَقَّبُ ، يَصْعَدُ فِي كُلِّ سَيَّارَةٍ مُقْبِلَةٍ ، وَيَفْرُزُ
الرَّكَّابَ بَعِيْنِيهِ فِي الْحِظَّةِ ، ثُمَّ يَهْبِطُ انْتِظَارًا لِسَيَّارَةٍ أُخْرَى قَادِمَةٍ ، وَأَرْسَلَتِ الشَّمْسُ
أَشْهَتَهَا الْأَوَّلَى إِلَى السَّكُونِ ، تَهَيَّبَ بِالنَّاسِ أَنْ اسْتَيْقِظُوا ، وَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ ،
وَسَيَّرُوا فِي مَنَازِلِهِمْ ، فَعَجَبَتِ الطَّرِيقَاتُ بِالسَّكَادِحِينَ ، وَالْمَامِلِينَ وَالْمُبْتَغِينَ مِنْ
فَضْلِ اللَّهِ ، وَاللَّاهِينَ وَالْمَاثِينَ الْمُنْتَظَرِينَ عَلَى مَحَاطِ التَّرَامِ وَالسَّيَّارَاتِ لِلذَّهَابِ
إِلَى أَعْمَالِهِمْ ، أَوْ تَرَصَّدَ الْفَتَيَاتُ الرَّائِحَاتِ الْغَادِيَاتِ .

وَلَمَحَ عَفَافٌ ، فَأَشْرَقَ وَجْهَهُ بِابْتِسَامَةٍ ، وَسَرَّهُ أَنْ لَحَظَهَا تَبَتُّسَمَ لَهُ ، فَشَجَّعَهُ
ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَنْهَبَ إِلَيْهَا يَصَاحُفَهَا ، وَيَجْلِسَ إِلَى جَوَارِهَا يَحَادِثُهَا :

— صَبَاحَ الْخَيْرِ .

— صَبَاحَ النُّورِ .

وَلَمْ يَعْائِبْهَا عَلَى مُوَاعِدَتِهِ لَهَا وَعَدَمِ حُضُورِهَا ، لَا يَرِيدُ أَنْ يَنْقُضِيَ الْوَقْتَ
فِي عِتَابٍ وَخِصَامٍ ، فَكُلُّ مَا يَبْغِيهِ أَنْ يَلْقَاهَا ، لِيَسْتَرِدَّ ثِقَتَهُ بِنَفْسِهِ ، وَيَرْضَى غُرُورَهُ
قَبْلَ أَنْ يَبْرَحَ الْإِسْكَانَ دَرِيَّةً ، فَمَا كَانَ يَحِبُّ أَنْ يَغَادِرَهَا مَهْزُومًا ، فَقَالَ لَهَا :

— أُرِيدُ أَنْ أَقَابِلَكَ اللَّيْلَةَ .

فَقَالَتْ لَهُ وَهِيَ تَسْبِلُ عَيْنَيْهَا فِي إِغْرَاءٍ :

— آسَفَةٌ لَا أَسْتَطِيعُ .

وَكَيْتَمَا أَرَادَ أَنْ يَرْفُقَ قَلَمَهَا ، فَقَالَ لَهَا :

— هَذِهِ آخِرُ لَيْلَةٍ لِي هُنَا .

فرمته في دهش متكلف ، ووسمت عينيها ، ورفعت حاجبها ، وقالت له :

— حقا ؟ وأين تذهب ؟

فقال في اعتداد :

— إلى القاهرة ، لألتحق بالجامعة .

فقالت له في نفقة ، بدت لأذنيه غريبة ، ولكنه لم يعرها انتباهه :

— هذه مناسبة تستحق الوداع .

فقال ليفريها بلقائه :

— ربما لا أراك قبل مرور سنة .

فقالت وهي تميل عليه في إغراء :

— لا . ستراني الليلة .

فقال مستبشرا :

— متى ؟

— في الساعة مساء .

وأراد أن يستوثق منها ، فقال :

— احلفي

— والله ، والنبي ، وأبي العباس .

وبلغت مهبطها فنزلت ، وسارت تترجرج ، وهو يرنو إليها ، تصدح في جوفه

موسيقى أعذب من تلك الموسيقى التي تنميل عفاف على نغماتها كلما سارت أو تلفنت .

وراح جلال يعد ساعات النهار ، ولم يطق الصبر على الانتظار ، فما وافت

الساعة الواحدة ، حتى كان على ناصية شارع محرم بك ينتظر مرورها ، ولحها

مقبلة في رفقة شاب ، فتدفقت الدماء حارة في عروقه ، وثارت كرامته ، ودارت

الأرض به ، وكبح عواطفه ، وانصرف مهموما حزينا ، ولكن لماذا يحزن ،

وهو الخطيء ، واعدته على اللقاء في الساعة ، فلماذا يأتي في غير الميعاد ؟

وفسك في أمره . فاهتدى إلى أن خير ما يفعله أن لا يذهب في الساعة ،

سينال منها تخلفه ، ويعيد إليه ثقته التي كادت تقتلع من نفسه من جذورها ،

إنها فكرة طيبة ، ولكن غروره لفظها ، فما يرضيه أن يقنع من الغنيمة بالإياب ،

أن يرضى حتى ينتصر عليها نصرا كاملا مؤزرا .

وفي الساعة السابعة كان يذرع شارع محرم بك في قلق ، يسير خطوة
ثم يتلفت ، كان يخشى أن تتركه — كهاتما — لنفسه نسومه ذل الاضطهاد .
ولحها قادمة ، خفق قلبه ، واجتاحته موجة من السعادة ، ودب النشاط فيه ،
فخف إليها منتشيا ، وزاد في غبطته همود قلقه ، أنت أخيرا ، ولاحت لهيئته
تباشير الظفر .

صاحفها في شوق ، وسار إلى جوارها خطوات ، فالتفت إليه وقالت
في دلال :

— آن لنا أن ننصرف .

فرنا إليها في دعر وقال :

— ماذا ؟

فمالت وهي تحرك رأسها في طيش :

— جئت لأودعك قبل سفرك ، ولأنني أقسمت ، وأحب أن أبر بقسمي

ومدت له يدها تصافحه قبل انصرافها :

— مع السلامة ، وإلى اللقاء . أراك بخير .

فقال لها وهو لا يسكاد يصدق :

— إلى أين ؟

— مدعوة لسهرة ، ذاهبة إلى السينما .

وغادرت وسارت ، وتركته وهو حيران ، لا يدري أجبأت حقما لتودعه ، أم كان
لقاؤها محض مصادفة ، وأنها كانت تدبر أمر فرارها منه ! ترى ، أحزرت أنه ماجاء
إلا لينال منها ، فسارعت هي إلى النيل منه ؟ ! ترى أتسير أم ترقص ؟ !

٨٢

أصبحت صفية كثيرة السهوم ، كثيرة التفكير ، سافر خالد إلى أبي صوير ،
ليلتحق بمدرسة الطيران بالجيش البريطاني ، والتحق جلال وسعيد بالجامعة ،
ذهبوا يجدون خلف آمالهم ، وبقيت هي في دارها تدبر تحقيق هذه الآمال ،
إن ليبيا يبعث إليها في أول كل شهر بما يستطيع أن يستقطعه من مرتبه ، وزكرايا
يضع في يدها كل ما يصل إلى يديه من نقود ، فهو يكافح صابرا ليدعم مركزه
كمحام ، وما كان يرضى أن يظل طويلا من الخاملين ، وأصبح لخالد مرتب ينفق
أقله على نفسه ، ويرسل باقيه إلى أمه ، لتدفع منه جزءا إلى إستاورو ، ذلك الشيخ
اليوناني الكريم ، الذي تكفل بمصروفات خالد في الحربية ، وتركه إلى ميسرة ،
وتحتفظ بجزء تنفقه في حرص على الأسرة التي تعددت مطالبها .

فكرت في جلال وسعيد ، فاستشعرت قلقا . أصبح عليها أن ترسل لها
في أول كل شهر ستة جنيهات ، يدفعان منها إيجار الشقة ، وينفقان منها على
طعامهما ، ويشتريان منها كتبهما ، إنها تحس أن ذلك المبلغ لن يمكنهما أن يعيشا
في يسر في غربتهما ، وهي على ثقة من أن أية زيادة تدفعها ترهقها ، فملاها الهم ،
وطافت بها موجة من القلق استسلمت لها .

وعجبت من نفسها ، ما بالها ترجف من الغد ، بعد أن زادت موارد رزقها ،
وكانت تنظر إلى المستقبل في أحلك أيامها نظرة مفعمة بالأمل ، كانت تكافح
مستبشرة يوم أن كان كل دخل الأسرة قروشا قليلة يأتي بها على آخر النهار
ويضعها في يدها ، فلا تكاد تملؤها ، فما بالها ترجف إذا فكرت في أبنائها ولبيب
وزكرها وخالد يمدونها بأموال تسد حاجتها ؟ !

أحست ضعفا في روحها ، ووهنا يدب في أوصالها ، وموجات من التشاؤم
تغمرها ، فلا تسجلى عنها إلا بعد أن تخلف في نفسها رواسب من القنوط والقلق ،
قنوط لا تدري مبعثه ، وقلق لا تعرف له علة .

وأرادت أن تعيد الهدوء إلى ذاتها ، فراحت تسخر من مخاوفها ، تقضت
أيام الشقاء ، فما عاد لها رجعة ، وشع الأمل ينير للمسالك المظلمة ، وانفجرت

شفاه المستقبل عن بسملة مشرقة عذبة ، وكادت تركز إلى ما توجيه إلى نفسها
من طمأنينة وأمن ، وليكن شاخت روحها بعد ذلك الكفاح الطويل المرير ،
ونفسه معين حماستها ، فصارت فريسة هينة لخاوفها .

وخطر لها حسان وهو يحاول أن يخفي فيه يده ، حتى لا تشم رائحة الخمر
الذائخة من فيه ، فانتفضت ، كانت تشفق عليه كلما قدمت إليه طعامه ، أو ناولته
نقودا ينفقها على شرابه ، وكانت مشاعر الحنان تغمرها ، فباتت رؤيتها له تصبح
مخاوفها ، فما يدريها أن القدر سيحالف أبناءها ، ولن يكسر لهم عن أنيابه ويغدر
بهم كما غدر بهمهم ، فماذا فعل حسان حتى يصبح طريدا شريدا ؟ !

ودخل عليها يحيى ، وهى شاردة اللب ، فى يده صحيفة مسائية ، وقال :
— سقط خالد بطائره .

دق قلبها دقات فزع ، وغاض لونها وشعب ، وانسمت عيناها رعبا ، وارتجفت
وأجست الأرض تميد بها ، وروحها تنساب من بين جنبها ، وحاولت أن تصرخ ،
نستفسر عما حدث ، ولكنها لم تجد لسانها ، حتى دموعها تحجرت فى مقلتها ،
وفطن يحيى إلى ما اعتراها ، فقال لها يطمئنها :

— سقط بطائره ولم يصبه مكروه .

وغمغمت فى رعب :

— أبى .

— انه بخير والله ، سأقرأ لك الخبر .

وانشر الصحيفة بين يديه وراح يقرأ :

« سقط الملازم الثانى خالد على يونس بطائره أثناء تدريبيه بأبى صوير ، وقد

تخطت الطائرة ، ونجا الطيار ولم يصب بسوء »

وعرفت الدموع طريقها إلى عينيها ، فسالت عبراتها ، ثم رفعت رأسها إلى
السما ، ولم تتحرك شفتاها بكلمة ، كان قلبها يتهل إلى الله فى حرارة أن يوقى
أبناءها السوء ، وأن يحفظهم ، ولا يرميها فيهم مكروها .

٨٢

ماجت العرفة بالرجال والعلماء والنسوة والفتيات - وراح بعض « الثيران » يتجادبون أطراف الأحاديث عن العنابر ، وذكريات السهرات الصاخبة ، وجلس في ركن بعيد سليمان ويحيى يتناجيان في همس ، فسليمان يروى للصبي قصص الأزواج والزوجات في تفاصيلها المغرية ، ويحيى يصغى إليه في لهفة ، فقد كان يجد في الإنصات إلى ابن عمته لذة ، كانت تفاهاته ومبالغاته أحب شيء إلى نفسه ، فكان يقضى أمسيته إلى جواره . متفتح النفس ، يتلقى منه وحيه ، فتتحرك فيه الشهوة الطاغية .

وجلس سيد منطويا على نفسه ، لا يشترك في الأحاديث الدائرة ، فهو لا يفكر إلا في ذاته ، إنه ضيق الصدر بعمله ، برم به . فما يحى منه إلا قروشا قليلة . وهو يشتهي الغنى ، فكل أمانيه تبنى على عمود من المال ، وهو يحلم بثروة هابطة ترفعه من عالم الضيق البغيض ، إلى عالم رحب مشرق ، مفعم باللذة . وأخذت عزيزة وزهيرة وأخوانهما يتحدثن ، فقالت عزيزة في صوت عال ، وهي تنظر إلى الفتيات الجالسات ناهدات الصدور :

— لم يعد في الدنيا رجال ، ماتوا . . ذهبوا .
ورن صوتهما في العرفة ، فالتفت الجميع إليها ، وقال سيد :

— لننحن هههنا .

فقالت له عزيزة وهي ترفع حاجبها :

— يا عار الرجال لماذا لا تنزوج ؟ بارت الفتيات وهن ينتظرن الثيران من أمثالك .

ورأى سليمان الفرصة سانحة ليغيظ أخاه ، فقال :

— لو كان رجلا لتزوج .

فثار سيد ، وقال في حنق :

— ييا بن الككلب

ونظر إليه أبوه ، وفي عينيه ابتسامة ، وأرادت زهيرة أن تشير الجدل ، لتتناثر المهاترات ، وтираشق الجميع بالسباب ، فترضى نفسها المتعطشة إلى نهش أعراض الناس ، فقالت :

— والله لا أدري يا سيد لماذا لا تتزوج ؟
فقلت ابنة خالتي التي غارلها ذات يوم في الطريق :
وهل يتزوج من كان مثله ، يكفيه أن يسير وراء الفتيات يغارلهن : « يبييا
قعممر . . . يبييا غغغزال . . . »
فأنتجرجر سيد صائحاً :
— يبييا أولاد الككلاب .
فقال سليمان :
— اهتدأ ، وقل لنا : لماذا لا تتزوج ؟
فقال سيد وهو ينظر إلى أخيه شزرا :
— لأنني للمست غغغلا مثلك ، الزواج يحتاج إلى مال . . . للئن أتزوج
قبل أن أصبح غغغغنيا .
فقال سليمان صاخراً :
— إذن ستتزوج في الجنة ، إن شاء الله ، في الجنة ونعيمها .
— سسأصبح غغغغنيا فقريباً .
ومد يده في جيبه ، وأخرج ورقة « يا نصيب » ، ورفعها إلى فمه وقبلها ،
ثم قال :
— سسأ كسب يوما ، وبعمدها أتزوج ، لا أرضى أن أأعيش فقيراً ،
ووأموت فقيراً ممثلاً لهذا المغفل .
وأشار إلى سليمان ، وصاحت عزيزة في زراية :
— يا وكسة . . . يا وكسة . . . يا وكسة !
فضاق باستخفافها ، وصاح وهو يغادر الغرفة :
— يبييا مجانين . . . يبييا أولاد الككلاب .
وخشيت زهيرة أن تخمد النار المشبوبة بعد خروجه ، فأسرعت تحركها :
— إذا كان سيد يهرب من الزواج لأنه فقير ، فلماذا لا يتزوج زكريا ، وقد
صار رجلاً يقدر أن يجري على أسر .
كانت عزيزة تكافح في سبيل كبح زمام لسانها ، لأنها كانت تطمع في أن

يتزوج إحدى بناتها ، ولكنه لم يفتحها في ذلك ، ولم يلمح إليه ، بل هو يلج في
البعد عنها بعد تخرجه ، ويبدى النفور ، فاستحق أن تطلق فيه لسانها ، وقالت :

— يستطيع زكريا أن يحوز امرأة ، حتى يسقط على امرأة غنية .

فقابلت زهيرة في نفاق :

— حرام !

فقال عزيزة في تأكيد :

— يا خوفي من شباب اليوم ، كلهم يفعلون ذلك . لو كانت صفيّة عاقلة

لماتركت أولادها يبيتون بعيدا عن عينيها . من يدري ماذا يفعلون هناك وحدهم !

وأرھفت زهيرة لتشف أذنيها بما تتأهب عزيزة لسرده ، ولكن ثورة يحيى

لإخوته حرمتها هذه اللذة ، فقد هب منفصلا ، وصرخ فيهم :

— يا مجانين ، يا أولاد الكلب .

وخرج حائقا ، وقد ترك خلفه وجوما على الوجوه ، ورهبة في القلوب ،

بانوا يخشون أن ينقل يحيى ما حدث إلى أمه فتغضب ، كانوا جميعا على الرغم من

بذاءتهم يهابون صفيّة !

٨٤

انطلق جلال وسعيد في شارع تحت الربيع يتلفتان ، كان الشارع يدوى نكّلية

تحل ، رجال في جلابيب بيضاء وزرقاء في غدو ورواح ، ونساء في ملاءات سود

يتهاقن على دكاكين العطارين ، وسيارات متباينة تمرق في الزحام ، وحمير وبغال

تدق بحوافرها الطريق ، وأصوات المقاطع التي تعمل في الرخام تنبعث حادة ،

وتتمزج بالفضضاء الصادرة من المسارة والعربات والسيارات والسيدات ،

وحوافر الدواب .

ووقف جزار على باب حانوته وفي يده خرطوم يرش به الطريق ، يتفادى

في مهارة أن تبطل أفواج البشر المتدفقة في غزارة ، كما أنما نفخ في الصور ، ونشر

من في القبور ، أو أرتال السيارات المنسابة في جنون ، أو قوافل البغال والحمير

التي تنهذى في وقار ، لا تحفل بالزمن ، ولا تأبه بالعالم المجلان الأرعن ، الذي
يعلمو مسعورا يتعجل نهايته !

واهتديا إلى المنزل الذي سينزلان فيه ، كان خاشعا متواضعا ، يكاد يحجر ساجدا
من الوهن الذي يسرى فيه ، إنه يرتعد إذا مرت بجواره سيارة ، ويرتجف إذا
هبّت ريح ، وتصطك شبائيك ، التي مدت طول عمرتها للعجدران ، ففكرت في الهجر
والانفساك من الرق الذي طال .

ورث الحاج كرم ذلك المنزل عن أجداده ، وورثه عن الحاج كرم أبائوه ،
إنه شهد التاريخ ، ومن يدري فقد يكون قد اشترك في صنعه ، فاعله كان في أيام
شبابه منزلا لملوك من الممالك ، أو مأوى لجماعة من الثائرين الخائفين المطالبين
بحرية الشعوب ، إنه يطوى في صدره المنهوك سره ، ويفتح بابه مرحبا بالوافدين .
وأدار سعيد عينيه في المسكان ، فألقى النبار يتراكم طبقات بعضها فوق بعض .
فوضع حقيبته ، وخلع ثيابه ، وتأهب ليزيل عن الدار غبار السنين ، تناول مكنسة
وراح يكنس ، وأتى بماء وبدأ ينظف ، وانهمك في عمله ، ووقعت عيناه
على جلال ، فألقاه جالسا ينظر إليه في استعلاء ، فاغتاز وصاح به :

— قم وشاركني في تنسيق الغرفة .

— لا . لا يجوز لمن كان في مثل مركزى أن يقوم بتوافه الأعمال .
فرماه سعيد بنظرة قاسية ، وقال في استخفاف :

— وما الذي يفعله من كان في مثل مركزك ؟ وما مركزك هذا ؟
فقال جلال وقد شمع بأنفه .

— إننى طالب فى الحقوق ، إنها أربع سنوات ، ثم أصبح بعدها وزيرا .
فقال سعيد فى استخفاف :

— لقد هزات !

— أرجو ألا تسخر منى ، جميع الوزراء زملائى ، كلهم من خريجي الحقوق .
واضطجع فى جلسته ، فرماه سعيد بالمكنسة وصاح :

— والله إن لم تعمل بيدك هنا كل شيء ، وتسر على نفسك ، لتوتن جوعا
قبل انقضاء الأربع السنين .

- فقال جلال مفزوعا :
— إننى أحتمل أية منية ، إلا الموت جوعا .
وتذكر الطعام ، فقال :
— من ذا الذى سيجهرز لنا طعامنا يا سعيد ؟
— سنجهرزه بأيدينا .
— لا . إننى لا أطيق مثل هذه العيشة .
— وماذا ترى أن نعمل ؟
— أن نبحث عن طاه .
— طاه ؟ أنت محنون ؟
— فقال جلال فى هدوء :
— لماذا جئنا إلى هنا ؟
— لنتحقق بالجامعة ؟ لنبنى مستقبلا ، وفى سبيل هذا المستقبل كل
شئ يهون .
— انفقنا .
— على ماذا اتفقنا ؟
— على أن نبحث عن طاه ، لأن الدروس لن تدخل رأسى إذا لم أملك
بطنى بطعام شهى لذيذ ، تريد أن تحتفظ بأجر الطاهى ، ولكن معنى ذلك أن
أرسل فى الجامعة ، ويذهب تعبنا هباء . وتضيع فى الهواء الأموال التى يرسلها
إلينا أهلنا .
— وخرجنا يبحثان عن طاه ، يعد لهما طعامهما ، ويفتن فيه ، لتدخل الدروس
رأس جلال ، وجاءا بطاه لم يرض عنه جلال ، لأنه أخفق فى إعداد صنف طلبه
منه ، وجيء بثالث وثالث ، ولما دخل الرابع المطبخ ، قال جلال لأخيه
وهو يحاوره :
— دعنى أختبره .
قال جلال للرجل وهو يرنو إليه فى استكبار :
— نريد أن تصنع لنا اليوم صينية كنافة .

وجاء الرجل بالكنافة والسمن والفسق واللوز والسكر ، وراح يبالغ في
العناية بصنع الصينية ، وجلال يرقبة متعذب الريق ، ويجاهد نفسه التي توسوس
له أن ينسب الفسق واللوز في جوفه ، ووضع الرجل الصينية على النار ، وأخذ
جلال يغدو ويروح يتعجل الملاحظة الحاسمة ، ومر الوقت بطيئا ، وجلال في ذهاب
وإياب ، وأخيرا وضعت الصينية أمامه ليصدر حكمه ، فراح ينهش منها متلذذا ،
ودخل عليه سعيد ، فصاح به :

. — اطمئن ، إنها أربع سنوات فقط ، ثم أصبح بعدها وزيرا !

٨٥

خرج يحيى في سكون الليل وقابل زميله في الدراسة ، الذين راعدهم
اللقاء ، وانطلق على الكورنيش ، يملأ رئتيه بهواء الليل المنعش ، فتزداد نفسه
تفتحها ، كان ذاهبا لأول مرة في حياته إلى ملهى ليلي ، فكان جوفه مسرحا لقلق
لديذ ، فالانطلاق إلى شيء أشهى من الوصول إليه .

ودلفوا إلى المكان ، فراح يقلب عينيه فيه كالخالم ، أنوار خافتة ترهف
المشاعر ، وأخونة متناثرة جلس إليها شبان وشابات ، وموسيقى واهنة تناغى
الحواس ، واحتلوا مائدة ، وطفقت عيناه تتجولان في أنحاء المكان وهو نشوان ،
كلما وقفنا على فتاة ، وقفنا برهة تتمليان الحسن ، وتتمان بالجمال ، كان يجد في كل
امرأة شيئا يستحق الإعجاب .

وغمرته النشوة ، فالتفت إلى زميله وقال :

— ما أروع المكان !

فقالا له في لهجة العارف :

— انتظر .

أحس كأنه يعيش في عالم من الرؤى والتخيلات ، رجال في ثياب نظيفة ،
ونساء كاشفات عن صدورهن ، حتى بدت الأخاديد الغائرة بين النهود ، مغربة ممعنة
في الإغراء ، كانت المشاهد جديدة لعينيه بعد أن اعتادت رؤية الحارة والحربة ،

ونتهى التهادية ، وسليمة في ثوبها الأسود قابضة أمام الدار ، وقد عبث الزمن
بصفحة وجهها ، غلبت فيه تجاعيد وغضونا ، ومسح بيده على شعرها الأسود ، فما
تركه إلا أنصاع من القطن المفروش ، والنجرو في قميص الخيش ، وقد استطالت
لحيته وتبرت ، واسترسل شعره ، وتدللت على صدره سمبخته الضخمة ، التي كانت
حبات من الخشب تزيد التندارة في حجبها على مر السنين !

أين هذه النسوة المتألمات من هباته وبناهن اللأئي كن في جناف السجر !
خطر له اللحظة ، وهو في غمرة النشوة ، أن عزيزة وزهيرة وثريا وزينب
وحميدة ونبيلة رجال في ثياب الحريم ، أو لهن أعمدة جاء بها جده يونس من
السكة الحديد !

وانبعثت موسيقى راقصة ، وأطفئت الأنوار ، وأضيئت أنوار المسرح ، وهو
يتلفت ، فأحس أحد زميليه يلكزه بكوعه فنظر ، فرأى على المسرح فتاة شبه
عارية غارقة في الضو ، تتثنى ثنى الفصن الرطيب ، وما إن رأى اللحم الأبيض
حتى تدفق الدم حاراً في عروقه ، وغاب عما حوله في غيبوبة من النشوة ، وجعل
يتطلع إلى مفاتها وقد فتر فاه ، يكاد يلتمها بعينه .

وأبدل الستار ، وصفق مع المصفقين ، ثم التفت إلى زميليه وقال :

— مكاني هنا كل ليلة .

فابتسم زميله ، وقال أحدهما :

— لا يأتي إلى هنا كل ليلة إلا الوارثون . من أين لك أجر الدخول ؟

ولم يشأ أن يمكر صفو السهرة ، فلم يسترسل في التفكير ، إنه الليلة هنا ،
في الجنة ، وهذا يكفيه .

وترادفت المشاهد ، وتتابعت الرقصات المثيرة ، وتدفقت الدماء حارة في
العروق ، وطافت برأس يحيى القصص التي يرويها له ابن عمته سليمان عن الأزواج
والزوجات ، فإذا به يحس حنيناً غريباً إلى الرقصات ، فيقول لزميله :

— لماذا لا تأتي واحدة تجلس معنا ؟

فقالا له .

— إنهن لا يجالسن المفلسين من أمثالنا

رقصت السهرة ، وانصرف الناس ، وبقي يحيى واقفا ، فقال له زبيبة :
— ماذا تنتظر ؟

— أريد أن أراهن خارجات .

— وما الذى تستفيد ؟

— أخرجن وحدهن أم أخرجن مع من قضين معه السهرة ؟

— إنهن غالباً يهربن من المنفلين .

— لم أشته الغفلة قبل الليلة ! لئلا كنت أحد هؤلاء المنفلين .

وانصرفوا ، ويحيى صامت يحلق فى عالم من الرؤى العذاب ، وبلغ الحارة
وانساب فيها ، لا يرى شيئاً مما حوله ، كان غائبا فى أفكاره ، وراح يصعد
فى الدرج وإذا بالنشوة تطير وتتركه لقلق ، فهو يعود فى الثانية بعد منتصف
الليل ، وهو يخشى مقابلة أمه ، ودخل يسترق الخطأ ، ورأى صفية منتحبة
فى وسط الردهة ، تخفق قلبه ، ودثرته رهبة ، وانسل من جوارها صامتا ،
وكم كانت دهشته أنها لم تعنفه ولم تنهره ولم تنبس بكلمة ، فذهب إلى فراشه
وما إن أسلم جنبه للرقاد ، حتى راح يسبح فى حالم وردى من الرؤى العذاب .

٨٣

لمحت صفية أخاها مصطفى مقبلا فى الحارة لزيارتها ، فخفت تنتظره عند باب
شقتها ، وصعد مصطفى فى الدرج ، وصوت ترحيب أخته به يرن فى أذنيه ، فهى
تحب إخوتها ، وصاحته وقد أشرق وجهها بابتسامة ، وظل وجه مصطفى جامدا
عابسا عليه غيرة ، ودافا إلى غرفة متواضعة ، ولكن كل ما فيها نظيف مرتب ،
وجلس مصطفى وقالت له صفية :

— من أين جئت ؟

فقال ضيق الصدر :

— من القاهرة .

فقالت فى حنان :

— أرايت جلالا وسعيدا ؟

وأقبلت عليه تترقب أنباءهما خافقة القلب ، ولكنه قال في صوت غاضب :

— ما جئت إلا لأشكوهما إليك .

وانقبضت وأنصت ، وقال مصطفي :

— لم يكتفيا أن ينزلا في بيتنا ، دون أن يدفعها إيجار الشقة ، بل راحا يدعوان أحبابهما إليها ، وجدت عندهما صديقا ودراجته ، كأنما قد أصبح فندقا أو حظيرة للبهائم ، إنني لا أدري لماذا لا يعرف أولادك حدودهم !

وسمت برهة ، وصدره يملو وينخض من الانفعال ، وصفية مطرقة تحس سياطا تلهب روحها ، فما بال إخوتها يساورون أبناءها مساورة قاسية مريرة مقبته ، ماذا فعل أولادها حتى يستحقوا كل هذا التقريع ؟ والتقط الخال نفسه ، واستأنف هجومه ، قال :

— الذنب كله يقع عليك ، أنت التي نفخت فيهم ، قاسيت الحرمان وأرسلت بهم إلى الجامعة ، من في أسرهم أو في أسرنا دخل الجامعة ؟ انظري إلى نفسك كيف أصبحت ، صرت خيالا . أنت في آخر الأمر الخاسرة ، لو أنهم اشتغلوا بأيديهم لما أصبحوا رجالا ، كما اشتغل جدودهم قبلهم ، لكان لك دخل موفور ، ولما بقيت في هذه الحارة حتى الآن .

مصنوك وإن تستفيدي منهم شيئا ، غدا يتزوج كل منهم وينشئ له بيتا ويتركوك هنا ، في هذه الحارة وفي هذا البيت .

أنت في حاجة إلى أن يعولوك ، أن يعاونوك ، لا أن تحرمي نفسك لتنفقي عليهم ، هذا حرام ، أنت لست مكافئة هذا ، ولكني أعود فأقول إن الذنب ذنبك . وظلت صفية تصفي إليه صامتا ، وإن كان صدرها جياشا بالعبارات الثائرة ، ولو أفلت منها زمام أمرها ، وطاوعت شيطانها ، لانفجرت فيه : « إنني ضحيت من أجلكم ، فماذا جنيت منكم ؟ نسكرانا وجعودا ، ومقباتا لفلذات كبدي وذوب نفسي ، إنني أضحي في سبيل أبنائي فهم أولى بتضحيتي منكم . زورت في سبيل إنقاذكم ، وعرضت نفسي للعقاب ، فماذا كان جزائي ؟ بعت نصيبا من ميراثي وأعطيتكم إياه ، فماذا كان جزائي ؟ تنازلت لكم عن نصيبي في المحل ، فماذا كان جزائي ؟ كان جزائي أن رفضتم تزويج ابني من ابنتكم ، ثم زوجتموها لمن لا يفضلها

كان جزائي أنك اليوم تهيرني أن أولادى نزلوا في بيتكم دون أن يدفعوا إيجارا ، وما كان ذلك البيت يدر عليكم إلا بضعة قروش ، كأن ما فعلته لكم أحقر من أن يقدر بتلك القروش . عيبكم أنكم تذكرون ما يفعله الناس لكم ، ولكنكم تذكرين ما تفعلونه للناس ، ولو كان أندر من حسنات إبليس .

لم تنبس بكلمة ، وظلت صامتة مطرقة ، تقاسى من أخيها الذى لا يرحم ، ومن نفسها التى تصرخ بها أن تشور لكرامتها وكرامة أبنائها التى تهدر دون حساب . وهب مصطفى واقفا وقال :

— لو كنت أعرف أنك تستمعين للنصح ، لقلت لك اسجى سعيدا وجاللا من الجامعة ، وشغلها هنا بجوارك ، ولكنى على ثقة من أنك لن تستجبنى لنصيحى ، لذلك أقول لك : ابغى إليهما أن لا يدعوا أحدا من أصدقائهما إلى بيتنا ، وأنتى لا أريد أن أرى هناك دراجة أو حمارا ، فما كان بيتنا مأوى الأفاقين والبهائم . وغصت صفية ، ولاح في وجهها الأسى ، ولكنها كانت تغالب شعورها ، كانت تخشى أن يظهر حزنها على وجهها . فتبىء إلى أخيها ، الذى لم يكتم بهدر كرامتها ، بل جزر إنسانيتها ، كانت كل عاطفة فيها تئن وتدعى أمفا وحزنا . وراح يربط في الدرج ، وهى تقول له :

— مع السلامة .

وقد ارتسم على شفيتها ابتسامة باهتة ، تخفى مرارة النفس . وخيبة الأمل .

٨٧

أجساد الراقصات اللدنة تتجاذل لذهن يحى ، فى أوضاع مغرية ، يخفق لها قلبه ، وتتدفق دماؤه حارة فى عروقه ، وتستبد به رغبة الذهاب إلى الملهى ليطفىء ظمأه ، وكانت صورة راقصة بهيئها تطفو على سطح ذهنه ، وتعابث خياله ، إنها فنجية ذات البشرة البيضاء . والجسد الذى تسرى فيه السكران إذا اهتز أو تنثنى أو مال

طاف بالملهى أكثر من مرة ، ورنأ إليه من بعيد ، ثم نكص على عقبيه وهو حسير ، لم يكن معه ما يدخل به ، فانطلق على السكور نيش والأجسام التربة تنثنى كالأشباح فى رقعة السماء ، وعلى سطح الماء ، وفى الفضاء ، فيدهم بالحنين والرغبة .

وبلغه أن صاحبة الملهى مريضة ، فألنى نفسه يشكر فى ذلك ، وأمدته رغبته فى التردد على الملهى بشكرة ، فراح يقبلها ويقامها ويهذبها ، حتى إذا اطمأن إليها ، نام مليء الجفون .

فلما أصبح الصباح ، ذهب إلى المدرسة مبكرا ، وقابل زميليه وقال لهم :
— جاءنا الفرج .

فنظروا إليه فى تساؤل ولم تتحرك شفاههم ، وقال :

— صاحبة الملهى مريضة .

فقال أحدهما مائخرا :

— هل أوصت لنا « بالكازينو » إذا ماتت ؟

قال يحيى فى حماسة :

— فكرت فى أن نشترك فى شراء طاقة ورد وريحان ، ونذهب لزيارتها ،

وبذلك تتوطد بيننا وبينها الصداقة ، فيفتح الكازينو لنا أبوابه .

ورمقاه فى إعجاب ، وقال :

— فكرة .

وجمعوا كل ما معهم ، فكان بضعة قروش ، ثم غادروا المدرسة ، وانطلقوا إليها ، كان عسيرا عليهم أن يتلقوا العلم وصاحبة « الكازينو » مريضة ، ولو أن فسكرة الإضراب لأوهى الأسباب كانت قد ذاعت بين الطلبة ، لحرصوا طلبة المدرسة على الإضراب ، والخروج لعيادة المريضة .

وانطلقوا ، يحيى يحمل طاقة الورد ، ويردد على أسماع زميليه ما سيقوله ، وهما يسيران إلى جواره يصغيان إليه ، وفى جوفهما نشوة ، وبلغوا دارا فخمة ، لم تكن دارها ، بل كانت دارا لموظف كبير يعطف على الفن والفنانات .

واستأذنوا فى الدخول فأذن لهم ، وانسابوا يتلفتون فى ذهول ، طنافس فاخرة تغوص فيها الأقدام ، وروائع من الفن منتثرة هنا وهناك ، وصحائف فنية تسحر الأبواب ، والترف تبدى فى هيئة رياش ، وسجف أرخى فانتشرت الظلال ، فزادت فى روعة المكان ، ولو كان يحيى يسير بين هذه الروائع وحده ، لا تنفض فرقا ، ولحيل له وهمه أن التحف ستنقض عليه من خلفه تحطفه ، وتكتم منه الأنفاس ، ولكنه كان ينطلق خلف خادم نوبى طويل ، وقد التصق به زميلاه .

ودلفوا إلى غرفة رحيبة ، بها سرير فخم تمددت فيه الفتاة الشابة ، كانت
الغرفة تحفة بهوت الفنان ، وكاد يرتج عليهم ، ولكن يحيى لم أطراف شجاعته ،
وتقدم صوب السرير ، ومد يده بطاقة الورد المتراخمة ، وهو يقول :

— والله لقد آلمنا مرضك ، ففكرنا في أن نأتي إليك ، نسبر لك عما تكنه
لك قلوبنا من حب وتقدير .

وتناولت الطاقة منه ، وقد مس شعور الصبيان وترى في قلبها . تجشم هؤلاء
الأبرياء الصغار مشقة الامتناسار عنها ، لا يدفعهم إلى ذلك إلا حبهم الطاهر لقلبها ،
فالتفت إلى الخادم النوبي وقالت :

— ضع هذه الورود هنا ، بالترب منى .

وأقبلت عليهم متفتحة النفس ، تصنى إلى إطرائهم لها مسرورة ، وبزبد
سرورها يقينها أن ذلك الثناء ينبعث من قلوب سليمة ، بريئة من الهوى
والأغراض ، قلوب صافية لا تعرف الرياء .

ومر الوقت لطيفا ، انتشت بالمديح التي كان ينسكب عذبا في أذنها ،
فيدغدغ حواسها ، وفرحوا بالجلسة الشاعرية التي جلسوها ، وبما قدم إليهم من
حلوى ومرطبات .

وهموا بالانصراف ، فقالت لهم تؤكد حديثها :

— الكازينو يرحب بكم في الليل وفي النهار ، يسرني أن أراكم دائما .

وغادروا الغرفة وقلوبهم ترقص طربا ، نالوا بغيثهم ، وفتح الملهى لهم أبوابه ،
بعد أن خدعوا الغانية ، وعبثوا بعواطفها ، تلك التي لا تعرف في الحياة إلا خداع
الناس ، والعبث بعواطفهم واللعب بقلوبهم

٨٨

خالك يقود سيارته منشرح الصدر ، فقد مدد لذلك الشيخ اليوناني الكريم المبلغ الذي فتح له أبواب الحياة ، ووفر بعض الجنيهاً اشترى بها هذه السيارة ، التي أدخلت على قلبه البهجة ، وغرست في صدره شجرة الأمل ، كانت فكرة شراء سيارة أمنية تداعب خياله ، فإذا به يجد أن الوهم قد يتحقق ، وأن الأيام كفيلة بأن تبرز إلى دنيا الواقع الآمال والأحلام ، فاسترسل في التخي ، وراح يجرى بخياله وراء الرؤى المذاب .

ودلف إلى الحارة التي طالما ذرعها على قدمية في الليل وفي النهار ، في الصيف وفي الشتاء ، دخلها لأول مرة في سيارته التي اقتناها ، فأحس قلبه يرقص فرحاً ، كان يدخلها ظافراً ، يروى في انطلاقه بداية قصة نجاح .

ورقف أمام باب الدار ، يعتمد أن يطلق بوق السيارة ، كأنما يهتف بالجير أن ينظروا ، وهبط منها جذلان ، فألقى حليمة تنزو إليه وعيناها بالبشر تأتلق ، فزادت غبطته ، وحياتها في رقة ، وغاب في الدرج .

وأسرع الصبيان إلى السيارة ، هذا يمرر يديه على مصابيحها في حنان ، وذلك يعث في مقابض الأبواب وآخر يقنع بالجلوس على سندها ، ورابع يطعم في أن يطلق بوقها ، وخامس لا يرضى إلا إذا قادها ، فيصعد إلى أدوات قيادتها يعث بها ، ويحس حليمة أنها أقرب كل هؤلاء من صاحب السيارة ، فتقوم تنهر الصبية ، وتكفكفهم عنها .

وفي مثل لمح البصر انتشر في الدار أن خالداً اشترى سيارة ، ففتحت الشبايك ، وأطلت منها رؤوس تنظر ، أحست عزيزة غيرة ، كانت تشتهي أن يكون صاحب هذه السيارة ابناً من أبنائها ، ونفست عن المشاعر التي تمور في صدرها بصياحها ، طنقت تسب أبناءها وبناتها ، وتصرخ فيهم لأنفسه سبب وبلا سبب .

ونظرت زهيرة ، قانقضت ، وراح الحسد يرعى في جوفها ، وينش قلبها ، استشعرت ناراً تسرى في أحشائها ، ولم تستطع أن تدارى عواطفها ، فلاح

في وجهها الكمد ، ومات الرياء ، فلم تنبس بكلماتها الناعمة ، التي تسد لها الشقوق مشاعرها البشعة ، الجوالة في كهوف ضميرها .

وأطلت صفية من عليائها . وكان خالد إلى جوارها ، فإذا بسمه رضا تتوج شفيتها ، وإذا بها تجمجم بهيات الحمد التي تحفظها ، ولكن ما كانت تحسه في تلك اللحظة ، تقصر الكلمات عن أن تعبر عنه ، فإذا بها ترنو إلى السماء صامتة ، كأنما تترك روحها تهيم في العالم العاوي ، تسبح بترانيم الشكر والحمد والرضا .

ولم يطق خالد البقاء في الدار ، فلما جاء إلى الإسكندرية في أجازة قصيرة ، ليكث بين الجدران ، إنه يريد أن يمر بسيارته على أصدقائه ، ليشعرهم أنه صار من زمرة الرجال الذين يستطيعون أن يفتنوا سيارة ، فهبط وقد خطر له أن يمر على صديقه حامد ، فذهب إليه ودعاه إلى نزهة على الكورنيش معه .

وركب حامد إلى جواره ، وركبت سهام خلفهما ، وانطلقت السيارة في الحارة ، وخرجت تتلمس طريقها إلى الكورنيش . وسهام منتشية غارقة في النشوة ، تثرثر دون أن تتدبر ، تتحدث على سجيئها ، فكان حديثها كله يدور حول خالد . قالت وهي تقترب من المقعد الأمامي :

— أفزعنا مقوطك بالطائرة ، لقد قرأنا الخبر في الصحف أكثر من مرة ، هل لنا استشف شيئاً بين سطورهم . ولكن النبأ كان مطمئناً .

وصمتت قليلاً تنعم بالنسيم الذي يداعب وجهها ، ويعبث بشعرها الفاحم ، ثم قالت :

— كيف سقطت بك الطائرة ؟

وراح خالد يقص قصته ، وهي تصيخ إليه ، تستشعر حديثه لذة ، خيال إليها أنه يناجيها ، فجعلت ترنو إليه مسحورة ، تنتشر في صدرها غبطة ، قال :

— سمعت صوت المحرك يتغير فجأة ، اتضح به ذلك النشاز الذي يطرأ على اللحن المنسجم ، فاعتراني خوف ؟ وراحت الطائرة تهوى ، وسرعان ما شعرت كأنما حواسي قد تخذرت ، وكأنما عقلي قد كف عن التفكير ، لم ألهع ولم أفزع ، ولكن استسلمت لما تأتى به المقادير .

وارتطمت الطائرة بحقل ، وسارت على الأرض مندفة ، واعترضتها قناة ، فإذا بها تقفز من فوقها وتجتازها ، كأنما أوتيت حظاً من الذكاء ، وإذا بها

نستقر على جنبها ، وذهبت منها سليا هادئا ، ولكن ما إن فكرت فيما حدث ،
بعد أن نزلت قدمي الأرض ، حتى دار رأسي ، وراح قلبي يدوي في جوفي ،
وشعرت بشيان ، وأحسست كأن رجلي لا تفويان على حملي ، وكدت أسقط ،
فأرأيت لطلب الله لسكنت من الهالكين .

وصمت قليلا ثم قال :

— أرواحنا معلقة بخيوط أرواح من خيوط العنكبوت .

وتشعب الحديث ، وراحت سهام تديره جذلاقة ، تفرها مسعدة ، كانت
تخس بقرية أنها تشفيح تفتح الورود ، إذا بللها ندى الربيع .

وعادوا إلى الحارة مع الغروب ، ووقفت السيارة أمام الباب ، تنتظر نزول
خاله ، فقد صمد يتناول بعض الطعام قبل أن يستأنف تجواله ، وذهابه إلى البيت
الكبير ، إنه يحن إلى رؤية درية ابنة خاله ، ويحب أن يتحدثها عن سيارته ،
وهو يتحدث عن آماله ، تخيله يربط بينه وبين درية ، كلما هام يستشفي المستقبل
المجهول .

وأقبل إلى الدار سيد وسليمان ، وما إن رأيا السيارة أمام الباب حتى اضطربا ،
وأسرعت الهواجس والخاوف إلى صدرهما ، فلما وقفت سيارة أمام بيتها أبدا
إلا إذا مات أحد ، وجاء الطبيب يفحص عنه قبل التصريح بدفنه ، فقال سيد
في قلق :

— أأنتسمع صصوانا ؟

فقال سليمان في اضطراب :

— لا . ترى ماذا جرى ؟

فقال سيد وقد اتسعت عيناه فزعا :

— ففهمت . . . ففهمت .

— ماذا فهمت ؟

— إانتشر في البيت ووباء . . . ممرض . . . ففجاء الطبيب يحميهم كلهم إلى

المستشفى .

كان سعيد لا يمشي على أحد قدر خشيته على نفسه ، فدار على حنينا ، وولى
فرارا .

فقال له سليمان :

— إلى أين ؟

— لالمن أدخل هذا البيت أبدا . لست مجنوننا لأذهب إلى الموت برجلي .
وراح يهرول مفزوعا ، فرارا بنفسه من شبح الموت ، الذي يزلزل كيانه
إذا طاف برأسه ، أو ذكره به أحد .

٨٩

رفع سعيد الكتاب عن وجهه ونظر ، فأربد وجهه وفاردمه في عروقه ،
ووضع الكتاب ثائرا ، وذهب إلى جلال حانقا ، ولطمه على وجهه ، ثم جذب
من فمه السيجارة التي أشعلها ، وألقاها على الأرض ، وداسها بقدمه وهو يزأر :
— لا تظن أنني أتركك تفسد هنا ، لأننا بهيئون عن البيت .

تصاغر جلال ، ولو أنه كان الأكبر ، وقال معتذرا :

— أردت أن أستمع بالتدخين على استدكار دروسي .

فقال سعيد في حدة .

— ما أظلمك لدروسك ، تستمع بالأكل على فهمها ، وتستمع بالتدخين
على استدكارها ، ومن يدري بماذا تستمع غدا على تشيتها ، أنفقنا الكثير على
شراء الكتب ، ولا أظن أن ما يبقى معنا يساعدك على فهم دروسك كما تشتهي ،
واستدكارها على طريقة منك ، أرجو منك أن تفهمها كما يفهمها الناس ، وأن
تستدكرها دون تدخين .

ورفع سعيد الكتاب ، واستأنف دراسته ، وساد الغرفة سكون ، ومر الوقت
وهو مكب على القراءة ، وسرى الملل في نفس جلال ، ودب التعب في أوصاله ،
وصار يقرأ دون أن يفقه مما يقرأ شيئا ، ففكر في أن يطوى كتبه ، وأن يذهب
إلى فراشه يستريح ، ولكنه ألفي سعيدا عاكفا على كتبه ، فوآد الخاطر الذي

ولد في رأسه في أوانه ، وراح يقرأ وهو يرهق أعصابه ، فيستشعر ألما في أعماق ضميره ، وتحمله ، فقد عزم على أن لا يكون أول من يلقي كتابه .

دار رأسه ، وتراقصت الحروف أمام عينيه ، وكاد ينوء من الجهد الذي يبذله ، ولكنه لم يتزعزع عما قرره ، فما كان يهتم بمصلحته ، فكل ما يهمه رأى الناس فيه ، فهو لا يقبل أن يظن أخوه أنه تقاعس عن استذكار دروسه ، أو قصر في واجبه .

ووضع سعيد كتابه ، وقام يتمطى ، فأحس جلال راحته ، ولكنه لم يضع كتابه ، بل ظل ينظر إليه دون أن يرى من حروفه شيئا ، وقال سعيد :
— ألا تنام ؟

فقال جلال في زهو :

— نعم أنت ، فما يزال أسمى بعض العمل .

وما وضع سعيد رأسه على الوسادة حتى راح في سبات عميق ، فنهض جلال وارتدى في قراشه بخدار منهار ، وراح يخط في نومه ، وسرعان ما ارتفعت الشمس ، فقام سعيد وطفق يهز جلالا ويصيح :

— جلال . . . جلال قم . لن تلحق المحاضرة الأولى .

ونهض جلال ، في وجهه إرهاق ونصب ، وارتدى ثيابه مسرعا ، وانطلق إلى الجامعة ، وأخذ مكانه في المدرج ، ورأسه يدور ، وأقبل الأستاذ ، وتدفقت العبارات كالأمواج يتبع بعضها بعضا ، وجلال شارد لا يفكر في شيء ، كان كل ما يحسه أن رأسه خواء أجوف .

وارتفعت في المدرج صرخة حادة ، وانهار جسم على الأرض ، إنه طالب مصاب بالصرع ، فارتجف جلال وفزع ، وصار يتجأى أن يلتفت إليه ، كان يحس في أعماقه أنه يريد أن يصرخ ، ولكنه كان يجاهد أن يكبت الصرخة المدوية في أغواره ، وغطان إلى أنه إن مكث في المدرج لحظة ، فسيسقط مفشيا عليه ، فانسёл مضطربا ، وغادر المدرج مرعوبا ، وخرج إلى الفناء الواسع ، وراح يحيل عينيه في الأشجار الباسقة ، والخضرة الزاهية ، ويستنشق النسيم الذي راح يهب رخاء ، فسكنت الطمأنينة قلبه ، ورد إليه هدوءه .

وعاد إلى المدرج ، واستقر في مكانه ، وإذا ببصره ينجذب إلى ذلك الطالب الذي صرخ ثم سقط ، وإذا به ولاهم له إلا مراقبته ، فعاد إليه اضطرابه وقلقه . وانتهى اليوم الدراسي ، وقفل راجعا إلى البيت ، ووضع الطعام ، فازدرد لقيحات ، ثم قام ، فقد عافت نفسه الطعام ، وأنكره أخوه ، فقال سعيد في قلق :
— ماذا بك ؟

— لا شيء .

وقلق سعيد ، فقد لاحظ في وجه أخيه شجوبا واضطرابا ، فقال له :
— اذهب إلى فراشك ونم ، ولا تجهد نفسك .
واندس جلال في فراشه ، ولكن لم ترائق له عين ، جافاه النوم ، وخاصة السهاد .

٩٠

كان الوقت ضحى ، الطلبة في مقاعد الدرس ، يصفون إلى أساتذتهم ، وقد لاح في وجوههم الاهتمام والنصب ، عكفوا على الاستذكار والانتباه ، وحملوا على أنفسهم ، وحملوها فوق ما تطيق ، لأن امتحان آخر السنة قد دنا ، فراحوا يعمدون جاهدين ، ليدوضوا عما فاتهم في أول السنة .

وفي ذلك الوقت كان يحيى وزميله في « الكازينو » يقومون بتجفيف الفتيات الأغنيات ، وأدوارهن في المسرحيات القصيرة التي تمثلها الفرقة ، وجدوا في جهل الفنانات القراءة فرصة تقرهن منهن ، وتربط بينهم وبينهن الأسباب ، وتوطد أقدامهم في الملهى .

وأقبلت فتحة في ثوب بسيط يبرز جمال تكوينها ، كانت منسجمة الأعضاء ، ذات عينيّين واسعتين سوداوين كعيون المها ، ووجهها ينطق ببرادة ، كان أقرب إلى وجوه الأطفال ، وتغرها يفتت دائما عن لؤلؤ منظوم ، وكان كل رأس مالها خصرا دقيقا ، وصدرها ممتلئا ، وساقين كأنما خرطتا من مرمر .

وتقدمت إلى المسرح ، وراحت وهي في ثوبها تهز أكتافها وأردافها ، وترفع صدرها وتميل برأسها ، فيتهدل شعرها الأسود السبط فيزيدها روعة وجمالا ،

وانحسر الثوب عن ساقها ، فطفت فنتها ، كانت في هذه اللحظة أفنان من كل
الحظاتها العارية ، التي تبدو فيها تحت الأضواء البراقة .

وراح يحيى ينظر إليها ، خافق القلب ، واصم العينين ، حار الدم يستشعر
نشوة ، وندت منه صيحة :

— رائحة !

ومست أدنياها ، فهددت غرورها ، فنظرت إليه في دلال ومنعته بسمه ،
وظل يديم إليها البصر ، فاغر المم ، معجبا بالرقصة الفاتنة ، بل باللحم الأبيض .
وهبطت على سلايم المسرح قفزا ، فترجرج ثديها ، يتصافحان في سلام ،
ويتدافران في دلال ، فأفهم بمشاعر فوارة لذيذة ، وتقدم منها يتملقها ، قال :

— إنك أروع من رأيت في حياتي .

وكان صادقا ، فما رأى في حياته إلا عهاته عزيرة وزهيرة وثرى وزينب
وحميده وبناته ، الرجال المتكررات في ثياب الحرير !

فقال له وعيناها تألقان ببريق :

— أعجبتك الرقصة ؟

فقال في ثبات :

— أعجبتني الراقصة .

وأدامت النظر إلى وجهه الأبيض برهة ، وقالت تداعبه وهي تتثنى :

— يا ولد !

وشجعتة دعابتها ، فنظر إلى خصرها الدقيق ، وصنع بسبابتيه وإبهاميه دائرة
بالغ في تضيقها وقال :

— ما هذا ! والله إنني أشفق على هذا الخصر ، كيف يقوى على حمل ما فوقه ،

ورفع ما تحته ! !

وانبعثت منها ضحكة مسرورة ، وهرع إليهما صديقاه ، ليشتركا في النجوى ،
قال أحدهما :

— يحيى من أسرة غنية ، من أغنى الأسر في الإسكندرية .

وقال الآخر مؤمنا :

— وزوج خالته بهاء باشا .

وانقضت أوداج يحيى ، واستمر يرنو إليها تساعبه أفكاره ، وفطنت بخرجتها
إلى نظراته الحارة ، فقالت له وهى تبسم :
— مالك تنظر إلى هكذا !
فقال لها دون أن يضطرب :
— أفكر فى التهامك .
فقال أحد زملائه مداعبا :
— أنحب أكل الحلو ؟
فقال يحيى فى بساطة :
— أحب اللحم ، وأكل اللحم ...
ورنت ضحكها عالية وقالت :
— كفى ... كفى !
ولكنه استمر فى حديثه :
— ولا أشبع منه أبدا .
وهرول زميله مبتعدا فى تهريج ، وقد بالغ فى إظهار رعبه ، فقال له الآخر :
— إلى أين ؟
— أخاف أن يأكلنى .
فقال يحيى فى هدوء :
— اطمأن ، لا آكل اللحم الحشن

٩١

جلال يلفت فى ذعر ، وبان فى وجهه القلق والاضطراب ، فقد دنا ميعاد
ذهابه إلى الجامعة ، وهو يرجف فرقا كلما هم بالذهاب إليها ، وأخذ سعيد يختلس
إليه النظر فيلاحظ اضطرابه ، فينقبض ، ولكنه لا يحاول أن يتحدث عن ذلك
الخوف الذى يستبد به ، كان يخشى أن تتجسم فى ذهنه الأوهام التى كانت تراءى له .
وخرج جلال واهنا ضعيفا ، يقتلع رجله من الأرض اقتلاعا ، كان يتقدم إلى حيث
لا يجب ، ولو لا خشيته من أن يفكر أخوه فى أنه يفر من دروسه ، لما خرج
إلى الجامعة ، ولاندس فى فراشه يرج أعصابه المكدودة .

ولاحت لميذبه القبة الجامعية شاحخة عالية ، فأحس قلبه ينتفض ، واتسعت
عيناه ، ولشه سهوم ، وتقدم خائفا يترقب . يحس إحساس الضارب في الظلام ،
وهو يخشى أن ينقض عليه شبح من الأشباح .

ودلف إلى المدرج الكبير ، وجلس غارقا في الصمت ، ودخل الطالب المصاب
بالصرع ، فجعل يرقبه وهو قلق ، وراح يجاهد أن يدير عينيه عنه ، ويشيح
عنه بوجهه ، ولكنه أخفق ، كانت عيناه تنجذبان برغمة إليه ، فيدسم إليه النظر .
وخيل إليه أن هاتفا يوسوس له أن يقوم ويصرخ ، لينفس عن ذلك الكرب
الذي يعور في جوفه ، وراح ذلك الهاتف يهريره أن يسقط على الأرض ، وأن
يغيب عن الوجود ، ليستريح من نفسه ففرع ، وراح يستجمع مقاومته ، ليقف في
وجه ذلك الاغراء الذي يكاد أن يتسلم له ضعفه .

واستمرت المعركة بين المقاومة والاستسلام ناشبة في أعماقه وخائنه عيناه
أكثر من مرة ، ثبتتا على الطالب الذي كانت نظرة إليه تزلزل كيانه ، فتخلخلت
ضوابط نفسه ، وهم أكثر من مرة أن يهب صارخا ، وأن يسقط على الأرض
مغمشيا عليه ، ولكنه تشبث بمقعده ، وإن أحس أنه يدور في دوامة ، تكاد
تقتله ، وتلقيه إلى حيث لا يدري .

وهتف به هاتف يحرضه على مغادرة المدرج ، فقد ضاق نفسه ، ولو أصر
على البقاء به ، فسيفلت منه زمام أمره ، فهو يلح ضبابا يتكاثف حوله ، وأغشية
تسدل أمام عينيه ، وفراغا في رأسه ، فنهض واهنا ، وانفلت يجر رجله هاربا
من المدرج قبل أن ينهار .

انساب في الطريق وقد خلف الجامعة وراءه ، الأشجار تزهو بخضرتها ،
والحمواء يهب بليلا ينهش الأفتدة . والحدائق النضرة تغرى الشباب بالهيام في
عوالم الخيال ، كان الربيع في زينته ، ولكنه انطلق منطويا على نفسه ، لا يكاد
يحس وجوده .

وبلغ الدار ذاويا ذابلا ، غاضت نضارته ، وجف عوده ، واتسعت عيناه ،
وكثر تلفته الحائر القلق . وتمدد في سريره ، وشخص ببصره إلى السماء ، ولكنه
لم يسبح في بحار الأفكار ، بقى ساها لا يفعل ، كأنما نسي التفكير ، أو أهبط

جناح خياله ، فما عاد قادرا على التحليق في دنيا الأوهام الرحبية ، ذلك التحليق الذى ينفس عنه كربه ، وينقله من واقعه الذى يضعف روحه ، إلى عالم يسبح من الرؤى والتخيلات .

وأقبل سعيد ، يندو ويروح في حيوية ، وأعد الطعام ، فلم يهرع جلال إليه ، بل ظل ساهما في تمدده لا يتحرك ، فدنا سعيد منه وقال له :
— ماذا بك ؟

فقال جلال في فزع :

— أحس أنى شخص آخر ، قد تبدلت حق أصبحت أنكر نفسى ، صار صوتى يفزعنى ، وإننى أضطرب كلما رن فى أذنى ، يخيل إلى أنه صوت آخر ، وبت أخاف الناس كلهم ، أجفل إذا دنا منى أحد ، ويخفق قلبي إذا ما عادنى أحد ، ولا أجرو على بدء أحد بكلام أو سلام أو تحية .
وقال له سعيد :

— دع أوهامك وقم ، ألا تملأ رائحة الطعام أنفك ؟

فقال جلال فى وهن :

— حق الطعام عافته نفسى .

وفطن سعيد إلى شحوبه ، وهزته نظراته القلقة ، فانتفض وقال :

— لا يقاء لك هنا .

فقال جلال فى صوت خافت :

— وأين أذهب ؟

— تعود إلى الإسكندرية .

— وكيف أعود ولم يبق على امتحان آخر السنة إلا شهر واحد ؟

— أنت مريض وتحتاج إلى راحة وعناية .

فقال جلال فى ضعف :

— سأبقى حتى تنتهى السنة . لا أقبل أن تضيق جهودى هباء .

فقال سعيد فى صراحة :

— أيهما أفضل أن تضيق جهودك ، أو تضيق أنت ؟

فقال جلال وقد اتسعت عيناه ، وزاغت نظراته :

— سأبقى ، ولن أضيع سنة .

فقال سعيد في إصرار :

— بل ستعود اليوم . الآن .

وذهب بعد له حقيبتة ، ثم تناول ورقة وراح يكتب ، فقال له جلال :

— ماذا تفعل ؟

— أكتب رسالة إلى أمي أنك مريض ، وأنتك عائد .

وصمت جلال ولم يعترض ، وظلت نظراته حائرة قلقة ، وإن استشعر بعض الراحة في أعماقه .

٩٢

وقف يحيى وصديقه يترامسون في فناء المدرسة ، وعميونهما تأتلق بريق النشوة ، وأخرج كل منهم من جيبه بضعة قروش وضعها في يد يحيى ، فراح يعدها ثم غمغم :

لا بأس .

والتفت إلى أحد صديقيه وقال له :

— أحضر مفتاح « الكابينة » ، والحق بنا في « الكازينو » .

وراح الأصدقاء الثلاثة ينسلون من المدرسة هاربين ، هذا يقفز من السور في غفلة من المشرفين ، ثم يثب إلى الطريق ، وذاك يفر من بين القضبان الحديدية ، التي تحيط بملعب الكرة ، ويحيى تنفلت من الباب وهو يغمز البواب بعينه ، فقد كان يدفع له قروشا قليلة تفتح له باب المدرسة في كل حين .

وانطلقوا مسرعين ، يحيى وأحد صديقيه إلى « الكازينو » وثالثهم يجد في السير ليستعير من أحد أقاربه مفتاح « الكابينة » ، لينفذوا مآذبروه .

وهب نسيم البحر نديا ، فخفف من حرارة الشمس التي كانت في صعود ، فراح يحيى يملأ رئتيه بالهواء وهو نشوان ، ودنا من « الكازينو » ، فخفق قلبه

مسرورا ، واج الرجل الجالس عند الباب خياه ، ثم دخل ثابت الخطو ، كان يعرف طريقه ، فما أكثر ما جاء في الأصابع والأماسى .

ومسى أذنيه صوت موسيقى هامسة ، وتصفيق يدين تصفيقا متساوقا مع النغم ، وصوت رجل يرن : « واحد . . اثنان . . هب . . واحد . . اثنان . . هب » ففطن إلى أن الراقصات يتدربن على رقصة جديدة ، فأسرع ينظر .

أجساد عارية بيضاء وسمراء في حركة دائبة ، سيقان ترفع ، وأذرع تتعرج ، شعور تنوس كلما اهتزت الرءوس ، فراح يحكي يرنو إلى الراقصات وهو نشوان ، لم تهزه الرقصة الفنية ، ولكن أنارته الأجساد العارية ، والهود البارزة ، والأرداف المترجرجة ، كان يؤمن بالجسد إيمان رجل الغاب .

وأحس يدين ناعمتين تخفيان عينيه ، وصدرا ممتلئا يلتصق بصدرة ، فدفق قلبه في رعونة ، ثم قال :

— ليت هذه اللحظة تدوم إلى الأبد .

ورنت ضحكة طليقة مريحة ، فعرف صاحبها قبل أن ينظر ، فقال :

— فتحية ؟

ثم أقبل عليها يرحب بها ، وظلا يتناجيان ، وكان ينظر إلى الباب بين اللحظة واللحظة ، وفطنت فتحية إلى ذلك ، فقالت له :

— ماذا تنتظر ؟

فقال وهو يبتسم :

— مفتاح السعادة .

ولاح صديقه مقبلا ، يتفصد منه العرق ، فنظر إليه متسائلا ، فأخرج الصديق من جيبه مفتاح « الكابينة » وهزه في الهواء مسرورا ، ثم دسه في جيبه ثانية ، فانقرجت أسارير يحيى ، وراح ينظر إليها مبتسما .

وجاء زميلاه ، واشتركا في النجوى ، قال يحيى :

— ما رأيك يا فتحية في أكلة سمك معنا اليوم ، أصنعها بيدي .

فقالت فتحية في بساطة :

— أين ؟

— في سيدي بشر .

وقال قائم في زهو :

— في « كايينتنا »

فتمالت فتحية وهي تبسم :

— لا بأس ، وأرجو ألا أمت من الجوع بين أيديكم .

فقال ذلك الذي أتى بالمتاح :

— نشترى لك لحما إذا كنت لا تحبين السمك .

فقال يحيى وهو ينظر إلى صدرها العارى :

— كيف نخضر لحما ، ومعنا أشهى لحم والله .

ودفعته في صدره في رفق وابتسمت .

وخرجوا معا ، وذهبوا إلى الترام ، وانطلقوا إلى سيدي بشر ، وهم يتجاذبون أطراف الحديث ، تلفهم النشوة ، وكانت فتحية تستشعر سعادة حقا ، كانت تترك نفسها على سجيئتها ، لا تتصنع ولا تتكلم ، تفعل ما تشتهي ، وتنطق ما يدور بخلد ها دون أن تتحرز ، كانت واثقة من سيطرتها عليهم ، فكانت تندفق خفيفة في أحاديثها ، تملؤها الغبطة .

وانسابوا على الشاطئ ، يهرولون وترن ضحكاتهم الراححة . وبلغوا « السكينة » ، فدخلت فتحية وحدها ، تبدل ثيابها ، ووقفوا على بابها يرقبون خروجها ، وانهرج الباب ، فإذا بها في ثياب البحر ، قد كشفت عن ساقها المخروطتين الرائعتين ، وجسمها البديع ، وصدرها الشامخ في غرور ، وما إن رآها يحيى حتى اتسعت عيناه وشعت بريقا ، وقال :

— اللهم احفظنا من الميؤن ، إنا والله اليوم لمخسودون !

وأشرق وجهها بابتسامة ، وزاد فيها انبراجا لما لمحت يحيى يغمز لها بعينه ، وهو في طريقه إلى « السكينة » يبدل ثيابه .

ومر الوقت لطيفا ، وأحست فتحية نحوهم ألفة ، ومالت إليهم ، فألفت من الوفاء لإحساساتها أن لا تكبت شعورها ، فأقبلت عليهم تداعبهم ، وتمنحهم من عطفها ، أكثر مما تمنحه لعشاقها الذين يفدون إليها كل ليلة ، يثرون أموالهم لتجود عليهم بنظرة رضا ، أو بسمعة تبعث في صدورهم الأمل .

وجيء بالطعام فتخلطوا حولها ، وراحوا يأكلون في شهوة ، والتفت فتسمية إلى يحيى ، وقالت له تعاتبه :

— القريب ذنبك إذا زاد وزنى .

فقال لها وهو يلثم سمكة :

— ليت يزيده .

فقات له في فزع :

— أنتى خراب بيتى ؟

فقال لها صادقا :

— لو زاد وزنك لسمر بيتك ، وفتح بابك على مصراعيه ، فالرجال يحبون

الاعم للسكنز ، وإن أظهروا ميلهم إلى المحشوقات !

— لو زاد وزنى للقى على كراقصة .

فقال يحيى في خبت :

— ولبدأت حيانك كامرأة .

فقات له وهى تدفعه في حنان :

— اسكت ما أدراك بهذا ؟

فقال أحد زملائه :

— الياى الطويلة التى يتضيها مع ابن عمته سامان .

فقات له فتحية في اهتمام :

— لم تحدثنى عن ابن عمك هذا !

فقال يحيى وهو يتسم :

— وماذا أقول لك عنه ، إنه تزوج ولا حديث له فى الحياة إلا عما يفعله

الزوج والزوجة ، أتحبين أن أروى لك أحاديثه .

فقات له فتحية ، وهى تضحك :

— قص على ما يروى لك .

— أحذرك ، إنه كلام فارغ .

فقات وهى تطوح رأسها ، لتصلح شعرها الأسود المسترسل :

— ما أشهى الكلام الفارغ إلى نفسي .
وراح يحكي يقص عليها قصص سليمان ، وهي تصنى إليه منتشية ، وتميل عليه
وهي تضحك ، وتضمه إلى صدرها وتداعبه .
وتعددوا في « السكينة » ، فلما جاء العصر انطلقوا إلى البحر يمشون ، كان
يحيي يهيد السباحة ، تجذبها من يدها ، وانطلق بها إلى عرض البحر ، وهي
تتوسل إليه ضاحكة أن يهيدها إلى الشاطئ .
وراح قرص الشمس يغوص في اللجة ، وقد اصطبغ الأفق بلون الأرجوان ،
فخرج الناس من الماء ، وخرجت فتحة يتبعها يحيي وزميلاه ، ودخلت « السكينة »
ودخل يحيي خلفها ، وأغلق الباب ، وراح زميلاه يذرعان الشارع جيئة
ودهوبا ، في ترقب وقلق .

٩٣

جلال قابع في ركن الغرفة صامت ماحم . وصفية ترنو إليه وقلبها ينهصر ،
إنه ذوى وذبل ، وغاضت نضارته ، وانطوى على نفسه ، والكنها لم تفتح في أمر
ضعفه ، أحست بغريزتها أنها تحرك شجونه ، وتزيد علته إذا حدثته عن مرضه ،
فكبحت جراح نفسها ، وطفقت ترعاه من بعيد ، وقلبها يكاد ينفطر .
لماذا يعاف الطعام ؟ وما الذي دهاه حتى صار شارد اللب قلما ؟ ولماذا يحفل
من الناس ، ويخشى مواجعتهم ، إنها لا تدري ، كل ما تعرفه أنه مريض ، وأنه
في حاجة إلى رعايتها ، فراحت توفر له الرعاية والحنان ، ودنت منه تحادثه لتخرجه
من قوقعة نفسه ، قالت :

— الجو لطيف اليوم ، ما أحلى المشي على الشاطئ ، اذهب يا جلال وروح
عن نفسك .

فنظر إليها في قلق ، ولم ينطق حرفا ، فراحت تمرر يدها على شعره في حنان
وقالت :

— ألا تذهب إلى زكريا في مكتبه ، وتمكث هناك حتى تعود معه في المساء ،
إنك في حاجة إلى الحركة ، وإلى تبديل الجو حتى لا تسأم .

فقال في صوت ضعيف فيه رنة خوف وإنكار :

— أخرج والليل قد أقبل ١٢

فقلت له وقد انقبض صدرها :

— يخرج مملك يحيى .

فقال ليرضيها .

— لا . سأخرج غدا في البكرة .

وتصرم النهار ، وانقضى الليل ، وبعث الصباح رسله إلى الكون ، فاستيقظ جلال ، وتذكر وعده لأمه ، فاضطرب ، ولسكنه قاوم قلقه ، ونهض يرتدى ثيابه واهنا متراخيا ، ولم ينس حتى في لحظة ضعفه ، أن يديم النظر إلى نفسه في المرآة ، ليطمئن إلى أناقته ، فما كان يحب أن يبدو في هيئة لا يرضى عنها الناس .

وهبط إلى الطريق ، وانطلق على غير قصد معين ، واهنا ذابلا ، وإذا بتقديمه تقودانه إلى محطة « الأوتوبيس » ، وإذا بصورة فتاة تزحف إلى ذهنه وهي مغلفة بضباب ، وإذا بذلك الضباب ينجاب ، فتبدو الصورة واضحة جميلة لعيني خياله ، إنها عفافا ودق قلبه في شدة ، ودثرته رهبة ، وخطر له أن يفر مذعورا ، كأنما يقتفى أثره شيطان ، ولسكنه راح يقاوم رغبة الفرار ، ويتشبث بموقفه ، ويصارع مشاعر الخذلان المتدفقة في جوفه ، فبان القلق في وجهه ، وكثر تلفته وزاغت عيناه . ووقفت أمامه سيارة ضخمة ، فعلا ضجيج قلبه ، حتى كاد يغطي في أذنيه ضجيج السيارة ، ومد بصره إلى داخلها ، ولم يجرؤ على الصعود ، ليجث عن عفاف بين الركاب ، ظل ينظر في قلق واضطراب حتى تحركت السيارة ، وابتعدت عنه . ومرت سيارات وهو واقف ، ليس له إلا أن ينظر ، وأن يقلق ، وأن يضطرب ، ودنت سيارة ، ووقفت أمامه برهة ، وما نظر فيها حتى راح قلبه يقفز في جنون ، فارتد إلى الخلف خطوات ، كانت عفاف جالسة ، بحسبها الممتلىء ، وقد نظرت إلى الباب ، فلم يجد في نفسه الجرأة أن يصعد إليها ، وأن يحییها كما كان يفعل ، بل استبدت به رغبة الهزار ، وصار يخشى أن تلمحه ، فابتعد حتى لا تراه .

واستمر قلبه يخفق في شدة ، وانتابته رهبة ، كأنما سينقض عليه طير من السماء يقتلعه من الأرض ، وراحت نظراته القلقة تتجول هنا وهناك ولا يرى شيئا ، حتى السيارة بدت لعينه كأنما غلفت بضباب .

وابتمدت عنه عفاف ، فراح يتبعها بنظره ، ولم يهدأ قلبه ، كان دائب الحفكان ، ولم يحقد على نفسه لأنه لم يذهب إليها يحاذيها ، بل استشعر في أعماقه راحة ، وبدأت تنتظم أنفاسه .

أقلع عنه خوفه الطاريء ، واضطرابه الذي نشأ عن رؤية عفاف ، وانجاب عن قلقه الدائم ، فسار ساهما يتلفت ، يفرع من الناس ، ويخشى أن يديم إليهم النظر ، انطلق منطويا على نفسه ساهما ، يحد في السير ، يبغي الأوبة إلى الدار ، لينزوي في ركن منه ، يلوذ فيه بالصمت ، ويرخي لشروده العنان .

٩٤

أقيمت الزينات في كل مكان ، ودوت الطبول ، وزغردت المزامير ، وصدحت الموسيقى وأذيعت أناشيد الفرح من المذيع ، حتى قهوة الصمايدة في الحارة اشتركت في الهجة ، فقام الرجال يطوحن عصيم ، ويرقصون على أنغام موسيقا القرب و « النقران » ، فقد أوحى الزعماء إلى الشعب أن افرحوا ، فقد وقعت معاهدة صداقة وتحالف بين مصر وبريطانيا ، فاستجاب الشعب لوحى زعمائه ، فانطلق نشوانا

ووقف النجرو أشعث أغبر ، يرتدى قميصا من الخيش ، ويلف حول عنقه سبخته الضخمة ، ويعبث في حلته المسترسلة ، التي كاد البياض فيها يغلب السواد ، وقد التف حوله بعض الشباب ، يصفون إلى قصته التي كان يرويها ، وقد اتسمت عيناه ، قال :

— لا تصدقوا الإنجليز ، فهم أهل غش ونكران ، لا يعرفون الوفاء ، تنكرت لي فجأة ، وأعرضت عني ، ونسيت لحظات الصفاء . أرادت أن تذاني ولكنني كنت رجلا ، لم أمكنها من إذلالى ، تغاضيت عنها ، فبعثت إلى رسلها تسترضيني ، فرددتهم خائبين ، إنك لاتعال احترام الإنجليز إلا إذا نلت من كبريائهم ، ومرغت أنوفهم في التراب ، احتقرتها فاشتبهتني ، تمنعت عليها ، فأقبلت تستهطفنى . ومد يده في صدره ، وأخرج قصاصات من الصحف الصفراء ، وراح ينثرها ويقول :

— اقرءوا رسائلها . . اقرءوا كيف تتوصل إلى ، لعل قلبي يلين لها ،

ولكن هذا أمل خائب ، أغلقت دونهما قاي ، وألقيت في البحر مفتاحه .
وانسل الشباب من خرله ، وهو يروي قصة وهمه ، ثم نظر إلى السماء وصاح :
— نظرة يا جورج . . يا جورج نظرة .

وفتح باب البيت ، وخرج منه حسان عابس الوجه ، فزغريد الزامير تحرك
أشعجانه ، كان لها في نفسه وقع النجيب والصوات ، فكان يبتعد عنها وهو يتزعج ،
ولكنها كانت تتابعه في كل مكان ، في الحارة ، وفي الشارع ، وفي الميادين ،
وزاد في حزنه الأعلام المرفوعة فوق الدور والمحال وفي الشرفات ، إنها تنكأ
جرح نفسه الذي لم يعرف الاندمان ، مرت السنون ولم تذهب المرارة من فمه ،
ولم تتبدل حواسه ، حاول أن يفرق في السكر ، ليقضي على ضميره ، ولكن ضميره
كان يهب في لحظات صحوه ، يؤلمه ويضنيه ، ما بال هذه الزينات تبدو في عينيه
كالقذى ؟ ! وما بال قلبه ينتصر حزنا والناس في بهجة وسرور ؟ إنه يستشعر
رغبة جامحة تدفعه إلى أن يقف في الميدان ويصيح : « بماذا تستبشرون أيها
الفاقلون ؟ أبقيد الرق والعبودية التي وضعت في أعناقكم وأنتم راضون ؟ بماذا
تحتفلون ؟ بتوقيع صك استئلالكم ، وإقراركم أن العدو المقتصب أصبح الصديق
الجسيم ! هيا ثوروا وحطموا هذه الزينات ، التي متدفعكم بالعار إلى الأبد ، ثوروا
فلا خير في شعب لا يثور » ولكنه كبح جماح رغبته ، وسار تدفعه الحرارة
التأججة في صدره إلى توسيع خطاه .

ووقف على باب الحانة ونظر ، كانت غاصة بالشاربين المستبشرين ، فدلف
منقبضا ، وجلس إلى مائدته المنزوية في ركن بعيد ، وشرد بذهنه ، وإذا بصوت
الحوذى الشيخ بمس أذنيه وهو يدندن بأغنيته التي لا تتبدل ، وإن تبدل
كل شيء :

حامسة بيضا ومنين اجيها

طار يا نينا عند صاحبها

فاربذ وجهه ونضح بضيقه ، ولو طاول نفسه لخرج ثأرا هائما على وجهه ،
ولكنه صمت وطاب ما يسكره ، ويبعده عن ذلك الوجود المقيت .
وراح يعب الكئوس ، فتدفقت دماؤه حارة في عروقه ، وانطالق لسانه ،
فراح يصيح :

— استبشروا أيها المخدوعون ، فقد تخالف الذئب والجل ، وتصادق القط والفأر ، ونام الطفل مستسلا في أحضان القول .

أرقصوا أيها المختالون ، فقد ضمن الفاصب البقاء في دياركم ، وأنتم راضون .
أفرحوا أيها العابثون ، فقد أصبحتم حلفاء الإنجليز ، حلفاء الذين ما جاءوا إلى بلادكم إلا لاسترقاقكم وإذلالكم ، وامتصاص دمائكم ، وحمل خيراتكم إلى بلادهم ، ليفتنوا وتفتقروا ، ليشتبعوا وتجوعوا ، ليكتسوا وتهيموا على وجوهكم عراة محطمين .
كلكم مغفلون مخدوعون . . . كلكم بائسون مساكين . . . كلكم . . .
ووضع رأسه على ذراعيه اللتين وضعهما على النضد ، واستخرط في البكاء والنحيب .

٩٥

خالد قد أقبل إلى البيت في إجازته الصيفية ، أصبح يضيق بالحارة ، ويتمنى صادقا أن يخرجوا منها ما دام حلم الشارع الجديد لم يتحقق ، إنه يستشعر انقباضا كليا انساب بثيابه الرسمية بين البيوت المتداعية الهرمة ، وكما ملأت خياشيمه رائحة الماء الآسن الراكد عند الجدران ، والرائحة العظيمة المنبعثة من الخربة ، ولكنه ما كان يقدر على تحقيق أمنيته ، فإذا كان زكريا قد نجح في الحمامة ، وإذا كان هو قد أصبح ضابطا طيارا ، فما زال جلال وسعيد ويحي في المدارس ، وهم في حاجة إلى نفقة قبل أن يخرجوا إلى معترك الحياة ، إنهم أولى بذلك المال الذي سيدفعونه إيجارا لشقة نظيفة ، في شارع كبير .

وجلس خالد وسعيد ويحي يتحدثون ، وبقي جلال صامتا لا يشترك في الحديث ، ولا ينطق حرفا ، إنه ساهم واجم ، زائع البصر ، يحس قلقا لا يدري سببه ، فيستشعر خوفا ورهبة .

قال سعيد في حماسة :

— نجحت هذا العام ، وسأنجح العام القادم ، والعام الذي يليه ، وسأعمل حتى أصبح طبيبا قديرا شهيرا .
فقال له خالد :

— عليك أن تعمل ، وأن تترك المستقبل ، فالمستقبل بيد الله .

فقال سعيد في حرارة :

— إيماني بالله لا يحد ، ولكنني أقرر أن الإنسان يستطيع أن يصنع مستقبله بيده ، وما صنع مستقبله كما أشتهى .

فقال خالد معترضا :

— علي المرء أن يسعى ، وليس عليه إدراك النجاح .

فقال سعيد ساخرا :

— عدنا إلى الأمثال العتيقة ، بل علي المرء أن يسعى ، وعليه إدراك النجاح . سأنجح ، وإني أتحدى أية قوة تقف في سبيلي .

فقال يحي حائرا :

— والله لا أدري ، أيستطيع المرء أن يسعد نفسه بيده ؟

فقال سعيد في إيمان :

— إنني واثق من أنه يستطيع أن يسعد نفسه بنفسه ، وسأسعد نفسي .

ورنا يحي إلى جلال ، وقال في صوت خافت :

— ها هو ذا جلال لم يدخل الامتحان ، ومع ذلك لم تضع عليه السنة ، قرر قانون النحاس باشا جعل النظام الجديد للحقوق أربع سنوات ، وأن من يرسب في السنة الأولى ينضم إلى النظام القديم الذي أصبح ثلاث سنوات ، فما فضل جلال في هذا ؟ لم يدخل الامتحان ولم تضع عليه السنة .

فقال خالد في ثقة :

— إنني أؤمن أن لكل إنسان طريقا مرسوما في الحياة لا يحيد عنه .

فقال سعيد في استخفاف :

— فلماذا نتعب أنفسنا إذن ؟ لماذا نكافح ؟ لماذا نجاهد ؟

فقال خالد :

— لنكون أهلا للسير في ذلك الطريق .

فقال سعيد في اندفاع :

— أعتقد أن في النفس البشرية ينابيع السعادة ، وينابيع الشقاء ، وأن

الإنسان يفجر هذه الينابيع بيده ، فإذا فجر عيون السمادة سعد ، وإذا فجر عيون الشقاء شقي ، وهذا هو جلال ، نزلت في نفسه عيون انقلاق فلم يطهرها ، بل عاونها بامتسلامه لوهمه على أن يتدفق اضطرابه غزيرا ، فيفجر حواسه ويستبد به ، ويقوده حيث يشاء .

فقال خالد في ضيق :

— ليس لك يد في مجيئك إلى الحياة ، وليس لك يد فيما ينتظرك فيها .
ولمخ خالد دخول امرأة تتردد على أمه ، فقام مسرعا إليها ، وحياتها ثم جلس معها يشرب القهوة ، ولما انتهى منها دفع إليها الفلجاجة وقد كفاها على الطبق وقال :
— انظري وأخبريني ماذا تجدين في الفلجاجة ؟

فأخذت الفلجاجة ، وراحت تقلبها أمام عينيها ، وهي تنظر في إمعان ثم قالت :
— سقطت بالطيارة ، وتخشى نتائج ذلك السقوط ، ولكن لن يفعلوا لك شيئا يضرك ، سيقف إلى جوارك رجل ليس من دينك ، خواجه ، سيدافع عنك ولن يكتفى بتبرئتك ، بل سيطلب سفرك .

فقال خالد في لهفة :

— إلى أين ؟

— لا أعرف . ولكن أمانى بحرا واسما ومركبا ضخما ، وأنا لا يتكلمون بلساننا .

وراح الوقت يمر ، وخالد وسعيد ويحيى في حوار ، حتى إذا ما توسطت الشمس كبد السماء ، استيقظ على من نومه ، وخرج إلى أولاده ، فالتفت إليهم يحيى وقال :

— والله يا أبي لم ينصفك زمناك ، كان ينبغي أن تكون من الأمراء .

النساء واجبات مبالغة في الحزن ، فقد جلست عزيزة وزهيرة وثريا يتحدثن صفيية ، ويذكرن ما في قلوبهن من أسى على مرض جلال ، كان الحديث يقطر رياء ، عزيزة تتحدث في صوت خافت على غير عادتها ، وزهيرة لا هم لها إلا الحديث عن عيون الناس ، وشر حسدهم ، ولو فتشت صدرها في صدق ، لألفت سموم الغيرة والحسد تتراكم فيه طبقات ، وتتركه ظلمات ، وثريا تتحدث في حرارة ، كانت تستشعر بعض الرثاء .

قالت زهيرة :

— بخريه ، العين فلقمت الحجر .

فقالت صفيية في يأس :

— والله بخرته .

وقالت ثريا في صدق :

— أعرضيه على طبيب .

فقالت عزيزة في صوت مرتفع قليلا :

— بلا وكسة ، وماذا يفعل الطبيب ؟ إنها أرزاق . جاء الطبيب يوم مرض

إسماعيل ، وأخذ الجنيه وانصرف وهو يقول : « ليس به شيء ، غدا يبرأ » .

وما ابتعد عن البيت خطوات حتى مات إسماعيل ، اممعى نصيحتي ، ولا تقمى في يد طبيب ، دق له « زارا » .

فقالت ثريا موافقة :

— ليس له إلا الزار .

وبقى جلال صامتا ، كأنما ذلك الحديث الدائر لا يتعلق به ، لم يوافق ولم يعترض ، بل استمر في شروده القلق ، وأطرقت صفيية تفكر ، إنها تميل إلى رأى عزيزة ، ولكن من أين لها تكاليف الزار ، من حمام ودجاج وخراف ، ومن يذرى ، فقد يشار عليها بذبح عجول .

ورأت أن تعرضه على طبيب ، فذهبت به إلى طبيب أعصاب ، فراح يفحص

عنه ، ثم أشار بضرورة سفره إلى إكس لبيان ا

إكس لييان ؟ يا له من طبيب ! من أين لها نفقات سفره ؟ لو كان معها نفقات الزار ما قصدت إليه .

وهاجتها خواطرها ، لو أبقت على أساورها الذهب ، التي أنفقت ثمنها على إخوتها حين كانوا في ضيق ، لباعتها وأرسلت ابنها إلى حيث أشار الطبيب ، أو لأنفقتها في إقامة الزار .

ورأت أن تذهب به إلى طبيب آخر ، فوجوهه يقلقها ، فأخذته وانطلقت ، وراح الطبيب ينحصر عنه ، وهي ترقبه مضطربة ، ولما انتهى من فحصه قالت له : — ماذا ترى ؟

فقال الطبيب وهو يتشم :

— علاجه في يده ، لا في يد أحد غيره .

ونظرت إليه في دهش ، لم تفهم ماذا يقصد ، فلم يلتفت إليها ، وقال للجلال : — إنني لا أطلب منك إلا أن ترضى أعصابك . لا ترهقها ، ولا تحاول أن تكبت رغباتك ، إذا أحسست رغبة في الخروج في الليل ، في أية ساعة من ساعات الليل . فلا تتردد في الخروج ، وإذا أحسست رغبة في الخروج في النهار في أية ساعة من ساعات النهار ، فلا تعارض هذه الرغبة . اخرج .

وإذا شعرت برغبة في القراءة اقرأ ، وإذا شعرت برغبة في اللعب العب ، ولا تفكر في دروسك .

سر على هواك ، افعل ما يروقك ، لا تكبت رغباتك ، وارض أعصابك ، هذا هو العلاج .

فقالت له الأم :

— ألا تكتب له دواء يشربه ؟

فقال لها الطبيب في هدوء :

— دواؤه في نفسه ، لا أريد منه إلا أن يرضى أعصابه .

وانصرفا ، الأم لا تفهم لماذا أخذ منها الجنيه ما دام لم يكتب لابنها دواء . وجلال يصيح إلى صوت الطبيب الذي يرن في أذنيه : « سر على هواك ، افعل ما يروقك ، لا تكبت رغباتك ، وارض أعصابك .

سيارة متواضعة تقف أمام البيت الكبير ، إنها سيارة خالد ، وقد هبط منها ينظر إلى النوافذ ، ثم دلف إلى الدار مسرعاً ، فحرارة الشباب تدفعه إلى توسيع خطاه ، وحرارة الحب تجعله يهرول في الصعود ، كانت نفسه تتفتح كلما وقعت عيناه على درية ابنة خاله ، وكان يستشعر حناناً دافئاً كلما حدثها ، فكان يذهب لزيارتها من آن لآن .

وقابلته امرأة خاله هشة بشة مرعبة ، فأقبل عليها يحدثها ، فهو يحبها ويرتاح إليها . كان بسيطاً لا تعقيد فيه ، إذا بش له أحد أحبه ، وإذا عبس في وجهه أحد غضب وثار .

وجاء خاله حسين في جلبابه الأبيض النظيف ، وشعره الأسود الذي سواه فوق جبينه الأسمر كنصف قوس ، وصاحفه ثم جلس ، فراح خالد يحدثه ، ويتودد إليه ، وحسين شارد عنه ، وإن كان ينظر إليه ، كان يفكر فيما يتقاضاه ابن أخته من مرتب ، ويضاهي بينه وبين ما يكسبه هو في يومه ، فيجد أن ما يكسبه في يومه قد يساوي مرتب شهر كامل ، فتنداح في جوفه بسمة ازدياء ، وإن لم ترسم على شفثيه .

ودخلت درية ، في ثوب بسيط ، ولسكه ينطق بذوقها ، كان يتفق مع بشرتها البضاء ، وشعرها الأصفر ، وعينيها الزرقاوين ورنا إليها خالد رنوة سريعة ، خفق لها قلبه ، وأحس كأنما يهيم في حلم ، خيل إليه أن قد شف ، وأن كل ما حوله رقيق جذاب ، يستهوى النفس ، ففتح قلبه ، وجرى حديثه عذبا حنوناً ، وراح يسترق النظر إلى من يخفق بحبها فؤاده ، وهو انشوان .
وتعمل في حديثه قليلاً ، ثم قال :

— تقرر سفرى إلى إنجلترا في بعثة ، وإننى أستاذ للسفر .

والتفت إلى درية ليرى أثر حديثه في عينيها ، فألفاها قد غضت بصرها ، فاهتز قلبه لإطرافها ، ورقص طرباً ، كان إطرافها أفصح من بيانها . ولو أنها ناجته أعذب مناجاة لما استشعر هذه السعادة التي غمرته .

وقالت امرأة خاله في رقة :

— صوبتك السلامة !

ولم ينس خاله طبعه ، فسأله :

— هل لهذه البعثة أثر في مرتبتك ؟

وانسحبت عينا خالد ، كما لم يفهم ما يرمى إليه خاله ، فقال حسين موضحا :

— هل يزيد مرتبتك بعد هذه البعثة ؟

فقال خالد وهو يبتسم :

— إذا رقيت إلى رتبة أخرى .

— وما فائدة هذه البعثة إذن ؟

— أنخصص في فن من فنون الطيران ، أزيد معارفى وتجاريبى .

فلوى خاله شفته السفلى زراية ، فالمهم عنده أن يزيد مقدار ما يدخل الجيب

من نقود .

ومر الوقت وهو غارق في النشوة ، فقربه من درية يرفعه إلى عوامل البهجة ،

ثم قام وانصرف ، وصورة درية تملأ أقطار رأسه ، وفكر في العودة إلى الدار ،

ولسكن ماذا يفعل هناك وحده ، وما انتصفت الساعة التاسعة ١٢

وخطر له أن يمر على حامد ، يتسامر معه حتى يوافي سياد نومه ، وما كان

ينام قبل أن يدبر من الليل نصفه ، فانطلق بسيارته إلى الحارة ، وأمام باب

صديقه وقف ، ثم صعد ثابت الخطو ، فمذ كان يعرف طريقه .

وراح حامد وخالد يتسامران ، وأقبلت سهام ، وقد ربت ونمت وبرزت

فتنتها ، فلما رأت خالد أشرق وجهها ببسمة ترحيب ، وتألفت عيناها سرورا ،

واشتركت في السمر منتشية ، قال خالد :

— سأسافر إلى إنجلترا في بعثة .

خفق قلب سهام ، وتدفقت غيرتها في صدرها ، ولم تستطع أن تكبت

عواطفها ، فقالت :

— غدا تعود وفي يدك إنجليزية .

وضحكت ، ورنت ضحكتها جوفاء ، ففزعت لرئيتها ، وزاد في فزعها ذلك

الاضطراب الذى تدفق موارا في جوفها ، وتعلقت عيناها به ، ترقب شفثيه قال :

— اطمئني ، لن أفعل ذلك أبدا ، إنني سأسافر وأدع قلبي هنا .
وتشعب الحديث ، وسهام مكري بخمر النشوة ، تستشعر خفة ، وترنو
إليه في تدله وهيام ، ولو أنه نظر إلى عينيها لقرأ فيها النداء .
وخرج إلى الطريق ، وخياله لا يبرح رأسها ، وصدى صوته يرن عذبا في
أذنيها . « إنني أسافر وقلبي هنا . إنني أسافر وقلبي هنا » . وهل بعد ذلك اعتراف .
إنه يحبها . . إنها قلبه ، وسيركها هنا ، ليتمها تستطيع أن تسافر معه ، ليتهم يحملها
إلى حيث يشاء .

وسار خالك وقد تبخر من رأسه كل حديث النساء ، واحتلت ذهنه صورة
درية ابنة خاله وقد أطرقت وأسبلت عينيها حياء من أن تتلاقى عيناها بعينه ،
كان فؤاده يخفق بحبها . فكانت أية حركة منها تملؤه نشوة ، وتجعله يهيم في عالم
عذب من الرؤى والتخيلات .

٩٨

جلال أمام المرأة يتألق ، ويدبم النظر إلى وجهه ، عادت إليه نظارته ،
وذهبت تلك النظرات الحائرة القلقة ، خطر له أن يخرج ينتظر عفاف عند محطة
السيارات ، فقام من فوره ينفذ ذلك الحاضر ، استجابة لنصائح طيبة ، فما عاد
يقاوم رغباته ، وأطلق لنفسه العنان تفعل ما تشاء .

ومر في الزدده ، فألقى أمه قد أعدت الفطور ، له ولأخوته ، فرنا إلى الطعام
برهة ، وإذا بهامس يهمس في جوفه : « لماذا لا تأكل كل هذا الطعام ؟
تقدم » ولم يستجب لذلك الوسواس ، أحجم عن ذلك الإغراء ، وبدأ يستشعر
قلقا ، وإذا بصدى صوت الطبيب يرن في أذنيه : « لا تردد ، أرض أعصابك » ،
فجذب كرسيه ، وجلس يلثم ما على المائدة وحده .

وجاءت أمه ونظرت ، فألفته قد أوشك على أن يأتي على ما أعدت من طعام
للأسرة ، فقالت في حنان :

— ماذا تفعل يا جلال ؟

فقال وهو ياولك ما في فيه :

— أَرْضِيْ أَعْصَابِيْ .

وابتسمت الأم ، ولم تنطق سرفا .

وخرج جلال ، وانطلق إلى محطة السيارات ، ووقف ينتظر هادئا ثابتا ، لم يخفق قلبه ولم يضطرب ، بل كان يصعد كل سيارة مقبلة ، ويحجل عينيه في الملسين ، دون أن يحتاج فيه خالجة ، ثم يهبط ثابتا ، كأنما ناطت به الشركة أن يفحص عن ركاب خطوطها .

وأقبلت سيارة ، وانظر فيها ، فرأى عفاف جالسة ، فهرع إليها ، واندس إلى جنبها ، وقال :

— صباح الخير .

فقالت وهي تبتسم له :

— صباح الخير .

— بحثت عنك على شاطئ المكس أياما طويلة ، ولستكني لم أعر عليك ، فرأيت أن آتي لأقابلك هنا .

فوسعت ابتسامتها ، وقالت :

— أمضيت أجازتي على شاطئ آخر .

فقال وهو يرنو إليها في عتاب :

— ومع ناس آخرين .

فقالت وهي تضحك :

— الناس في كل مكان .

فقال لها وهو ينظر إلى عينيها الطائشتين :

— وأنا ؟ ألسنت من الناس ؟ !

— ها أنت ذا جالس إلى جوارى .

— هذا لا يرضيني ، أريد أن نجلس وحدنا ، بعيدا عن العيون ، في بحوي .

أريد أن نتحدث ، أن أودعك قبل أن أرحل ، فإني عائد إلى القاهرة بعد يومين .

فقلت في دلال :

— ألا يكفيك أن تودعني هنا ؟

— ما جئت لتسخرى مني ، إنني ذاهب ولن أعود إليك أبدا .
وتحرك لينهض ، فجذبتة وهمست :

— أقابلك الليلة ، في الساعة . انتظرنى عند أول شارع محرم بك .
— أنا أنين ؟

— كن على ثقة من ذلك ، سأنى في الساعة .

— لست على ثقة إلا من شيء واحد .

فقلت وقد وسعت عيناها :

— ما هو ؟

— محافظتك على كذبك .

— إننى إذا واعدت بنفسي لا أخلف وعدى .

— لا أفهم .

— إذا واعدت وأنا راضية ، فأنى أبر بوعدى .

— وهل أنت راضية .

فقلت وهى تهز رأسها فى إغراء .

— طبعاً .

ووصلت السيارة إلى المحطة التى تريدها ، فنزلت تتبختر ، وسارت وكل جسمها
يترجرج ، حتى إن طرف ثوبها كان يهتز خلفها كرقاص الساعة ، واستمر جلال
يرصدها من زجاج السيارة ، حتى اختفت عن عينيه .

ووافقت الساعة مساء ، وجلال ينتظر عند أول شارع محرم بك ، يتطلع فى
اهتمام إلى المقبلات فى الطريق ، لعله يلمحها . كان قد عقد العزم أن يأخذها إلى
بقعة هادئة يناجىها ، ويبثها غرامه ، ويترك رغباته تنم على هواها ، ليريح أعصابه !
ومرت ساعة ، ولم يلمح طيفها ، واعدته وأخلفت كعادتها ، فانتقبض وزاد
فى انتقباضه سخريتها منه ، فانطلق مطرقاً حزينا ، وخطر له أن ينساها ، وألا يفكر
فيها ، ولكن كرامته صرخت فيه ألا يتركها قبل أن يطعن كبرياءها ، كما طعنت
كبرياءه .

كانت ليلة الوداع في « الكازينو » ، ففصت القاعة بالمسجيين ، وانتشرت
الواثد وقد جلس إليها شبان وشابات ، وانبعث الهمس في الضوء الخافت ، الذي
يضيئ على المسكان شاعرية تحرك الشاعر ، ودارت الكتوس ، وأفرغت الجيوب
في لحظة من لحظات الذشوة .

وجلس يحي وأصدؤه يتلفتون ، يبحثون بسيونهم عن فتحية ، فقد جاءوا
يودعونها قبل الرحيل ، وتأهبوا لهذه الليلة ، فادعى كل منهم أنه ذاهب ليستذكر
عند صديقه حتى الصباح !

وجاءت فتاة ابتسمت لهم في إغراء ، فبادلوها الابتسام ، ثم قال قائل منهم :
— تفضلى .

فأقبلت تتمايل ، ثم سحبت كرسيها وجلست ، ونظرت إليهم في إغراء ، كأنما
تقول لهم : « هأنذا ، أبدءوا الغزل » .

وجاء الساقى ووقف أمامهم ، ينتظر أوامرهم ، فقال يحي في هدوء :
— قهوة .

وقبل أن يتحرك ، قال يحي مستدركا :
— واحد فقط .

وجاء بائع الفستق في جلبابه الأبيض ، ووضع أمامهم طبقا كبيرا وهو يقول :
— نهارنا لبن .

فانقبض صدورهم ، وانشأهم قلق ، لم يكن معهم عن الفستق ، ورنوا إليه
في غضب ، وقد سرى في جوفهم صوت يهمس :
— ليلة أليك حبر .

وراحت أفكارهم تعمل ، ليتخلصوا من ذلك المأزق دون حرج ، كان عليهم
أن يعملوا سريعا قبل أن تمتد يدها إلى الفستق ، فنظر أحدهم إليها في إنكار وقال :
— ماذا في عينك ؟

فقالت في حيرة :

— ماذا ؟

— لا أدري ، شيء غريب !
فقال لها يحيى ، لما رأيها تخرج للراة :
— الضوء هنا ضئيف ، اذهبي إلى حيث النور .
فقامت لترى ما أنكروه في عينها ، وما ابتعدت قليلا . حتى صاح يحيى
في بائع الفستق :

— ارفع هذا الطبق من هنا .
ومد الرجل يده ليأخذه ، وإذا بصوت يرن في أذنيه .
— لو عدت لمثل ما فعلته الليلة دققنا عنقك .
وانسل الرجل ، وغابت الفتاة برهة ، ثم عادت ، ولكنها راحت تبحث عن
صيد آخر ، لا يطلب لها قهوة ، ولا يفرعه عن الفستق .
ورفع الستار ، وسلطت الأضواء على المسرح ، وسرت الموسيقى الراقصة
تهتز لها الأعطاف ، وظهرت فتحية لا تخفى جسمها إلا غلالة شفاقة تزيدها إغراء ،
ودوت القاعة بالتصفيق ، وكان يحيى وصديقه أكثر الناس حماسة ، فانفرج فيها
عن أسنانها النضيدة ، وراحت تثنى وتمايل ، فتفعم القاعة بعقيق الشهوة ، وهمس يحيى :
— ما ألد الاستذكار الليلة .

فقال صديقه :

— أحب الهندسة .

وقال ثائهما :

— فلنمضها ليلة بغير حساب .

وأسدل الستار ، ودوى التصفيق ، فانفرج الستار عنها وهي تنحنى ترد
التحية ، وإذا بها تلمح يحيى يغمز لها ، فيفتقر ثغرها عن بسمة عذبة .
وجاء رجل إليهم ، ووضع أمامهم موزا وشيكولاته ، وفطن الرجل إلى
نظرات الدهش التي يرمونها بها ، فقال وهو يبتسم :

— من الست فتحية .

ودفع إليهم بقصاصة ورق ، فتناولها يحيى وفضها ، وراح يقرأ :
— انتظرونى لمضى معا ليلة وداع .

انتقل جلال وسعيد إلى شقة أخرى بالمدينة ، بعد أن كثرت شكايات أخوالهما
منهما بلا سبب إلا أنهما نزلا في دارهم المنهدة تحت الريح ، فرأى الأخوال أن
من التبذير أن يتركوا إيجار الغرفتين التواضعتين اللتين نزل بهما ابنا أختهم ،
فراحوا ينتقدون صمودهما وهبوطهما واستدعاء أصدقائهما إلى البيت ، حتى إن
صفية فضلت أن تتحمل الضيق المالي ، على ذلك الضيق النفسى الذى يرهقها
به إخوتها كلما عاد أحدهم من القاهرة .

وعكف سعيد على كتبه ، يعمل فى صدق ، فهو ذو عزيمة ماضية ، له هدف
يرمى إليه ، فقد قرأه على أن يصبح طبيباً ، وكان يؤمن فى أعماقه أنه قادر
على أن يصنع من نفسه ما يشاء ، فراح يجد ليل بلغ أمه ، ويحقق أحلامه .

وراح جلال ينظر من النافذة ، ولا يحاول أن يتظاهر بالاستذكار ، كما كان
يفعل ، حتى ينال إعجاب أخيه ، لم يعد يجادل من أن يظهر أمام سعيد بظهور
القصر التكاسل ، وجد فى وصية الطبيب منفذاً ، فهجر رياهه ، وجعل يفعل
ما تهفو إليه نفسه إرضاء لأعصابه !

وخطر لجلال أن يأكل ، فلم يفكر فى أن يراود نفسه على الانتظار حتى
يأكل مع أخيه ، بل ترك النافذة ، وانطلق نحو المطبخ ، وفيما هو يقطع الغرفة
لمح الوسادة فى مكانها على السرير ، فمد يده وجذبها وكورها . ووضعها
فى وسط السرير ، وهم بالسير فى طريقه ، ولمح سعيد ما فعله . فقال له فى حنى :
— أعد الوسادة مكانها .

— لن أفعل .

فقال سعيد فى تهديد :

— أعد الوسادة مكانها ، خير لك .

فقال جلال فى هدوء .

— لن أفعل ، فوضعها هكذا يريح أعصابى .

وكظم سعيد غيظه ، واستأنف قراءته ، وانسل جلال إلى المطبخ ، يعيث
فى الطعام ، ويأكل كل ما تهفو إليه نفسه ، دون أن يفكر فى أخيه ، أو يعمل
له حساباً .

وعاد إلى حيث كان سعيد يستذكر دروسه ، فلما وقعت عيناه على السير ، ذهب إليه ، واستلقى عليه مسترخيا ، فتدلى رأسه في الهواء ، ورفع رجله على الحائط ، وأخذ يندن في صوت خافت ، ضايق سعيدا ، وقطع عليه استنراقه ، فنظر إليه شزرا ، وفكر في أن يقوم إليه يلطمه ، ليهيد إليه صوابه ، ولكنه أحجم ، خشية أن يعود إلى ذهوله وشروده .

ومرت لحظات ، وسعيد يتعلم ، يكبت غضبه الذي يود أن ينفجر ، ونهض جلال ، وأنجه إلى النافذة ينظر إلى الطريق ، فتبخر ضيق سعيد ، ورد إلى طبيعته ، وعاد إلى كتبه واستغراقه .

ورفع جلال عينيه ، وأجالها في النوافذ ، فإذا قبالة فتاة ، في السابعة عشرة ، يترقق ماء الحياة في وجهها ، تتدفق الحيوية من عينيها ، فاستشعر نحوها انجذابا ، فظل يرنو إليها دون أن يحيد بوجهه عنها .

وتلاقت عيناه بعينيها ، فأسبلت جفניה حياء ، فأحس أنامل رقيقة تعبت بأوتار قلبه ، فتدفق في جوفه مشاعر عذبة ، يرتاح إليها .

ولمحا تسترق النظر إليه ، ورفع رأسه مزهوا ، أراض أنه لفت نظرها ، فراح قلبه يرقص طربا ، وخطر له أن يحببها ، أن يتسم لها ، ولكنه أعرض عن ذلك فإذا به يحس قلقا ينبثق في أعماقه ، وإذا بصوت عميق يصيح به من أغوار ضميره : « حبها وأرض أعصابك » . ولم يقل على عصيان ذلك الصوت ، فتقهقر خطوه ، ثم حنى لها رأسه في حركة مسرحية ، كأنه فارس من فرسان العصور الوسطى يحيى معبودته ، وتطلع إليها يرصد حركاتها ، فإذا بوجهها الجميل تملوه غضبة ، ومدت ذراعيها البديعتين ، وأغلقت الشباك في وجهه في شدة ، فابتسم وهز كتفيه استخفافا ، وراح يرقب الطريق هادئا مطمئنا ، فقد نفذ رغبته وحياها ، وأرضى أعصابه .

١٥١

جاء ليديب يسعى ليودع خالدا قبل سفره ، وجلس صامتا ينظر ، لا يحس أنه كان لهذه الأسرة كأساس البيت ، ينخفض في الأرض ويوارى بالتراب ، لتشيده عليه مبان رائمة ، تجذب الأنظار ، وتهفو إليها قلوب الناس .

وأطرق على في وجوم ، يابح في وجهه القلق ، فهو رقيق يحب أولاده ، ولا يستطيع أن يخفي عواطفه ، لقد بكى يوم ودع خالدا وهو في طريقه آل ومرة إلى القاهرة ليلتحق بالمدرسة الحربية ، بكى كالأطفال ، حتى إن خالدا التمس منه ألا يذهب منه إلى المحطة بعدها أبدا .

كانت دموعه تترقرق في مقلتيه كما فكر أن ابنه سيفيب عنه سنة في بلاد الغربة ، وغمر حنانه مشاعر الزهو التي ملأته لما علم أن ابنه اختير للسفر دون أقرانه ، فراح قلبه يرفرف خلف ضلوعه في رقة ، كان يعزف لحنا سماويا من الحب الخالد الذي يسمو بالبشرية .

ودلف زكريا إلى العرفة وجلس ، وراح يتحدث في صوته الهاديء ، حديثا هادئا رقيقا ، لم يكن منفعا لفراق أخيه ، فكر ودبر ، فوجد أن سفره في مصلحته سيكسبه خبرة ، ويفتح عينيه على أفاق جديدة ، فكبح جماح عواطفه ، وراح يتحدث حديثا عاديا ، كما أنما ليس هناك سفر ولا فراق .

وراح يحيي يصفى إلى الحديث الدائر بأذنيه ، بينما شرد فسكره ، كان يشتهي في أعماقه أن يكون هو الناهب إلى إنجلترا ، لينعم بالأجسام البيضاء المشربة حمرة ، فالحياة في رأيه جسد امرأة وضحكة .

ولاحت صفية هزيلة شاحبة ، قلقلة أرقه ، كانت دائما تشمخ بأنفها في كبرياء ، وتسيطر على عواطفها في صرامة ، حتى لا تبدو ضعيفة أمام أبنائها ، إنها لم تذرف في حياتها دموعا أمام أحدهم ، ولم يفضح وجهها أبدا خبيثة نفسها ، ولكنها تبدو اليوم مهمومة والهيا .

وأخذت تغدو وتروح وعبراتها تغسل وجهها ، تستشعر انقباضا ، وتهجس في صدرها هواجسها ، وتصيح بها أن تتشبث به . ولا تدعه ينساب من بين

يديها ، وطافت بها موجة من التشاؤم ، تصرخ بها مولولة أنها لن تراه بعد يومها هذا ، فأنشأ قلبها ، وانطلقت إليه تضمه إلى صدرها ، ودموعها تجري على خديها ، ونار الوجد تندلع في جوفها ، فتلسع روحها ، فتئن نفسها أنينا ، تكاد كبدها يتصدع له ، وطفت عواطفها ، حتى كادت تنهار تحت وطأتها .

وحانت ساعة الوداع ، فبدأ على المكان قلق ، وأفعم بالمواطف الفوارة الثائرة ، وارتمى خالد على صدر أمه ، ولم يبق على حبس دموعه ، فراحت صفة تجمجم في حنان دافق :

— ابني . . . حبيبي .

ولم يستطع على صبرا ، فشرق بدموعه ، وعلا نحيجه ، وسحب لبيب خالدا في رفق وهو يبكي ، وإذا بزكريا لا يرى شيئا ، فقد حجبت عبراته بينه وبين الرؤية وكف دموعه ، فرأى أمه قد انهارت على مقعد قريب ، وانكفأت على وجهها تبكي أحر بكاء .

وهبط خالد في الدرج مطرقا ، وقد امتدت إليه أكثر من يد تودعه ، واختلطت في أذنيه أصوات عماته وأولادهم وهم يودعونه .

— مع السلامة . . مع السلامة .

وانساب الركب القلق في الحارة ، وإذا بسهام تطل من النافذة خافقة القلب ، دامة العين ، مجروحة الفؤاد ، وانطلق الركب إلى الميناء ، فألقى خالد بعض أقاربه وأصدقائه قد جاءوا يودعونه ، فراح يعانقهم في حرارة ، وعيناه جائلتان تبعثان عن وجه بعينه كان يشتهي أن يراه الساعة ، ولكنه لم يجده بين من خفوا لتوديعه ، فدق قلبه خلف ضلوعه حزانا .

وصعد إلى الباخرة يحف به أبوه وإخوته ، وأذن بالرحيل ، فراحوا يعانقونه خافقي القلوب ، ثم هبطوا في سلم الباخرة ، ونشيج على يكاد يمزق أوتار قلب ابنه ، الذي كان كوعاء تفجرت فيه مشاعره المتباينة ، فراحت تمور فيه ، تكاد تذهله حتى عن نفسه .

ونظر إلى الذين أخذوا يلوحون له بمناديلهم مودعين ، وقد بدأت الباخرة تبتعد عن الشاطئ ، رويدا رويدا ، وراح يبحث بعينه بينهم عن وجه بعينه ، فقد كان يرجو أن تقبل درية تودعه ، فصورتها تحتل الساعة أقطار رأسه ، ولم تحظر له سهام على بال .

قرب سيد وجهه من المرأة ، ونظر في إيمان فانتقبض ، وسرت في جوفه رهبة ، رأى بعض شعرات بيض تلعب خلال شعره الفاحم ففزع ، فالحياة بدأت تسرب من قبضته ، دون أن ينهل منها نهاية عذبة ، لم يجن منها إلا الحرمان ، كد وتمب سنوات طوالا لا شيء إلا لجسك رmqه ، كان ما يكسبه لا يكفي إلا قوته ، فأعرض عن الزواج ، لأنه لم يجد ما يتزوج به ، لا لهيب فيه ، كما كان يدعى أخوه ، كما أراد غيظه ، وما أكثر ما كان يشاكسه .

ووقف ينظر مشدوها ، وراح يفكر كيف يخرج على الناس بهذه الشعرات التي تفضحه ، إنه يفزع من الموت ، ولا يحب أن يعترف بحقيقة سنه ، كان يدعى أنه في السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين حتى أمام أهله ، وكان يحاول أن يسأله ، فكان يخرج شهادة ميلاده من صندوق عنده ، ويدفع بها إلى زكريا ، ويطلب منه أن يحسب عمره ، فإذا قال زكريا إنه قد تجاوز الأربعين ، كان ينظر إلى أبيه ويقول له في غيظ : « المسترحت الآن . . . يديان . . . يديان . . . » فيبتسم الجميع في مرح ، بينما يتدفق من فيه السباب ، ويأكله غيظه .

لن يخرج إليهم بهذه الشعرات البيض ، حتى لا يركبوه بسخريتهم ، وأخذ يتلفت في قلق ، وراح يبحث في العرفة حتى عثر على قطعة من الفل ، حرقها وراح يصبغ بها شعره ، فبدأ أحلك من ليلة اختفت نجومها ، ورننا إلى المرأة ، فاستشعر راحة ، كأنما خدع الزمن ، ومحا من عمره سنوات .

وخرج على أهله ، فألقى عزيزة وزهيرة وأمه جالسات يتحدثن في صوت عال ، لم يعد لهن في الحياة إلا الحديث ، والحوض في أعراض الناس ، فقال لهن :

— نعمن يميقرضى خمسة قروش ؟

فقال عزيزة في حدة :

— يا وكسة ، لو وجدناك قرشا لأخذناك :

— خمسة قروش حتى الغد .

فمالت زهيره وهى تنو إليه فى ازدراء :

— حتى يوم الحساب .

وصاحت به أمه :

— اذهب من أمانى . اخرج يا خايب .

وخرج سيد حانقا يجمعهم ، وانطلق فى الحارة ضيق النفس ، وزاده الظلام .
الجائهم على كل شئ ، انقباضا ، كان الليل قد دثر الكون بردائه الأسود ، وسار
سهمونا لا يدرى إلى أين يذهب ، فليس معه إلا ورقة « يانصيب » ليت صاحب
المقهى يقبل أن يأخذها منه ثمن القهوة .

انطلق يضرب على غيرى هدى ، فاترا يائسا ، حتى الأحلام عزت عليه ، فقد
هاضت قسوة الحياة جناح خياله ، لم يعد له هدف فى الحياة إلا أن يسكت صراخ
بطنه ، وإلا أن يذهب إلى المقهى يجلس مع صعبه ، يسامرهم ويشاركهم فى ضحكهم ،
فرارا من همومه .

وخطر له أن يكشف عن ورقة « اليانصيب » فذهب إلى دكان يهرقه ، وكل
همه أن يقطع الوقت ، فقد ذهب إليه مرات يكشف عما معه من أوراق ، ولم
يتسم له الحظ مرة . أصبح شراء الورق عنده عادة ، وصار الكشف عليه من
مقومات حياته ، فهو يعيش بالقرش الذى يدفعه ثمن الورقة ، لحظة فيها أمل
وفها رجاء . لحظة تشعره أنه لا يزال على قيد الحياة ، يأمل ويرجو وينفع ،
ولكن سرعان ما تنداح كفقاعة الماء .

وأخرج من جيبه الورقة ، وتناول الكشف ينظر ، وإذا به يصبح دون وعى :

— كككسبت . . كككسبت . .

وأريقت فى جوفه دنان الفشوة ، وغمرة السرور ، حتى كاد يذهله عما حوله ،

وخف إليه الرجل ينظر ، ثم صاح :

— مبارك . . مائتا جنيه . . مائتا جنيه !

ووقف سيد لحظة ، تترقرق فى عينيه الدموع ، وفكر فيما يفعله ، فاهتدى
إلى أن يذهب إلى الأستاذ زكريا ، ابن خاله ، ليهديه السبيل ، فراح يعدو كطفل
يحس أنه يطير ، ودخل على الأستاذ منفعلا ، وقال وهو يلوح بالورقة :

— كككسبت مئائتي جنيه . . . كككسبت مئائتي جنيه .
فقال له الأستاذ .

— مبارك ! غدا أذهب معك لنقبضها .

فقال في إنكار :

— غ غ غدا ؟ ! أريد أن أقبضها الآن .

— الآن ؟ في الليل يا سيد ؟

وكانما تكشف أمامه حقيقة لم يكن يعرفها فابتسم ، وغمغم :

— غ غ غدا نذهب معا .

ولم يطق البقاء ، فهو مفعم بالنشوة ، يحس رغبة أن يفضي بالنبا إلى كل
الناس ، فقد أصبح ذا مال ، فقام منفعلا ، وانصرف يجد في السير ، وهو ينكر
نفسه ، كان يستشعر أنه خلق خلقا آخر ، ودلف إلى الحارة يهرول ، وانطلق
إلى البيت يمدو ، وصعد في الدرج يصيح :

— كككسبت . . . كككسبت مئائتي جنيه . . . مئائتي جنيه !

وقاموا إليه خفافا يستفسرون :

— ماذا تقول ؟

فقال وهو يلوح لهم الورقة :

— كككسبت . . . كككسبت . . .

وجلس وقد التفتوا حوله ، قال قائل :

— ماذا ستفعل بهذا المال ؟

وقبل أن ينطق ، قال أخوه سليمان ساخرا :

— لو كان رجلا لأشرت عليه بالزواج .

فانهجر سيد فيه :

— يبييا بن الكلب .

وغطى أبوه فمه بيده ، يخفي ابتسامته ، فالسباب يتدفق في أسر في هذا

البيت ، دون أن يترك أثرا في النفوس ، وقالت عذرة متعلقة :

— كم جنبها متعطى يا سيد ؟ عشرة جنيهات ؟

فقال في حفة :

— للو كك كنت ققرشا لأخذتك . .

واستمر الحديث دأراً حول سيد وجنّياته التي كسبها ، حتى وافى ميعاد النوم
فدخلوا جميعاً إلى فراشهم ، واستسلموا للرقاد ، وبقي سيد وحده ساهراً ، لا يعشى
الناس إلى جفنيه ، كان مفعماً بالنشوة ، يكاد عقله ينذهب من الفرح ، لم يفلق
يده يوماً على أكثر من قروش ، فإذا به فجأة يجد نفسه مالكا لمائتين من الجنّيات !
وفكر فيما يفعله بذلك المال ، فلفظ الماتمى أن يفعل أشياء وأشياء إذا رزقه
الله مالا ، وها هو ذا المال يأتي إليه ، فرأى أن خير ما يفعله أن يحتفظ به ، كان
الليلة محط أنظار الأسرة ، وسيصبح غدا موضع احترام الناس ، فإذا أنفق ذهب
عنه الاهتمام والاحترام ، وما كان ليرضى لنفسه ذلك بعد أن ذاق حلاوة أن يصبح
ذا قبة بين أهله وذويه !

16

يحبي في الطريق يتلفت ، لاهم له إلا متابعة النساء بنظره ، هذه جميلة ، وهذه دقية
الخصر ، ملفوفة الساقين ، ولو شمع صدرها قليلا لكانت أروع ، وهذه سمراء ،
مفلطلة الشعر ، وهو لا يحب السمراوات الغارقات في السمرة ، وهذه كما وصفها
الأعرابي تقبل بأربع وتدبر بثمان ، وهو لا يدري ماذا يقصد الرجل بالأربع
ولا بالثمانية ، وكل ما يدريه أنه يريد أن يقول إنها امرأة خفمة ، مكنترة اللحم
والشحم ، وهو يدل في أعماقه إلى السمنة ، وإن أنكر ذلك خشيته أن يقال
عنه إنه في ذوقه كالعمد .

ورفع رأسه ، فرأى في شرفة لا ترتفع عن الأرض كثيرا ، فتاة مشرقة الوجه ، قد عصبت رأسها بعصابة زاهية اللون ، تمدلى منها أهله تضوى في الشمس ، فتبهر النظر ، ففمن لها بعينه ، فتوجت شفيتها بسمة ، فوقف لحظة يرميها بنظراته ، وهو يفكر ، لو كان بيته هنا لتوطدت بينه وبينها صداقة ، وإنه لعسير على عابر سبيل أن يصادق فتاة من أول نظرة ، ودار بعينه في المكان ، فألقى

في الناحية المقابلة لها مدرسة ابتدائية أهلية ، وكوميض البرق التمت في ذهنه فكرة ، لو أنه تمكن من أن يعمل في هذه المدرسة ، ولو في كل يوم ساعة ، لكان من اليسور أن يربط بينه وبين هذه الفتاة ، وأعجبه الفكرة ، فذهب إلى المدرسة يسأل عن غرفة ناظرها .

دخل غرفة متواضعة ، انتشرت فيها مقاعد خشبية يحلوها الغبار ، وفي صدرها مكتب متحطم تكسدت فوقه أضيائير وأوراق ، وقبع خلف المكتب رجل أشيب ، على عينيه نظارة ، إطارها من فضة ، فرنا إليه رنوة سريعة فاحصة ، ثم ألقى عليه السلام ، وسحب كرسيًا وجلس .

ورمقه الناظر الشيخ مستفسرا ، فقال يحيى ، وهو يغمض البصر ويفرك يديه :
— أنا يحيى على يونس ، طالب في السنة الخامسة الثانوية ، لا أدري كيف أمضى ساعات فراغى ! إننى لا أحب الجلوس على المقاهى ، ولا أحب أن أنسكع في الطرقات كما يفعل الشبان ، ففكرت في أن أؤدى لبنى وطنى الصغار خدمة ، ففكرت في أن أقوم بالتدريس للتلاميذ ، أن أعاونهم على فهم دروسهم ، أن أشارك في خلق جيل جديد .

وأخذ الناظر يحدق في إنكار ، فقال يحيى :

— إننى لا أبغى من وراء ذلك مالا ، فأنا والله الحمد من أسرة غنية ، وزوج خالتي بهاء باشا ، كل ما أبغيه أن أكون نافعا ، أن أنفق ساعات فراغى في مصلحة بنى وطنى ، أن أخدم أبناء جيلى ، إننى أميل إلى التدريس ، وأجد فيه لذة .

اطمأن الناظر لما وجده لا يلتمس مالا ، إنه مدرس من الهواة ، وتمنى في أعماقه لو أن كل مدرسيه مثله ، فأقبل عليه يحادثه بنفس متفتحة ، قال في حماسة :
— أ كثر الله من أمثالك يا بنى ، لو أن كل الجالسين بلا عمل على المقاهى فكروا أن يؤدوا إلى هذا الوطن خدمة لوجه الله ، كما فكرت ، لما كنا في مثل حالنا هذا . ما أ كثر الخدمات التى يمكن أن يسديها الشباب إلى هذا البلاد في ساعات فراغه .

وصفق الناظر ، يطلب لضيفه الكريم قهوة ، ولكن يحيى اعتذر بأنه لا يشربها ، فقدم إليك سيجارة ، فقال يحيى :

— متشكر ، لا أدخن .

فقال الناظر في رضا :

— ما شاء الله . . ما شاء الله .

وقام يحيى ومد يده يصافح الناظر ، ويقول مؤكدا :

— سأحضر كل يوم في الساعة الثانية بعد الظهر .

فقال الناظر في ترحيب :

— المدرسة ترحب بك في أية ساعة .

وانصرف يحيى مغتبطا ، تادوى في جوفه قهقهات مرحة ، وسار حتى إذا بلغ باب المدرسة تمهل ، ووقف ينظر الى الفتاة في الشرفة ، فلما تلاقى العيون غمز لها بهينه ، ثم ابتسم ، فانفجرت شفتاها عن أسنانها البيضاء ، ولاح في عينيها الرضا ، وظلت ترنو إليه بوجهها ، لا تتظاهر بالنفور ، فأشار إليها بيده ، وقد جمع أصابعه ، أي صبرا فوعدنا قريب ، ثم انطلق يتلفت حتى غابت عن عينيه ، ولم تغرب صورتها عن خياله

١٠٤

راح سيد يقطع الطريق في حذر ، فقد أصبح يخشى الناس ؟ ويرمق كل من يقترب منه في ريبة ، فمن يدري ، لعله لص سمع قصة ربحه ، فدنا منه يغنى سرقة نقوده ؟ ورفع يده إلى جيبه يتحسس الأوراق . فلما ألفاها في مكانها سرى في جوفه اطمئنان ، ولكنه اطمئنان قلق ، سرعان ما يفر إذا رماه عابر سبيل بنظره . ورن في أذنيه صدى صوت زكريا وهو يقول له : ضع هذا المال في صندوق التوفير ، فصم أذنيه عن ذلك الصدى ، فهو يستشعر لذة كلما تحسس جيبه ، وتنزل السكينة قلبه كلما أحس أنه صاحب مال ، أصبح لا يطيق فراق ماله ، ولن يطمأن إذا بعد عنه ، فما الذي يضمن له أن بناء البريد لن يتقوض ، أو يشب فيه حريق ؟

وبلغ الدار ، فألقى حليلة جالسة أمام الباب تنظر إليه وفي عينيها بسمة ، حتى حليلة التي كانت تبدو لعينيه كقطعة جامدة من الحجارة مستها العصا السحرية

تبسمت له ، ارتفعت قيمته في عينها ، فسر ذلك ، فقد كان يحسب أن قيمته لم ترتفع إلا في عيني نفسه . وخطر له أن يمنحها قروشاً ، ولكن نفسه الشحيحة زجرته ، وصاحت به أنه سيهود إلى فقره وهوانه على الناس إذا استجاب لنزواته ، فأطفا بصيص الرحمة الذي شمع في فؤاده ، وسار وإذا به يحس لأول مرة ثقل خطواته .

ودخل غرفته . وهم يخلع مدرعته ، وبلغ مسامحه وقع أقدام ، ففزع ووضع يده على جيبه ، واثقت مرعوباً ، فإذا به يرى أخاه سليمان يقترب منه ، وقر علت شفقيه بسمة ، انقبض لها ، وأحس كأنها إبرة تحز قلبه ، حزر ما جاء له قبل أن ينطق حرفاً ، قال سليمان في رقة :

— تعلم ياسيد أنني في حاجة إلى نقود ، إننا في آخر الشهر ، وليس معي ما نفقه أنا وزوجتي ، فأقرضني جنيهين حتى أول الشهر .
فقال سيد منتظراً :

— صحتك سيء . . . ووضعت المبالغ فنفى صصندوق التوفير .
وصحت سيد ، وإن همس صوت ساخر في جوفه شامتا : « من قال لك تزوج مادمت لا تقدر على تسكايف الزواج ، أتمع أنت وأدفع أنا ثمن متعتك ١٩ »
وانسحب سليمان دون أن يسخر منه على غير عادته ، ودون أن يعيره عدم زواجه ، ويتهمة بأنه ما أحجم عن الزواج إلا لأنه ليس رجلاً ، فقد جاء إليه معترفاً ، دون أن يدري ، أنه عاجز عن أن يحتمل أعباء الزواج ، جاء إليه يلتمس منه أن يقرضه ليعيش هو وزوجته .

وفكر في أن يخلع ثيابه ، وإذا بخالته زهيرة أمامه ، تبسم له في رقة ، فغض بصره ، حتى لا يلوغ الغضب في عينيه ، ورن صوتها في أذنيه ، فخيل إليه أنها تلمطه ، فكاد يصيح في وجهها ، ولكنه كبج جهاج ثورته ، قالت له :
— أنت نعرف مقدار معزتي لك ، فياطالما دعوت الله في الليل أن يفرج كربك ، وقد استجاب الله لدعائي .

وصمت قليلاً بعد أن أوحى إليه أن ما ساقه الله إليه من رزق كان بسبب دعواتها ، وانتظرت أن يكافئها من نفسه على ذلك ، ولكنه لج في صمته ،

فلم تر بدا من التصريح ، بعد أن تيقنت أن تلميذها لا يجدى مع ذلك البخل ،
فقلت :

— وإننى أستمع أجرا على دعوائى المباركة .

خفى ، فما جاءت تلتبس قرضا ، بل جاءت تطلب أجرا ، فقال فى المنام :

— أالأجر ووالصواب عند الله .

فقلت له فى حدة ، كأنما هضمها حقا من حقوقها :

— ربنا موجود ، ربنا يكافئك .

وغادرت الغرفة وهى تغتم :

— حكمتك يارب ، تعطى النعمة من لا يستحقها .

وأغلق الباب خلفه ، وأحكم رتاجه ، وخلع ثيابه ، ولكنه لم يطمئن إلى ترك
أمواله فى جيبه ، فذهب ودسها تحت وسادة سريره ، وصاح به صوت أنها ليست
فى أمان ، فأخذها ودسها تحت الحشية ، ولكن لم يهدأ خوفه ، فراح يفكر ،
فاهتمدى إلى أن خير ما يفعله أن يخفيها فى جوف « الجاكيت » فراح يفتق الخيط
ويدس الورق بين القماش وبطائنه ، ثم يهيد رتق ما فتق ، واستراح إلى ما فعل ،
فهدأ قلبه ، وتناول قطعة الفل وحرقها ، وراح يسود بها شعره ، وقد أشرق
وجهه بالرضا والأمل .

١٠٥

سعيد ممد فى فراشه ، يئن فى صوت خافت ، يحس كرها ، فقد ارتفعت
حرارته ، وضاق نفسه ، ومشى الوهن فى أوصاله ، كان يقاسى من الحمى التى
سرت فى بدنه ، ويزيد فى كربه ، إعراض جلال عنه ، فما كان يجلس إليه يواسيه ،
بل يتركه فى أنينه ، ويهرع إلى النافذة يتفرج .

وقف جلال فى النافذة ، فإذا بالنافذة المقابلة قد فتحت ، بعد أن أغلقت فى
وجهه ، وظلت مغلقة أياما ، وإذا بالفتاة واقفة تنو إليه فى ثبات ، دون أن تشيح
بوجهها عنه ، فألقى نفسه توسوس له أن يحبها ، فاستجاب إلى وسوس نفسه .
خفى لها رأسه محبيا ، فإذا بها ترد تحيته بانحناء خفيفة ، وبسمة رقيقة توجت شفقتها .

امتسقط قلبه من غفوته فخلق ، وتدققت في جوفه مشاعر عذبة فانشى ،
وراح يديم إليها النظر ، فألنى في عينيها سحرا غريبا يجذب إليها ، خيل إليه أنهما
تناديان ، أنهما تهمسان بأشودة خالدة رائحة ، تسكر روحه ، وترفعه إلى دنيا
جميلة من الرؤى والأحلام .

وخطر له أن يداعبها ، فأشار لها بيده أن تهبط ، ليهما معا في الفضاء ، فلم
تهبس ، ولم تغضب ، ولم توله كشحها ، ولم تغلق في وجهه النافذة ، بل ابتسعت ،
ورسمت بيديها شاربا ضخما في الهواء ، فوق شفها العليا ، ثم أشارت بأصبعها
إلى الداخل ، ففهم أن أباها هناك .

وراحا يتبادلان النظر ، فبأفصاحه عينيها ، كان حديثهما معبرا ، أفصح
من حديث اللسان ، فتفتح قلبه لها ، وانسكبت فيه مشاعر رقيقة ، فربت كنوز
نفسه ، واستشعر كأنما يهيم في حلم دائم جميل ، ويسبح في بهجة مصفاة .

وأرادت أن تداعبه ، فأشارت له بيدها أن تعال ، ولعلت في عينيها ومضة
إغراء ، لم يستطع مقاومتها ، فإذا بوسواسه يصيح به أن يذهب إليها ، وحاول
أن يعرض عن ذلك الوسواس ، ولكنه لم يتركه بل جعل يستحثه : « اذهب
إليها ، وأرض أعصابك » .

فغادر النافذة بعد أن أشار إليها أنه قادم ، فحسبته يسترسل في دعايته ،
ورأته يسير في الطريق ، ويدلف إلى بيتها ، فاشتد وجيب قلبها ، وغاضت
نضارتها ، وأحسنت كأنما الأرض تميد بها ، وهرعت واجفة مضطربة ، تستقبله
في السلم .

صعد ثابت الخطو ، وإن انداح في جوفه قلق لديد ، وراح يرقى في الدرج
عدوا ، فإذا به يجدها أمامه ، ترتجف كريشة في مهب الرياح ، وتقول له همسا :
— اهبط . . اهبط قبل أن يرانا أحد .

وتلفتت في فزع ، وقد اتسعت عيناها خوفا ، فقال لها في هدوء ، وهو
يجذبها من يدها :

— لنصعد إلى السطح نتناجى .

— أرجو منك أن تهبط .

فقال لها في إغراء وهو يصعد :

— تعالى .

فقامت له وهي تبتعد في رعب :

— اهبط . . اهبط . . أبي هنا .

فقال في همس :

— ومتى نتقابل ؟

فقامت في صوت هامس :

— أى وقت آخر .

فقال في إصرار :

— لن أهبط قبل أن تقولى لى متى نتقابل .

— غدا . . اذهب . . اذهب . أرجو منك .

وهرولت صاعدة ، فصعد خلفها ، وقال لها :

— ما اسمك ؟

فقامت وهي خائفة تترقب :

— عالية .

ودلفمت إلى شقتها ، وأغلقت الباب خلفها في خفة ، فراح يهبط في الدرج

نشوان ، ولو طاولع وسوامه لصاح فرحا ، إرضاء لأعصابه .

وعاد إلى الشقة يصفر ، فلما رآه سعيد ، التمس منه أن يصنع له شراب الليمون ،

فقال له :

— إننى لا أجد المريض ، سأبحث إلى أمك لنأنى ليمريضك .

وجلس يكتب إلى أمه ، يلتمس منها الحضور ، لأن سعيدا سقط فريسة الحمى ،

وأنه في حاجة إلى رعايتها ، وأغلق الرسالة ، وخرج يلقاها في صندوق البريد ،

وهو يصفر فرحا .

١٠٦

الثلاث يسي إلى الشرفة قبل أن يدلف إلى المدرسة ، فلم يجد الفتاة التي جعلته يتطوع للتدريس ، حتى يتمكن من « غازلها » ، فخطر له أن ينطلق في سبيله ، ولكنه عاد وقرر أن يجرب حظه ، ثم يقرر بعد ما يفعله ، على ضوء ما تأتي به المقادير .

ودخل الفصل ، وذهب توة إلى النافذة يرصد الشرفة ، ثم يسود إلى الأولاد يحادثهم ، وهو يغدو ويروح ، وعينه لا تفارقان الشرفة . وكاد يتسرب إلى نفسه الملل ، فمكر في أن يفر من الفصل ، ولكنه رأى أن يتحلم ، ويصبر على جلبة الأولاد ومضايقتهم ، فما هي إلا حصة واحدة ، ثم بعدها ينصرف .

ولحها قد خرجت إلى الشرفة ، وقد تألق قرطها الذي كان على شكل هلال ، وراحت عيناها تدوران ، كأنها تبحثان عن صيد ، فسرت في بدنه نشوة ، وهرع إلى النافذة ينظر إليها ، وتلاقت عيناها في تجوالها بعينه ، فولدت على الشفاة بسمت ، والتمعت العيون بالترحيب ، وامتلات أذناه بضجيج الأولاد ، فغادر النافذة وقال :

— افتحوا الكراسات .

وذهب إلى السبورة ، وكتب : « لا تتدخل فيما لا يعنيك » . وقال في صوت صارم :

— اكتبوا هذه العبارة عشرين مرة في كراساتكم . وإياكم أن ترفعوا رؤوسكم عن الكراسات ، فأني سأدق عنق من يرفع رأسه .

وتظاهر الأولاد بأنهم ينفذون أمره ، وإن كانوا يسترقون النظر إليه ، ويعدون عليه حركانه وسكناته . ذهب إلى النافذة ، وجعل يشير للفتاة أن تهبط لتقابلها ، فأخذت تبتسم في إغراء ، وشجعه ذلك ، فتبادى في إشارته ، وهي تنو إليه مغتبطة ، ثم أشارت له أن انتظر ، ومررت يديها على جلبابها ، ثم دخلت وهي تبتسم في دلال ، ففهم أنها ذاهبة لترتدى ثيابها .

وغادرت النافذة ، فسادت نظرات الأولاد في مثل لمح البصر إلى الكرامات ،
والثقت إلى السبورة ، وقرأ ما كتبه : « لا تتدخل فيما لا يعنك » ، فإذا بصورة
تطموح على سطح ذهنه في غمرة الذشوة ، رأى بعين خياله تلك الفتاة اليونانية
المستلثة الجسم ، التي كانت تصطاد السمك في المكس ، ورأى نفسه يقترب منها
ليرشدها صادقاً إلى الخطأ الذي ترتكبه في الصيد ، وصك أذنيه صوتها وهي
تقول له : لا تتدخل فيما لا يعنك . فاضطرب ومشى القلق في نفسه ، وضايقته
تلك الصورة فراح يطردها من خياله .

وذهب إلى النافذة ، ينظر فلم يجد لها قد عادت بعد ، فراحت الأفكار
ترحف إلى رأسه ، أفكار لا تسلسل لها ولا منطق ، فكر مرة في هل تهبط
وعلى رأسها تلك العصاة الزاهية التي تلم بها شعرها ، وإذا به يرى أنه يلف ذراعه
حول عنقها ويضمها إليه ، وسرعان ما صر بخياله مرور الطيف ، صورته وفتحية
وقد اضطجعا في « الكابينة » .

وأرشف الترقب حواسه ، فراح يذرع الحجرة نافذ الصبر ، يمد بصره إلى
الشرفة بين لحظة ولحظة ، ووقع بصره على السبورة ، فاستشعر قلقاً ، فذهب
وراح يحو ما كتبه في انفعال ، ثم عاد إلى النافذة ، وقد ثبتت عيناه إلى الشرفة .
وظهرت في زينتها ، لبست ثوباً بسيطاً ، أبرز مفاتيها ، وعقصت شعرها
في إبداع ، فزادها إغراء ، ورمته بنظرة واثقة ، وكأنما تهتف به : ما رأيك ؟
هل أعجبتك ؟ ورفت على فمها بسمة ، فقد قرأت في عينيه ما أرضى غرورها .

أدام النظر إلى جسدها المتناسق لحظة ، غففق قلبه رغبة ، واستخفه الطرب ،
فأشار لها : هيا ، وما تحركت لنهبط ، حتى راح يغادر الفصل عدواً ، واطمأن
الأولاد إلى انصرافه ، فهرعوا إلى النوافذ ينظرون .

راح الأولاد يتزاحمون على الشبايبك ، هذا يجذب ذاك ، وذاك يدفع ثالثاً ،
فارتفع ضجيجهم ، واشتبكوا يتشاجرون ، وقد انساب يحيى وفتاته في الطريق ،
يتبادلان النظر ولا يتحدثان ، كانا يترشان حتى يبتعدا عن عيون أهل الحي ،
ليقتربا فيتهما مسان ويتناجيان .

واحتلت رأس يحيى صورة « السكاينة » فهى المسكان الذى يخطر له كمال قابل فتحية أو واعدتها على اللقاء ، وتذكر أن مفتاحها ليس معه ، وأن الوقت شتاء ، فلوى شفتيه استخفافا ، ثم راح يقترب منها ليحدثها حديثا طويلا تافها ، ولكنه حديث يحرك كوامن النشوة ، وينسكب فى الآذان عذبا ، وتفتح له القلوب ، وترقص له طربا ، فهو ذخر الحياة ، وهو رصيدها الذى تنفق منه ، إذا أجدبت المشاعر ، وضحت إحساسات الهجة ، وأطفأت الرزانة جذوة الشباب.

١٠٧

سعيد يقاسى آلام الحمى فى جوف الليل ، يفتح عينيه فى وهن ، فيجد جلالا عند النافذة يتطلع إلى الفضاء ، يخطر له أن يناديه ، ليجلس إلى جواره يحادثه ، فيخفف عنه بعض آلامه ، ولكنه يستشعر أن ذلك الحاضر ينم عن ضعفه . وما كان يحب أن يبدو ضعيفا ، يستجدى العطف ، فوأن ذلك الحاضر ، وتقلب فى فراشه ضيقا بآلامه ، يئن أنينا مكتوما من الحمى .

ووقف جلال فى النافذة نشوان ، كان القمر يريق ضوءه الساحر على السكون ، فيكسوه جمالا ، ويكسبه رقة تندس فى النفوس ، فتحرك الشاعرية ، وتفسح للخيال آفاقه ، واكتملت الهجة . فقد كانت عالية فى الشرفقة ، تناجيه بإشاراتها التى كانت تناغى حواسه ، وترسل إليه نظرات متكسرة رعناء ، تزلزل كيانه .

وخفق قلبه حنانا ، وأحس رغبة فى أن يناجها ، أن يبثها لواعج نفسه ، أن يهمس فى أذنها بحديث فؤاده ، فمشاعره المذخورة تود أن تتنفس ، وطن فى أذنيه صوت نفسه يغريه أن يناديها لتقف إلى جواره يستنشق عبيرها ، ليوسوس لها بمكنون صدره ، ليعيش معها لحظة من اللحظات الخالدة ، التى تزيد فى كنوز النفوس ، فأشار لها بيده فى إغراء : تعالى ، فابتسمت وهزت رأسها فى دلال ، وأشارت له بيدها : تعال أنت ، فأحس كأن ومضات ساحرة سلطت عليه ، فغادر النافذة ، وانطلق إلى الباب كالماخوذ .

وهبط فى الدرج يدثره اضطراب لذيذ ، وانساب فى سكون الليل كالطيف ،

وانطلق إلى دارها يترقب ، لا يفكر فيما يقدم عليه ، فقد استولت على مشاعره
فكرة واحدة ، أن يقف معها في ضوء القمر يتهاوسان ، وأن يسمع منها حديث
الهوى ، الذى يعيد إليه ثقته بنفسه ، ويثبت له أن هناك من يهتم به ، ويجازف
من أجله

وصعد إليها خافق القلب كالمسحور ، وتلاقيا في الدرج ومكثا لحظة في دهش ،
لا ينبسان بكلمة ، وإن تحدث الشعور ، وصعدا إلى السطح يحسان من روعة
مشاعرها أنها في حلم لذيذ .

ووقفوا في ضوء القمر الفاتن يتبادلان النظر ، فتفتح قلباها ، وخيل إليها
أن روحهما يسبحان معا في عالم من الوجد اللذيذ ، فتمنيا في أعماقهما لو أن
هذه اللحظة تدوم ، ودنا منها والنصق كتفه بكتفها ، ومدا بصرها إلى الأفق
البعيد ، كأنما كانا يؤديان صلاة صامته عميقة ، صلاة بليغة ، يؤجج حرارتها
تسبيح القلوب

ورأى أن يتكلم ، ولو طاع نفسه للبح في الصمت ، فقد كان مفعها بالنشوة ،
فالتفت إليها وقال لها :

— أتدري أنك جرحت كبريائى ، يوم أغلقت النافذة فى وجهى .

فقالته وهى تبسم :

— أغلقتها فى وجهك ، وجعلت أنظر إليك من خصائصها .

فأرضى ذلك غروره ، فتال لها فى سرور :

— حقا ؟

وترقب حديثها فى لهفة ، سره أن يرى فتاة مثلها تهتم به ، قالت :

— رأيتك قبل أن ترانى ، فأحسست نحوه انجذابا ، وشعرت فى أعماقى

أن القدر يخفى لنا فى غيبه شيئا ، لعله قد نسج لنا معا من خيوطه قصة ، أو لعله
يدخر لنا السعادة ، أحسست أن هناك خيطا يريد أن يربط بيننا ، فعزمت أن ألفت
نظرك إلى ، فلما تلاقى عيوننا وابتسحت لى ، أغلقت النافذة فى وجهك ، لأؤكد
لك أننى أهتم بك ، وأخذت أرقبك أياما من خصائص النافذة ، كان قلبى يغربنى
أن أفتح النافذة وأحييك ، وأهتف بك أننى أريدك ، ولكنى قاومت أغراءه

لأريدك لحظة ، ولم أفو على الاستمرار في ذلك طويلا ، ففتحت النافذة ، وأنا أخشى أن تعرض عني ، انتقاما لكبريائك ، ولكن ما إن انحنيت لي ، حتى رددت تحيتك باسمه الزواد .

واستمرت المناجاة بينهما عذبة رقيقة ، وقد غمر جلال السرور ، فقد كان يصفى إلى أحب حديث إلى قلبه ، إلى الحديث الذي يدور حول نفسه ، فألى جواره فتاة جذابة ، تروى له تعلقها به ، واهتمامها بشخصه .

ومرت الساعات كلح البصر ، وهمست عليه :

— أرى أن نتصرف ، قبل أن يرانا أحد ، ويسىء الظن بنا .

وانسلت من جواره في خفة بعد أن ودعته ، وانصرف يترقب ، وقد هلى نشوة ، وما كان بينهما إلا حديث الهوى .

وفتح الباب في خفة ودخل ، فمس أذنيه أنين سعيد ، فانطلق إليه يسأله :

— ما بك ؟

فقال سعيد في صوت خافت :

— رأسى يكاد ينفجر ، ارتفعت حرارتي ، وطار النوم من عيني .

فقال جلال وهو يتنهد :

— لو قيست حرارتي الساعة ، لكانت أزيد من حرارتك .

وذهب إلى فراشه ، وراح يهيم في الأحلام .

وأشرقت الشمس ، وقام جلال يرتدى ثيابه قبل الانطلاق إلى الجامعة ، وجعل يندو إلى النافذة ينظر ، كلما ارتدى قطعة من ثيابه ، وسمع طرقا على الباب ، فذهب وفتح ، وإذا به يصيح في فرح :

— أحي ! مرحبا بك .

وفسح لها الطريق ، فدخلت مهرولة إلى حيث كان سعيد ، ورمته بنظرة أودعتها كل حنانها ، ولم يقو سعيد على مغالبة عواطفه ، فأجهش بالبكاء . كادت دموعها تطفر من مآقيها ، ولكنها غلبت عواطفها كعادتها ، وشمخت برأسها ، وقالت :

— ما جئت إليك لتبكي .

وخجل سعيد من ضعفه ، إنه لا يذكر أنه بكى قبل الساعة ، فكفكف دموعه بظهر يده ، وأشرق وجهه بابتسامة ، كانت كشروق الشمس بعد الغمام .

١٠٨

ران على الحارة هدهد ، فقد هجبت الأسرات حتى صوت النجور ، وعاد الناس إلى دورهم ، حتى حليلة انسلت إلى جحرها ، وغرقت الدار في الصمت ، وإن طوت في جوفها آلاما وآسالا ، وماسى وأحلاما ، ونبضات حارة ، وأنفاسا هادئة مترددة ، كل غايتها في الحياة أن تظل في شبهة وزفيرها .

ارغمى حسان في فراشه ينط في نومه غطيظ الخنازير ، فهو لا هم له إلا أن يفر من نفسه ، يخشى أن يتلف خلفه رهبة من ماضيه ، ويهاب أن ينظر أمامه فرعا من مستقبله ، فخير ساعات حياته هي تلك الساعات التي يعيشها في غفلة من حواسه ، لذلك يحاول دواما ألا يفارق من مكروه ، وأن يظل مخدرا غائبا عن الوجود .

ونام على سرير الدين ، فقد خلع متاعبه وألقاها على زوجته ، فما عليه إلا أن يعمل ، وأن يضع في يدها ثمرة عمله ، ويألفها من ثمرة لانشبع ولا تغنى من جوع ؛ ثم عليها أن تحمل عنه أعباء الأسرة ، وأن تدبر أمرها ، وأن توفر له كل ليلة ما ينفقه في المقهى على نفسه ، وعلى بعض الوافدين عليه من أصحابه ، فهو رجل كريم .

وغفلت عينا صافية ، ولم ينم قلبها ، فهي تفكر في خالد الحبيب البعيد ، وفي جلال ، وفي سعيد ، وفي لبيب ، فهي لا تدري كيف أمضوا الليلهم ، وأين ناموا ؟ وماذا يقاسون ؟ فهم هناك ، بعيدا عن قلبها ، والقلب لا يشغل إلا بالبعد .

ولم تعد تلك المرأة القوية ، التي تسكت مشاعرهما ، لتبدو وطيدة لا تهزها الأنواء والأعاصير ، ولا تزعزعها الأحداث ، بل أحست الوهن يدب في روحها فأصبحت فريسة سهلة لأوهامها ، صارت تستسلم لشرودها ، وتنقبض لتصوراتها وتذرف الدموع لحاظر متشائم يطوف بها .

أنفقت ذوب نفسها في سبيل أبنائها ، قامت الحرمان وذرفت العرق ، لتراهم رجالا نفخر بهم ، فلما دنوا من أهدافهم ، باتت تخشى أن يفجعها القدر في أحدهم . سافر خالد إلى إنجلترا ، وابتعد عنها ، فجعل وسواسها يوسوس لها أنه ذهب

ولن تراه ، فعاثت في قلق دائم لا تدرى منتهاه ، ومرس سعيد بالحمى ، فبكت حتى كادت كبدها تتصدع من البكاء ، وخضت إليه مضطربة قلقة ، وإن نجحت في أن تبدو أمامه مطمئنة هادئة .

وهجم زكريا . بعد أن جرى منقبضا وراء أماله ، صار محاميا معروفا ، وراحت الأحزاب تخطب وده ، وإنه ليجد في نفسه ميلا إلى السيامة ، ولكنه يرى أن يترث قبل أن يملأ من ميله ، فما كان زكريا يقرر رأيا إلا بعد إيمان وروية . وخطر له قبل أن ينام أن يغادر الحارة ، أن ينتقل بأهله إلى شارع آخر يليق بهم ، ولكنه رأى أن ينتظر حتى يتم جلال وسعيد دراستهما ، فهما في حاجة إلى نفقة ، والإنفاق عليهما أولى من المظاهر الكاذبة .

ورقد يحيى ، وقد ارتسمت على شفتيه بسمة هادئة ، فكرر فيما فعله في يومه قبل أن يدخل إلى فراشه ، فعزم على ألا يذهب إلى المدرسة التي تطوع للتدريس لتلاميذها خدمة لأبناء جيله ، كما زعم لناظرها ، الذي سره أن يرى معلما مثاليا ، يعمل دون أن يتقاضى منه أجرا ، وعزم على ألا ينطلق إلى الحى كله ، فقد راحت الفتاة التي تطوع للتدريس من أجلها ، تطالبه بأشياء لم تخطر له على بال يوم فكر في مغاللتها ، راحت تغريه أن يفرا معا ، وأن يتزوجا بعيدا عن أهلهما ، وأن يعمل ليبنى عشمهما الجميل ، فخرام أن يضيع شبابه في مقاعد الدرس ، فالواجب على من كان مثله أن يشق طريقه في الحياة بساعده ، وأن يكون له بيت . إنه لا يميل لمثل هذه الفتاة ، التي تريد أن تتعلق بعنق أول من يغازلها ، كان مرتاحا لصداقة فتحية ، يمضى معها سويحات في « الكابينة » ، ثم ينصرف كل منهما في سبيله ، دون أن يرتبط أحدهما نحو الآخر بمواثيق وعهود ، ودون أن يحاول أن تغريه بالفرار من أهله والتزوج بها .

وبقى سليمان يقظان ، وإن هجم الناس ، واستغرقوا في نومهم ، كان يداعب زوجته وتداعبه ، فساعات الليل هي ساعات الهدوء في حياته ، يعيش لها ويحيا بها ، ولولا لحظات النشوة التي يجسمها وهمه ، لكانت حياته جحيا ، فهو يعمل في العنابر منذ سنوات دون أن يزيد راتبه قرشا ، وإن زادت أعباؤه بعد أن تزوج . إنه يقاسى الحرمان ، ولولا أن من الله عليه بعدم الخلقة لقاسى الكثير من وطأة

الحياة وتكاليفها ، ولكنه لم يحمد الله على هذه المنة ، بل كان يشتهي الولد ، وإن قاده ذلك إلى الاستجداء واستكفاف الناس .

ووقف سيد أمم الراة ، وقد حرق قطعة الفل ، وراح يسود بها شعره ، ليخدع الناس عن حقيقة منة ، كان هادئا مطمئنا ، يحس أن نظرات الناس إليه قد تبدلت بعد أن ربح ورقة « اليانصيب » ، وإنه ليحس تغيرا في أعماقه ، أصبح ينظر إلى نفسه في توقير واحترام ، لقد رفعه المال في حساب نفسه وفي حساب الناس ، فوطن النفس على الإبقاء على هذه الجنيئات التي كانت كالعصا السحرية . والتفت إلى « الجاكطة » المعلقة في المشجب ، فرفت على شفثيه بسمه ، ولكن سرعان ما غاضت البسمه ، ونبت في صدره قلق ، رأى بطانة « الجاكطة » متهدلة ، فهرع إليها في فزع ، وراح يتحسس كنزه فلم يجده ، قطعت « الجاكطة » بشفرة حادة ، وسرق ماله

ولم يحتمل الصدمة ، خيل إليه أن مطارق هائلة راحت تهوى على رأسه ، وأن أنينا مروعا مكنوما مزق قلبه ، واشتدت آلامه حتى فاضت عن احتماله ، ثم أحس كأنما يغيب عن الوجود ، وينهار كجدار يتقوض .

وأشرقت شمس الصباح ، وخرج الناس إلى أعمالهم ، وبقي سيد بمددا شاخصا ببصره الجامد في رعب نحو السقف ، لم يخرج يسعى كما يسعى الناس ، ولن يخرج بعدها أبدا ، قضت عليه المفاجأة ، ففاضت روحه ، وفي يده قطعة الفل ، التي أراد أن يخدع بها الزمن .

١٠٩

سعيد منطلق إلى كاية الطب ، بعد أن برأ من مرضه ، وفيما هو في سيره شارد اللب ، يفكر في يومه ، وقعت عيناه على فتاة في ثياب المدرسة السوداء ، فخفق قلبه واضطرب ، وألقى نفسه يرمقها في اهتمام .

لم تكن رائعة الحسن ، ولكن كان فيها شيء جذبها إليها ، خيل إليه أن روحه هنا إلى روحها ، وأن وجهها ينضح بصفاء نفسها ، أنه يشتهي أن يظل

يرنو إليها ، وانسابت في طريقها دون أن تتلفت ، فإذا به يتبعها على البعد كالسحور ، وقد راح فؤاده يدق في جوفه نشوان .

سار خلفها تدثره غيبوبة المدينة ، يحس إحساسات صافية عذبة ، إحساسات روحية ، لم تشب نقاءها ورغبة ، لم يفرز صفاتها جسمها بعينيه ، ولم يستهوه شعرها الأسود السبط ، ولم يحرك عواطفه صدرها الناهد ، ولم يصبوب عينيه إلى ساقها ، فقد أحس في أعماقه أنها روح يحب ، وأنه يسعد أن يحيا في مجالها .

وبانت المدرسة السنية ، قدلفت إليها كالطيف ، وتسمر في مكانه لحظة ينعم بمشاعره ، ثم دار على عقبه ، وعاد من حيث أتى شارد اللب ، هائما في عالم لذيذ ، تسبح فيه حواسه لأول مرة ؛ خفق قلبه قبل اليوم ، ولكنه لم يخفق خفقانا لذيذا كما يفعل اللحظة ، وسرح فكره ، ولكنه لم يسرح مثل الساعة في مسارح بهيجة رقيقة ، منعمة بالعبطة . نقلته نظرة من عالمه إلى عالم جديد رحيب ، فتحت مفاليقه في نفسه ، عالم فرح به وأدهشه ، حتى حسب أنه لم يطل عليه أحد قبله .

وخرج من مجال أثرها ، فأفاق إلى نفسه ، وراح يفكر في أمره ، فقد رأى في هذا الطريق فتيات كثيرات جميلات ، ولكن لم تجذب إحداهن بصره ، كان يلتقي عليهن نظرة عابرة ، وما أسرع ما تخفى صورهن في ضباب ذهنه ، فما باله اليوم ينطلق في أثر فتاة مسلوب الإرادة ، كأنه عباد الشمس يدور في فلك معبوده ؟ إنه لا يدري ماذا دهاه ، وكل ما يدريه أنه مغتبط بهذا الحنان المتدفق بين ضلوعه ، مسرور بنفسه التي تفتحت فيها آفاق جديدة غنية بالروعة والسحر والجمال .

ووصل إلى القصر العيني ، ودلف إلى حجرة الدرس ، وراح يصفي إلى ما يلتقى عليه ، ولكنه لم يقو على تركيز فكره فيما يسمعه ويراه ، كان ذهنه يشرد لحظات ، ويتمثل له الوجه الصافي الذي ينطق بالنقاء ، فيخفق قلبه في حنان ، وتلتمع عيناه سرورا بالانفعالات السارية في كيانه .

ودنا ميعاد انصراف المدارس ، فاشتد وجيب فؤاده ، وراح يقطع الطريق الموصل إلى المدرسة السنية منفعلا ، وقد وسع خطاه ، ولاحت المدرسة لعينه

فأحس كأنه غارق في غيبوبة لذيذة ، وراح يحدو ويروح وهو يرقب باب المدرسة
وفي جوفه طمعة وتشوق وآمال .

وطن في أذنيه دق الجرس ، فقفز قلبه في رعونة ، وانه قلق ، ومد بصره
مستطلعا ، وقد اقترب من الباب . وتدققت أسراب الفتيات . فلم تجذب واحدة
منهن بصره ، كان مشغولا عنهن بتلك التي خفق لها قلبه ، وانجذبت إليها نفسه ،
وامتزج بها روحه ، وخيل إليه أنه عرفها من أزمان .

أسرعت ضربات قلبه ، وتتابعت أنفاسه ، وأرهفت حواسه ، وانتابه قلق
يشتهي ، وإذا به يراها تنساب بين صديقاتها ، فيسير في أعقابها مشدوها مضطبا ،
تدثره سعادة ، وتمرح في جوفه غبطة ، ويستولي عليه الرضا .

وانشأت عن صوخباتها ، وانساب في طريق هادئ وحدها ، فلم يخطر
له على بال أن يدنو منها أو يحادثها ، بل ظل يتبعها على البعد ، وهو قانع بالظفر
إليها ، يضبطه كل الغبطة أن يكون هو وهي في طريق واحد .

وتمنى من كل قلبه أن يطول الطريق ، وأن تستمر هي في سيرها ، وأن يستمر
هو في اقتفاء أثرها ، لتدوم النشوة حتى يسعد بها ، ولكنها عرجت إلى بيت
متواضع من البيوت العتيقة التي تطل على القصر العيني ، فأسرع ليلقي عليها نظرة
وداع ، وهي في صعودها في السلم .

وغابت عن عينيه ، ومشاعره تتدفق حنانا بين حنايا ضلوعه ، ووقف شارد
البصر لحظة ، ثم انصرف مضطبا ، بعد أن تزود منها ، فخير زاد المحبين نظرة
تلهب الخواص ، وتطلق للخيال الأعنة .

١٠٩

وعاد جلال إلى الإسكندرية يمضى نهاية الأسبوع . أخذه صديق في سيارته ،
بينما بقي سعيد في القاهرة ، يحوم حول بيت الفتاة ، التي وهبت له أجنحة بحلق
بها في عوالم مسحورة من النشوة والجمال .

وصل إليها في الليل ، وما استقر في البيت سويعات ، حتى رغب في الخروج ،
وألقي يحي يتأهب للهبوط ، فنهض ليخرج معه ، ومرا في نزولهما على سليمان ، فقد

كان يحيى يعضى معه شطرا من الأمسية ، ثم ينصرفان ، وهذا إلى كتيبه ، وذلك إلى زوجه .

وجلسوا في مقهى قريب يتسامرون ، وراح جلال يرنو إلى « البنطلون » الذى يرتديه سليمان ، كان « بنطلون » سيد ، الذى كان لا يفارقه إلا إذا دخل فراشه لينام ، وطافت بجلال موجة من الرقة ، فترد بذهنه ، يفكر فى ذلك البائس ، الذى كانت كل أمنيته فى الحياة أن يرزقه الله مالا ليقضى على متاعبه وآلامه ، وليعيش فى الدنيا هائلا كما يعيش الناس ، فلما جاءه المال لم يبدد شقاوته ، بل بدد حياته .

وفطن سليمان إلى نظرات جلال ، فقال فى هدوء :

— الله يرحمه ، مات ولم يسبب لنا متاعب ، ولم يترك خلفه مشكلات ، لم ندخل بسبب تركته المحاكم متخصصين فى ميراث ، ولم نعرف طريق المجالس الحسبية ، ولم تتغير نفوسنا ، فما أيسر تقسيم ما ترك ، أخذت « البنطلون » وأخذ أبى « الجاكيت » .

فقال يحيى وهو يبتسم :

— والخذاء ؟

فقال سليمان ، دون أن يتهدج صوته ، أو يحس فى ضميره وخزا :

— تصدقا به على روحه .

وراحوا يتذاكرون نوادره ، وهم يضحكون ، كأنما يتندرون بقصة قرءوها فى كتاب ، وكأنما لم يكن سيد بينهم ، يشاركهم فى بعض الأمسية ، وكأنما لم يكن قطعة منهم ، ابتلعها المجهول ، وكأنما الأمر لم يكن يستحق تدبرا أو تفكيرا !

ومضت سويحات ، ثم عادوا إلى الدار ، وذهب جلال إلى فراشه ، وإذا بخاطر ينساب إلى ذهنه فيشغله ، ففكر فى عفافى ، فرآها تنطلق فى خياله ، وطرف ثوبها يترجح خلفها فى توافق ، فهى تترقص فى مشيتها ، فيتخرج جسمها الممتلىء ، كأنما يهتز على أنغام موزونة ، ليثير النفوس ويجذب الأبصار . واقتحمت أفكاره مخبريتها به ؟ واعدته أكثر من مرة ، ولم توافه فى الميعاد ،

فتماصرت نفسه ، واستشعر تضارؤا ، وثار دمه في عروقه ، واشتهى لو يرجيه لها
إهانة قاصمة ، لينتقم لكبريائه ، ويعيد إلى نفسها ثقتها .

وأرخت خياله العنان ، فتمنى لو أن عليه هنا في الإسكندرية ، إذن لأخذها ،
وذهب بها إلى شارع محرم بك ، ولتهد أن تقع عينا عفاف عليهما ، وهما معا ،
لتزق نياط قلبها ، وتطعن كبرياءها طعنة نجلاء ، فقد صار كل ما يرجوه ، أن
يمرغ أنفها في الرغام .

وأشرقت شمس الصباح ، فارتدى جلال ثيابه ، وانطلق إلى محطة
« الأوتوبيس » . ووقف يرقب قدوم عفاف .

ولحها في مقدمها ، فانسل وجلس إلى جوارها ، وقال في نبرات هادئة :

— صباح الخير .

فقلت وهى تبسم :

— صباح الخير ، متى عدت ؟

فقال في اقتضاب :

— أمس ، وسأعود غدا صباحا .

أحست أنه تبدل ، خيل إليها أنه صار رجلا آخر ، لم تبد في عينيه لهفة ،
حتى نبرات صوته كانت تنذر بالهفاء ، وانتظرت أن يلتبس مقابلتها ، ولكنه
لم يسمعته ، وكأما خشيت أن تفلت منها الفرصة ، فقلت :

— ومتى أراك ؟

— ليس أمامك إلا هذه الليلة .

ورن قوله في أذنها غريبا ، ليس أمامها إلا هذه الليلة ؟ كأن الأمر يعنيها
وحدها ، وخطر لها أن تصمت حتى يتكلم ، حتى يتوصل إليها أن تلتقا ، ولكنه
لم ينبس بكلمة ، فقلت :

— انتظرني في الساعة مساء .

فقال في عزم :

— ولن أنتظر بعدها دقيقة واحدة

وهبطت ، وسارت ترقص ، وهو يرقبها من الزجاج ، ثم مرد يفكر فيما يفعله ،
ارضاء لغروره إذا ما وافته في الميعاد .

وانقضى النهار وهو يفكر في عدم الذهاب إليها ، انتقاما منها ، ولكنه كان يجد ذلك نصرا رخيضا ، فما يدريه أنها قدمت ولم تجده ، وأن ذلك نال من كرامتها ، إنه يريد أن يراها تتحطم أمام عينيه . وفكر في الذهاب ، ثم الاعتذار إليها ، كما فعلت به مرة ، وينصرف بعد أن يشمل شكوها ، ولكن ما كانت هذه الأفكار ترضيه ، إنه يريد أن يذلها ذلا قاصما ، لاذل بعده .

وفي الساعة السابعة مساء ، كان ينتظر وقد انبهت في جوفه قلق ، خاف أن تخلف وعدا ، فتنتقم منه قبل أن ينتقم منها ، وتزيد في إذلاله قبل أن يذلها ، ولكن سرعان ما غمرته راحة ، فقد لمحها قادمة .

وانطلقا معا يتسامران ، وبلغا مكانا هادئا ، يدثره ظلام ، فلان ذراعه حول خصرها ، وراح يضمها إليه ، فامتلا نشوة ، وأحسن كأن زغاريد تدوى في جوفه ، واستمر يحدثها حديثا ناعما ، فرنت إليه في رغبة ، كأنما تهتف به أن يحتويها في أحضانه ، ولي نداءها ، وضمها إلى صدره ، وهمس في أذنها كلمات ، فاستسلمت له ، وراحت تتخلف من بعض ثيابها .

ورأى لحظة انتقامه قد حانت ، فعادرها وانصرف مهرولا ، وهي تنو إليه مذهولة محطمة ، تحس كبرياءها تدمى ، وغاب في الظلام تدثره نشوة ، وتطن في أذنيه أهازيج النصر والظفر .

١١١

قام سعيد في البكرة يرتدى ثيابه ، تدثره نشوة ، وتعلؤه رقة ، وذهب إلى المرأة يحكم رباط « الكرافة » ، ويمشط شعره الكستنائي ، ثم يذرع الغرفة خفيفا نشيطا ، واستيقظ جلال على حركته ، فنظر إليه في إنكار ، وقال :

— إلى أين تذهب الساعة ، ولن تبدأ المحاضرة الأولى قبل العاشرة ؟

فلمعت عينا سعيد ، ولم ينطق حرفا ، وقال جلال وهو يتمطى :

— لم أعرف قيمة طباخنا إلا بعد أن ذهبت إلى بيتنا ، فلولا ما شعرت

بامتياز الأصناف التي تقدمها أمي .

ولج سديداً في صمته ، وفطن جلال إلى شروده ، فقال له :

.. ما بك ؟ أُنحِب ؟ !

فرفت على شفتي سعيد ابتسامة عذبة ، وانفتل من الغرفة خفيفاً ، كأنما يهيم في الفضاء ، وراح يهبط في الدرج عدواً ، وانساب في الطريق ، تدفقه حرارة قلبه إلى توسيع خطاه ، وذهب إلى دارها ، ووقف يرقب هبوطها خافق القلب نشوان .

تدققت في الشارع السيارات والمركبات ، وأسراب الفتيات ، وجوع التلاميذ والطلبة ، وخرجت من القصر العيني سيارة إسعاف ، ولكنه صم أذنيه عن هذا الضوضاء ، ولم تجذب بصره الحركة الدائبة النشيطة ، كان غائبا عن الوجود في نفسه ، يسعد بإحساساته ، ويركز كل مشاعره في الباب الذي سينجاب عنها . ولحها في ثوبها الأسود البسيط ، تدرج في الطريق ، فراحت مشاعر النشوة تتفجر فواره بين ضلوعه ، ولفه اضطراب لديد ، فراح يتبعها على البعد كالتابع الأمين ، يسير كالمسحور ، يحس ما يحسه الغارق في حلم بهيج .

لم يفكر في أن يقترب منها ، ولم يخطر له أن يجذب بصرها إليه ، ولم توسوس له نفسه ، أن يتفرس في وجهها ، وأن يحصى محاسن جسدها ، كان راضيا كل الرضا أن يحس وجودها ، وإنه ليرضيه أن ينقضي الزمن ، وهو ينو إليها من بعيد .

واجتاز قضبان سكة حديد حلوان وما شعر ، فما كان يعيش في واقعة ، بل كان يهيم في عالم جميل من مشاعره ، يغلفه ضباب يزيد حسنا ورواقا ، ودنت من مدرستها ، ففأ إلى نفسه ، طي دقات قلبه ، فألفاها تتقدم رشيقة كملك ارتدى السواد تواضعا ، فوقف ينو إليها في وله ، وكل خالجة فيه تصيح بها : « مع السلامة » .

وغابت عن بصره في أعماق البناء الرمادي الضخم ، ولكنه ظل يسعد بما تركته رؤيتها من آثار بهيجة ، وانصرف ليعود إلى الدار ، متفتح النفس ، لا يعد بصره إلى شيء حتى يرى فيه جمالا ، رأى مولد النهار رائعا يحرك مشاعره ، والناس في غدوهم ورواحهم يحسون أوتار الحنان في نفسه ، كان مبهجا ، فلاح لعينه كل شيء بهيجا .

وطرق الباب في خفة ، وما هي إلا لحظات قصار ، حتى فتح الباب ، ولاح جلال وفي عينيه تساؤل ، ولكن سعيدا لم يفتن إلى شيء ، وانطلق إلى السرير ، وارتدى فيه بثيابه ، ليطلق لخياله عنانه ، يهيم في عالم الرؤى العذاب .
وطن في أذنيه صوت جلال :
— قابلتها ؟

وتأملت عينا سعيد بالرضا ، ولم يتكلم ، فقال له جلال :
— وماذا قلت لها ، وماذا قالت لك .
ولج سعيد في الصمت ، فقال له جلال في سخرية :
— لا . أنت عاشق من عشاق الروايات .

ووضع مضرب الكرة تحت إبطه في رشاقة ، ووقف يديم النظر إلى نفسه في المرآة ، ولما اطمأن إلى هيئته ، انطلق إلى الشباك ينظر ، ثم هبط إلى الشارع ، وهو على ثقة من أنه سيجذب إلى نفسه أنظار الفتيات .
وساد الغرفة صمت وجمال ، فشرد سعيد بذهنه ، وأسبل جفنيه ليحلق في سماء الحب بأجنحة الخيال .

١١٢

عاد جلال من الكلية مزهوا ، يحمل مضرب الكرة تحت إبطه ، وقد رفع رأسه إلى النوافذ والشرفات ، ليرى أثر مروره ، في فتيات الحى ، فهو يعتقد في قرارة نفسه أن رشاقته تجذب الأنظار .
ورأى عليه في الشباك تبسم له ، وقد تأملت عيناها الطائشتين بنداء ، فرفت على شفثيه بسمة ، وخفق قلبه بالرضا عن نفسه ، وحنى رأسه في رشاقة ، فأشارت له بيدها أن اصعد ، فدار رأسه ، وخارت مقاومته ، وعرج إلى بيتها خفيفا يستشعر غبطة ، وراح يرقى في الدرج قفزا . فألمهاها تنتظره ، هادئة مشرقة الوجه مرحبة مبهجة ، فمد إليها يديه وتناول يديها ، وراحا يتبادلان النظر صامتين وإن تدفقت في شرايينهما الدماء الفوارة .

وجذبها معه وهو يحاول أن يرقى في الدرج ، فقالت له فى دلال :

— إلى أين ؟

فقال هامسا :

— إلى السطح .

— لا . تعال معي ؛ خرجوا جميعا وتركوني وحدى . تعال نتسامر .

ودلفا إلى الشقة ، وأغلقا الباب خلفهما ، وراحا يتناجيان مسجورين ،
فنسيا فى غمرة النشوة كل شئ ، حتى أنفسهما ، وراح الوقت يعدو ، لا يحسان
مروره ، وإذا بصوت مفتاح فى الباب يوقظهما من أحلامهما ، ويهبطهما من
سمائهما إلى الواقع الفلق ، المضطرب ، فإذا بهما يمدان البصر إلى الباب ، وقد
اتسعت عيناهما رعبا ، وتخلخلت مفاصلهما ، وسرت فى جسدتهما رعدة ، وكادت
روحاهما تفر من بين ضلوعهما .

وسمع فى الردهة الخارجية وقع أقدام وأصوات ، فلم يفكر جلال فى الفرار ،
بل تسمر فى مكانه كتمثال ، يحاول أن يجمع شتات نفسه ، ولكن هيهات ،
فقد تفرقت شعاعا ، وغاض لون عليه حتى بدت كالأموات .

وارتفع صوت الأقدام ، قرن فى آذانهما رنيناً مروعا ، حطم أعصابهما ،
حتى كادت عليه تنهار ، وبقي جلال مشدوها ، يحس مشاعره القلقة تمور فى جوفه ،
حتى تكاد تكتم أنفاسه ، لم يعد يحتمل الانتظار .

ولاح أخوها أمامهما ، فجفلا كأنما ظهر لهما شيطان ، وأخذ الأخ يحنق
واضطرب وفقرقاه ، ثم دنا من جلال ، وقال وهو يزأر فى غضب ، وقد راح
صدره يعلو وينخفض :

— ماذا تفعل هنا ؟

فقال جلال فى صوت خافت ، لم يزايله الاضطراب :

— أنت شاب مثلى ، وأنت تعرف ماذا أفعل هنا .

أحس الشاب كأن سوطا هوى على وجهه ، فراح يزجر ، ويئن أنينا مكتوما
يمزق فؤاده ، ويقول :

— من أنت ؟ وماذا جاء بك هنا ؟ بالفضيحة !

قال جلال في زهوهِ حتى في هذه اللحظة الجرجة ، المعنة في الحرج :
— أنا شاب في كلية الحقوق ، جئت أخطب أختك ، فلم أجد هنا أحدا غيرها ،
فانتظرت حتى تعودوا .

فرماه الأخ بنظرة حاتقة ، وأحس رغبة في أن ينقض عليه ، وأن يكتم
أنفاسه ، ولكنه كبح جماح ثورته ، خشية أن يسمع أقاربهم ، الذين جاءوا معهم
بهذه الفضيحة ، فانسَل من الغرفة ، وقد أغلق بابها خلفه ، وماهى إلا لحظة حتى
عاد ومعه أمه ، ترتجف من الهول ، كما ترتجف قصاصة الورق ، إذا هبت عليها
ريح صرصر عاتية .

نظرت الأم إلى ابنتها من بين العمامة التي أسدلت على عينيها ، وقالت لها وهي
تولول ، وتصك وجهها في يأس :

— يا لعارى يا عليّة . . أين أخفى وجهى ؟ ماذا أقول للناس ؟ يا لعارى أنت
السبب . . لطخت شرفنا بالوحل ، أنت سبب كل هذا ، لولاك لما كان هنا . . ،
ماذا أفعل ؟ لك أب يعرف شأنه معك . لك أب . . لك أب .

فقال جلال في صوت مضطرب خافت :

— أين أبوها أحدثه .

فقالَت الأم في فزع :

— ماذا تقول له ؟

— أقول له إن ابنته شريفة ، وإننى ما جئت إلى هنا إلا لأخطبها ، وأنه
يشرفنى أن أزوجهها ، ويسرنى أن أسمع موافقتكم .

فقال الأخ في حنق :

— كل ما نريده منك أن تذهب الآن ، وأن تقطع صلتك بها .

فقال جلال وهو يبلع ريقه :

— أعدك .

وأخذ الأخ ليخرجه في هدوء ، دون أن يفطن الزوار لخروجه ، وما أغلق
الباب خلفه ، حتى راحت الأم تلتدم ، ثم انهارت على مقعد قريب ، وهى تجمجم
في صوت تخنقه العبرات .

— يا لعارى . . يا لعارى ، أين أخفى وجهى من الناس ؟

١١٣

ترادفت الأيام ، وسعيد يذهب كل صباح إلى شارع القصر العيني ، يرقب هبوطها خافق القلب ، فإذا لمحها تنهدى في الطريق ، وتنساب في سبيلها في ثوبها الأسود ، انطلق في أثرها تشوان ، يستشعر أمنا ورضا ، حتى إذا غابت في مدرستها ، قفل راجعا إلى الكليّة أو إلى البيت ، مفعبا بالغبطة ، يسبح في خيالات شاعرية ، تهفو إليها نفسه ، ويفرح بها فؤاده .

وكان ينتظرها عند انصراف المدارس ، فإذا خرجت مع صديقاتها ، تبعها كالسحور ، لا يفكر في أن يدنو منها ، أو يلغظ نظرها إليه ، فقد كان في رؤيتها السكافية ، فإذا ما اطمان إلى أن البيت السعيد قد احتواها ، انصرف راضى النفس ، يلتذ بخيالاته .

كانت رؤيتها في العدو والأصاال تغمره بالسعادة ، وثبتت بذرة الحب في فؤاده ، وكانت مشاعره تسقيها بفيض من الحنان الدافق ، فتتعمق جذور الحب في قلبه وتنشعب في ضميره ، فتستولى على لبه وتفكيره ، تيقن على مر الأيام أن حبها سرى فيه سريان الدم في شرايينه ، وأنه يهواها ، وإن لم يتبادلا كلمة أو نظرة ، وإن لم يكن يعرف عنها حق اسمها .

جلس سعيد ، وقد شرد بذهنه ، كان يفكر فيها ، ووقف جلال في النافذة يرنو إلى الشبايبك التي أغلقت ، ولم تعد تفتح ، فيلوح في وجهه الكدر ، وينقبض ، مرت شهور منذ جاءه مع عليّة أهلها ، وهو لا يدري ماذا حدث لها ، عقب ذلك اليوم المشؤوم ، كان قلقا بعد أن أرقته هواجسه ، فما يدريه أن أهلها قتلوها ، فما أكثر حوادث القتل في سبيل الشرف .

كانت أية حادثة يقرأها في الصحف تؤرقه ، وتجعله يقضى ليله مسهدا ، وراحت حوادث القتل التي سمعها تطفو على سطح ذهنه ، وتزيده فزعا وتقلقلًا ، تلبلت أفكاره ، ولو طاوع نفسه ، لصعد إليهم ، يسألهم عما جرى لعلية ، فهو يحس في أعماقه ، أنه سبب ضيقها ، وليس من الكرامة أن يتركها تقاسى وحدها . ولمح امرأة فقيرة ، كانت تتردد على عليّة وأهلها ، تقضى لهم بعض حاجاتهم ،

تخرج إلى الطريق ، فألقى نفسه يفادر النافذة ، وينطلق يمدو في أثرها ، فلما لحق بها ، قال في صوت متهدج ، ينم عن اضطراب وقلق :

— أين عليّة ؟ كيف حالها ؟

فنظرت إليه المرأة في أسي ، وقالت في إشفاق :

— لو رأيتم ما عرفتمها .

— ماذا بها ؟

— مريضة ، باكية الم عين ، ذابلة .

وأطرق ، وخيل للمرأة أن دمة حائرة تترقرق في مقلتيه ، فأشفقت

عليه ، وقالت :

— والله إني في حيرة .

وتركته وانصرفت ، وهى تفكر فى هؤلاء الذين يحبون ويحجمون عن تحقيق أمانيتهم ، وخطر لها أنها لو كانت رجلا ، لحطفت من تحب ، وفرت بها بعيدا . كانت فى صباها تشهى ، وهى فى الريف ، أن يخطفها أحد ، ويفر بها فى الشعاب النائية ، ولكنها تزوجت رجلا ، ما مكث معها سنة حتى فر منها ، خرج من القرية ولم يعد ، فذهبت فى أثره إلى القاهرة تبحث عنه ، فلما لم تجده ، اضطرت إلى أن تعمل فى سبيل قوتها ، ولو أشار لها رجل أن تتبعه لتبعته راضية ، ولكن لن يدعوها أحد ، كانت دماستها منفرة .

وعاد جلال إلى الدار مطرقا ، وإن انزاح عن صدره بعض متاعبه ، اطمان إلى أنهم لم يقتلوا ، فلو أنهم قتلوها لما أراحه ضميره ، سيعتبر نفسه شريكا فى مصرعها ، ولو لم يمد إليها يده .

وخطر له أنها سجينّة ، وأن أهلها يدعونها تذوى ، حتى يحف ماء الحياة فيها ، إنهم يبنفون قتلها ، دون أن يتركوا أثرا ينم عن جرمهم ، لماذا كل هذا العذاب ؟ لو كان قادرا على إنقاذها ما تردد ، ولكن ماذا يفعل طالب فى الحقوق ، لا يملك قرشا ، لينقذ فتاة من برائن شكوك أهلها الظالمة ! ليته كان غنيا ، فلو كان صاحب مال ، ما أحجم عن إنقاذها .

وسمع طرقا على الباب ، فذهب ليرى من هناك ، فإذا به يرى المرأة الفقيرة

الدميمة ، تقدم له رسالة مطوية ، فيأخذها منها في لحظة ، وينفضها مضطربا ، وقد اشتد وجيب قلبه رهبة ، وراح يقرأ ما فيها بنظرات زائفة ، وما انتهى من قراءتها حتى أحس بدا قوية تعصر قلبه ، وينابيع الأسى تفور في أعماقه ، كانت رسالة من أهلها يذكرونه بوعدة الذي قطعه ، ويلتمسون منه أن يتقدم ليتزوجها .

وأغلق الباب في رفق ، وانطلق بأسر الوجه مضطربا ، وجلس إلى جوار سعيد ، وقد شغل كل منهما بأفكاره ، كان سعيد يهيم في عالم بهيج كله آماني وآمال ، بينما راح جلال يتخبط في دياجير الظلام ، الذي هوى فيه ، إنه حائر لا يدري ماذا يفعل ، قلق لا يعرف لذلك القلق نهاية أو قرارا .

١١٤

مر شهر ، وسعيد يذهب في الصباح إلى شارع القصر العيني ، فإذا هبطت فئاته ، سار خلفها حتى المدرسة ، وكان يذهب في العصر إلى مدرستها يرقب خروجها ، ليحرسها على البعد ، حتى تعود إلى البيت . كانت رحلة الصباح ورحلة العصر هما أحب شيء إلى نفسه ، فخيّل إليه أنه يعيش بهما ولهما .

وراح جلال يرصد النوافذ المغلقة ، لعل نافذة تفتح ، فيرى ما يجري خلفها ، كان يحس قلقلًا كلما مد بصره إلى الشبايبك الموصدة ، ويشفق على الفتاة السجينة المعذبة ، وفيما هو في وقفته الحزينة ، سمع طرقا على الباب ، فتحرك في تراخ ، وما إن فتح الباب ، حتى ألقت المرأة الفقيرة الدميمة تقدم إليه رسالة ، فتناولها منها وراح يقصها خافق القلب ، مضطربا ، وراح يقرأ وفي جوفه حرارة :

« سنذهب الليلة في الساعة السادسة مساء ، إلى سينما رويال ، لنشاهد رواية « يحيا الحب » ، أرجو أن ألقاك هنا » .

ولم يجد توقيعا ، فالتفت إلى المرأة وقال :

— من أعطاك هذه ؟

— ست عليه .

وانصرفت المرأة ، وبقي وحده يفكر فما يقوله لها عندما يقابلها ، وازدحم

رأسه بأكثر من سؤال ، ما الذى دفعها إلى كتابة هذه الرسالة ؟ أما خشيت أن تقع فى يد أحد من أهلها ، فيريدوها أضطهادا ؟ من يدري أهلها أرسلتها بأمرهم ، لتقابلها وتستنجزه وعده الذى قطعه على نفسه ، يوم فاجئوه معها ؟ إذا كانوا قد دفعوها إلى الكتابة له ، أيدعونها تقابله وحدها ؟

ووافى ميعاد خروجه ، فراح يرتدى ثيابه ، ويتأنق ، ويدبم النظر إلى نفسه فى المرآة ، حتى إذا اطمأن إلى روثه ، انطلق عر فوع الرأس ، يحس رضا على الرغم من القلق النابت فى جوفه . فقد أصبح موضع اهتمام أسرة ، يسعدنها أن تسمع كلمة من شفثيه .

وسار فى الطريق يتلفت ، كان يرجو أن يقابلها ، وهى فى طريقها إلى السينما ، ليتسامرا فى هدوء ، بهيدا عن عيون الناس ، ولكنه لم يجدها ، فراح ينفذ السير ، حتى بلغ أوائل شارع إبراهيم ، فالتى الناس يموجون أمام السينما ، فاشتد وجيب قلبه ، ودثره قلق ، وإن تحركت لهفته وشوقه ، فوسع من خطوه ، وقد استشعر رهبة من المجهول .

واندفع يشق الجوع ، وهو يتلفت باجثا عنها ، وإذا به يلمحها ، فاتقبض قلبه ، وانبثق حزنه ، ودنا إليها فى ذهول ، رآها بين فتاتين يسندانها ، فكاد ينكرها ، كانت ذابلة زاوية ، انظما فى عينيها ذلك البريق الذى كان يأخذ بمجامع القلوب ، واستدرت عطفه ، وتحركت عوامل الرقة فى نفسه ، حتى خيل إليه أن يهرع إليها يمسح عنها بحنانه ما كابدت فى سبيله من قسوة ، ولكنه رأى إلى جوارها أخاها ، فوقب ينظر إليها من بعيد .

وانصرف الأخ ، وترك الفتيات وحدهن ، فتقدمت إليه فتاة ، وهمست له :
— نحن فى مقصورة رقم ٥ ، وقد حجزنا لك تذكرة بجوارنا .

فاندفع إلى شبالك التذاكر ، يشتري التذكرة المحجوزة .

ودلفوا إلى السينما ، وضعوا فى الدرج ، كانت عليه ترقى فى السلم واهنة بين صديقتها ، وهو فى آثارهن مشفقا ، ليت صديقتها تدعائها له ، يأخذ بيدها ، واتجهن إلى المقصورة وجلسن ، وذهب إلى مقعده وجلس ، وقلبه ينبع بمشاعر الحنان والشفقة .

وأطفئت الأنوار ، فمال نحوها وهمس :

— إن مانالك يا عليّة يمزق فؤادى ، لا أستطيع أن أقف ساكنا وأتركك
للهذاب والاضطهاد ، ماذا فعلنا حتى تصب علينا هذه النقمة ، كان حبنا طاهرا
لم يعرف الدنس ، ولكن من يصدقنا إذا أقسمنا على طهارة حبنا ! رأونا فى
خلوة معا ، وبالقسوة الاتهام إذا اختلفت فى بفتاة !
فقلت فى نبرات حزينة ، مست أوتار قلبه :

— أقسمت لهم يا جلال فلم يصدقونى ، ذرفت الدموع فكذبوا دموعى ،
صرت يا جلال حطاما بلا أمل ، الموت أهون من نظرات الاحتقار ، التى
يرمونى بها .

وأحس نحوها حبا صادقا ، فقال فى حرارة :

— لن أتركك يا عليّة ، سأحطم الحوائل التى تعترض سبيلنا ، سأقوض كل
ما يقف فى طريق سعادتنا ، سأبر بوعدى .
فقلت فى لهفة :

— متى ؟

— أقرب مما تحسبن .

ولمح دموعها تترقرق فى عينيها ، فقال لها وهو يغالب دموعه :

— كفكفى يا عليّة هذه الدموع ، وابتسمى وافتحى منافذ فؤادك ليتسلل
إليه الأمل ، ويبدد ماران عليه من ظلام ، غدا يشرق بالنور .
ولم تبدد كلماته أنراحها ، بل هاجت قذى عينيها ، ففسلت وجهها
بالدمع الغزير .

وتقضى الوقت وهما يتها مسان ، وما انصرف من السيما إلا وقد عزم صادقا
على أن يبر بوعده ، وأن ينتشل الفتاة مما تقاسيه من كرب وضيق .

١١٥

راح سعيد يحزم الحقيبة ، تأهباً للمودة إلى الإسكندرية ، فقد وافت إجازة نصف السنة ، ووقف جلال في النافذة يتطلع إلى الشبايك الموصدة أمامه ، الله يلوح عليه ، فيشير لها أنه مسافر ليحطم الحوائل التي تعترض طريق سعادتهما ، ولكن مر الوقت ولم ير طيفها ، فارتد عن النافذة ضيق الصدر متبرماً .

وارتفع صوت نهر سيارة ، فأسرع سعيد إلى النافذة ، ثم قال لجلال :
— هيا يا جلال ، لقد جاء .

وهبطاً ، ووضعاً الحقيبة في سيارة صادق صديق سعيد ، الذي جاء يحملهما إلى الإسكندرية ، وركب جلال ، وعيناه تتجولان في النوافذ المغلقة ، وقال سعيد وهو يهم بالركوب :

— لا أستطيع السفر قبل أن أراها .

فقال جلال :

— لقد رأيته في الصباح ، وفي هذا الكفاية .

فقال سعيد في إصرار :

— لن أسافر قبل أن أراها .

فقال صادق في هدوء . وهو يعبث بنظارتة .

— لا نستطيع الانتظار إذا أردنا أن نبليغ الإسكندرية قبل هجوم الليل .

فقال سعيد في حرارة :

— أفضل أن أمضى الإجازة هنا ، على أن أسافر دون أن أراها .

ولما كانا يمرقان أن لافائدة ترجى لثنيه عن عزمه ، قالاً :

— ماذا تريد أن نفعل الآن ؟

فقال في انشراح :

— لنذهب إلى مدرسة السفينة .

وانطلقت السيارة ، جلال ضيق الصدر يتحلم ، وصادق صامت لا ينطق حرفاً ، وسعيد غارق في قلقه اللئيم ، هائم في عالم شاعري بهيج ، ووقفت السيارة

أمام المدرسة ، فأطرق جلال في سكون ، وأسبل جفنيه ، وراح صادق يبحث في نظارته ، ويمر يده على شعره ، ويتململ في جلسته ، بينما سعيد راح يرنو إلى المدرسة ، خافق القلب منشرحاً .

وراح الوقت يمر وئيداً بطيئاً ، وأخيراً دق الجرس ، فتنفس جلال في ارتياح . واشتد وجيب قلب سعيد ، وأرهفت مشاعره ، وبرقت عيناه ، ولاح في وجهه قلق .

وتدفقت جموع الفتيات إلى الطريق ، فأخذ جلال يحيل عينيه فهن ، وجعل صادق يتبعهن ببصره ، واشرب سعيد بعنقه يبحث عنها .

ورآها تنساب كالطيف ، رقيقة رشيقة ، فاستشعر نشوة تغمره ، وكأن أجنحة خفية ترفعه ليهيم في عوالم الغبطة ، فأفغم فؤاده بسعادة عارمة . وراحت تبعد حتى غابت عن عينيه ، ولم تغب عن خياله ، فالتفت إلى من معه ، وقال :
— يمكننا أن نسافر الآن ، ونحن مغتبطون .

وانطلقت السيارة ، تطوى الطريق الصحراوي الذي بدا كشعبان لا نهاية له ، وترادفت الأفكار في الرؤوس مهوشة متباينة ، من هنا وهناك ، ولكن أفكار سعيد كانت كلها حول الفتاة ذات الثوب الأسود ، التي كان يراها روحاً تجسد .

ونظر من نافذة السيارة إلى الأفق البعيد ، وراح يرقب قرص الشمس التوهج ، وهو يفوس في الرمال ، وقد تلونت السماء بحمرة زاهية تسحر اللب ، وتبهز النظر ، فراح يرنو خافق القلب ، منشرح النفس ، بابت الروعة تحركه ، ويستهو به الجمال .

ولف الليل الكون بعباءته السوداء ، والسيارة تنهب الأرض في طريق الكورنيش ، فأفاق جلال من غمرة أفكاره ، وبدأ ينبت في جوفه قلق ، فقد دنا من اللحظة الحاسمة ، التي يرجو أن يوفق فيها لتحطيم السدود القائمة بينه وبين عليّة .

دلقت السيارة إلى الحارة ، وقد أريق فيها الظلام ، ووقفت أمام الدار ، فحمل سعيد الحقيبة ، وحمل جلال حقيبته ، ثم التفتا إلى صادق ، وقالوا :

— شكرا لك . مع السلامة ..

وتحركت السيارة ، وغابا في ظلام البيت .

أخذ جلال يرقب أمه ، كان يريد أن يفرد بها بعيدا عن إخوته ، فما كان يطيق أن يترث حتى الصباح ، فتد راح القلق يرتع في جوفه ، وهو ينفى أن يفضى إليها بما في نفسه ، ليسكن الطمأنينة صدره ، ويرتاح مما يحسه من عذاب . ووجدما في غرفة بعيدة وحدها ، فذهب إليها ، وقال في صوت مضطرب خافت :

— عندي موضوع أحب أن أعرضه عليك .

فنظرت إليه في حنان ، كأنما تقول له : « قل ، كلى آذان » ، وراح يقص عليها قصته ، التي لم أطرافها في الطريق :

— لى صديق أستاذكر معه دروسى ، وهو من أسرة طيبة ، ولصديقى هذا أخت جميلة ، رأيتها فأحببتها ، فسكرت فى الزواج منها ، إبنى أحس أنها خير زوجة تصالح لى ، أرجو منك أن تذهبي لثريها وتخطبها على . إنها فتاة طيبة تعجبك .

ولمخ أمه تسبل جفنيها ، ففطن إلى أنها تنفضى عن حديثه ، فقال فى اضطراب :

— مارأيك ؟ هل تذهبين ؟

فقالت فى حنان :

— لا أستطيع أن أذهب .

— لماذا ؟

فقالت فى رقة وصدق :

— إبنى أحب يا جلال أن أسعدك ، كان بودى أن أذهب ، وأن أحقق

لك رجاءك ، ولكن كل الظروف تحول بينى وبين الذهاب . انظر يا جلال إلى نفسك ، أنت لا تزال طالبا ، ومازال الطريق أمامك طويلا . الزواج يا بنى ليس عبئا ، إنه يحتاج إلى تكاليف كثيرة . من أين تنفق على نفسك وعليها ؟

إن ما يدفعه لبيب وزكريا وخالد لا يكاد يكفينا ، فكيف تفكر فى الزواج الآن ؟ أتريد أن ينفق إخوتك عليك وعليها ؟ !

حتى إذا وافق إخوتك على أن ينفقوا عليك وعليها ، فأنا لا أقبل لك أن تعيش أنت وزوجك عالة على إخوتك . إنني بصرتك ، وأنت حر بهد ذلك ، تفعل ما تريد .

وكأنما أزاحت عن عينيه غشاوة ، فرأى لأول مرة حقيقة حاله ؛ طالب في الجامعة ، ينفق عليه إخوته ، فسكيف خطر الزواج على باله ؟ وأجس نفسه تقاصرت إليه ، فقال لأمه في رجاء :

— اكتمى على هذا الأمر .

فابتسمت له مطمئنة ، وربت على ظهره في حنان ، فانصرف مطرقاً يحس خجلاً .

١١٦

وقف سعيد ويحيى في النافذة ينظران ، وكان سعيد غائبا عن كل ما حوله ، فهو يعيش بخياله مع الفتاة ذات الثوب الأسود ، التي يهفو إليها فؤاده ، كلما خلا بنفسه ، وشرد بفكره ، فهي في ضميره إذا استيقظ ، وإذا استلقى بين النائم واليقظان .

وراح يحيى يقلب عينيه فيما حوله ، فلا يرى إلا الخربة ، والنجرو في قميص من الخيش ، وحول رقبتهم سيجته الضخمة ، وحليمة في جلستها الخالدة ، وقد خلف الزمن في سحنتها آثاره ، وفنأة سمراء جف عودها ، ترتدى ثوبا ينم عن فقر شديد ، وما إن نظر إليها حتى ارتد بصره إليه وهو حسير ، وقال في ضيق :

— أين ذلك الشارع الجديد الذي ولدنا ونحن نسمع عنه ، لو أن ذلك الحلم قد تحقق لاسترحنا من هذه المناظر التي تقبض النفس ، ولتتعبنا بأسراب الفتيات الجيلات اللاتي يخطرن فيه ، إنني لا أتمنى إلا أن أرى امرأة مليحة تمر من تحت نافذتنا ، ولكني لا أرى إلا الغربان .

وهمس سعيد وهو في شروده :

— أتمنى أن أكون في القاهرة الساعة .

فقال يحيى وهو يبتسم :

— ما أيسر تحقيق أمنيتك ، أما أنا فيحتاج تحقيق أمنيته إلى ما لا أدرى
من سنين ، وقد لا تتحقق ، فإنني أحس أنني لن أرى ذلك الشارع الجديد
أبدا ، ولن أرى الفتيات البيض السمان يخطرن أمام دارنا .
فرنا إليه سعيد وقال :

— كيف أكون في القاهرة الساعة ؟

— صادق مسافر اليوم إلى القاهرة في سيارته ، وسيعود في المساء ، يمكنك
أن تذهب معه .

فقال سعيد ، وعيناه تأملتان بريق السرور :

— حقا ؟

فهزله يحي رأسه مؤكدا ذلك ، فهرع سعيد إلى ملابسه يرتديها ، وانطلق
إلى صادق وهو مسحور .

وراحت السيارة تنهب الطريق الصحراوي إلى القاهرة ، وقد شرد سعيد ،
وولدت في صدره حرارة وسبقه خياله ، فراح يرى ما يتمنى أن يكون .

وأمام القصر العيني هبط ، وقلبه يدوى في صدره ، ومشاعر الحنان تدب
فيه ديب اللؤلؤ ، والتفت إلى صادق وقال :

— اذهب حيث تشاء ، وسأنتظرك هنا .

فقال صادق :

— قد أتأخر .

— مستجدي هنا حينما تعود .

ووقف أمام دارها يمد بصره إلى النوافذ والشرفات ، وكل أمنيتها أن يتزود
منها بنظرة ، أن يمد بصره إلى عينيها اللتين يخيل إليه أنهما ما خلقتا إلا لتناجياه
وحده ، أن يعيش في مجالها سوية ، وراح يتلفت وقد مار في جوفه قلق لذيذ .

وجعل يغدو ويروح ، وما تسرب اللؤلؤ إليه ، وما فكر في أن ينصرف
حرة ، كان كالمايد الغارق في التسبيح ، شغل قلبه بعبادته عن نفسه وعن كل
ما حوله .

وفتحت النافذة ، وأطلت منها ، فراح قلبه يقفز في رعونة ، حتى كاد يطير من صدره ، وتفجرت مشاعر النشوة فملأته ، وفاضت على وجهه بشرا ، فرفت على فمه بسملة راضية كل الرضا ، وتعلقت عيناه بها ، وراح يناجيه في صمت بليغ .
وعاش في عالم مسحور ، كل ما فيه لذيد ، هام روحه بروحها ، وشفه الوجد ، فخيّل إليه أن العالم كله يردد في أذنيه أهانج الحب ، فتفتحت نفسه تفتح الورد إذا مسه ندى الربيع ، ورقصت نفسه في أنعام سماوية ، لا تصدح إلا للمحبين .

وغادرت النافذة ، فأغمض عينيه ، خشية أن يفيق من الحلم اللذيد .

١١٧

تقلببت صفية في فراشها واهنة ، وفتحت عينيها ، فألقت بحبي إلى جوارها ، فقالت له في لهفة :

— ألم يرسل خالد أية رسالة ؟

فقال لها بحبي معتذرا :

— الرسائل تستغرق وقتا بيننا وبين إنجلترا .

وأسبلت صفية عينيها وهي تنغم بأدعيتها ، كانت تدعو الله من قلبها أن يغفر ابنها السلامة ، وتقصّ لحظات وهي تتجه بكل مشاعرها إلى السماء ، وأحست حركة بجوار سريرها ، ففتحت عينيها ، فألمت زوجها وفي يده صحيفة ، وفي وجهه قلق ، فانتبضت وسرت فيها رهبة ، وقالت في خوف :

— أحدث شيء للأولاد ؟

فقال في صوت خافت :

— لم يحدث لهم شيء ، إنهم بخير :

فقالت له وقد اتسعت عيناها :

— قلبي يحدثني أنه حدث شيء ، ووجهك ينطق بما وقع ، قل لي ماذا جرى ؟

فقال لها وهو يدنو منها :

— والله لم يحدث شيء ، كلهم بخير .
— فما هذا القلق الذي في وجهك ، إنني أعرفك لا تقدر على إخفاء مشاعرك ، وجهك يقول إنك قلق ، بالله لا تخفى عني شيئا ، لم أعد تلك الشابة التي تقوى على كبح عواطفها ، علي ، لا تهذي . قل لي : ماذا تخفى عني ؟
فقال لها وقد أسبل جفنيه حتى لا ترى ما ترقرق في عينيه :
— قرأت في الأخبار أن أحد الطيارين المصريين مات في إنجلترا ، فأشفقت على خالتي .

وساد الصمت ، ورفرف القلق ، ثم قالت في صوت مرتجف :
— أحمقا ما تقول ؟ لم يقع لحال مكروه ؟
فقال وهو يغالب دموعه :
— إنه بخير .
ولم تقو على كبح عواطفها ، فأجهشت بالبكاء ، وقالت في لوعة :
— ابني .
فدنا منها وقال في دهش :
— صفيّة ، أتبكين ؟ ! كفكفي دموعك قبل أن يراك الأولاد .
ومسحت عبراتها ، وشردت ببصرها ، ولاح على وجهها سهوم ، وظل على برنو إليها في حب ، واستمرت في تفكيرها القلق ثم قالت في حزن :
— قلبي يحدثني أنني لن أرى خالدا أبدا .
فقال في فزع ليظمن نفسه ، قبل أن ينزل السكينة بقلها :
— سيعود خالد بعد أن تنتهي بعيشته سليما معافى ، بإذن الله .
— أرجو أن يعود قبل أن أموت .
فوضع يده على فمها في رقة ، لئلا تمنعها من الحديث وهو يقول :
— لا أحب أن أسمع هذا أو يجرى مثل هذا الحديث على لسانك .
وما رفع يده عن فمها حتى عادت تقول :
— علي . إنني سأموت ، أحس الفناء يدب في جسمي .
استشعر على كائن يدا تعصر قلبه ، وأحس رغبة في البكاء ، وقال في ضعف :

— بالله لا تقولى هذا ، ما أبشع الحياة لو خلت منك !

وطأطأ رأسه ، ولاذ بالصمت ، ثم قال :

— أرجو أن تصفحى عنى يا صفية ، إذا كنت قد حملتك عبئى ، ولكن ما ذنبى ؟ كنت أقدر منى على سياسة أسرتنا ، فتركت لك قيادها .

حاولت أن أنهض بنصيبى ، ولكن كان رزقى محدودا ، فلم أكفر بنعمة ربى ، ولم أقنط من رحمته ، بل توكلت عليه ، وتركت له مقاليد أمرى ، لم يكن لى يد يا صفية فيما قاصديناه من ضيق . . .

فقال صفية وقد شردت ببصرها :

— كانت أياما حلوة ، ليت أيامنا تدوم !

وغرقا فى الصمت ، كانت مشاعرهما جياشة ، استعصت على التعبير .

١١٨

راح حسان يصعد فى الدرج هونا ، حتى إذا بانغ شقة أخيه طرق الباب ، ثم دخل يعود صفية . ألقاها مسجاة فى سريرها وقد غاض لونها ، فأحس انقباضا ، ورنأ إليها قليلا فى إشفاق ، ثم قال بصوت خافت رقيق :

— كيف أنت الآن ؟

فقال فى صوت ضعيف :

— الحمد لله .

وجلس صامتا ، وراحت الأفكار تدور فى رأسه ، ألهذا خلقنا ؟ أيام قصيرة — مهما طالت — نقضيها فى تعب وشقاء ثم نذهب ؟ ! من أين جئنا وإلى أين نرحل ؟ ولماذا جئنا ؟ ! أيحفل الكون لجيئنا وذهابنا ؟ !

أكان يجلس هكذا مطرقا صامتا لو أن هذه المسجاة ، كانت زوجه ؟ زوجه ؟ ! لو أنها كانت زوجه لندف عليها الدموع ، ولتقطع نياط قلبه ، ولكن لماذا يفكر فى هذا وما كان ليسمح لنفسه أن يرتكب هذه الحماقة أبدا ، يكنيه ما يقاسى فى هذه الدنيا من شقاء . يكنيه ما هو فيه من هوان ، لو أن له حسنة فى هذه

الحياة ، لسكانت زهدهم في إنجاب أولاد مهما سعدوا في الدنيا فهم أشقياء ، ماذا للإنسان على الأرض ؟ نصب وكفاح وصراع ، ثم يتخطاه الموت . ألا يتكلم أحد ليخرجه من هذه الأفكار التي تستبد به كما خلت به نفسه .

وران الصحة ورأى أن يفر من أفكاره ، فنهض مستأذنا ، وخرج شاردا
اللب ، يستشعر جفافا في حلقه ، وراح يهبط في الدرج ساهما ، وإذا بصوت
زهيرة يرن في أذنه :

— أهكذا تصعد وتهبط دون أن تمر علينا ، أو تسأل عنا .

وهم بأن يعتذر ، ولكن صاك أذنيه صوت عزيزة :

— لا تعاتبه ، إنه غارق في سكره ، لا يدري ما يفعل ، إنه لا يفيق أبدا .
واربد وجهه ، وأسرع في هبوطه دون أن ينبس بكلمة ، وإن كانت أفكاره
أخذت تصرخ به : إنه لا يفيق أبدا . . . إنه لا يفيق أبدا . ليت هذا كان حقا ،
لأستريح من لحظات الصحو التي تمرقني وتزيد آلامي اشتمالا ، ماذا في دنياكم
يستحق أن أكون لأجله صاحبا واعيا ؟ الظلم فيها عام ، بهاء يأكل فلاحيه ، ويستبد
بهم ، فيكافأ على استبداده وظلمه ويصبح بهاء باشا ، وسيد المسكين يحلم بالمال ،
فإذا ما تحقق حلمه ونال مئتي جنيه لم يترك لها ، بل سرق منه ما كسب ،
فيا للسخرية ، أعطى ما يشتهي أياما ، ثم سلب منه ، وسلبت معه حياته

وخرج من باب البيت ، فوقع نظره على حليلة جالسة في مكانها ، وأمامها
قفصها رصت فوقه قطع الخلوى ، فإذا بأفكاره تصبح : وهذه هنا من عشرات
السنين ، كل ما تبغيه من دنياها لقيت يقمن أودها ، إنها تشقى في سبيل بطنها ،
وقد نماؤه ليلة ، وتبيت على الطوى ليلة ، بينما تجد هذه الكلاب الضالة طعامها
ورمى بنظرة إلى الخربة ، فوجد النجرو في أسفاله ، وحول عنقه مسبخته
الضخمة ، والقطط تجري حوله ، فأشاح بوجهه عنه ، وانطلق في الحارة ينكها
في مشيته ، يحاول أن يهرب من أفكاره الصاخبة الثائرة .

وبلغ الشارع العام ، فألقى الزينات على وجوه المحال تألق ، فهبت
أفكاره تسأل : لماذا كل هذا الفرح ؟ لأن ملك البلاد سيتزوج ! لأن على العبيد
أن يفرحوا إذا فرح السادة ، لأن النفاق يقضى أن يدفع الفقراء ثمن الزينات

من أقواتهم وأقوات عيالهم ، ليعلموا بولائهم ، وأن ينفق الشعب الجائع على أصحاب
السكروش في ليلة زفافهم . . . فللملوك حق معلوم في أموال السائل والمحروم !
وراح يهرول ليفر من نفسه ، حتى إذا بلغ الحانة ، أخذ يلقي كئوس الخمر
في جوفه ، ووجم وشرد بصره ، وانبتقت الدموع من عينيه ، ثم أجهش بالبكاء
وموسيقى الزفاف تصدح في كل مكان .

١١٩

عاد جلال وسعيد إلى القاهرة ، فأخذ سعيد ينسق الغرفة ، وهرع جلال
إلى النافذة يسترق النظر ، فألقى نوافذ عليّة مغلقة ، كانت كأسجاف الجفاء ،
أسدلت لتعجب الود المسلوب ، فاستشعر راحة ، وراح يتطلع إلى الطريق
في هدوء .

كان ممتلئاً ثقة قبل سفره أنه قادر على إقناع أمه بالذهاب إلى أهلها لتخطبها له ،
وكان مقتنعاً أن الزواج بها هو خير ما يفعل ، ليصلح ما أفسده ، ويرفع رأس عليّة ،
بعد أن تسربت الدل ، يوم أن ضبطها أهلها معه في غرفة واحدة ، ولكن ما إن
بصرته أمه بحاله ، وما إن ذكرته بأنه مازال طالبا يمدد إخوته بما يعينه على
الدراسة ، حتى تبخرت من رأسه فكرة الزواج ، وحتى تفتحت عيناه على أنها
فكرة عابثة ، فوطن النفس على أن يفر من طريق عليّة ، وأن يقيم بينه
وبينها مندا .

أغلق قلبه دونها ، وأقنع نفسه أنه بريء مما نالها ، إنها دعتة بنفسها أن
يدخل معها يسامرها فدخل ، فإذا كان حظها العاثر قد ساق أهلها في هذه
الساعة ليفجئوها في خلوتهما ، فما كان ذلك من تدييره ، وما كان عليه أن يتحمل
وزر ما جرى ، إنه دعى فلبى ، فالغرم يتحمّله من دعا !

وانتهى سعيد من تنسيق الغرفة ، ووقف أمام المرأة يصلح هندامه ، ثم انسل
إلى الطريق ، يجد في سيره ، ويرفرف قلبه في صدره ، فقد كان ذاهباً إلى
دارها ، يرصد منافذ الطريق وشبابيكها ، وكل ما يرجوه أن يلمحها ، أن تكتحل
عيناه برؤيتها ، أن يتزود منها بنظرة .

وراح يذرع الطوار بجوار سور القصر العيني ، وقد أخذت عيناه تنقلان بين مدخل البيت والشبايك ، واستمر في غدوه ورواحه ، وهو غارق في غيوبة لذيذة ، وكل فكره معلق بها .

وتقضى الوقت وما تسرب إلى نفسه الملل ، وما ضاق بوقفته ، بل ظل منشغرا راضيا ، كأنما كان يكفيه أن يكون في حياها .

ولحها مقبلة ، فازداد وجيب قلبه ، وسجرت مشاعره ، واضطرب اضطرابا مشتهى ، وسار نحوها كالسحور ، ودنا منها وقد ملأ عيبرها أنفه فاستشعر نشوة ، وجعل يرنو إليها في وله ، وقد هامت روحه في عوالم رحيبة من الحب والوداد . ودلفت إلى البيت رشيقة كالطيف ، فأرسل بصره خلفها ، حتى إذا ما غابت عن عينيه ، استمر في وقفته ينعم بالمشاعر اللذيذة ، التي كانت تمور فيه منتشية مزعردة . وقفل عائدا إلى البيت وهو نشوان ، وراح الليل يرخى ستائر الظلام ستارة إثر ستارة ، حتى إذا ما انقضى بعض الليل دخل فراشه لينام ولسكن لم تنمض له عين ، كان يفكر فيها . إن الأيام تمر وهو قانع برؤيتها في الصباح وفي العصر ، قانع بالسير خلفها على البعد ، قانع برصد حركاتها وسكناتها .

وهفت نفسه إلى محادثتها ، إلى الإصغاء إليها ، إلى مناجاتها ، ولكن كيف يحادثها ؟ ! أيتقدم منها ويقرئها التحية ؟ ولكن هذا محال ، إنه لن يفعل ذلك أبدا ، فهو لا يرضى لنفسه أن يتسم بما يتسم به الشباب الرقيق ؛ إنه لن يعترض طريق فتاة ليسجدها عبارات الغزل .

وثارت عليه نفسه ، وراحت تسخر منه ، وتسأله عما يجب أن يفعله لينال بغيته ، أينتظر حتى تتقدم هي وتحادثه ؟ ! أيتريث حتى تقع المعجزة ؟ ولكن أية معجزة ؟ ! إنه يحبها من أعماق قلبه ، وهو يحس إحساسا عميقا أنها له ، وله وحده ، وأنه يعتقد اعتقاد اليقين أنه قادر على أن يصنع مستقبله بيديه ، ولكن ما باله يجد نفسه عاجزا لأول مرة أمام فتاة ، فيالجعله ! كيف له أن يقهره ؟

ما الذي يجعلها تختاره هو من بين آلاف البشر ؟ ! حقيقة إنه يحبها ، وإن نظرة منها تجعله يهيم في متاهات السعادة ، ولكن أيكفي هذا الحب ليجذب بصرها إليه ؟ ليتها تصفى إلى دقات قلبه ، وليت الحب قادر على أن يكشف نفسه بنفسه .

لا بد أن يتقدم إليها وأن يشعرها بوجوده ، وأن هناك من يهتم بها ،
ويسعدده رضاها .

وطن العزم على أن يلفت نظرها إليه ، وطاف به ملاك النوم وطوقه
بذراعيه ، فراح في سبات ، وتصرم الليل وما أشرقت الشمس حتى هب من نومه ،
وارتدى ثيابه ، وخرج يهرول إلى دارها يرقب هبوطها .

ولاحت في نوبها الأسود ، ناضرة كزهرة ، رقيقة كالنسيم ، فدى قلبه
بين ضلوعه ، وفكر في أن يسير خلفها ، ويدنو منها يحيطها تحية الصباح ، فاشتد
وجيب فؤاده ، ومشت رعدة في أوصاله ، ولفه اضطراب .

وسارت رشقة ، وهو يقف آثارها ، يمور فيه القلق ، ولا يجد في نفسه
الشجاعة على أن يقترب منها ، فاستمر يتبعها خاشعا كما بد مبتل ، حتى إذا غابت
في المدرسة ، قفل عائدا إلى البيت ، قائما بما تزود به من نظرات .

١٢٠

في هجعة الليل ، دق الباب دقات متتابعات ، فهب جلال وسعيد من نومهما
مدعورين ، وهرع جلال وهو يرتجف إلى الباب ، وذهب سعيد إلى الزر
الكهربى وأداره ، ثم اتجه ليرى من الطارق ؟ فألقى جلالا في يده برقية يرنو
إليها زائف البصر مضطربا ، فأخذ منه ، وراح يقرأها ثم غمغم :
— ماتت ؟ . . أمى ماتت !

وترقق الدمع في عيني جلال ، ولاح في وجهه الأسى ، ولم يذرف سعيد دمعة ،
وإن كان يحس في جوفه وقدة نار ، فقد كان عصى الدمع ، وظلا صامتين
يدثرهما الحزن ، وأخذا يرتديان ثيابها حتى إذا تأهبوا للسفر ، هبطا في الظلام
يدوران على بيوت أقاربهما يحملان النبأ الفاجع .

كان الهواء يهب باردا ترتجف له الأوصال ، ولسكن ما كانا يحسان قرص
البرد ، فقد شغلا بنار الأسى التى اشتعلت في نفسيهما ، وراحا يبحثان عن سيارة ،
فلما عثرا عليها ، استقلها مع بعض أقاربهما ، وانطلقت بهم ، وقد أطرقوا جميعا
ساهمين ، يحرون وراء أفكارهم الشاردة الحزينة .

وراح الوقت يمر وئيدا ثقيلا ، ولاح كأن الطريق ليس له نهاية ، وتعلموا
في مقاعدهم ، ولكن لم ينبس أحدهم بكلمة ، ولم تتلاق أبصارهم ، أمسوا الجفون
على العيون المحمرة ، وأغلقوا القلوب على ما فيها من شجن ، فراحت المشاعر
الحزينة تمور عاتية في أجوافهم ، حتى لتكاد تعصف بهم .

وهبت الرياح غاضبة مزعجرة ، وآذت وجه سعيد ، ووخزت صدره ،
ولكنه كان مشغولا عنها بأفكاره الوافدة على رأسه ، فما أكثر ذكريات أمه
التي حفرت في نفسه ، فيا للدنيا ! صارت أمه الحبيبة التي كانت تملأ السكون
نشاطا مجرد ذكرى !

وملأت الأنوف رائحة البحر ، وراح الأفق يتفتح عن فجر جديد ، فسمعهم
صوت خافت :

— وصلنا .

وأطبق الصمت ثانية . ولم يكره إلا سعال سعيد ، فقد بدأ يسعل .
وانسلت السيارة إلى الحارة ، وراحت القلوب تخفق في حنايا الضلوع رهبة ،
وأرهفت الحواس ، وتنهت الأسماع ، فلما صك الصوات الآذان ، تمزقت النفوس ،
وهيج دمع العيون ، إلا سعيدا فقد قلص دمه .

وهبطوا من السيارة واجمين ، وراحوا يصعدون في الدرج مطرقين ، ووقعت
عيننا جلال على أبيه الواله الحزين ، فأنفجر باكيا ، وظل سعيد صامتا يزدرد غصصه ،
كأنما يزدرد نارا موقدة .

وعلا عويل على وحسان وجمال ، وراح لبيب يكفكف عبراته ، وأطرق
زكريا يجاهد أساه ، وانسل جلال ، وانطلق إلى حيث الجسد المسجى ، وارتمى
فوقه ، وهو يصيح لا يرقأ له دمع :

— أمي . . أمي .

وجاء بحبي يبكي ، وجذب أخاه من يده ، فخرج جلال وهو يصيح :

— أمي . . أمي .

وألقي نظرة أخيرة على أمه الحبيبة التي انطفأت ، بعد أن أنارت لهم
سبل الحياة

١٢١

أطلت سهام من النافذة ، ومدت بصرها إلى بيت خالد ، فوجت ، وشردت
تفكر في ذلك الحبيب الذي ماتت أمه دون أن يراها أو تراه ، فاستشهرت
حسرة ، وانفجرت في أعماقها مشاعر الإشتاق والحنان ، وإذا بها تفعم بالرغبة
في الكتابة إليه ، تناجيه وتواسيه .

يا طالما راودتها فكرة الكتابة إليه ، كلما زارها طيفه ، ويا طالما هفت
روحها إلى مناجاته ، ومسكب مشاعرها على القرباس ، لتبعث إليه ذوب فؤادها ،
ولكن كان خجلها يهب في وجهها نائرا ، فتتقلص أمام ثورته ، وتشد رغباتها
الموارة في جوفها ، ولكن لم يعد لها الخيار ، ماتت أمه ، فحق عليها أن تبعث إليه
بتعزية رقيقة ، ولن يجروء خجلها أن يهب في وجهها ينهاها عن أداء ذلك الواجب ،
وهمت بالذهاب لتكتب إليه ، ولكن وصوص في أغوارها صوت : « لماذا
تكتب إليه عى ، ولا يكتب إليه حامد ؟ ! » وأصاحت لذلك الصوت فافتنعت ،
فخالد صديقه ، وماهى إلا أخت صديقه ، هذا ما يعرفه خالد ، فلو أنه
يعرف غير ذلك ، ما طعن فؤادها — دون أن يدري — طعنات ترنحت
تحت وطأتها .

وذهبت إلى حيث كان حامد ، وقالت له معاتبة :

— ألا تبعث لخالد بتعزية ؟

فقال حامد في ضيق :

— ثقيل على نفسى أن يكون أول ما أكتبه إليه تعزية ، فما كتبت له

من قبل .

— من الواجب أن تواسيه .

— غدا أكتب إليه .

— ولماذا لا تكتب الآن ؟

— أحس فتورا .

فقالت ساخرة :

— لملك تنتظر أوبته ثم تعزبه .

— ما أثقل الكتابة على نفسى .

— سأ كتب التعزية ، وما عليك إلا أن توقعها .

فقال حامد فى راحة :

— أشكر لك هذه المكرمة .

ودارت على عقبها ، وقبل أن تتحرك ، قال لها :

— أرجو أن تختصرى الرسالة ، فأنى أكره الرسائل المطولة .

فقالت وهى ترنو إليه من فوق كتفها :

— أعرف أن قراءتها تتعبك .

وانسلت خفيفة ، يدق قلبها بين ضلوعها ، ستكتب إليه ، تبثه بعض ما يحتاج فى جوفها ، ليتها كانت تبثه لواعج نفسها ، ليتها تصارحه بحبها ، ليت المناسبة كانت أفضل من هذه . ولتها تكتب إليه دون أن تستر خلف حامد ، ولكن ما كان الأمر بيدها ، إنها لتقف إلى جواره فى السراء والضراء ، فى العسر واليسر ، فى الفرح والحزن ، فى الفرج والضيق ، ليتها يدرى .

إنه وحده فى بلاد العربية ، منطويا على نفسه ، يحتر أحزانه ، فمن يدرى لعل هذه الرسالة تخفف شجونه ، وتذهب بلواعج نفسه ، وتوحى إليه أنه ليس وحده ، وأن هناك من يشاطرونه مشاعره وإحساساته .

وأمسكت بالقلم ، وخطر لها أن تكتب : « حبيبى خالد » فرفرف قلبها فى رعونة بين جوانحها ، وأحست كأن أنشودة عذبة صدحت فى فؤادها ، وتدفق الدم حارا إلى وجهها ، وأفعمت بعشاعر رقيقة متحننة ، وكادت تسترسل فى تخيلاتها الحاملة ، ولكنها راحت تجمع شتات نفسها ثم كتبت :

عزيزى خالد :

يحز فى نفسى أن يكون أول ما أكتبه إليك تعزية ، ولكن هذه مشيئة الله ، وهذا قضاؤه .

الرزء فادح ، والمصاب جليل ، وليس لنا إلا أن نتجمل بالصبر ، وأن نبتهل إلى الله أن يلهمنا السلوان ، وأن يتعمد الفقيدة العزيزة برحمته .

إننا يا خالد نشد على يدك مواسين مشجعين ، وثق أنك لست وحدك ،
وأن قابونا تحوطك وترعاك ، وتشاطرك أحزانك .
تجهد يا خالد ، وكفكف دمعك . فمزاؤنا أنها ذهبت وقد أدت رسالتها
كأحسن ما يكون الأداء ، فلها رحمة الله الواسعة ، والى طول البقاء .
وغففت في وجد : « يا حبيبي ! » ..

١٢٣

سكنت الشمس ضوءها من النافذة ، فغمرت الحجرة بالنور ، وقام سعيد
من نومه يتمطى ، يحس رأسه يكاد ينفجر ، وحرارته تكاد تشوى وجهه ،
ففكر في أن يعاود الرقاد ، ولكن خطر طيفها في ذهنه ، فشد أزره ، ونفخ
فيه قوة قهرت ضعفه ، فذهب يرتدى ثيابه ، وقد شد وسطه يقاوم أن ينهار .

وراح يسعل ، فاستيقظ جلال على سعاله ، وقال له :

— ألا تستريح اليوم ؟ لقد لقينا في سفرنا نصبا .

فقال سعيد وهو يخفى عن أخيه وجهه الشاحب :

— لا أستطيع ، فقد دنا ميعاد الامتحان .

وأجبه صوب الباب ، فصاح به جلال :

— ولماذا تخرج هكذا مبكرا ؟

لم يجر سعيد جوابا ، وفطن جلال إلى سبب خروجه فابتسم ، على الرغم من
الحزن الثقيل الجاثم على صدره ، وانسل سعيد يجر رجله ، ويترادف سعاله ،
ولسكنه ما كان يشعر بما يقاسى ، فقد كافت رغبة النظر إليها تستبد به ، وتجهله
يعيش في غيبوبة لذيذة تنسيه ما ينتابه من آلام .

وانطلق في الطريق يتحامل على نفسه ، تتراقص الأرض تحت قدميه ، ولكنه
لم يفكر في أن ينكص على عقبيه ، كانت قبلته ، وكانت رؤيتها غايته ، فسار وكل
همه أن يصل إلى دارها ، وأن يسعد بطلعتها لحظات .

وقابلته في الطريق صديقه صادق ، فقال له :

— إلى أين ؟

فقال سعيد وقد أشرق وجهه سرورا :

— إليها .

فابتسم صديقه ، وسار معه ، وأخذ يترنر وسعيد يسمع كلامه ، ولا يفقه منه شيئا ، كان ذهنه غائبا ، يسبق الحوادث ويتخيل ما يتمنى .

وبلغا سور القصر العيني ، فوقفا على الطوار ، سعيد يتطلع في لهفة إلى باب بيتها ، وقد غمرت مشاعره رقيقة حاملة ، وصديقه يتحدث إليه حديثا يخرج بعضه بعضا ، ولو أنهصف للاذ بالصمت ، وترك سعيدا يهيم في مشاهات الخيال

ولاحت عند الباب بثوبها المدرسى الأسود ، وانفلتت إلى الطريق في خفة ، خفقت قلب سعيد ، وامتلأ غبطة ، وهزه الوجد ، نفيل إليه أن روحه رفرفت حولها ، وراحت ترشف منها رحيق النشوة ، فسبح في بحور السعادة ، وظل يرنو إليها كالمسحور ، وهي تنساب في رشاقة حتى غابت عن عينيه .

واستمر في سهومه ينظر إلى لا شيء . ولكنه كان يراها بقلبه وذهنه ، وينهم بإحساساته ، ونظر إليه صديقه ثم قال :

— هيا ، لقد ذهبت .

فأفاق من حلمه ، وانطلقا إلى القصر العيني ، وما دلفا من بابه وسارا في الممر الطويل الداهب إلى المستشفى ، حتى راح سعيد يسعل ، ويحس ضعفا يدب في أوصاله ، ورغبة في أن ينهار ، فالتفت إليه صديقه وقال :

— إنك مريض ، ولا بد أن تعرض نفسك على الطبيب الآن .

وذهبا إلى الطبيب ، وما إن فحص عنه ، حتى أمر بإدخاله المستشفى ، فقاده صديقه إلى سريره ، ثم ذهب إلى الدار يحضر له الثياب .

ومر النهار وسعيد محدد في فراشه ، يفكر فيها ويناجيها ، ويدبر بينه وبينها أحاديث شهية ، كانت ترفعه من دنيا آلامه إلى دنيا بهيجة من نسج الأوهام والخيال ، وأقبل الليل ، ووفد صديقه يعودده ، فلما إن جلس على حرف السرير حتى مال وقال له وهو يبتسم :

— خير دواء لدائك أن أحضرها لك .

فأشرق وجه سعيد ، وقال في ثقة :

— والله لو جاءت إلى الساعة لأقوم من فراشي هذا بارئاً معافى

١٢٣

راح على يدور في الغرف ساهبا واجما ، يحس فراغا في نفسه ، وخواه في روحه ، وهما يكاد ينقض ظهره ، بعد أن ذهبت صفة وتركته وحده في بيت الأحزان . كان يعيش طليقا قبل أن تذهب ، ينام حتى الضحى ، ثم ينطلق إلى المقهى يتجاذب مع أصدقائه أطراف الحديث ، فإذا جاء أوان الغداء ، عاد إلى البيت يتناول طعامه ، ثم يمضي إلى فراشه يقبل ، حتى إذا أقبل المساء ، خرج يقضي سهرته مع صحبه ، لا يفكر في شيء ، كانت هي عقله المدبر ، والحارس الساهر على بيته ، الموحي بالطمأنينة والسلام .

إنه يحس أنه بات غريبا في زحمة الحياة ، لا يدري ماذا يفعل ، وإنه ليفزع إذا ما فسكر في يومه ، وتغم عيناه بالدمع إذا ما تذكر زوجته ، إنه حائر قلق منزع مضطرب ، ذهبت نفسه شعاعا ، ودثرته الآلام .

وأطرق يفكر فيما يجب عليه أن يفعله ، واستمر مطرقا لا يهتدي إلى شيء ، كان قد ألف حياة الفراغ ، فكان عسيرا عليه أن يفكر في حياة أخرى ، كلها مسئولية وكفاح .

أيكافح في الحياة ؟ هو الذي ترك الكفاح ، وركن إلى الدعة بعد أن ألقى عليها العبء كله ، فتهضت به راضية مرضية . أجل ، ينبغي أن يعاود الكفاح ، وأن يهجر المقاهي والصحاب ، ويقوم بواجبه نحو الأولاد .

وقر رأيه على أن يبحث عن عمل ، يفرق فيه همومه ، ويمكنه من أن يسدى إلى أهله يدا ، فذهابها قد ترك في الأسرة فراغا كبيرا ، فعليه أن يبذل ما وسعه البذل ، لينسد ذلك الفراغ .

أينجح في أن يعوض الأولاد عما فقدوه ؟ أن يصب عليهم حنانه ؟ ولكن ما حنان الأب إلا قطرة في بحر حنان الأمومة الدافق ، أفقططي هذه القطرة عطشهم الدائم إلى الحنان ؟

إن موتها لحسارة ، وإنه وهو الذي أصبح عليه أن يمنح الحنان ، لفي حاجة إلى حنانها ، فصابه فيها كمصائبهم ، بل مصابه أشد وأقسى ، فسرعان ما يبلى

حزنهم ، بيد أن حزنه عليها ان يبلى ، مستغمرهم الحياة ، وينسون همومهم وهم في طريقهم إلى مستقبلهم ، ولسكنه بلا مستقبل ، سيعيش في ماضيه ، يجتر ذكرياته المعلقة بالأحزان .

سار إلى باب الشقة مطأطئ الرأس ، وقبل أن يدلف إلى الدرج ، التفت خلفه ، وألقى نظرة ملؤها الأسى على السكون الجاثم في كل مكان ، فاستشعر وحشة ، وأحس كأنما يقف على أطلال ، ففرت دمعة من عينيه تركها تنحدر على خده ، ثم انطلق يسهى وفي وجوفه وقدة جمر تتلهب .

وانساب في الطريق ، وقد ضاقت الدنيا في عينيه ، لا يدري أين يذهب ، كان ينطلق دائماً إلى المقهى ، ولسكنه يريد اليوم أن ينقب عن عمل ، ولسكن أى عمل بعد تلك السنين التي تقضت ؟ وتذكر أنه كان يعمل يوماً في حانوت الحاج كرم ، فوطن النفس على أن يذهب إلى هناك .

واتجه إلى الحانوت . وتقدم إليه هونا كأنما يحمل أثقالا ، وأشرف على الموجودين ، فقال في صوت خافت :
— السلام عليكم .

فردوا عليه السلام ، وفسحوا له مكانا ، فجلس صامتا لا ينبس بكلمة ، وتصرم الوقت وهو في إطراره ، وأراد مصطفى أن يخرج من صمته ، فقال له مواميا :

— هذا حال الدنيا .

فقال على ، وقد انقبض فؤاده :

— تركت لى أختك هموم الدنيا ، والله لا أدري ماذا أفعل بعدها ، ماذا أفعل للأولاد ؟ لهم الله !

وشرد بصر على ، وقد علا وجهه وجوم ، وقال مصطفى :

— كبر الأولاد وزال همهم ، أصبحوا قادرين على أن يكفلوا أنفسهم بأنفسهم .

ولم يصدق على ما يسمع ، فقال في قنوط :

— ماذا يمكننى أن أفعل أنا للأولاد ؟ !

ولم يطق السكت ، فنهض وانطلق هائما على وجهه .

١٢٤

سميد في فراش المرض يفكر في حاله ، إن روحه تهفو إلى فتاته ، ولكنه عاجز عن أن ينهض . وأن يذهب بضمة أمتار ليلقى عليها نظرة تطفئ لهيب الشوق المتأجج ، إنه في فراشه لا يفصل بينهما إلا بضع حجرات ، وسور القصر العيني وشارعها الحبيب ، الذي تطل عليه كل نهار وكل مساء .

ترى لو كانت تعرف مقدار حبه ، وأنه قد أصيب بآفة في الرئة ، أكانت تحجم عن عيادته ؟ مستحيل . إنها ملاك ، لو كانت تدري أنه يتلهف على رؤيتها ، لحنت إليه ، وغمرته بخناها وملاّت قلبه بالأفراح .

إنه يستشعر في أعماقه أنها له ، وأنه لها ، وأن القدر قد ربط بينهما الأسباب ، ولكن كيف وهو يكتفى بالنظر إليها من بعيد ، والهيام في دنيا الخيالات ؟ فلو أراد أن تكون له ، لوجب عليه أن يتقدم إليها وقلبه على كفه ، فما في الحب من عار .

إنه يؤمن بأنه قادر على أن يخلق نفسه بنفسه ، وأن يصنع مستقبله بيديه ، فلن يدع خجله يزحزحه عن طريقه الذي رسمه ، إنه يحبها . . . يهواها . . . يهيم بها ، ولن يتركها لأحد سواه .

ورن في أذنيه صوت خافت ساخر ؛ « إذا كنت تخلق نفسك بنفسك حقاً ، وتصنع مستقبلك بيدك ، فاقهر مرضك ، وتقدم إلى الامتحان غداً وقد ضاعت هذه السنة هباءً » .

وأحس قهراً ، ولكنه لم يركن إلى يأسه ، بل راح يصرخ في نفسه : « هذا عام من عمري ، فلن أضيعه هباءً ، سأذهب إلى الامتحان ، سأقهر مرضي وأذهب إلى الامتحان » .

واستمر يقلب وجوه الرأى ، ويفكر فيما يفعل ، حتى راح في سبات ، وانصرم الليل ، ووفد النهار ، ودبت الحركة في ممر القصر العيني ، وأقبلت المحرّضة تَعُودُهُ ، فقال لها :

— أريد أن أذهب إلى الامتحان .

فرنت إليه في دهش ، ولم تنطق حرفا ، فقال في إصرار :

— لابد أن أذهب إلى الامتحان .

فقال له في لطف :

— أصر الطبيب ألا تنادر الفراش .

— احمأوني إلى هناك .

وأصر وأمعن في الإصرار ، فلم يجد الأطباء أمامهم إلا أن ينزلوا على رغبته ،
فجاء بنقله ، وحمل فوقها ، وانطلق الرجال به إلى مقر الامتحان .

نظر الممتحن الإنجليزي ، فألقى شابا ممددا على نقالة يدخل عليه ، فلاح في وجهه
العجب وسأل :

— ما هذا ؟

— طالب مريض يصر على تأدية الامتحان .

فاقترب الرجل من سعيد ، وقال :

— إنك في حاجة إلى الراحة ، وفي اختبارك إرهاق لك .

فقال سعيد في حماسة :

— أمضيت سنتين أستذكر ليل نهار في انتظار هذه اللحظة .

— صحتك أثمن من كل شيء .

— جئت لتأدية الامتحان ، وما من قوة على الأرض تشينني عن عزمي .

فهر الممتحن كتفيه ، وبدأ يلقي على المريض أسئلة ، وسعيد يتدفق في إجابته ،

وزال من وجه الرجل العجب ، ولاح فيه إعجاب ، وما انتهى من اختباره حتى
رفت على فمه بسمة رضا ، وقال :

— ستكون طبيبا رائعا ، طبيبا عنيذا .

وبدأ الرجال يتحركون بالنقالة ، والرجل الإنجليزي يتم بنظره الطالب

المريض ، الذي يعتقد أن ما من قوة في الأرض تشنيه عن عزمه ، وعلى عياه
آيات التبجيل ، وعلى فمه بسمة إعجاب .

١٢٥

جلسوا على الشاطئ ساهمين ، فقد جاءوا إلى المكس يمشون الصيف ، كما اعتادوا أن يفعلوا في كل عام ، ولكنهم كانوا يحسون هذه السنة قراغا وانقباضا ، كانت هذه أول مرة يفدون فيها إلى البحر ، وقد غابت الأم الحبيبة ، التي كانت تبعث في مصيفهم الحياة ، وتسربله بالهجة والانشراح .

وأطرق على يفكر في زوجه ، وفي قلبه أسى وحنين ، وقد ارتسم على وجهه الشجن ، كانا يجلسان معا يتناحيان ، ويرقبان الأولاد وهما يتجاذبان أحاديث مفعمة بالآمال ، وإذا به اليوم يستشعر وحشة ، إنه وحيد ، وإن كان أولاده يحيطون به ، ويلبون ما يبيده من رغبات .

كانت له صفة كل شيء ، حديثها يرضيه ، ووجودها إلى جواره يملأ نفسه ثقة واطمئنانا ، ورنوه إليها في صمت ينعش روحه ، ويبعث فيه الحياة ، كانت دنياه ، فلما ذهبت أصبح بلا دنيا ، وفقد كل شيء .

وزحفت إلى رأسه أفكار ؛ عرض عليه بعضهم أن يتزوج بعد صفة ، فاعتذر بأنه لا يحب أن يضايق الأولاد ، وما كان ذلك حقا ، فقد أصبحت زوجه في نظريه رمزا للوفاء ، إنه يحس روحها ترفرف حوله في كل حين ، فكان يوقن في قرارة نفسه أن حديث زواجه يدعى روحها ، وما كان يحب أن يخذلها ، أو يعكس عليها ما هي فيه من صفاء ، لذلك كان يمتن أن تخطر له فكرة الزواج ، أو يجري هذا الحديث على لسان .

وراح زكريا يمد بصره إلى البحر ، ويرقب الموج في مده وجزره ، فإذا برأسه يمتلئ بالأفكار ، فما ينظر إلى شيء ، حتى يتحول في نفسه إلى فكرة ، إنه يرى الموج في إقباله وادباره كالحياة ، عناق وقبالات ، ثم فراق يعقبه إقبال وعناق . إنه الميلاذ فالتمو حتى يتم غايته ، ثم الاضمحلال والفناء ، يعقبه ميلاد جديد . إنه الحياة والموت والبعث .

وما الحياة ؟ وما الموت ؟ وما البعث ، وما نحن ؟ حقيقة كل أولئك أم وهم من الأوهام ؟ ! وغرق زكريا في أفكاره فاخترق كل ما حوله عن عينيه .

ورفع يحيى رأسه ، وأخذ يحدق فى الحسان ، فيرفرف قلبه فى جوفه بهجة ،
ولا ترف عيناه ، فالدنيا عنده ذراع بضعة ، ونهدان كاعبان ، وعينان واسعتان ،
وشعر ناعم ، ولحم طرى رجراج .

لمح فتاة مملئة . ناصعة البياض كالشمع ، ينوس شعرها الذهبى خلفها ، وهى
تجوى صوب البحر لترتمى فى أحضانها ، فلمعت عيناه ، وسال لسانه ، ولم يقو على
أن يكبح جراح نفسه ، فهب منتصباً ، وانطلق يعدو جندلان مبتهجا ، وراح
يخوض الماء ، ثم يسبح فى خفة وقد جعل قلبه ذات البشيرة الناصعة البياض .

وقام جلال ، وراح يندرع الشاطئ ، وكل ما يعنيه أن يجذب إلى نفسه
الآبصار ، وأن يكون محط اهتمام الناس ، كان ينظر إلى الفتيات المستلقيات على
الرمال ، لا ليتمع بصره بمفاتنهن ، ولسكن ليقراً فى عيونهن الإعجاب به ، كان
يخس فى قرارة نفسه أنه الدنيا ، وأن ما عداه عدم وفناء .

وقعد سعيد كالوسنان ، يفكر فى حاله ، نجح بالرغم من مرضه ، وما هى
إلا بضع سنين ويصبح بعدها طبيباً ، ورأى بعين خياله القصر العيني ، ورأى
نفسه مريضاً محمداً فى سريرته ، وتذكر أن خالداً أرسل إليه من إنجلترا خمسة
جنيهات يستعين بها على مرضه ، فأحس قلبه ينبض بالحُب ، وسرعان ما قفز ذهنه
إلى دنياه ، فراح يفكر فى فتاته ذات الثوب المدرسى الأسود ، والوجه الملائكى
الطاهر ، ورقة الأطياف .

واستسلم فى أحلامه ، فاحتلت صورتها أقطار رأسه ، وملاّت مشاعر الحُب
أنحاء نفسه ، وراح الحنان يتدفق فى جوفه ، وأفهم بمشاعر جذابة مشتهاة ،
واستبد به وجدده ، فأخذ قلبه يدق دقات متتابعات .

وخطر له أن يذهب إليها ، أن يغادر الإسكندرية الساعة ، وينطلق إلى القاهرة ،
إلى شارع القصر العيني ، إلى بيتها ليسعد برؤيتها ، وينعم بالعيش فى جوها لحظات .
أستحق تلك اللحظات ما يتجشم فى سفره من متاعب ؟ ! أجل فما يعيش
إلا لهذه اللحظات القصار ، إنها كل حياته ، وما عداها هباء . ووطن النفس
على أن ينطلق إليها ، فقام وغادر المكس ، وذهب ينقب عن سيارة تنقله
إلى هناك .

١٢٦

تكهرب الجو الدولي، وأطل شبح الحرب بوجهه البغيض، بعد أن اجتاحت
المانيا أراضى بولندا، فأرسلت الحكومة المصرية تستدعى مبعوثيها من الخارج،
فعاد خالد إلى الإسكندرية، وما إن مست قدماء أرض الوطن حتى أحس حنيناً،
فراح يغد السير، وقلبه في جوفه يخفق كجنح حمامة، يتلفت في لطفة، يبحث
بعينه عن ينظرونه، فلما لمح أباه وزكريا ويحيى هزه الفرع، فراح يلوح لهم
مغتبظاً، وهو يهرول نحوهم، تكاد صيحات السرور تند منه، وتفر من فيه، كان
يكبح جماح عواطفه، ولو أطلق لها العنان لصاح بأبيه يناديه، ولقفز في الهواء
طرباً، كطفل رأى أمه بعد طول غياب.

ورآه أبوه، فاغرورقت عيناه بالدموع، وجمجم بصوت خافت أشاع الحنان
في نفسه: «ابنى»، وفتح ذراعيه يستقبل خالداً الذى ارتعى في أحضانه، وراح
يضمه إلى صدره، ودموعه تجري على خديه.

وساد الصمت لحظة، كانت العواطف فيها جياشة، فعجز اللسان عن أن
يترجم عنها، وتلاقت العيون، فإذا بها تفصح عن أروع مافى البشرية من مشاعر،
وأخذ خالد يعانق أخويه، ثم ساروا جميعاً يتحدثون، حتى إذا بلغوا عربة من
العربات المنتظرة عند الميناء، لنقل الواقدين إلى حيث يبنون، ركبوا فيها،
وانطلقت بهم وهم يثرثرون، كان خالد قطب الرحى، ومحور الحديث.

وبلغت العربة الحارة، وانساب فيها، فإذا بالصمت يخيم على الجميع، وإذا
بالوجوه يعلوها وجوم، وإذا بخالد يشرد بصره، ويتحاشى أن تقع عيناه على
عيني أحد منهم، وغلفت القلوب بغلالات من الحزن، تذكروا جميعاً أنهم
عائدون إلى بيت خلا من بهجته، بيت غابت عنه ربه، بيت جف فيه نبع
الحنان الصافي الرقراق، فأضحى حجارة صماء، بعد أن كان نابضاً بالحب، فيأضا
بكنوز الرقة والوداد.

وقفت العربة أمام الباب، فهبت حليلة واقفة تتفرس في وجوه القادمين،
وقد أطلت خصلات من شعرها الأشيب من تحت عصابة رأسها، ولحت خالداً،
فأشرق وجهها ابتسامة ترحيب، وقالت في صوت خافت كله حياء:

— حمد الله على السلامة .

وتقدمت خطوات ، ولو طأوعت نفسها لخدمته إلى صدرها ، رأته طفلاً يلعب مع إخوته ، ورأته شاباً يقبل عليها ويحيطها ، فأحبته كما أحببت أطفال الحارة ، فلما غاب عنها سنين افتقدته ، وهاهو ذا يقبل اليوم ، فتستشعر في أعماقها كأن ابناً من أبنائها قد عاد .

والنفت إليها خالد ، وقال لها وقد رفت على شفتيه ابتسامة :

— كيف حالك يا حليلة ؟

فغمغت في رضا :

— الحمد لله !

وتقدم يرقى في الدرج وأبوه إلى جواره ، وزكريا ويحيى خلفهما ، وقد لفه حزن عميق ، كانت أول مرة يذهب فيها إلى البيت وأمه ليست فيه ، وحزر على ما يقاسيه ابنه ، فانتقبض صدره ، ولاح الأسى في وجهه ، ولو أرخى لنفسه عنانها لانخرط في البكاء .

ووقفت عماته عزيزة وثريا وزينب وأخواتهن أمام شقتهن يرحبن بمقدمه ، وأخذن يطبعن القبلات على خديه ، واسكنه لم يحس لقبالاتهن طعماً ، كان منقبضا ، يتحملكه شعور مستبد يصرخ فيه أنه بات يتيماً بلا أم .

وصعد في الدرج بخطا متثاقلة ، وقد طأطأ رأسه ، ودلف إلى الشقة ، وراح يتلفت فيها بعيون زائغة ، كأنما ينقب عنها ، وصاح صوت من أغواره : « أمي . . أمي » ، فمزق نياط قلبه ، وزلزل كيانه ، وإن لم تسمعه أذنان ، وارتسم على وجهه أعمق آيات الحزن ، ولمح على ما يكابده ابنه من أسى ، فلم يطق أن يرقبه ، فأنسل من أمامه ، وذهب إلى غرفة أخرى يكف كف عبراته التي طفرت من مآقيه .

١٢٧

سعيد ضيق الصدر ، حانق على نفسه ، فالسنون تمر وهو يرقب فتاته في الصباح يرصد هبوطها ، ثم يتبعها على البعد حتى إذا دلفت إلى مدرستها قفل عائداً إلى داره ، أو إلى الكلية ، وينتظرها في العصر أمام مدرستها ، فإذا ما لحها مقبلة اضطرب وابتعد عنها ، وراح يفتني آثارها خافق القلب منتشياً .

لم يعد النظر إليها يطفئ غليله ، إنه يشتهي أن تكون بقربه ، أن يصفى إلى حديثها ، أن يمضي الساعات وهو يرنو إليها وقد شغل بها عن كل ما حوله ، أن يمتزج روحه بروحها ، إنه يهفو إليها ، ويتمنى من كل قلبه أن تربط بينهما الأسباب .

لن يقف مكتوف اليدين بعد اليوم أمامها ، سيتقدم إليها ، وسيظهر ذلك التردد البغيض الحائل بينه وبين سعادته ، إنه قادر على أن يصنع ما يريد ، ولن تقف أية قوة في سبيل إرادته .

وأطرق يفكر فيما يفعله ، فرأى أن يكتب إليها ، رسالة يبثها فيها لواعج نفسه ، ويدسها في يدها ، وأعجبه الفكرة ، فذهب إلى مكتبه ، وجلس يسكب على القرطاس ذوب قلبه .

راح يذكر لها أن السنين تقضت وهو خاشع في محراب حبها ، وأن طيفها كان توهم نفسه ، وأن وجده سرى في روحه ، وامتزج بدمه ، وأنه بات لا يطيق العيش إذا ما اختفت من حياته ، وأخذ يتوسل إليها أن تجود بالوصال ، وأن تروى ظمأ فؤاده .

وطفق يقرأ الرسالة ، وقد لفه قلق لذيذ ، وامتلاً جوفه بالمشاعر الرقيقة المتدفقة من كنوز مهجته ، واطمأن إلى ما سطره ، فطوى الرسالة ، وخرج منطلقاً إلى مدرستها .

كانت جموع الناس تتدفق في الطريق تدفق السيل ، والترام يضج في غدوه ورواحه ، والسيارات تعج بركابها ، وهو صاعد هابط على الطوار وقد

شغل عن كل ذلك بإحساساته الفائرة ، وقلقه النابت في صدره ، وصورتها التي احتلت ذهنه ، والرسالة العزيزة المطوية في يده .

كان يستشعر في نفسه خطر ما هو مقدم عليه ، ترى أقرأ الرسالة إذا ما دسها في يدها ؟ أترضى عن فعلته أم تحنق عليه ؟ أتبتسم له أم تشور في وجهه ؟ ودثره قلق ، وسرى فيه اضطراب ، ليتها تعرف ما يكن لها من حب صادق ، فتوقيه ما يكابد من رهبة ، وتذلل له ما هو مقدم عليه من صعاب !

ودق ناقوس المدرسة ، فخليل إليه أن مفاصله قد تفككت . وأن قلبه يكاد يفر من فيه ، وأن أوعية مشاعره قد تفجرت ، فاختلطت وامتزجت ، فما عاد يدري أيشت أم يلوذ بالفرار . وبدأت أسراب الفتيات توج في الطريق ، فالتصت حدقاته ، وأرهفت حواسه ، ولحهاها بطة في الدرج الخارجي ، ففارت إحساساته ، وراح يجمع شتات نفسه ، ولكن هيهات ، كان يحس أنه صار كريشة تعابثها الرياح . وسارت في ثوبها الأسود ، تحمل في رشاقة حفيظة كتبها ، رقيقة كالنسيم ، متفحجة كورد الربيع ، شاحخة الرأس ، تنطلق في طريقها لا تتلفت كما تتلفت قريناتها ، فسار في آثارها خافق القلب ، لا يجرؤ على الدنو منها ، وإن كانت هتافات الإغراء تذبذب من أعماقه ، تحته على أن يوسع من خطوه ، حتى يلحق بها ، ويدس في يدها رسالته .

وتجاوزت سكة حديد حلوان ، وهو يرصدها على البعد ، إنها تقترب من دارها ، فإذا لم يدن منها ، وينتهز ذلك الهدوء المسيطر على الطريق ، ويدفع برسالته إليها ، فستفقد منه هذه السانحة ، فراح يقهر تردده ، ويجد في سيره حتى حاذها ، وملاً عبيرها الماغم أنفه ، وراودته فكرة دس الرسالة في يدها ، ولكنه أحس هلعاً ، وشعر كأنما يكاد أن ينهار ، ففر مدعوراً حتى تجاوزها ، وهو لا يكاد يسيطر على خلجات نفسه .

وتهمل عند ناصية الطريق ، وقد لاح له سور القصر العيني ، وجعل يلتقط أنفاساً مترددة ، وظل لحظات حتى أفرخ روعه ، وبدأ ذهنه يعمل ، فخطر له أن يعطى بواب البيت الرسالة ، وينفحه بضعة قروش ، ويلتمس منه أن يقدمها إليها ، ولم يتردد ، فانطلق إلى البواب ، ومنحه قطعة نقود فضية ، انبسطت لها

أسارى الرجل ، ودفع إليه بالرسالة ، وقال له وهو يوحى إليها ، فقد كانت مقبلة نحو الدار .
— أعطها هذه .

ووقف بالقرب من الباب ، يرفب ما يحدث ، وهو ينتفض ، وقلبه يخفق في شدة ، وأقبلت مرفوعة الرأس ، ودلفت إلى البيت ، فتقدم منها البواب ، وقدم إليها الرسالة ، وهو يشير إلى سعيد ، الذى كاد يذوب رهبة وخجلا .
تناوات الرسالة دون أن تدري ، ولما أفاقت من المفاجأة ، امتلأت حنقا ، واربد وجهها ، وغامت صفحته الصافية بسحابة من الغضب وانقبضت ، ثم طفرت دموعها من عينيها ، وانخرطت في البكاء ، فأحس سعيد أن خنجرا يمزق أحشاءه ، ولم يستطع صبرا ، فإذا به ينطلق إليها ، ويجذب الرسالة من يدها ، وينصرف خافض الرأس ، حزينا حائقا على نفسه ، لأنه أساء إليها ، وجرح كبرياءها ، ودلف إلى الطريق ، يصغى إلى أصوات التأنيب المدوية في جوفه ، وهى ترنو إليه من خلال دموعها .

١٢٨

راودت خالدا فكرة الانطلاق إلى بيت خاله ، فهو يحس حزينا طاغيا إلى درية ، ولو أصفى لهتافات قلبه ، لعنف في سيره إليها غب أن مست أرض الوطن قدماه ، كان طيفها يزوره وهو في بلاد الغربية ، فيؤنس وحشته ، ويشد أزره ، ويجعل لحياته هدفا يصبو إليه ، إنه يشواق إلى التطلع إلى عينيها الزرقاوين ، وإلى وجهها الدقيق القسمات ، وإلى أن يعيش في مجالها ساعات .
ونهض وذهب إلى المرأة ، ووقف أمامها ، يتألق في ارتداء ثياب الطيران ، ثم وضع طربوشه على رأسه ، وانفتل إلى الدرج ، يهبط فيه قفزا ، كان يشعر بالحياة تتدفق في عروقه ، ومشاعر الوجد الرقيقة تمور في جوفه ، فترفعه إلى عالم يتألق بالود والحنان .

وانساب في الحارة ، وقد غلفها ظلام دامس ثقيل ، لم يقو على هتكه ضوء المصابيح المتدلية على وجوه المنازل ، ونفذ إلى أنفه رائحة المساء الآسن ،

وصلك أذنيه مواء القملط المنبث من الخبرة ، وصوت النجرو المبلجل : « نظرة يا جورج ، يا جورج نظرة » . فلم ينتفض صدره ، ولم يضق بالحارة ، ولم تداعب ذهنه أمنية « الشارع الجديد » ، كان مشغولا عن كل ذلك بما يعتمل في جوفه من مشاعر وإحساسات .

ودنا من بيت خاله ، فرفرفت روضه طربا بين جنبيه ، وعنق في سيره ، وقد اشتد وجيب قلبه ، ورفت على وجهه الأسمر إشراقة من الوجد ، وراح يتقدم هونا وهو يجمع شقات نفسه ، يتأهب للحظة التي كان ينتظرها شهورا متعاقبات .

ودق جرس الباب ، فأحس صده في جوفه ، ومس أذنيه وقع أقدام مقبلة ، فتحنى أن ينفرج الباب عن درية حتى يحيطها في اشتياق ، وفتح الباب فإذا بالخدام تفسح له الطريق ، وهي تقول :
— تفضل .

وتقدم إلى غرفة الاستقبال ، يدب الهوى في وجدانه ديب الخمل ، وتسرى فيه غبطة قلقة ، وجلس مرهف الحواس ، يرقب وفود درية في شوق ، ولمح شبحا مقبلا ، فنهض متأهبا لاستقباله ، وقلبه يرفرف كجنح حمامة ، وتبين القادم ، إنها زوجة خاله ، فتوجت فمه ابتسامة ، كان يحبها ، ويستريح إلى حديثها . قالت وهي تدخل عليه :

— أهلا وسهلا . حمدا لله على السلامة !

وصاغت في اشتياق ، وجلسا وهي ترحب بمقدمه ، وتحتفي به ، وماهى إلا لحظات حتى أقبل خاله ، بقامته الطويلة النحيلة ، وجلبابه الأبيض ، ورأسه الحاسر ، يمسك في يده منديلا أبيض ، وراح يصاحفه ، وجلسوا يديرون الحديث بينهم ، وخالد يخلس النظر إلى الباب بين اللحظة واللحظة ، إنه ما جاء إلا ليراها ، وإنه ليمتجل قدومها ، ولولا بقية من حياء لسأل عنها .

ومس أذنيه وقع أقدامها ، ففارت دماؤه في عروقه ، وتهدج صوته ، وشرد ذهنه ، فلم يعد يتتبع حديث امرأة خاله ، وأقبلت درية في ثوب بسيط ، تتقدم نحوه على استحياء ، فنهض ومد لها يده ، وتناول يدها في رقة ، وقد أحس

كأن تيارا كهربيا سرى في بدنه ، فارتجفت من قوة رأسه إلى أخمص القدم ، ثم جلس يرأى إلى عينيها الزرقاوين في هيام ، فيحس كأنه يطير بأجنحة الغرام . وراح الحديث يجر جر بعضه بعضا ، ودرية لائدة بالصمت ، لا تنبس بكلمة ، وجمال بذهن خالد أن يفتح خاله في رغبته في الزواج من ابنته ، ولكن موجة من الرهبة غمرتته . إنه يذكر أن خاله قد رفض أن يزوج ابنته الكبرى من أخيه لبيب ، وإنه ليخشى أن يرفض خاله يده الممدودة إليه ، إنه لو رفض طلبه لتوض أمه الذي يعيش له ، وإنه لعزير عليه أن يتقوض أعز أمانيه أمام عينيهِ . وتفضى الوقت ، ولم يجد خالد في نفسه الشجاعة على أن يترجم عن رغبته ، فقام مستأذنا وانصرف ، وهو يلتمهم درية بهينيه .

وانساب في الطريق مطرقا يفكر في حاله ، فسخط على نفسه ، كانت فرصة موافقة ، فلماذا جبن عن أن يطلب يد ابنة خاله ؟

ومشى إلى الحارة ، وفي صدره قلق ، فماف العودة إلى الدار ، وقفزت إلى رأسه فكرة زيارة صديقه حامد ، فخرج عليه ، وراح يصعد إليه في جوف الظلام .

وطرق الباب في رفق ، وماهى إلا لحظات حتى انجباب عن سهام بجسمها الممتلىء ، وعينيها السوداوين الواسعتين ، وشعرها الأسود السبط المتهدل ، وما إن وقعت عيناها عليه حتى صاحبت في فرح :

— خالد ! مرحبا بك !

وكادت ترمى في أحضانه ، ولكنها مدت له يدها ، فلما صالحها ، قبضت على يده ، وراحت تجذبه في حنان ، وقلبا بين ضلوعها يرقص طربا ، وقادته وهى تردد :

— مرحبا . . مرحبا !

وأجلسته على أريكة في غرفة متواضعة ، وراحت تصيح في نشوة عارمة :

— حامد . . حامد . . خالد أتى ، خالد أتى .

ولم تستطع صبرا ، فهرولت تحضر أخاها ، فأخذت ثديها الناهدان يترجرجان ، وشعرها المسترسل ينوس خلفها ، وخالد مشغول عنها بدرية التي احتلت شغاف الفؤاد .

وجاء حامد ، وتمايق الصديقان ، فقامتا عينا سهام بالمبرات ، فرفضت
يدها ، ومسحت دموعها ، ثم أشرق وجهها ببسمة رقيقة ، وجلسوا في نجوى ،
حامد يسأل وخالد يجيب ، وسهام تتحدث وقد تفتحت وازدهرت ، كوردة
مسها الندى في فجر الربيع .

قال حامد :

— أتمكنك هنا كثيرا ؟

فقال له خالد :

— سأعود إلى القاهرة غدا .

— لتستأنف العيش مع جلال وسعيد ؟

— أفكر يا حامد في أن أعيش وحدي .

— أنت جبر أخويك ؟

— عزمت على أن أتزوج .

وتألفت عينا سهام ببارقة سعادة ، ثم أسبلت عينيها حياء ، وشررد ذهنها ،
وراحت تسبح في بحور من الأوهام ، وتبنى قصورا في الهواء .
وحان وقت الانصراف ، فنهض خالد ، وصافح حامدا ، ومديده إلى سهام ،
فصاحفته وهي تضغط على يده في خفة ، وقد توردت وجنتاها ، ولكنه انصرف
دون أن يظن إلى ما اعتراها . وعادت سهام إلى غرفتها ، وتمددت في فراشها ،
وأطلقت خيالها عنانه ، فراح يبدو وراء خالد ، وقد انشرح صدرها ، ورفرت
على وجهها سعادة عارمة .

١٣٩

اتزوى حسان في ركن بعيد من الحانة ، وقد أرسلت المصاييح الواهنة ضوءها
الباهت ، فانعكس ظله على الحائط ، فازداد المكان ظلاما ، وأخذت أصوات
الرجال تطن في أذنيه :

— أسمعت هذا الخبر ؟ دخل جريج ألماني على ضابط فرنسي ، ودماؤه تسيل
منه ، كان كل ما ينبغي أن يضمه جراحه ويسلم نفسه ، ولكنه الضابط الفرنسي
مات من الملح بلما وقعت عيناه عليه !

- يقال إن في الخزن رقم ١٣ أسلحة سرية يشيب من هولها الوليد .
- سمعت أن هتلر اخترع دواء يقلب الرجل امرأة ، وأنه سيجرعه جميع الفرنسيين ؟
- ولماذا كل هذا التعب ، والفرنسيون ليسوا في حاجة إلى مثل هذا الدواء !
- أسمعتم إذاعة إنجلترا ؟ إنها تقول إنها تحارب في سبيل حرية الشعوب .
- هع . هع !
- قيل إن ضابطا ألمانيا هبط « بالبراشوت » ، وحطم جسرا ، ثم صعد ثانية « بالبراشوت » .
- سمعت أن هتلر يضع مصحفها على مكتبه ، وأنه معجب بفرسان المسلمين ، وأنه أنشأ فرقة « العاصفة » على غرار فرسان خالد بن الوليد .
- يقال إن هتلر قد أسلم ، وإنه ينتظر حتى يتم له النصر ، ثم يعلن إسلامه .
- سينتصر هتلر على أعدائه ويبيد الإنجليز .
- كانت الدبابات الألمانية تمر فوق جثث القتلى ، وقد تكدست في ساحة القتال ، تشق لها طريقا ، لتقتفي أثر المهزومين .
- وتأمل حسان ، وأحس وخزا يحز روحه ، ما بال هؤلاء الناس يتحدثون عن الحرب هكذا ، كأنما يتحدثون عن ملهاة ، أو قصة قرءوها في كتاب ما بالهم قد قست قلوبهم ، فراحوا يتحدثون عن الضحايا والقتلى في انشراح ، ويتمنون مزيدا من الضحايا والقتلى ؟ لم تنس من فم أحدهم كلمة استنكار لهذه الحرب الضروس ، أو حتى كلمة تفيض بالرحمة ، أيدري هؤلاء اللاهون ما الحرب ؟ لو كانوا يعرفون كيف يعيش هؤلاء الذين يتلهون بقصصهم في الخنادق كالفئران ، في البرد الزمهرير ، وفي الحر اللافح الذي يكاد يزهق الأرواح ، ينتظرون أن يتخطفهم الموت في كل لحظة ، لانفجرت عيونهم بالدمع السخين .
- ولم يطق حسان مكثا ، فقام حائقا ، واندفع يشق طريقه صوب الباب ، وهو يستشعر رغبة في أن يصيح في هؤلاء المثرئين أن يكفوا عن ثرثرتهم ، وأن يمسكوا لسانهم عن الخوض في أحاديث ، إن دلت على شيء فإن تدل إلا على غاظ أكبادهم ، ولو لم البشرية ، ولكنه انسل إلى الطريق ، وقد أفعم بالضيق .

وانطلق ، والأحاديث التي ينديعها المذياع تنسكب في أذنيه ، فتزيد في حنقه
وغليظه ، كانت أحاديث تهر الخروب ، ونوهم الشباب أنهم يحاربون في سبيل
مثل عليا ، نستحق أن يجودوا في سبيلها بأرواحهم .

حاربوا في سبيل حرية الشعوب ، هبوا في وجه الطغيان ، حطموا سلاسل
الرق والعبودية ، ارووا الأرض بدمائكم الزكية لتنمو شجرة الحرية ، وتجري
السماء أنهارا . ثم تنجاب الغمة ، فإذا بالعالم كله كان يجري وراء سراب ، فلا
الشعوب نالت حريتها ، ولا انمحق الطغيان ، ولا تحطمت سلاسل الرق
والاستعباد . سلسلة من الأكاذيب البراقة ، برع الساسة في تنميقها ، ليزجوا
بشعوبهم في أتون الحروب ، لتحقيق مجدهم الشخصي .

وانقتل إلى الحارة ، وهو يعنف في سيره ، كأنما يحاول أن يفر من نفسه
الثائرة ، وبلغ الدار ، وإذا بحليمة لا زالت جالسة ، وأمامها قفص الجريد ،
صنفت فرقه قطع الخلوى الرخيصة ، كانت شاردة ببصرها ، غائبة عن كل
ما حولها ، حتى لسكانها لم تظن إلى سقوط الليل ، أو كأنما الأمر لا يعنها ،
فأحس نسمة من الرحمة تهب على قلبه ، قدس يده في جيبه ليعطيا كل ما فيه
من نقود ، ولكنه ألفاه خاويا ، فانسحل من جوارها يسترق الخطأ ، حتى
لا يوقظها من حلمها ، كان يستشعر في أعماقه أن الأحلام هي كل السلوى لمن كان
يعيش بلا واقع ؛ لمن كان مثله ومثلها .

ودخل حجرتة ، واستلقى على سريريه ، وإذا بأنغام موسيقية خافتة تندس
إلى سمعه ، وإذا بالأصوات النحاسية تتضح في اقتراها ، وإذا بأضواء باهرة تملأ
الغرفة ، فظن إلى أن زفة عروس مقبلة .

هبط الرجال من العالية إلى الحارة ، يحملون هراواتهم ، وتقدمت الموسيقى
خلفهم ، وأقبلت العروس في عربة ، حولها رجال أشداء يحملون قناديل تفرش
الطريق بالنور ، وتقدم الركب صوب حي الصعايدة ، وتجمع الأولاد ينظرون
ويرقبون في اهتمام موكب العروس ، وأفادت حليمة من حلمها ، فرأت بعض
الأولاد يهرولون صوب الزفة ، فصاحت فيهم ، وهي تحتجزهم بيديها :

— تعالوا هنا ، قبل أن تدور المعركة ، وتأتى الإسعاف تحمل جرحى
الصعايدة .

وبلغت الزفة المقهى ، ولم يترث الركب لتؤدي الموسيقى التحية للمعايدة .
وكان ذلك نذيرا ببدء المعركة ، فارتفعت الممرات ، ومشى الرجال إلى الرجال ،
ومشت الصيحات الجوى ، ودار القتال ، ثم بدأ أشد حتى الثروس في الانسحاب
المنظم . والمعايدة يقتفون آثارهم فرحين ، واءتلى الرجال والنساء أسطح المنازل
التي تطل على الخربة . فلما دنا المعايدة منهم ، وهم بالتصارع فرحون ، انطلقت
الزجاجات المحشوة بالزلط من كل سطح ، ومن كل نافذة ، ومن كل فج ،
لترطم برعوس المزهوين بنصرهم ، فيرتفع الصياح والأنين ، وخف حسان إلى
الشباك ينظر وهو حائق ، ورفع بصره إلى السماء وصاح :

— أحمأ يارب نحن أشرف خلقك ؟! أخلقت هذه السماء لنا ، وهذه الأرض
لنا ؟ هذا محال ، إننا وحوش بل أخط من الوحوش .

وراح يغدو ويروح في الحجرة ، وروحه يئن بين جنبيه ، وسمع رنين جرس
الإسماف ، فزاد ذلك في حزنه ، فنادر البيت مهجوما ، وانطلق ثانياً إلى الحانة ،
ليشرب حتى يفقد وعيه ، ويستريح مما يقاسيه ، ويذرف الدمع الهتون ، يطفىء
به ثورة نفسه ، وما يهتليج في صدره من مشاعر وإحساسات

١٣٥

وقف جلال أمام المرأة ، يصلح هندامه ، ويرنو إلى نفسه في زهو وإعجاب ،
فلم يبق على تخرجه في كلية الحقوق إلا سنة ، ويصبح بعدها الأستاذ جلال ، زميل
مصطفى النحاس ومكرم عبيد والطويل ، وإن يكون بينهم وبينه فرق كبير ، فالجميع
من خريجي معهد واحد صحيح أن بعضهم أصبح رئيساً للوزراء ووزيراً خطيراً ،
ولكن من يدري ، فقد يصبح الأستاذ جلال في ذات يوم وزيراً يشار إليه بالبنان .
كان يحلم بذلك ، وكان يفكر في الوزارة منتشياً ، لأنه صاحب مناهج
يريد تنفيذها ، ولا لأنه صاحب أفكار فذة ، قد تعود على مواطنيه بالخير ، بل لأن
مركز الوزارة سيجمعه محط أنظار الناس ، وإنه ليناغى حواسه ، ويهدده
غزوره أن تهوب إليه العيون ، وأن تلقى عليه الأضواء .

صادق بعض زملائه الأغنياء ، وهو ينطلق معهم كل ليلة ، يقضى الأمسية في سهرات صاخبة ، وكانت تلك الصحبة ترضيه ، وكان يزيد في تعلقه بهؤلاء الناس ، أنه كان يطعم في أن تذكر المجلات أنباء سهراته ، إذا ما تحدثت عن أخبار المجتمع وأبناء الذوات ، فأكبر أمانيه في هذه الأيام ، أن يظهر اسم «الأستاذ جلال على يونس» بحروف الطباعة بين أسماء المدللين من أبناء المثريين . وأسبل عينيه ، وراح يقرأ بعين خياله ما يتمنى أن تكتبه المجلات عنه ، أقيمت حفلة تكريم ماهرة في المليونيدو بمصر الجديدة ، تكريماً للأستاذ جلال على يونس ، حضرها كبار رجال القانون وعقيلاتهم ، وكانت الأنسات زيزى حكيم ، وفوقية صالح ، وميمى أمير ، زهرات هذه الحفلة التي تعتبر حفلة الموسم بلا جدال . وانشرح صدره لهذا الوهم الذي أفعمه بالرضا ، ولم يجهد نفسه في أن يفكر في المناسبة التي أقيمت من أجلها حفلة التكريم .

وأمال طربوشه قليلاً على جبينه ، ورفع المنديل الأبيض المتدلى من جيب «الجاكتة» قليلاً ، وألقى على نفسه في المرأة نظرة أخيرة فاحصة ، ثم رفع حاجبه علامة رضاه على حسن هندامه ، ودار على عقبيه ، وسار وهو يصغر في انشراح . وخرج ، وساد الغرفة هدوء ، وسيطر الظلام ، ومرت سويعة ، سمع بعدها صوت إدارة زر كهربى ، وغمر الضوء المكان ، فإذا بسعيد قد أقبل يحمل كتبه ، وجلس يستذكر ، لا يحفل بمرور الزمن .

ومرت ساعتان بعد منتصف الليل ، وإذا بصوت مفتاح يدور في الباب ، فنهض سعيد ، والتفت صوب الباب ، فرأى جلالاً يتقدم في خطوات متعثرة ، فاربذ وجهه ، وقال له في ثورة :

— أين كنت حتى هذه الساعة ؟

— كنت . . كنت مع أناس محترمين .

— لو كانوا محترمين لما سهروا يشربون حتى مطلع الفجر . إنهم أناس سفلة .

فقال جلال في اعتراض :

— لو رأيت موأدهم العامرة بما لد وطاب ، لتيقنت أنهم أناس محترمون . .

محترمون جداً .

وتطوح جلال وهو يدنو من أخيه ، فصاح فيه سعيد :
— لا أسمح لك أن تعود في مثل هذه الساعة ، وأنت سكران .
— سكران ! ؟ سكران ! ؟ أبدا .
— إنك تكاد تسقط من السكر .
— أنا حر .

ونار سعيد ، ولم يتمالك ، فرفع يده واطم جلالا لطمه قوية ، دوت في الحجرة ،
ثم أعقبها سكون رهيب ، وظل جلال شارد البصر ، لا يدري ما يفعل ، ووقعت
عيناه على الفراش ، فانسدل إليه مطأطىء الرأس ، وارتمى فيه ، وسار سعيد إلى
الزر السكهربى وأداره ، فغرقت الحجرة في الظلام ، وسيطر عليها سكون عميق
أشبه بسكون الرموس .

١٣١

أقبل الصيف ، فهرع المصطافون إلى البحر ، وانتقلت بعض الفرق التمثيلية
إلى الثغر ، فخف يحيى إلى « الصالة » يرحب بمقدم الفرقة ، ويحيى صاحبها في
شوق ، وينقب عن فتحية في لفحة ، كان يعنى النفس بأيام حلوة يقضيها معا في
« الكابينة » . وكان قد وطد العزم على ألا يخبر أحدا من أصحابه ، فقد أصبح
يريدها خالصة له ، لا يشاركه فيها أحد ، إنه كان يقبل مشاركة أصحابه على مضض ،
« فالكابينة » كانت لأحدهم ، ولكنه قد استعار واحدة ، وها هو ذا مفتاحها
في جيبه .

واستمر ينقل بصره بين وجوه الفتيات ، ويجوس خلال « الصالة » ، يبحث
عنها هنا وهناك ، ولكنه لم يجد لها أثرا ، فاقرب من بائع الفستق وسأله :
— ألا تعرف أين فتحية ؟

— تخلفت عن الفرقة ، وستستمر في العمل في القاهرة ، فالجنود الإنجليز
في حاجة إلى من تفرغ لهم ما في جيوبهم .

وأطرق يحيى ، وانصرف كشيئا ، كان يريد لها خالصة لنفسه ، لا يشاركه فيها
أحد من أصحابه ، فيالها من أمنية ساذجة ، قوضتها الحقيقة المريرة ، لم تعد له

ولا لأصحابه ، ولا للمصريين جميعا ، ولكن أصبحت الأمبراطورية ، ترى أوقالته الساعة أن تحكمه بالعربية ؟

وانطلق وهواء البحر يداعب وجهه فيمشي الهدوء رويدا رويدا إلى نفسه ، حتى إذا وصل إلى المقهى الذي اعتاد أن يقابل فيه سليمان ابن عمته ، كان الصفاء قد عاد إليه ، بعد أن تبخر الضيق الذي استبد به لحظات .

وظفق سليمان يتحدث حديثه المؤلف ، الذي يكرره كل ليلة ، ويحيي يصفى إليه منشرحاً . كان الحديث يدور حول ما يجري بين الأزواج ، وكان الشرح يطول أحيانا ، فيستغرق ثلاث ساعات أو أربع ، وكان سليمان في شرحه يعقد الأمور ، حتى إن السامع كان يتوهم أحيانا أنه يصفى إلى شرح عملية جراحية ! تزوج سليمان ولم ينجب أولادا . فظل على ما كان عليه قبل زواجه : تأنيق وفراغ يزجيه في الحديث عن العلاقات الجنسية ، ولو أنه رزق أبناء لتبدل حاله ، ولأنفق وقته في التفكير في مطالب البيت الضرورية .

وأما جلال الصيف يخطر في المكس ، يحصى في زهو نظرات الإعجاب التي تصوبها الحسنات إليه ، وقد راودته أكثر من مرة فكرة الانطلاق للبحث عن عفاف ، إنها قد عبثت به أكثر من مرة ، ولكنه انتقم منها لكبريائه يوم دعاها إلى «الكابينة» ، وتركها تلحق الجرح الدامي الذي أصيبت به كرامتها ، إنها لو عادت إليه بعد كل ما حدث ، لكان نصراله ، ولأرضى ذلك غروره كل الرضا .

وأعجبته الفكرة ، فانطلق في الصباح نشيطا تداعبه آماله ، وانتظر عند محطة الأوتوبيس ، وجعل يصعد كل سيارة مقبلة ينقب عنها ، وأخيرا لمحها بجسمها الممتلئ ، وعينها اللتين لا تخرجان إذا ما صوبت النظرات إليهما ، فابتسم معتبطا ، ودنا منها ، فلما لمحتة أربد وجهها ، ورمقته في زراية ، وأعرضت عنه ، حتى إنه تضائل في مقعده ، ولم يجد في نفسه الجرأة على محادثتها .

ووصلت إلى مكان عملها ، فهبطت وهبط جلال ، وسارت وثوبها خلفها يترجح كرقاص الساعة ، وهو يرنو إليها ، لا يجروء على الدنومنها ، إنه قد يتقن من نظراتها ، أن كل ما بينه وبينها قد انتهى .

وراح سعيد يمضى الإجازة على الشاطئ ، كان حاضرا بجسمه ، أما ذهنه فقد كان مشغولا بفتاته ، إنه يراها بثوبها الأسود تنخطر كالك في خاطره إذ هو يقظان ، وإذ هو نائم ، وهو بين النائم واليقظان .

وكان يهزه الشوق إلى رؤيتها ، فيذهب ينقب عن سيارة ذاهبة إلى القاهرة ، فإذا ما وجدها سافر خافق القلب مفتبطا ، يقف عند دارها ساعات حتى يلمحها في ثمرقتها ، أو يراها عائدة إلى الدار ، فيعيش في نعيم لحظات . لقد أمضى الإجازة في شوق ، ثم سافر لأطفاء الشوق ، ثم عاد يهاوده الحنين ، كانت أيامه كلها شوقا ثم سفرا ثم شوقا ينقبه سفر ، إنه يحس في أغوار نفسه أنه لا يستطيع أن يعيش دون أن تكتحل عيناه برؤيتها أياما .

وكان زكريا في مكتبه يشق طريقه ، لقد اتسعت اتصالاته ، حتى أصبح عضوا في الهيئة السعدية ، وإنه ليرقب الأيام ليرشح نفسه عضوا في البرلمان . كان يختلس بعض اللحظات يقضيها مع إخوته ، ولكن مستقبله كان يستغرق كل تفكيره . وكان المصيف يحدد أشجان على ، لقد ذهبت صافية ، وتركته لا يدري ماذا يفعل الأولاد ؟

١٣٣

انتهت الإجازة الصيفية ، فعاد إلى القاهرة جلال وسعيد ، وجاء معهم يحيى ، فقد أتم تعليمه الثانوى ، والتحق بكلية التجارة ، بعد أن أحقق في الالتحاق بالمدرسة الحربية .

راح يحيى يجوس خلال شوارع القاهرة ، ووفد الليل ، فتدسست إلى رأسه فكرة الذهاب إلى «الصالة» ، ليرى فتحية ، ويجدد العهد بينه وبينها ، إنه ليشواق إليها ، ويهفو إلى تمضية ليلاه معها ، فانطلق إلى «الكازينو» وقد وطن النفس على أن يبيت عندها إذا ما دعته إلى الذهاب معها .

ووقعت عيناه على جموع الجنود البريطانيين وهم في غدوهم ورواحهم ، فاستشعر ضيقا ، فقد فطن إلى أن هؤلاء لن يدعوا له لحظة يقضيها مع فتحية ، إنهم سيتهاقون عليها تهافت الذباب على قطعة من الحلوى ، وسيصيبون ما في

جيوبهم عن طيب خاطر في جيبتها ، بينما ان يستطع هو أن يقدم لها فليجائة من القهوة .

وخطر له خاطر أتعاد إلى نفسه ثقتها ، إنه يحس أن له في قلبها موصفا ، وأنها إذا رآته ، فلن تبخل عليه بأن تفسح له مكانا حول مائدتها ، إنها مائدة مكتظة ، يتدافع جنود الإمبراطورية ليتحلقوا حولها ، وإنهم ينفقون في سبيل ذلك أموالهم فيكفيه أن يروى ظمأه ، ويشبع نهجه ، دون أن يدفع لذلك ثمنا .

وتقدم من « الكازينو » ، وراح يصعد في الدرجات القليلة الموصلة إلى الردهة التي تقود إلى باب الصالة » ، ورأى إعلانا ملونا قريبا منه ، فذهب يقرأ أسماء الراقصات اللاتي يعملن في الملهى ، فقرأ أسماء راقصات لم يسمع بهن من قبل ، ولم يجد بينهن اسم فتحية ، فحسب أنها ترفعت أن يقرن اسمها بأسمائهن ، وتقدم صوب الباب ، وقال للرجل المقتول العضلات ، الواقف يرقب دخول الناس :
— أريد مقابلة الراقصة فتحية .

فقال له الرجل دون أن يحفل به ، أو ينظر إليه :

— سافرت . . . سافرت إلى العراق .

وتسللت نظرات يحيى من الباب ، فرأى راقصات الحرب قد انتثرن في « الصالة » ، وجنود الديمقراطيات قد أقبلوا عليهم مشغوفين ، لا يفرقون في هذه السوق بين الوسامة والدمامة ، فالنساء في هذه اللحظات المخمورة سواء ، كانوا يطبقون مبادئ الديمقراطية في صدق وإيمان !

وانسحب وهو يسير في ثقائل ، كان يعنى النفس بسهرات صاحبة مع فتحية ، وإذا به يكشف أنها ذهبت ، وأنه لن يراها إلى شهور طويلة ، ومن يدري ماذا تحبته تلك الشهور .

وقفز في ذهنه سؤال ، طفا على كل ما يشغله من أفكار ، ما الذى دعاها إلى السفر إلى الخارج في هذه الآونة الحرجة ؟ الجنود هنا ، والمال هنا ، وكل فتاة مغامرة تستطيع أن تهز أردافها زحفت إلى « الصالات » ، وملأت جيوبها الخالية بالذهب النضار ، فلماذا هجرت فتحية كل هذا الإغراء ، وهى الراقصة التي تتمتع بحجم متناسق بديع ، يسيل اللعاب ؟ لماذا سافرت ؟

ولم يجد جوابا يشفى غليله ، فhez كتفيه وإذا بصوت ساخر ينبعث من أغوار نفسه ، ويرن في أذنيه : « لعلها سافرت ، لترفع رأس مصر عاليا » !

١٤٣

سار سعيد في بحر القصر العيني الطويل ، وهو يرتدى ثيابه البيض ، فقد كان يمر على المرضى ، يفحص عنهم ، ويلقى أوامره على الممرضات اللاتي كن يهرعن إليه ، وينفذن ما يوصى به في عناية ، فقد كان وجهه على الرغم من وسامته يوحى بالصرامة والجد .

ودلف إلى غرفة من غرف المرضى الكثيرة المنشورة على جانب البحر ، وما إن تقدم خطوات حتى وقف مشدوها ، وراح قلبه يقفز في رعونة بين جنبيه ، وكادت صيحة عجب تند من شفثيه ، فقد وقعت عيناه على ممرضة تشبه فتاته ، ولولا الشباب البيض التي ترتديها لحسبها ملاك .

وتريث قليلا حتى ملك زمام أمره ، وراح يديم النظر إليها ، إنها في مثل قامتها ، وإن عينيها تحاكيان عيني ذات الثوب المدرسي الأسود ، ولكن فتاته كانت أكثر رقة ، وأسفى نفسا ، فروحه لا تهفو إلى المائلة أمامه ، كما تهفو إلى الغائبة عن عينيها ، الحاضرة في خياله .

إن رنوة إلى فتاته تفعم نفسه أملا ، وتجمله يهيم في عالم مسحور من الرقة والشغف ، بينما ينظر إلى الواقفة معه في حجرة واحدة ثابت الجنان ، هادىء النفس ، بعد أن أفرخ روعه ، وذهب عنه أثر المفاجأة .

واقرب منها ، وقال لها في هدوء :

— أتعملين معنا هنا ؟

فقالت في ثبات وهي ترفع وجهها إليه :

— نعم ، إتنى أعمل في هذا القسم .

فقال لها وهو يفحص عن مريض :

— ما اسمك ؟

— سنية .

ولاذ بالصمت ، وعكف على عمله منشرحاً ، وهى إلى جواره ، تنتظر ما يأمر به ، وقد ملأ أريجها أنفه ، ولكنه لم يدر رأسه ، إنه ليشم عير فتاته وهو

يتبعها ، فيحس قلبه يتفتح ، وروحه ترفرف في أعماقه مستبطة ، وأتم عمله
في الغرفة ، فانطلق إلى الممر الطويل ، وسنية خلفه ، وتمهل في سيره حتى لحقت
به ، فالتفت إليها وقال في صوت شهيج :

— ألك أخت تشبهاك ؟

وانداح في صدرها الرضا ، حسبته يريد أن يتبسط معها ويحدثها ،
فقالت له :

— لا .

ولكن عينها كانتا تكذبانها ، كانتا تصيحان « نعم » ، فقال في إنكار وقد
السمعت عيناه ، ولاح الاهتمام في وجهه :

— أليس لك أخت طالبة في المدرسة السنية ؟

فقالت في إصرار ، وقد رففت على شفيتها بسمة :

— ليس لي أخت في المدرسة السنية .

فغمغم :

— محال .

واتسعت ابتسامتها ، ولاحت أسنانها النضيدة ، فاشرح قلبه ، فقد أيقن
أنها أختها ، وأنها تنكر ذلك معاشة ، ووقعت عيناه على الأطباء والزوار الذين
كانوا في غدو ورواح ، فخشى أن يفطنوا إلى ما بينه وبينها من مناجاة ، فوسع
من خطوة ، وانطلق وهو يحمد الله في أعماقه أن قبض له أختها ، لقد ساقها
السماء إليه ، لتيسر ما هو مكتوب في سجل القدر .

وانصرف وقد ازداد يقينا أن فتاته ذات الثوب الأسود ، ما خلقت إلا له ،
وله وحده ، وأن الظروف تهيء الأسباب لتربط بينهما ، فشد ذلك أزره ، وزاده
إصرارا على أن تكون خالصة له من دون الناس .

١٣٤

يحيي يتحدث مع صديق تعرف به في الكلية ، إنه يعاني من تكاليف العيش في القاهرة ، فأهله يبعثون إليه بستة جنيهات في الشهر ، ينفق أغلبها مع إخوته في البيت ، ويشتري ببعضها بعض مطالب الكلية ، ولا يتبقى له إلا مبلغ قليل لا يكاد يسد حاجاته . كان أصغر إخوته ، فنشأ بعد أن تقضت أيام الضنك التي قاستها الأسرة ، وشب وقد نعم أهله ببعض اليسر ، فلم يألف شظف العيش ، ومد عينيه إلى ما متع الله به أناسا غيره ، كان يشتهي أن يمضي بعض الأمسيات في سهرات صاخبة ، تتألق فيها الأجسام الممتلئة البضة !

قال يحيي في مرارة :

— لعن الله الفقر ، لو كان معي نقود ، ما أمضيت الليل أتسكع في الشوارع ، أرنو إلى السيارات الفاخرة ، وما سرت معك أقتل الوقت ، كأنما بيننا وبين الزمن عداوة .

وصمت يحيي قليلا ، وقال له صديقه :

— ما رأيك في عمل لن يكافئك جهدا ، يدر عليك بعض المال الذي يمتنعك بوجودك ؟

فقال يحيي في حماسة :

— هذه يدي قدنى إليه الساعة .

فقال الزميل في ثقة :

— تعال .

— هيا .

وما انطلقا قليلا حتى عنف يحيي في سيره ، وقال :

— لم تقل لى ما هذا العمل ؟

— أيسر عمل تتصوره ، لن تتجشم في سبيله مشقة ، ولن تسعى إليه ، بل

يسعى إليك وأنت في مكانك .

— أحلم أم أحجية ؟ !

- كل ما عليك أن تفتح عينيك ، وأن تسيخ إلى ما يدور حولك .
فقال يحيى فى قلق :
— ثم ماذا ؟
— ثم تبلغ ماترى وما تسمع .
فأحس دمه يصعد إلى وجهه وإلى أذنيه ، وقال فى انفعال :
— إلى من ؟
— إلى القلم السياسى .
فقال يحيى فى صوت واهن :
— أعمل جاسوسا ؟ ! محال .
— كل ما ستفعله أن تتحدث مع القلم السياسى اليوم ، بما ستحدث به
الناس غدا !
فقال يحيى وقد اتسعت عيناه :
— لا أفهم ماذا تريد أن تقول ؟
— ستقول للقلم السياسى : الطلبة مجتمعون اليوم ، وقد قرروا الإضراب
غدا ، وسيقول الناس فى اليوم التالى : لقد أضرب الطلبة . هذا هو كل عملك الذى
ستتخذ عليه أجرا
فقال يحيى فى صوت فيه رنة هزء :
— ثمن الخيانة .
— إذا لم تتقاض أنت هذا الأجر ، فسيتقاضاه غيرك .
— أن يخون غيرى خير من أخون أنا .
— لماذا تسميها خيانة ؟ لماذا لا تسميها خدمة للدولة ؟ قد تتمكن من أن
تدفع عن البلد نكبة .
— أنظن أن القلم السياسى يهتم بدفع النكبات عن البلد ؟ !
فقال له الصديق فى حماسة :
— أشك فى ذلك ؟ ! تعال .
وانطلقا حتى دخلا على ضابط شاب ، ينطق وجهه بالبراءة ، كان أشبه بعذراء

وما كان يدور بخلد يحي أن يكون مثله من ضباط القلم السياسى ، وجعل الزميل يتحدث ويخفى بعضه ، فلما سمع أن زميله يقول عنه إنه مستعد أن يضع نفسه فى خدمة القلم السياسى ، اضطرب وقال وقد احمر وجهه :

— أرجو إعفائى من هذه الخدمة ، فأنا لا أصالح لها .

حاول الضابط أن يقنعه ، ولكنه أصر على رفضه ، وانتهت المقابلة ، وانصرفا والزميل يابسه على ذلك الرفض ، الذى ضيع مرتبا ثابتا ، كان يبيعينه على أن يمتنع بشبابه ، ويمكنه من أن يعيش كما يعيش الناس !

وأقبل الليل ، فعاد يحي إلى الدار بعد أن ذرع شوارع القاهرة ، وبعد أن مشى التعب إليه ، ودخل إلى فراشه ، وتمدد فيه ، وإذا به يفكر فى حديث زميله ، ومقابلة ضابط القلم السياسى ، وقفز إلى ذهنه سؤال : « لماذا يخون الناس ؟ أيخونون لأن بدور الخيانة فى نفوسهم ؟ أم يدفعهم الفقر إلى الخيانة ؟ وزميله لماذا يقبل أن يكون مرشدا ؟ أهو فى حاجة إلى النقود ليسك رفقته ، ويستمر فى الكلية ، أم يتطلع إلى أن يحيا كما يحيا الفارغون الذين ولدوا وفى أفواههم ملاعق الذهب ؟ وهو لماذا تراوده فكرة العمل للقلم السياسى ؟ أهو فى حاجة إلى نقود ليعيش بها ؟ إنه يأكل كل يوم ، ويلبس كما يلبسون ، ولكنه يريد النقود لينفقها على لذاته ، إن أنانيته لتدفعه إلى موارد الهلاك .

ولكن لماذا لا يعمل للقلم السياسى ، ويتناول منه أجرا دون أن يؤدي له عملا ، إنه قادر على أن يخدع القلم السياسى ، ولو لأشهر قليلة ينعم فيها بما سيقرر له من مرتب ، ولا حرج عليه فى أن يخدع مرة من خدع الناس آلاف المرات . « واطمأن إلى منطقته ، فنام وأغرق فى النوم ، وما أشرقت شمس اليوم التالى ، حتى كان أمام الضابط الذى كان أشبه بعذراء ، يعرض عليه خدماته ، فقال له الضابط فى دهش :

— كنت بالأمس رافضا مصرا على الرفض ، فما الذى حدث حتى عدلت

عن رأيك .

فقال يحي وهو يبتسم :

— لم أشأ أن يعرف صديقي أنني أعمل مسك .

فرنا إليه الضابط رنوة إعجاب ، وما انصرف يحيى حتى كان من القلم السياسى ،
وأصبح له راتب يتقاضاه كل شهر ، وسار وصوت تأنيب ينبعث من أغواره
يصيح به :

« هذا مال حرام » . وإذا بصوت آخر ينداح فى أعماقه فيعمر صوت
الاعتراض : « إذا كان ذلك المال قد أتى من الحرام ، فسيفق فى الحرام » .

١٣٥

سعيد يمر على المرضى فى القصر العيى ، وسنية إلى جواره تلبى إشاراته ،
وتذكره بفتاته . إنه يحس غبطة كلما حادها ، فقد كان يعتقد فى أعماقه أنها المفتاح
الذى سيفتح له باب جنته .

والتفت إليها فى حنان وقال لها :

— ما اسم اختك يا سنية ؟

فقال وعيناها تبسمان :

— لماذا ؟

فقال وقد أضاء وجهه ، وتهجد صوته :

— لأصبح به .

فقال وهى تفحصه بعينها :

— روحية .

فقال فى حرارة :

— إننى يا سنية أحس نحوها عاطفة نبيلة ، عشت سنوات أرقبها فى الغدو
والآصال ، وأعيش فى مجالها لحظات ، هى أسعد لحظات العمر ، إننى أشعر أنها
أصبحت قطعة من روحى ، وما أتفه اليوم الذى ينقضى دون أن أراها ،
أقول لك صادقاً إننى لن أصبح شيئاً إذا اختفت من حياتى ، إن كل ما أرجوه
أن تيسرى لى لقاءها .

فنظرت إليه بهمين مفتوحتين ، كأنما تحاول أن تستشف خبيثة نفسه ، وفطن
إلى تعبير نظراتها ، فقال لها في حماسة :

— لست يا سنية من ذلك الشباب الماجن الذي يبحث عن فتاة يلهو بها ،
لو كنت ناثما ما عشت سنوات وأنا قانع بالنظر إليها ، لقد ترعرع حبها في نفسي
على مر السنين حتى صارت شيئا مقدسا ، إن كل ما أبغيه أن أسمعها ،
وفي إسماعها سعادتي .

وصمت ، وران السكون برهة ، وهي ترمقه حاملة ، أذابت حرارة ألفاظه
وصدقها جمودها ، خفضت له جناح الرحمة ، وقالت له في لين :

— سنذهب في العصر أنا وروحية إلى خال لنا في القبة ، ويمكنك أن تحدثنا
في التليفون .

وأعطته رقم التليفون ، فأفغم بالنبطة ، وراح قلبه يرفرف بين جنبيه بأجنحة
السعادة ، وانصرف جذلان ، يكاد يرقص سرورا ، فما هي إلا ساعات ويتحقق
ذلك الحلم الذي عاش سنين والأمل العذب يحدوه بأنه سيصبح يوما حقيقة واقعة .
وتصرم الوقت وصوت عذب يهمس في نفسه : «روحية .. روحية .. روحية»
وصور بهيجة تترادف في مخيلته ، ومشاعر رقيقة تمور في جوفه ، فيحس
كأنما يعيش في ملكوت شاعري جذاب .

وجاء العصر ، فانطلق إلى التليفون ، يلغمه اضطراب لذيذ ، ومد يده ليرفع
السماعة ، ولكنه أحجم ، رأى من الأفضل أن يتريث ، فراح يغدو ويروح أمام
التليفون ، وقلبه يدق في عنف ، حتى ليكاد يسمع دقاته .

تقدم من التليفون يحس دبيب النمل يسرى في جسمه ، ورفع السماعة وأدار
القرص ، ورن الجرس رنينًا متواصلًا كاد ينخلع له فؤاده ، وسمع صوتا رقيقا يهمس :
— آلو .

فأحس رعدة تسرى في مفاصله ، وقال في صوت خافت متهدج :

— الآنسة سنية من فضلك .

— أنا سنية .

فقال في اضطراب :

— كيف حالك وأين هي ؟

— إنها إلى جوارى وستحدثك .

وقف قلبه في رعونة ، وأسند ظهره إلى الحائط ، وراح الوقت يمر وهو يجمع نفسه التي ذهبت شعاعا ، وتفضت لحظات رهيبة ، لا تقاس في حساب الزمن ، ولكنها كانت في حسابها آمادا ، وسمع سماعة التليفون ترفع ، فأرهفت حواسه ، واتسعت عيناه ، وترددت أنفاسه ، ومس أذنيه الصوت النسوي الرقيق .
— آلو . آسفة ، إنها تعتذر عن عدم الحديث معك .

وضع سماعة التليفون في تراخ ، ولكن لم يتسرب اليأس إلى قلبه ، بل أجبج ذلك الرفض نار حبه ، فوطن النفس على أن تكون له وحده ، إنه قادر على أن يفعل ما يريد ، وسيحقق رغبته ، وما أيسر ذلك ما دامت سنية إلى جواره ، تؤمن بحبه لروحية وإخلاصه لها .

١٣٦

شحب وجه الشمس ، وغاض نور النهار ، وبدأ ظلام الليل ينداح ليغمر الكون ، وأضيئت المصابيح الزرقاء في المحال ، فلم تقو على تبديد الظلمات التي أخذت تتكدس بعضها فوق بعض ، كانت الأوامر قد صدرت بتقييد الإضاءة خشية إغارة الألمان ، فقيدت وخيمت الكتابة على المدينة ، إرضاء للحلفاء !
وخرجت فراشات الليل ، لا لتحوم حول الأضواء . بل لتحوم حول الجنود الفارغين ، الذين كانوا يجوبون الشوارع ، لاهم لهم إلا الحجر والنساء ، وراحت العربات التي تجرها الخيل تراحم السيارات ، وقد جلس بعض جنود الإمبراطورية إلى جوار الحوذي ، وقد ارتدوا الطرايش وزملاؤهم في العربة يضحكون ، فترن ضحكات الفتيات المندسات بينهم خليعة ، تتقزز منها نفوس المارة ، بينما تشرح لها صدور ذوى الوجوه الحجر ، الذين لعبت الحجر برءوسهم ، فبدلت في نفوسهم قيم الأشياء .

وانطلق خالد في شارع عماد الدين ، وهو في طريقه إلى صديق من أصدقائه يمضي الأمسية عنده ، إنه قد ورث عن أبيه شيئين ، حبه للسهر ، وطيبة القلب ،

إنه يمشق حياة الليل ، فكان يمضى ليالى جميلة فى ملاهى القساهرة ، قبل أن تفقد جفافا الجيوش ، وتحتل جميع الملاحى ، وتحتكر السهرات ، فرأى أن خير ما يفعله أن يبتعد عن موارد الجنود ، وأن يمضى الليل مع السمار فى بيت صديق من أصدقائه ، كان يقبل ذلك الضيق وذلك الطجر دون تهرم أو استياء ، فمن طبعه أن يرضى بما هو واقع ، بل قد يتطوع ويتحمس له .

ودنا منه جندى بريطانى ، وحياء فى احترام ثم همس :

— ثلاثة قروش من فضلك ، كل ما أريده ثلاثة قروش يا كابتن .

ونظر إلى الجندى بعينين واسنتين ، ولم يجمعهم ، ولم ينطق حرفا ، فقال الجندى فى بساطة :

— أريد أن أذهب إلى السينما وليس معى نقود .

فمد يده فى جيبه ؟ وأخرج القروش الثلاثة ، ودفعها إلى الجندى الذى تناولها ، ثم رفع يده بالتحية ، وهو يقول فى الشراح .

— متشكر يا كابتن .

وسار خالد ، حتى إذا بلغ نهاية الشارع ، لمح درية وأختها الكبرى وزوجها يهبطون من المترو ، تخفق قلبه ، وتفتحت نفسه ، وأفعم بالغبطة ، وخف إلهم مسرورا ، فلما دنا منهم ، هتف فى الشراح :

— أهلا . . . أهلا .

وراح يصالحهم ، فلما أحس يد درية فى يده ، أشرق وجهه بابتسامة رقيقة ، وشع من عينيه بريق ، ثم عما يكن لها قلبه ، فقد شغف بها حبا ، فانطلق معهم يحادثهم ، ويرنو إلى عيني درية الزرقاوين ، فيستشعر كأنما قد ارتفع عن الأرض ، وراحت نفسه تفريه أن ينطلق معهم ، وأن ينعم بالأمسية وهو إلى جوارها ، ولكنه زجر نفسه ، فلما دعاه زوج أختها ، بل كانت حركانه توحى إليه أن يهمل بانصرافه ، فاستأذن ، ووقف يتبع درية ببصره ، وقلبه يرفرف بين جنبيه فى حنان ، حتى اختفت فى الظلام .

واستأنف سيره ، منشرح الصدر ، تتوافد إلى رأسه أفكار مشرقة ، تضىء ظلام نفسه ، إنه يحب درية ، يهواها . . . يهفو إليها ، فلماذا لا يتزوجها ؟

إنه يحس حنيناً إليها . . . يشتهيها ويتمنى من كل قلبه أن تملأ فراغ روحه ، أن تملأ حياته التي يشعر بجوارحه أنها خواء .

لو كانت درية إلى جواره ، ما دام على وجهه في الصيف القاطظ ، والشتاء القارس ، والليل البهيم ، ينقب عن محبة تجلو عنه الملل .

ما باله لا يتقدم لخطبتها ؟ إنه لا يدري لماذا يحجم حتى الآن ، فـكـر أكثر من مرة أن يفتح خاله في أمر زواجه من درية ، ولكنه كان يحفل بعد الإقدام . سيذهب إلى خاله ، وسيطلب منه يد ابنته ، وسيزوجها ، فلما عاد يطيق أن يعيش بعيداً عنها ، بعد أن أججت مقابلة الليلة نار حبه ، وأشعلت ضرام وجوده ، وفتحت براعم الآمال .

١٣٧

سعيد في القصر العيني ، دائب الحركة ، وسنية تعاونه راضية مغتبطة ، حتى إذا ما وجد خلوة ، راح سعيد يكشف عما يكنه لروحية من هيام ، فلا يسمع سنية إلا أن تقول له إنها ذاهبة وروحية إلى خالهما في القبة ، فيمكنه أن يطلبها في التليفون هناك ، عسى أن تلين روحية ، وتقبل أن تحدثه ، وأن تصغي إلى حديثه النابض بالحُب والوداد .

وتصرم النهار أو كاد ، خفف سعيد إلى التليفون يطلب سنية ، وما مس صوتها أذنيه حتى قال في لهفة :

— سنية ؟ ادعيني أحدثها .

— آسفه . حاولت أن أثنيها عن رأيها ، ولكنها ترفض أن تحدث أحدا .

— قولي لها إن لا فائدة من ذلك الإعراض ، عزمت على أن أحدثها وسأفعل ، فلما من شيء يستطيع أن يقف في سبيلها إذا عزمت .

وساد السكون برهة ، وسعيد يتململ في وقفته قلقاً ، ثم تحدثت سنية :

— قلت لها ، ولكنها أعرضت عني ، وأشاحت بوجهها ، ولم تنطق حرفاً .

— ليتها تعرف حقيقة شعوري ، لو كانت تعرف مقدار حبي ما أعرضت

هنا الإعراض ، أصبحت لا أطيق هذا الصمد ، إني قادم إلى القبة ، قادم لأقابلها
وقلبي على كفي ، ولا أظن أنها ترفض قلبا ينبض بحبها في الليل والنهار .

— لا تجهد نفسك ، فلن نجدنا إذا أقبلت ، إننا عالمتان إلى البيت .

— سنية ، قولي لها إني عشت سنين في محراب حبها كالعابد المتبتل ، الزاهد
في الوصال ، كان يكفيني أن أسمع بالنظر إليها من بعيد ، لكن العابد يطمح في
رضا المعبود ، وأنا أطمح في رضاها ، كل ما أريده أن تسكب عذب حديثها في
آذاني ، فتطفي ظمأ روحي ، وأن أبثها ذوب نفسي ، فأخفف عن صديري ،
ليتها تصغي إلى دقات قلبي ، ليتها تعرف وسوسة روحي ، ليتها تقرأ ما في ضميري ،
لتفتح لي قلبها دون تردد أو إحجام ، أحبا يا سنية ، ولا أستطيع أن أبوح لها
بحبي ، فكوني لساني الترنم بأهازيج الحب ، المسبح بحمالي الوصال .

وصمت ، فظلت سنية ساكنة كأنما لا تجد لسانها ، وشرد ذهنه برهة ، فقد
لمت في رأسه فكرة امتراح لها ، فوضع سماعة التليفون ، وسار يجدي سيره ،
حق بلغ دار صديقه صادق ، فلما قابله قال له :

— تعال معي .

— إلى أين ؟

— تقابلها .

وركبا سيارة صادق ، وانطلقا حتى إذا بلغا ميدان قصر النيل ، وقف صادق
يعيث بنظارته ، وهرع سعيد إلى الطوار ، ينقب عنهما في كل ترام مقبل إلى
الميدان ، وتصرم الوقت ، وصادق ينو إليه في هدوء ، وهو دائب البحث
والتنقيب ، ولحهما جالستين في الترام ، فاشتد وجيب قلبه ، وتدفق الدم حارا
إلى وجهه ، ولكنه لم يرتبك ، بل تقدم منهما ، وجذب سنية من يدها .
فهبطت ورنأ إلى روحية في توسل ، فهبطت خلف أختها .

وساروا ، سنية إلى جواره وروحية إلى جوار أختها ، وقد ارتدت ثوبا
بسيطا ، بدت فيه أنيقة رقيقة ، إنها تبدو في هذا الثوب أكثر أنوثة ، وأروع
حسنا منها في الثوب المدرسي الأسود .

وبلغوا السيارة ، ففتح لها الباب ، فدخلت سنية وتبعها روحية ، خافضة

الرأس، مسبلة الأجنان ، وركب إلى جوار صديقه ، وانسابت السيارة ، وقد خيم
السكون ، وخففت القلوب في الصدور ، وجاشت العواطف ، وأرهفت الحواس .
ودارت السيارة في الجزيرة ، ثم وقفت في ركن هادئ تحت ظلال شجرة
ضخمة ، كانت تحجب ضوء الصباح الخافت أن يفضح المسكان ، وفتح الباب
وانسل صادق ، وانسلت سنية في أثره ، وتركاهما قلبين قد أفضيا بالوجد ، ونظر
إليها مليا مشرق الروح ، وراح يجمع شتات نفسه ، وينعق مقاتله ، ولكن
قبل أن تتحرك شفتاه ، سمعها تقول له في صوت أعذب من الموسيقى :

— ماذا تريد مني ؟

فقال في حماسة وصدق :

— لست كسائر الناس ، إنني أحيا على أمل واحد ، أن نميش معا أنا وأنت ،

لا يفرق شيء بيني وبينك .

وصمت . وتخضبت وجنتاها بالدم ، ولم تنبس بعد ذلك بكلمة ، كأنما استنفد
كل طاقته من الكلام ، ودثرها سكون عميق ، ولكنه كان أفصح من البيان .

١٣٨

اجتمع الطلاب في الكلية يتدارسون الموقف ؛ فالحكومات المصرية المتعاقبة
تتنافس في إرضاء الإنجليز ، تنفيذاً لمعاهدة الصداقة ، إنها لتضع موارد الدولة
في خدمتهم ، وتيسر لهم أن يسلبوا الشعب قوته ، لا شيء إلا ليرضى الإنجليز عنهم ،
ويتركوهم في كراسي الحكم الوثيرة .

اشتدت موجة الغلاء ، واختفت السلع من الأسواق ، وبات الفقراء يئنون
ويترنحون ، أصبحوا لا يجدون الخبز إلا بشق الأنفس ، قدمت الحكومة إلى
الإنجليز كل معونة ، حتى النساء قدمتهن لهم ، وضجى الشعب براحتة في سبيلهم ،
وتحمل الضيق والظنك من أجلهم ، أخذوا كل شيء مقابل لا شيء ، كأنما
كانت ضريبة الخالفة مفروضة على مصر وحدها ، كان عليها الغرم والخليفتها الغنم ،
فثارت ثورة الطلاب ، وقرروا أن يضربوا ، رافعين الصوت في وجه بريطانيا

مطالبين ساستها أن يعلنوا على الملأ استعدادهم للرجاء عن البلاد عقب أن تضع الحرب أوزارها . كان الطلاب يرون أن تطالب مصر بثمان ما تتحمل من تضحيات بينا كانت الحكومات ترى إغماض العين عن التضحيات ، فهي تقبض الثمن سكوت الإنجليز عنها !

وحضر يحيى ذلك الاجتماع ، وتحمس له كما تحمس زملاؤه ، ولكن ما انقضى الاجتماع وخلا بنفسه ، حتى راح صوت يوسوس له : « إنك تقبض راتبا شهريا من القلم السياسى ، فماذا عليك لو رفعت إليه أمر ما قرر الطلاب الساعة ، إنك لو فعلت لبررت حقك فى ذلك المبلغ الذى تتقاضاه » .

ورن فى أذنيه صوت زميله ، الذى قاده إلى القلم السياسى : « كل ما ستفعله أن تتحدث مع القلم السياسى اليوم ، بما سيتحدث الناس به غدا . . . مستقول للقلم السياسى : الطلبة مجتمعون اليوم ، وقد قرروا الإضراب غدا ، وسيقول الناس فى اليوم التالى : أضرب الطلبة » .

واستمرت الوسوسات تغريه ، وتزين له محادثة ذلك الضابط الذى يذكره وجهه بوجوه العذارى ، إنه إذا انقلب على عقبيه سيفقد ذلك المورد الذى يسر له حياته ، وسيعود إلى حياة التسكع فى الطرقات ، يمد عينيه إلى ما متع الله به أناسا غيره ، لن يقول له إلا أن الطلبة قد قرروا الإضراب غدا ، ولن يكون ذلك جديدا عليه ، فلا بد أن يكون زميله الذى قاده إلى هناك قد بلغ الأمر قبله ، لن ينفع زملاءه سكوته ، سواء أطلق لسانه أم حبسه .

وسار يبحث عن تليفون بعيد عن الكلية ، وانبثق صوت مزجر فى أعماقه يصيح به : « خائن . . خائن » وعنف فى سيره ليثد ذلك الصوت الزاجر ، ووصل إلى منعطف هادى ، فإذا مشاهد راسبة فى أغواره تطفو على سطح ذهنه ، رأى نفسه غلاما يلعب على شاطئ البحر فى المكس ، ورأى تلك الفتاة اليونانية الصغيرة المتأثرة تحاول أن تصطاد السمك دون أن تضع فى الشخص طعما ، وهو يدنو منها ويقول لها ناصحا : « ليس هكذا يصاد السمك » فتقول له زاجرة : « لا تتدخل فيما لا يعنيك » ، فأحس عرقا باردا يتفصد من جبينه ، وشعر بنفسه

ضائلة حقيرة ، فضيق من خطوه ، وهب ضميره يغريه بالعودة من حيث جاء ، فأصاح له صوته ، ثم دار على عقبيه ، وانطلق .

وراح صوت خبيث يتدسس إلى نفسه يوصوص : « انتهى الأمر وفقدت ما رتبته لك القلم السياسى ، فهم لا يتصدقون على الفقراء بأموالهم » . وقبل أن يجهر ذلك الوسواس بالهيمان ، لوى يحى شفته السفلى ، وهز كتفيه زراية ، وسار وقد بدأ الرضا عن نفسه ينداح في جوفه ، وغمره سرور عارم ، لأنه قهر ضميره ، وانتشل نفسه قبل أن يتمرغ في الأوحال .

١٢٩

نقل خالد إلى محطة الدخيلة الجوية ، فناد يذرع الحارة بشيابه الرسمية ، ويلقى على حليلة القابعة في مكانها التحية في الغدو والآصال ، ويطل على الحربة ، ويرن في أذنيه صوت النجرو وهو يصيح في الظهيرة ، وفي هجمة الليل والناس نيام : « نظرة يا جورج . . يا جورج نظرة » ، ويقابل عماته اللأى كنى في شكلهن أقرب إلى الرجال ، ويفطن إلى نظراتهن المليئة بالحسد والغيرة ، وعلى الرغم من كل ذلك لم ينقبض صدره ، بل كان منشرحا ، أصبح قريبا من بيت خاله ، إن هى إلا خطوات ويخطب درية .

وأقبل الأستاذ زكريا ، وجلس إلى جوار خالد في تراخ ، يتنفس في هدوء ، وينظر أمامه كالحالم ، لم يكن يفكر في شيء ، بل كان يستريح من التفكير ، فهو يعيش على فكره ، ولفكره .

نظر خالد إليه من طرف عينيه ، وهو يمرر يده على رأسه ، ووجهه ، كانت هذه عادته إذا شغلته فكرة ، وتأهب للإفشاء بها ، ثم قال وفي صدره حرارة :

— عزمت على أن أتزوج ، وسأخطب درية ، فما رأيك ؟

فاعتدل زكريا ، وقال في هدوء :

— رأي أن تبحث عن غيرها .

فاضطرب خالد ، وقال في قلق ، وهو ضيق النفس :

— لماذا ؟

— يكفي أن خالك قد رفضنا مرة ، لنعرض عنه ، إننى لا أحب أن تبحر
كرامتنا مرة ثانية .

ورنا خاله إليه غير مقتنع . إذا كان خاله قد رفض أن يزوج ابنته الكبرى
من أخيه لبيب فما ذنبه هو ؟ وهم أن يجادل أخاه ، وأن يقول له إنه يجب درية ،
وإن خاله لن يرفضه ، إنه على ثقة من ذلك ، ولكنه آثر أن يلوذ بالصمت ،
فهو يعرف أن زكريا يفكر بعقله دائماً ، فلن يعترف بسلطان الهوى ، ولن ينصح
بالتقدم مادام هناك احتمال الرفض ، واحتمال أن ينكأ جرح النفس القديم ،
وأن تتكرر الإهانات .

وساد المكان صمت عميق ، وشرد خالد ببصره ، وجاش جوفه بالمواطف ،
واستشعر رغبة في أن ينفس عن صدره ، أن يتحدث ، ولكنه ما كان قادراً
على أن يعاود الحديث مع زكريا بعد أن اتضحت اتجاهاته ، فنهض وانصرف
ليزور صديقه حامدا ، يفضى إليه بما يمور بين جوانحه من مشاعر وإحساسات .
وطرق الباب ، وما هي إلا لحظات حتى انفرج عن سهام ، بقامتها الممتلئة ،
ووجهها الأبيض ، وعينيها السوداوين ، اللتين تمان عن الحفة ، فلما رآته رفت
على شفيتها بسمه عذبة ، واتمعت عيناها سرورا ، وقالت في ترحيب :
— تفضل .

وقادته إلى الحجرة المتواضعة التي خصصت للزوار ، وهي تسير أمامه تكاد
تطير عن الأرض ، وغادرته ثم عادت مع أخيها حامدا ، وجلسوا يتجاذبون
أطراف الحديث ، وسهام تحس نشوة تملأ نفسها ، ومشاعر عذبة تناغى حواسها ،
وغبطة تشيع في جوفها ، واعتدل خالد يتأهب للإفشاء بالحديث الذي ما جاء
إلا ليخوض فيه ، فقد كان يجد لذة في التحدث عنه ، ثم قال :

— نويت أن أتزوج .

فغضت سهام بصرها ، وصعد الدم إلى وجهها ، ونبت في صدرها قلق ،
وقال حامدا في حماسة :

— ممن ؟

وخفق قلب درية في رعونة ، حتى خشيت أن ينكشف أمرها ، وقال خالد :

— من درية ابنة خالى .

وأحست سهام خنجرا يمزق فؤادها ، وتلوت أحشاؤها ، وجف حلقها ، وكادت تند منها أنة فزع ، ولكنها كبحتها ، كادت أن تخونها دموعها ، ولكن العبرات تحجرت في مآقيها ، ومادت الأرض بها ، وخافت أن يفضحها صمتها ، فقالت وكبتها تتفتت :

— أنجبها ؟

فقال خالد ، وقد أشرق وجهه ، وشعت عيناه ببريق ينم عن حبه :

— كنت وأنا صغير أرنو إليها وهى تحبو ، وأنا واثق أنها لى ، أنها ملكى وحدى ، وشبيت وقد شب معى حى ، إننى أهواها بكل خالجة من خوالجى ، بكل جوارحى .

فقالت سهام كأنما تدافع عن نفسها :

— فكر جيدا قبل أن تقدم ، فهذا أخطر قرار تقررره فى حياتك ، إنها عيشة العمر كله .

— فكرت ، وقد اقتنعت أن فى هذا الزواج هناعى .

وانفجر فى جوفها صوت يئن : « وأنا ماذا يكون مصيرى ، إننى أهواك ، أحبك ، وإنى يكون للعيش طعم إذا اختفيت من حياتى ، فكر فى شقاى ، ارحم شبابى » .

وأحست كأن مشاعرها تكاد تعصف بها ، وأن عليها أن تتحدث ، أن تقول شيئا ، فقالت فى نبرات مضطربة :

— ما شكها ؟

فقال خالد منشرحاً :

— شكها ينجبنى .

واندكت مقاومتها ، وعجزت أن تتحكم فى ضوابط نفسها ، فانسلت من الغرفة ، وانطلقت إلى غرفة أخرى تذرف الدمع السخين .

وعاد خالد إلى ذاره ، بعد أن أشعل النار فى قلب سهام ، وتركها للسهاد والعبرات والشجون ، ورأى أباه ممددا فى فراشه ، فذهب إليه وقال :

— أريد أن أخطب درية ، فما رأيك ؟

— اختيار موفق يا خالد .

ونفض على من رقاده خفيفا وقال :

— ماذا تنتظر ؟ هيا بنا إلى بيت خالك .

وذهبا ، وما عادا من هناك إلا وكانت درية خطيبة خالد ، الذى أفعم بالنشوة ،
وراح يخلق فى سموات الخيال ، وما دار بخلاعه ، أن فى بيت صديقه ، فتاة غضة
ما كاد قلبها يتنفس حتى هبت أعاصير صدعته ، قد ارتمت على فراشها تبكي الأمانى
والآمال وحبها الذى وجدته سرايا وأوهاما .

١٨٠

وقف سعيد وقد أمد ظهره إلى السور الحجر القائم على النيل ، بالقرب
من القصر العيني ، منشرح الصدر ، يمد بصره إلى الطريق ومشاعر الحنان
دفاقة فى جوفه ، كان يرقب وفودها ، فقد تواعدا على اللقاء ، وكانت تنقضى
بين اللقاء واللقاء ، ليلى وأيام وشهور ، كانا يترقبان اللحظة المسحورة فى
شوق ولطفة .

ولحها مقبلة فى ثوب أبيض ، تزينه وردة بنفسجية دقيقة ، وقد رجلت
شعرها فى بساطة ، فلما وقعت عيناها عليه رفت على شفيتها بسمة عذبة ، خفق
لها قوادى ، فخفف لاستقبالها منتشيا ، ينظر إليها فى وله ، ثم ينسابان معا يتناجيان ،
فيشعر كأنما أنامل حاملة تعبت بأوتار قلبه ، ورقة تندمس إلى حنايا ضلوعه ،
كانت تشع منها ، فقد صيغت ذاتها من الرقة .

كانت الشمس تنحدر خلفهما ، وصفحة النيل تعكس الذهب النضار ، والنسيم
يداعب وجهيهما ، والأشجار تمد على الأرض ظلالها ، والعصافير تزقزق عائدة
لأوكارها ، والهدوء الشامل الذى يرهف المشاعر ينشر على الشاطئ جناحه ،
فبدا كأن السكون يعنى للمحبين .

وتهادت على صفحة الماء الزوارق ، وقد رفعت أشوعتها ، وانسابت سروب
قرص الشمس المتوهج الذي انحدر ليخوض في اللجة ، فبدأ المشهد لهيبه كطروحة
فنية رائعة ، انتشرت فيها الألوان الحمراء والذهبية والزرقاء في براعة أخاذة ،
تسلب الألباب ، فخطر له أن يدعوها للنزول إلى زورق من الزوارق المتناثرة
على الشاطئ ، ولكن ما التفت إليها ورأى صفاء عينها ، حتى تبدد ذلك الخطر ،
ولم يجرؤ على أن يعرض عليها السكره .

وتدفق في حديثه ، وتوردت وجنتاها ، وراحا يهيمان في سماء الأمانى ،
قال في حماسة .

— سأخرج هذا العام ، وأصبح طبيب امتياز ، ولكن ليس هذا كل أملى ،
سأصبح تفوق ، وترسلنى الحكومة فى بعث إلى إنجلترا ، وسأصبح زميلا فى
جمعية الجراحين الملكية بلندن .

وشرد ببصره إلى الأفق البعيد ، وقال :

— أرى كل ذلك واضحا أمام عيني .

فهمست فى صوت موسيقى :

— أرجو أن تهب الريح كما تشتهى .

فقال فى حرارة ، وهو يحدق فى عينها :

— ماذا تفعل الأنواء للبحار الماهر ؟ تموجه قليلا ، ولكنها لا تثنيه عن
هدفه ، إننى تعودت أن أصنع مستقبلى بيدي ، وسأصنعه كما أشتى . إننى واثق
أن لاشئ يستطيع أن يقف فى سبيلى إذا عزمته على أمر ، حقا إن قلبى تعلق
بك من سنين ، ولم أتقدم إليك لأكشف عن خبيثة نفسى ، وأعلن حبى ، إننى
آثرت أن أترث ، ولكن ما من قوة على الأرض كانت قادرة على أن تحول
بينى وبينك .

ولاذ بالصمت ، ليسعد بالإحساسات اللذيذة التى انبثقت من أعماقه ، وراح
على صفحة وجهها هدوء عجيب ، وإن كانت الشاعر تمور فى جوفها ، أحبته بكل
جراحة من جوارحها ، وإن لم تنبس بكلمة تنم عن ذلك الهوى ، ولم تسمح
لملامحها أن تشي بها ، كانت على الرغم من رقها قادرة على إخفاء لواجع نفسها .

والتفت إليها ولها ان وقال :

— وأنت ، ماذا عزميت أن تفعلى ؟

فقال فى همس :

— سأكون مدرسة ، أهلى فى حاجة إلى عونى .

فقال فى حماسة ، كأنما أصبح الأمر له وحده :

— لا بأس عليك ، سأتركك تعملين ، وإن أحول بينك وبين عونهم .

وفطنت إلى ما يباح إليه ، فأطرقت وأسبلت جفניה ، وإن كانت إحساسات الفرح أخذت تنداح فى جوفها حتى غمرتها .

١٤١

اشتدت الغارات على الإسكندرية ، ففرت النساء إلى دمنهور وإلى القاهرة ، وإلى المدن الداخلية ، وبقي الرجال يمارسون أعمالهم ، حتى إذا جن الليل هرعوا إلى الدور يلوذون بها .

وبدأ الظلام فى زحفه ، فتقاطر إلى دار كمال على وحسان وزكريا وجمال ومصطفى وحسين وأبناء الأسرة ، كانوا يبيتون جميعا فى هذا البيت ، يترقبون الغارات فى قلق ، وكانوا يحسبون أن سيأتى يوم يعز عليهم فيه أن يجدوا الطعام ، لذلك ملئوا البيت بالأطعمة الجافة والجبن والزيتون وحلاوة الطحينية ، وكان الشبان يلتمهون تلك الأطعمة فى غفلة من الكبار ، ولما كانوا يخشون أن ينفذ الخزون ، لذلك عينوا مصطفى وزيرا للتموين ، يتصرف فيما يختزنون بحكمة وروية . كانوا يهرعون إلى البيت مع غروب الشمس ، يمشون به لا يغادرونه حتى شروق شمس اليوم التالى ، فكانوا أشبه بتلاميذ المدارس الذين يعيشون فى معاهدهم ، لذلك أطلقوا على هذه العيشة التى يحيونها « الداخلية » .

وجاء أوان الطعام ، فوضع أمام زكريا أكلة المسلوب ، وما هى إلا دقائق ، حتى كان الشباب قد غيبوا الأكل الخاص فى بطونهم ، وقويت شهوتهم ، ولكن وزير التموين لم يقدم لهم طعاما ، إنه يتلفت فلا يجد ابنه قد حضر وإنه لا يقدم

طعاما إلا إذا أقبل ابنه ، أما إذا تأخر في العودة ، فإنه يفرض على الجميع صياما إجباريا حتى يثوب .

وتسلك الشباب إلى حيث المئونة ، وراحوا يلتهمون الخلاوة الطحينية ، وفجأهم وهم في حالة تلبس ، فصاح نائرا :
— كلوا . . كلوا والله ليأتين يوم تموتون فيه جوعا .

وجاء النجل المميز ، فبسط وزير التموين يده ، ووضع الطعام فتحلقوا حوله ، وابتدأ الطعام يقل ، والحديث يتناثر ، فقال جلال في زهوه :
— لقد دخل هتار التاريخ من أوسع أبوابه .
فاعتدل حسان ، وقال في حرارة :

— هذه هي نكبة البشرية ، كل مجنون يخرج الشعوب إلى مجازر يشيب من هولها الوليد ، ليذكر اسمه في سجل التاريخ ، ماذا يهم هتار بعد موته إن ذكره التاريخ أو نسيه ؟
فقال جلال وهو يرنو إلى عمه في استخفاف :
— إنه الخلود !
فقال عمه في زراية :

— إنه الوهم الكاذب ، الأنانية الطاغية ، إنه الغرور ، ما الخلود إلا كذبة بقاء تستولى على أفئدة المرتجفين من الفناء ، ماذا كسب نابليون بعد أن أفنى زهرة شباب أمته ، وحقاق بها الدمار ؟ منقول ذكر اسمه في التاريخ ، فماذا سيهود عليه من ذلك الذكر ، بعد أن أصبح رمادا تذروه الرياح ؟ أصبح قصة من القصص أو أسطورة من الأساطير .
فقال جلال في مكابرة :

— إذا قلنا نابليون تجسست العظمة أمام أعيننا .
فقال حسان وقد لوى شفته :
— عظمة الجزارين ، وإذا سلمنا جدلا أننا أكبرنا إذا جرى اسمه على لساننا ، فما الذي عاد عليه في فنائه ؟
فقال جلال يدافع عن رأيه ، فقد عز عليه أن ينتصر مكير على خريج الحقوق :

— إن العظماء ليسوا ملوكاً لأنفسهم ، إنهم ملوك للتاريخ ، فإذا درسناهم فإنما ندرسهم لأنهم جزء من التاريخ .

— أتصدق التاريخ ؟ ! إنه سلسلة من الأكاذيب .
فقال جلال في حماسة :

— كيف أنكر التاريخ ؟ هذه الأهرام حقيقة لا شك فيها ، بناها خوفو وخنرع ومنقرع ، أفى ريب أنت من ذلك ؟

— هذه هي النواة التي بنيت عليها الأكاذيب .
— كيف ؟

— لماذا بنيت هذه الأهرام ؟

— لتتحدى الزمن ، وتخبر الأجيال بعظمة الفراعين .

— هذه إحدى الأكاذيب ؟ من أدرانا أن هذه هي الحقيقة ؟ لماذا لا تكون هذه الأهرام رمزا للعبودية والنذل ؟ ما الذي استفاده الشعب البائس الذي أمضى السنين في الحر الشديد والبرد الزمهرير ، يقطع الحجارة ويحملها ، والسياط تلهب ظهره ، ليشتيد ذلك الصرح العجيب ؟ !

— ترك أنرا يتحدث عن عظمته .

— عظمة الطغاة ، المفرورين ، الفزعين من الموت ، المتلمسين الأسباب ليغروا أنفسهم بالحلود ، إن ذلك الرجل المجهول الذي صنع القلة أول مرة ، أعظم من هؤلاء المستبدين الذين شيدوا الأهرام ، إنه ترك للبشرية ما يعود عليها بالنفع دون أن يعلن عن نفسه ، بينما أنفق هؤلاء المأفونون الجهود فيما لا يعود بالنفع على أحد ، لا شيء إلا ليعلنوا عن جبروتهم وعظمتهم .

وأطلقت زمارات الإنذار ، فأطفئت الأنوار ، وساد القلق والسكون ، وما هي إلا لحظات ، حتى دوت قنابل الألمان ، فقال كمال وهو يرتجف :

— سواء أدخل هتلر التاريخ أم لم يدخله ، إن الذي ندرية حقا أنه

أدخلنا الشقوق !

١٤٢

هز الشوق خالدا إلى درية ، ففكر أن يسافر إلى شبراخيت ، حيث قربت نساء الأسيرة من الغارات الجوية ، وما إن انتهى العمل في محطة الدخيلة ، حتى هرع إلى المحطة ، واستقل القطار ، لينتهي من زيارته ، ويعود إلى الإسكندرية قبل أن يسدل الليل أسجاف الظلام ، وقبل أن تنطلق زمارات الإنذار ، وتلقى الطائرات حممها .

وشرد ببصره ، ونظر من النافذة إلى الحقول الترابية ، ولكنه لم يكن يرى شيئا من الجمال المبسوط أمامه ، كان مشغولا بالأفكار المتزاحمة في رأسه ، انضم الإيطاليون إلى الألمان ، وإنهم ليزحفون في الصحراء الغربية ، حتى دنوا من حدود مصر ، أوتقف البلاد مكتوفة الأيدي أمام ذلك الزحف ؟ مستدافع عن أراضيها على قدر ما تملك من قوة ما في ذلك شك ، وسيشتبك هو في القتال ، سيحارب جبابرة الجو ، سيظهر في الطائرات العتيقة ليتصدى لطائرات الألمان ، سيقتل ، هذا هو المصير المحتوم ، وإنه لا يستطيع أن ينقلب على عقبيه ، فمليه أن يؤدي للوطن ضريبة الدم .

وتأمل في مقعده ، ولكنه لم يستطع فككا من أسر أفكاره ، إذا كان عليه أن يريق دماؤه في سبيل الدود عن وطنه ، فما ذنب درية ؟ لماذا يطعن فؤادها ، ويسر بلها ثياب الحزن ، وهي ما تزال شابة غضة ، أيرضى لها أن تكون أرملة قبل أن تزوج ، ليت ما تقدم لحطبتها ، ليت تراث حتى تضع هذه الحرب البغيضة أوزارها .

ترى ماذا تفعل درية لو دخل عليها الناعى يوما ، وقال لها قتل خالد ؟ إنه لا يدري حقيقة شعورها نحوه ، إنه يحبها من كل قلبه ، ويسرى حبها فيه مسرى الدم ، ولكنها لم تفتح له قلبها يوما ، إذا تحدث إليها غضت من بصرها ، وإذا تودد إليها تضرجت وجنتاها بحمرة محببة ، أهذا هو الحب ؟ إنه لم يختل بها ليناجيها وتناجيها ، ليكشف عن وجده وجواه ، وتفصح عن حقيقة شعورها ، إنه يقابلها في بيت أبيها ، في حضور أمها أو إختها ، فلا يجد فرصة يبثها فيها

يكنون صدره ، وينوح في أعماقها يتلصص مكانه في فؤادها . وغامت سفحة وجهه بسحابة من الأسى ، راح يفكر في أسر هؤلاء البائسين الذين سقطوا صرعى هذه الحرب الجنونة ، كم شابة تزلت ، وكم أم ثكالت ، وكم طفل ذاق ذل اليتيم ، وكم أسر تحطمت ، وكم من مدن دكت ، وكم رجال ونساء وأطفال هاموا على وجوههم ؟ أصبح العالم مسرحا للآسى والآلام ، فلماذا يجلب الناس لأنفسهم كل هذه الأوجاع ؟ !

أكتب على مصر أن تتجرع هذه الكأس ؟ أن يجرى السمار فيها يقيث فسادا في أرجائها ؟ أن يعلو الوجوه المؤمنة القائعة غيرة ؟ أن ينزل الحزن الثقيل بالفلوب الحاققة بالبشر ، أن يدثر هذا الوادى الأخضر السواد ، ويحمله الأسى ، واستشعر الشفقة تتفجر في صدره ، وأحس حرارة في قلبه ، كان يصلى في صمت إلى الله أن يحجب بلاده هذه النكبة .

وتهادى القطار ، وأحس حركة بجواره ، قالتف وأفاق إلى نفسه ، فألقى الناس يتأهبون للهبوط ، وصلوا إلى شبراخيت ، فهب منتصبا ، وسار في ثيابه الرسمية ، يضرب في الطريق حتى بلغ البيت المتواضع الذى فرت إليه حبيبة الفؤاد . دخل على زوجة خاله ، وحياها في شوق ، فرحبت به من قلبها ، وأقبلت درية في ثوب أبيض يزينة وردة حمراء ، وقد صففت شعرها الأصفر فى عناية ، ومدت يدها تصاحفه في حياء ، فضغط على يدها في وجد ، فاحمرت وجنتاها ، وبرقت عيناها الزرقاوان ببريق أخاذ ، سرعان ما اختفى خلف الجفون المسبلة . ونهضت امرأة خاله ، وذهبت تعد ما تقدمه له ، وخلا الجو لها ، فقال في صوت متهدج ينم عن الصدق :

— جئت يا درية لأقول لك إننا قد نشترك في الحرب ، وقد أقتل ، وجئت أعرض عليك أن تفسخ الخطبة ، إننى لا أحب أن تتحملى المتاعب بسببى ، لا أريد لك أن تفجعى في خطيبك ، أن تلبسى السواد ، بدل أن ترتدى ثوب زفافك . إننى آسف يا درية ، لم أفكر فيما قد أسببه لك من شجن يوم تقدمت لخطبتك ، أنت الآن حرة من كل قيد ، اختارى ما فيه مصلحتك ، ومصلحتك وحدك ، وثق أننى سأكون سعيدا بقرارك ، لأن كل ما أبغيه سعادتك .

فقال درية في وجد :
— ان أتخلى عنك أبدا ، إنك خطيبي وستظل خطيبي .
— قد أقتل يا درية .
فقال وقد رفعت بصرها إلى السماء :
— الله موجود ، وهو الذي يرسم مصائرنا ، وإنني أثق في عدله وأؤمن
بقضائه .
وانصرف خالد من شبراخيت منشرح الصدر ، انصرف وهو يثق
بنفسه وبدرية .

١٤٣

جلسوا في الضوء الخافت يتبادلون النظر ، وقد لاحت في وجوه الشباب
ثورة ، عادوا إلى « الداخلية » قبل غروب الشمس ، وتصرم النهار وانقضى من
الليل شطره ، ولم يقدم لهم وزير التموين عشاءهم ، إنهم يحسون الجوع يخرط
أمعاءهم ، وهو عنهم لاه ، لأن ابنه لم يعد بعد ، وما كان قلبه يطاوعه أن يعد
المائدة قبل عودته ، وإن ماتوا جميعا من الجوع .
وضاق صدر الشباب ، فثاروا ، وقال جلال :
— نريد رفع هذا الحجر عنا ، لم نعد نحتمل هذا الاستبداد ، نريد أن نتحرر .
فقال كمال مؤازرا أخاه :
— جوعوا تصحوا .
فقال جلال في غضب :
— لعن الله الصحة التي تأتي من الجوع .
ونهمض يقتحم مكان التموين ، فهب الشباب خلفه ، وراحوا يتخطفون الطعام ،
ومصطفى يصيح في حلق :
— لست مسئولا عنكم بعد اليوم ، لا تلوموني إذا متم من الجوع .
فقال حسان في استخفاف :
— لن يثنى بهم هذا التهديد عما هم فيه .

وذهب مصطفى إليهم يزجرهم ، ويكفكفهم عن الطسام ، وهم لا يأبهون به ،
فصاح على :

— دعهم ، الجوع كافر .

فعاد مصطفى يزجر ، ويرغى ويربد ، ويقول :

— لو طاوعت نفسى لجلدتهم ، هذا لمصلحتهم .

فقال له حسان وهو يبتسم :

— لو فعلت ذلك لاحترموك ، إن الناس لا يحترمون إلا جلادهم .

فقال زكريا فى هدوء :

— يرهبونهم ولا يحترمونهم .

فقال حسان فى استخفاف :

— ليس هناك فرق كبير بين الرهبة والاحترام ، الناس لا يفرقون بين من
يبذل روحه فى سبيلهم ، وبين من يزهد أرواحهم فى سبيله ، إنهم قد يعرضون
عن الأول ، وقد يهالون للثانى ويهتفون ، إننى أذكر أيام كنت فى إسطنبول ،
قابلت هناك محمد بك فريد ، كان يضحى بكل شىء فى سبيل بلاده ، بماله وراحته
وصحته ، فماذا فعلت له بلاده ؟ لا شىء ، نسيتته وهتفت لمن أذلها وسقوها
كأس الهوان .

قال زكريا فى ثقة :

— الرجل العامل لابد أن يعرف قدره وإن طال الزمان .

فقال حسان فى صرامة :

— انتهت الأيام التى كنا نتعلق فيها بالأوهام .

وجاء الشبان وفى يد أحدهم زجاجة غريبة ، وهم يتساءلون :

— ماهذه الزجاجة ؟

فقال حسان :

— على بها

وفتح السدادة ، وذاق ما بها بلسانه ، فاكتسى وجهه بالرضا ، وسأله

فى لهفة :

— ماذا بها ؟

فأشار لهم بيده أن تريثوا ، ورفقها وراح يفرغ ما بها في جوفه ، ولم ينس
بكلمة ، فلو نطق حرفا لجمروا عليه ، وانزعجوها منه ، ولما عنها وضع الزجاجية
على الأرض في هدوء ، وعادوا يسألونه :

— ماذا وجدت بها ؟

فقال في بساطة ، وعيناه تفصحان عن سروره :

— الظاهر إنها كونيكا .

واربدت وجوه الرجال ، كانوا يصلون جميعا ، وما دار بخلد هم يوما أن يسكر
حسان وهو في « الداخلية » .

١٤٤

راح الدكتور سعيد يدور في حجرات القصر العيني نشيطا ، محتلنا حماسة ،
بعد أن أصبح طبيب امتياز . كان يرى مستقبلا مشرقا أمام عينيه ، فكان يبذل
غاية الجهد ليبلغ ما يريد ، ويصبح كما يشتهي أن يكون .
كان أشبه بنجوم السينما ، الذين يقومون بأدوار فاتنى النساء ، فراحت فتيات
القصر العيني يرمقنه في إعجاب ، وبدأت فتاة بعينها ترمي شبا كها حوله لتصيده ،
ولسكنه كان يعرض عنها ، وينقل نظراتها الملتببة ، التي كانت تصوبها إليه .
لاحظت الفتيات مطاردتها له ، فرحن يسخرن منها ، وإن كن في أعماقهن
يخشين أن يسقط في شبا كها ، كانت جميلة جذابة ، ولولا تراميها عليه ، لكان
من المحتمل أن تلفت نظره ، وأن يتودد إليها ، فالرجال لانتهفوا أنفسهم إلى الجمال
المبذول بغير حساب .

وفطنت سنية إلى أن الفتاة تحاول إغراءه ، وأنها كلما دنت منه حاولت أن
تجذبه إليها ، كانت تبذل جهدها أن تلفت نظره إلى مفاتها وسحرها الجذاب ،
فدنت منها ، وهمست في أذنها :

— وفري جهديك ، وحاولي إغراء طبيب آخر ، إنه مشغول عنك ، قلبه ليس

معه ، إنه يحب .

فأربد وجه الفتاة ، وأخست شبقا ، وقالت في عصبية :

— يجب من ؟

فقالت سنية وهي تبسم في زهو :

— يجب أخفى روحية .

لاح في وجه الفتاة أسى ، والجمع الخنق في عينيها ، وعز عليها أن تهزم
فرنت إلى سنية في تحد ، ورفعت رأسها ، وانطلقت كأنما تتوعد .

وأرخی الليل أستار الظلام ، وبدأ الهدوء يزحف ليحتوى القصر العيني بين
ذراعيه ، ومشى النوم إلى العيون ، فذهب الدكتور سعيد إلى حجراته يجمع بعد
تعب النهار .

وانتصف الليل ، وإذا جرس التليفون يدق في حجراته ، فهب من رقاد
ورفع الساعة ، وهمس في نعاس :
— آلو .

وإذا بصوت نسوى ينسكب في أذنه ، فيطير النوم من عينيه ، وترهف
حواسه :

— أنا روحية .

فقال في دهش ، وقلبه يرفرف بين ضاوعه :

— روحية ؟ في هذه الساعة ؟ ماذا جرى ؟

— صدمت سيارة قريبا لي ، وأنا معه هنا في قسم الحوادث .

فوضع الساعة ، وخرج يعدو في ممر القصر العيني ، حتى بلغ قسم الحوادث ،
فدلف إلى المنبر مبهور النفس ، يبحث بعينه عنها ، ولكنه لم يجدها ، بل وجد
الفتاة التي تحاول أن تبذل له نفسها ، فقال في ضيق :

— أنت ؟

فقالت وهي تبسم في دلال ، وتلقى برأسها إلى الخلف ، ليبرز صدرها الناهد :

— أصدقت أنها هي ؟

فقال ليكيدها :

— ما جئت مهرولا إلا من أجلها .

فأحست عقارب الفيرة تلمسها ، ولو طاولت حقيقة شعورها الصمت وأطرق
مهزومة ، ولكنها قالت في رنة توحى بالمرارة :

— أتحبها إلى هذا الحد ؟

فقال وهو يدور على عقبيه :

— ولأن أحب أحدا سواها .

وانصرف وهي تنظر إليه منطلقا في بحر القصر المبنى الطويل ، تستشعر
كأعما قد لطم قلبها ، وأذل غرورها .

١٤٥

تخرج الأستاذ جلال في كلية الحقوق ، فكان أول ما فكر فيه أن يطبع بطاقة
تحمل اسمه وقد زينه بالصفة التي كدح في سبيلها سنوات طوالا ، ونفذ ما فكر
فيه ، وجعل يرنو إلى البطاقة مسرورا ، ويفهم مزهوا « جلال على يونس .
الحاجي » فيشتمخ بأنفه ، ويتلفت إلى الناس حوله ، يحس في أعماقه أنه متفوق
عليهم ، وكان هذا الإحساس يدخل الهجة على نفسه ، ولكن ذلك لم يكن يكفيه ،
فهو يريد أن يتطاع الناس إليه ، وأن يعترفوا أنه أفضل منهم ، وأنه أستاذ
عظيم ، كانت هذه أمنية ، وكان يشتهي في سريره أن تتحقق الأمنية ، وأن
تصبح بين غمضة عين وانتباهتها حقيقة واقعة يقر بها الجميع .

وفقدت البطاقة على سر الأيام منجرها ، وبدأ شموخه يتقلص ، وراح اليأس
يتدسس إلى نفسه ، صرت شهرة ولم يعثر على عمل ، كان وهو طالب يحلم أحلاما
عريضة ، يرى نفسه زميلا للنحاس ومكرم وأبي علم والطويل ، فإذا به يدور
على مصالح الحكومة ينقب عن وظيفة تصلح لخريج الحقوق .

وعاد إلى الدار يتصبب عرقه ، يلفه حلق وضيق ، انقضى النهار وهو يتنقل
بين الدواوين ، يسأل هذا وذاك ، دون أن تلوح له بارقة أمل ، وكيف يطمع
أن تفتح أمانته الأبواب ، وهو يذهب وحده ، لا يشفع له وزير أو موظف
كبير ، أو ذو سلطان خطير ؟

ونظر زكريا إلى وجهه ، ففطن إلى ما يساويه من أسي ، كان ينقبض قلبه كلما عاد من جولاته ، والإخفاق في ركابه ، واليأس دائره ، فقال له ناصحا :

— لماذا لا تقبل يا جلال وظيفة صغيرة ، ثم تتدرج حتى تصل إلى ما تصبو إليه ، إن خير ما يصقل المحامي أن يبدأ من أول السلم .

فانتفض جلال ، واعتبر ذلك النصيح جرحا لكرامته ، أفي حاجة هو إلى ما يصقله ؟ إنه يثق في نفسه ، ويعتقد أنه كفء لأخطر المهام ، قال في إصرار :

— لن أقبل وظيفة أقل من النيابة .

رماه زكريا بعينين واسعتين ، وهم بمجادلته ، ولكنه عاد وآثر الصمت خشية أن يجرحه .

وبدأ همس خافت يوصوص في سريره أنه شيء تافه ، لا يحفل به الناس ، ولا يحس به السكون ، ففزع ، وخاف أن تتضح هذه الوصوفة ، وأن تقوى وتستولي عليه ، فيعيش في غم ، إنه لا يطيق أن يحيا إذا قر في نفسه أنه إنسان عادي كملايين البشر ، وإذا ما ازورت الأبصار عنه ، فراح يفكر فيما يفعله ليعيد لنفسه هيبتها ، تلك الهيبة التي كاد هو نفسه يكفر بها وينكرها .

وخطر له أن يكتب في الصحف والمجلات ، وأن ينشر على الناس آراءه . وأسبل عينيه ، وتخيّل الصحف ، وقد ظهرت المقالات التي تحمل الاسم العالي : « خالد على يونس : المحامي » فتدفقت الدماء حارة في عروقه ، وأريقت في جوفه نشوة ، سقت غروره ، فعاد إليه الشراحه ، الذي كاد يذبله تززع ثقته في نفسه ، ووهمه أنه لم يعد محل رعاية أهله ومعارفه والأصدقاء .

وعكف على الكتابة ، يسود الصفحات ، ويواظب على إرسالها إلى الصحف والمجلات ، وظهرت له قصة في مجلة كان صاحبها يعتمد في تحريرها على الهواة ، فرقص قلبه طربا بين جوانبه ، وتفتحت نفسه ، وأرضى ظهور اسمه بحروف الطباعة غروره ، حسب أنه صار كاتباً معروفاً ، وأنه أصبح موضع اهتمام القراء ، فانطلق منتفخ الأوداج ، وراح يمر على أصدقائه ومعارفه يحدثهم عن قصته ، ويدفع إليهم بالمجلة ، ويرقب وجوههم وهم يقرءون اسمه منتشيا ، وقد أفعم بنشوة عارمة .

خرج سعيد قبل الميعاد المضروب بينه وبين روحية بساعات، رأى أن يشتري لها هدية ، بعد أن أصبح يستطيع أن يهدي إليها شيئاً ذا قيمة ، فقد صار له مرتب ، عتب أن أضحي نائباً بالقصر العتيق ، وادخر منه بضعة جنيهات .

وراح يعد بصره إلى واجهات المحال ، ويرنو فاحصاً إلى ما يهدي إلى النساء ، وتذكر أن هذه أول مرة يهتم فيها بمثل هذه الأشياء فاغتبط ، وأحسن في أعماقه أنه صار رجلاً ينقب عما يشرح صدر أنثاه .

وخطر له أن يشتري لها بعض أدوات الزينة ، ولكن سرعان ما أشاح بوجهه عن هذه الخاطرة ، إنها تعد نفسها لتكون صديقة ، فلن تحتاج إلى مساحيق وأصبغ ، وإن تستعمل المطر النفاذ ، كان في قرارة نفسه لا يحب أن يراها وقد طلت وجهها بالمساحيق ، فصفحة وجهها النقية أروع من كل جمال مصنوع ، وأريجها الفاغم أشهى لنفسه من أطيب الطيب ، وأفضل العطور .

ورأى ساعة دقيقة أنيقة أعجبه ، وزاد في إعجابه بها أن روحية ستذكره ، كلما تطلعت إليها تحسب الزمن الباقي على لفائهما ، والزمن الذي انقضى بعد اللقاء ، فدلف إلى المحل واشتراها ، وانطلق إلى الميعاد .

وجاءت روحية رقيقة كالنسيم ، وأقبلت عليه إقبال الأطياف ، خياها في رقة ، وانسابا يتناحيان ، كان كلما نظر إلى عينيها رأى دنيا فسيحة من الأمل والمهجة ، وكلما أصفى إلى عذب حديثها ، أحس أنامل حاملة تعبت بأوتار الفؤاد ، وكلما ملأ عيرها أنفه ، أريق في جوفه دنان المشوة ، كان السكون يبدو لناظريه جميلاً ، رائعا غاية الروعة ما دامت إلى جواره ، ينو إليها ، أو يعيرها سمعه ، أو يبينها آماله وأمانيه .

وجلسا على أريكة صنعت من الحجارة ، على جانب الطريق الهادي ، على النيل ، كأنما وضعت لاستقبال العاشقين ، فالماء يجري هادئاً يغرد أنشودة الخلود ، والأشجار المزدهرة المورقة ، تمد ظلمها الظليل ، وقد أرخت أغصانها لتحتمي

أعراار الحمامسين ، والشمس تندس بين أوراق الشجر ، فتبهر على الأرض دنائير فضية ، تزيد المكان شاعرية وجمالا .

ووقفت على الشجرة يامتان تناجيان ، فرفع سعيد بصره إليهما ، ونظرت روحية بينهما السوداوين الواسعتين ، فشمع منهما بريق حنان ، وطارت يمامة ولكن سرعان ما عادت إلى أليفها ، تمد منقارها إلى منقاره ، فهمس سعيد في وجد :

— المحبون لا يطيقون الفراق .

وساد بينهما سكون بليغ ، ثم التفت سعيد إليها وقال :

— إننى مسافر ياروحية إلى الإسكندرية ، فقد عينت في مستشفى المؤاساة ، عينت نائبا هناك .

وخفق قلبها ، وأحست يدا قوية تمصر مهجتها ، ولاح الأسى في عينها ، ولكنها لم تنبس بكلمة ، وحزر ماتمأسى ، فقال ليخفف عنها :

— ليس هذا فراقا ، سأسافر ياروحية ، وسأعود لأراك ، إننى لا أحتمل العيش إذا لم تستعد عيناى برؤيتك .

وتهدج صوته ، ولاح الهوى في عينيه ، وجاشت المشاعر في جوفه ، واستشعر رغبة فى أن يناجها ، وأن يترجم عن حبه الجارف ، الذى يملأ جوانحه ، ولكنها آثر أن يكتم ماينور فى صدره ، وما يخفق به القلب ، كان يرى أن اللفظ مهما سما ، لن يعبر عما يحسه نحوها ، وأن نظرة واحدة ، أو أغضائة من رمش ، قد تكون أبلغ من مناجاة ، مهما كانت حرارتها ، فلن تبلغ أثر بسمة عذبة ترف على الشفاه ، أو رنوة صادقة تنفذ كالكهربا إلى سويداء القواد .

ودس يده فى جيبه ، وأخرج الساعة ، وقدمها إليها ، فلاح فى عينها دعر ، فأسرع يقول فى رقة :

— هدية متواضعة ، أرجو أن تقبلها .

فقالت وهى تشيح بوجهها عنه :

— أشكر لك جميل عواطفك ، وآسفة لأنى لا أستطيع أن آخذها .

— خذها إكراما لى .

فقلت في إصرار :

.. آسفة ، لا أستطيع أن أقبلها .

فقال في رجاء :

.. خذوها ، ذكري هذه اللحظات المنيية ، خذوها لتذكرك بي .

أحسنت أنه جرحها ، أفي حاجة هي إلى ساعة لتذكره ، إنها لتذكره في غدوها ورواحها ، في نومها ويقظتها ، ترى أيقدم لها هذه الساعة ثمنا للحظات السيدة التي قضياها معا ؟ فغسقت عينها ، ولمح دموعها ، قدس الساعة ثانية في حبيبها ، شمر دون تفكير أن خير ما يفعله أن لا يلح عليها في قبولها .

وانقضى الوقت وهما هائمان في دنيا حاملة ، وحانت ساعة الوداع ، فصاحفها وراح يضغط على يدها ، خافق القلب ، وقال لها :

.. سأكتب لك ، وأرجو أن تسكني لي حتى نلتقي .

وتطلعت إليه ، وفي عينها دموع ، وكل خالجة فيها تهتف : « إلى اللقاء » . وانصرف وقلبه يرفرف بين ضلوعه ، يقاوم الرغبة الملحة التي تغريه بالانفلات إليها ، ووقفت ترمقه وهو في طريقه ، من خلل دموعها ، وقد راح قلبها يدوي بين جوانحها في قوة ولهفة .

١٨٧

الحارة غارقة في الضوء ، فبدت الحربة كأنما فرشت بالنور ، وشمخت مئذنة الجامع متألفة في الليل ، فبهرت النجوم المتلائة في زرقة السماء ، وجلست حليلة أمامها قفص الحلوى ، ترقب الأولاد وهم يحجرون ويضحكون ، وقد برز شعرها الأبيض من تحت منديلها الكالح اللون ، وكثرت في صفحة وجهها التجاعيد ، كانت الحارة نابضة بالحياة ، فالليلة ليلة زفاف سهام .

كانت سهام في غرفتها ترتدى ثياب العرس ، شاردة اللب ، أحبت خالدًا من سويداء قلبها ، كان رجلها الذي تحلم به ، تتنسم أنباءه وهي طفلة ، وتقرأ صفحة الرياضة لعلها تجد اسمه بين اللاعبين ، أيام كان طالبا يعشق اللعب بالكرة ،

وترقب، زيارته ، التمرع إلى حيث يكون ، تحيره سمعها ، ويسعد قلبها بالحضرات
الطينية ، التي تجمع بينهما فيها غرفة واحدة ، وينشط ذهنها عقب انصرافه ،
فينسج لها أعذب الرؤى ، كانت تحس في أعماقها أنه لها ، وكانت تغدى ذلك
الإحساس ، حتى تضخم وأصبح في ناظريها حقيقة دائية الفطوف ، فلما أخبرها
أنه سيتزوج من درية ابنة خاله ، عصف النبأ بها ، واندكت قصور الأوهام
التي شيدتها في الهواء ، وانزوت وقد صدع الحزن كبدها ، ومزق قلبها .

وخرج خالد من الحارة ليعيش في بيت الزوجية ، فزاد ذلك في أسى سهام ،
صارت الحارة مبعثا للانقباض ، قد ران عليها الظلام ، وباتت شاردة طائفة ، فما
بال الزمن يطعننها في أعز أمنية راودت الخيال ؟

وسعى إلى بيتها الخطاب ، كانت حلوة نامية ، مكتملة الأنوثة ، فيها خفة
محبة ، وجاء الرجل الأول ولم يكن مثل خالد عريض الكتفين ، رياضي المظهر ،
فأشاحت عنه ، ورفضت أن تتزوج منه ، فلما ألح عليها أهلها بكت ، وأمنت في
البكاء ، فرفض الرجل وبقيت طليقة ، لتعيش هائمة في أحلامها الشاردة .

وجاء الرجل الثاني ، وقاسته بمقياس رجل أحلامها ، فلما لم يكن يحاكيه ،
رفضته وأصرت على رفضها ، وسقط في أيدي أهلها ، فهم لا يدرون علة ذلك
الجموح ، وذلك النفور من الخطاب ، ونبتت وساوس في صدورهم ، ولكنهم
لم يفصحوا عنها ، كانت أثيرة عندهم ، خبيبة إلى نفوسهم ، فلم يقسوا عليها ،
ورفض الرجل الثاني ، وبقيت سهام لأحلامها .

وجاء الرجل الثالث ، وأطرقت سهام تفكير وقد تسرب اليأس إلى قلبها ،
لماذا تصر على رفض كل من يتقدم لخطبتها ، أتفعل ذلك من أجل خالد ؟ ولكن
خالد قد تزوج وهو ينعم بزوجه ، بينما هي تقاسى لبيب حبه ونار جواه ، وحيدة
حزينة ، لا يكاد يحس بها أحد ، إنها قد انتهت ، تمزق قلبها ، وتبعثرت روحها ،
ولم يعد لها في الحياة ما تأمل فيه ، إن أهلها يرمونها بنظرات قلقة كلما رفضت
رجلا يتقدم إليها ، فماذا عليها لو قبلت أي رجل يطلب يدها ، إكراما لأهلها ،
فأي رجل سيتزوجها سيحملها إلى داره متاعا ، وإن ينبض بحبه قلبها ، وكيف
ينبض بعد أن مات ، ودفنته في أغوارها .

وقبلت سهام أن تزوج من ذلك الرجل ، ولم يكن أفضل من تقدموا إليها ،
ومرت الأيام وحدد موعد الزفاف ، وهذه الليلة جانوها ، نفخ إليها أترابها ،
يقبلونها فرحات ، مشرفات الوجوه مستبشرات ، ولو غصن في أعماقها ، وكشفن
ما في سريرتها ، لأظلمت الدنيا في عيونهن ، وانزت أفئدتهم حزنا وأسى .
وأتمت ارتداء ثوب عرسها ، ونهضت بمد بصرها من خلل النافذة إلى داره ،
وإلى الحربة ، وإلى مشدنة الجامع المتألقة في جوف الليل ، فانقبض قلبها ، وورقت
عينها بالدموع ، وسارت كسيرة الفؤاد ، وما لاحت للنسوة ، حتى أطلعن الزغاريد
المسدوية .

وهبطت سهام في ثيابها البيض ، مطأطئة الرأس ، في حلقها غصة ، وفي
سريرتها شجن ، ودوت الزغاريد عالية مججلة ، فخيّل لها أنها تصفى إلى صوات ،
وخف صبيان الحى إلى السيارات ، يدورون حولها مغتبطين ، وقد لاح في
وجوههم الفرح ، وأسرعوا إلى الباب يشاهدون العروس ، وذهبت حليلة
تنظر ، فأحست إحساس المحروم الذى يرنو إلى مائدة تكس عليها مالك وطاب .
ودلفت سهام إلى السيارة شاردة ساهمة ، ونظرت إليها حليلة ، وقد استشهرت
حزنا ، وانطلقت السيارات وقد انسكب الفرح في القلوب ، بينا كان قلب العروس
داميا ، يبكي الحب المفقود ، والأمل الموهود ، وعينا حليلة تسبحان السموع ، على
العمر الذى ولى في ذل وحرمان .

١٤٨

عزيزتى روحية :

أبعث إليك رسالتى السادسة ، وما تلقيت منك رسالة واحدة ، تطفئ نار
الشوق ، أعيش ياروحية على أمل أن أتلقى منك رسالة تنعش القلب الذى يحن إلى
لحظات اللقاء ، التى أحيا على ذكرها كلما انفردت بنفسى ، وأطلقت لخيالى العنان .
أفكر فيك ياروحية في الصباح إذا ما قمت من نومي ، وفي المساء إذا ما ذهبت
إلى الفراش ، وفي هجعة الليل إذا ما أطل القمر على السكون ، وغمره بنوره
الفضى ، ونفث السحر الحلال ، وفي رائحة النهار ، إذا ما رنوت إلى البحر المسجى

أو البخر النائر المتلاطم الأمواج ، وفي الأصيل والشمس في غروبها ، وقد صبغت الأفق بالأرجوان والذهب النضار . صار الجمال يهزني بعد أن خفتي بحبك قلبي ، وأصبحت الروعة تذكرني بك كلما وقع عليها البصر ، واهتز لها الفؤاد . طيفك ياروحية مؤنسي ، لا يفارقني في الليل والنهار ، ألحك إلى جوارى في السيارة وفي الترام ، وأرى وجهك الحبيب إذا ما قلبت صفحات كتاب ، وأرنو إليه في الفضاء إذا ما سرت في طريق أو خلوت بنفسي في مكان ، إنه أنيس في وحدتي ، ولكن أيقنع القلب بالطيف والخيال ؟

أهفو ياروحية إلى اللقاء . ولو كان أمري بيدي لطرت إليك على جناح النرام ، ولكن ماذا أفعل والعمل في المستشفى لا يترك لي فسيحة للسفر ، لأسعد بأطيب لحظات الحياة ، إنني أقيس عمري بالسويحات التي عشناها معا ، نخلق في عالمنا الشعري الرائع غاية الروعة ، الجميل غاية الجمال .

اكتبي إلى ياروحية ، اكتبني إلى لتهدأ نفسي القلقة ، ويطمئن قلبي الولهان ، وتفتح أمامي أفاق جديدة من السعادة ، أرتادها كلما هفت روحي إلى الزاد .

اكتبني إلى ياروحية ، لماذا تحجمين عن المناجاة ؟ لست عاتبا عليك ، فأنا أعرفك أكثر ما تعرفين ذاتك ، إن خجلك يقهرك ، ولكن بالله أخرجني من قوقعة نفسك إكراما لي ، فأني في شوق إليك ، فإذا عز علينا اللقاء ، فما أيسر أن ننثر على القرطاس ما يعتلج في الصدر ، وما انطوت عليه الجوانح .

وفي انتظار رسالتك ، أبعث إليك شوقي ، وخفقات قلبي ، وذوب النفس .

سهيل

وطوى الرسالة ، وانطلق مغتبطا يضعها في صندوق البريد . وتقضت أيام وهو يحيا على أمل أن يتسلم منها كتابا ، وذهب إلى غرفته في المستشفى يستريح وإذا بالبواب يطرق ، وتقدم منه ممرضة تدفع إليه رسالة ، ففضها خافق القلب ، ونشرها أمام عينيه مضطربا ، وقرأ التوقيع ، فسرت في نفسه رهبة ، لم تكن الرسالة منها بل من سنية .

راح يقرأ متقطع الأنفاس يدثره قلق :

سيدى الدكتور :

أرجو أن تنفر لى جراتى على الكتابة إليك ، ولكنى قد رأيت الأمور
تسكاد تتعقد ، وروحية لائدة بالصمت ، فرأيت أن أفزع إليك .

تقدم ابن خالتنا يخطب روحية ، فرحب أعلنا به ، ولما فوحت روحية
فى ذلك صغرت خدها ، ورفضت أن تنم هذه الخطبة . لأنها لا تريد أن تقطع
شوط تعليمها ، وأنها لا تحب أن ترتبط بشىء قبل أن تقطع ذلك الشوط .

انفردت بها أحاديثها ، أعلها تكشف لى عن خبيثة نفسها ، ولكنها بقيت
على الصمت ، لم تقل لى شيئا ، وإن عرفت كل شىء؛ عرفت أنها تهباك ، وأنها
ما رفضت ابن خالتنا إلا من أجلك ، ومن أجلك أنت .

إننى قلقة ، لأننى أعرف روحية ، فهى صامتة ، وإن تأن أو تبوح بما تقاسى
من آلام ، وإن رعت النار فى أحشائها ، لذلك أهرع إليك راجية أن تصصح
عما نويت ، ففما ستعلم راحة على أية حال ، فإما تحقيق آمالها وراحة القلب ،
وإما راحة اليأس ، فما أقسى أن تتعلق فتاة بأوهام لا يشدها إليها إلا حبلى واه
من الأمل .

وإلى أن أتلقي رسالتك ، تقبل تحياتى واحترامى

((سنية))

تدفقت السماء حارة فى عروقه ، وراودته فسكرة أن ينهض من ساعته ،
ويسافر إليها يخطبها لنفسه ، إنه يحبها ويشعر فى أعماقه أن حياته لو خلت منها ،
لكانت خواء ، ليته يستطيع أن يطير إليها الساعة ، ولكن هيئات ، فقد شد
إلى العمل . ولا يستطيع فككا .

وتناول قلده ، وراح يكتب إلى سنية أنه يخطب روحية لنفسه ، ويرجو منها
أن تعلم ذلك ، حتى يأتى اليوم ، الذى يحضر فيه وقلبه على كفه ، يقدمه
إلى روحية مغتبطا أمام الناس .

ذهب جلال إلى المدرسة الحربية ، والتحق بها ليصبح ضابطا احتياطيا ،
تخرج في كلية الحقوق ، وطبع بطاقة باسمه ، أكد فيها أنه « همام » ، ولكن
لم تتغير نظرة الناس إليه ، فهم معذرون ، فمن أدرأهم أنه يحمل ليسانس الحقوق ،
ليرمقوه في تبجيل واحترام ؟ ! وراسل الصحف والمجلات ، وظهرت له عدة
أقاصيص تحمل اسمه ، فرقص من الطرب قلبه ، وسرعان ما احبى أثر ذلك
النجاح في نفسه ، لما ألفى أكثر معارفه لم يقرأوا ما دبحه يراعه ، ووجد الناس
لا يحسون خطورة شأنه ، إنه لو استمر في الكتابة فقد يصبح اسمه علما من
الأعلام ، ولكن ذلك لن يفييه شيئا إذا ركب الترام ، أو جلس في مقهى ،
أو داف إلى « سينما » ، أو مد بصره إلى الغانيات الغاديات الراحات . إنه يريد
شيئا يجذب أنظار الناس إليه ، ويعلن للملا أنه شيء يجب أن ينظر إليه بعين
الاعتبار ، فوجد أن خير ما يفعله أن يرتدى ثياب الضباط .

دوى البورى في عماية الصبح ، فهبط جلال مع زملائه الطباطين إلى فناء
المدرسة الحربية ، كان يرتدى « قميصا » قصير الأكمام ، و « بنطلونا » أبيض
قصيرا ، وحناء أبيض من المطاط ، ووقف في الصف مع زملائه ، وجاء ضابط ،
مفتول الشارب ، مفتول العضلات ، في وجهه صرامة ، وبدأ تدريبات الصباح ،
وصاح في صوت جهورى :

— ارفع رأسك إلى فوق ، شد وسطك . أمام سر .

وسار الجميع ، وقد بدءوا السير بأرجلهم اليسرى ، إلا جلالا فقد بدأ برجله
اليمنى ، فصاح الضابط في ثورة :

— قف .

وصاح وهو يتجه إلى جلال :

— قلت أكثر من مرة ابدأ السير برجلك الشمال .

فقال جلال وهو شامخ بأنفه :

— وماذا يحدث لو بدأنا السير بأرجلنا اليمنى ، أليخسر الجيش المعركة ؟

فقال الضابط في حلق :

— اسمع ما تؤمر به ، ولا تتكلم .

فقال جلال وهو ينظر في عليائه :

— هذا رأى .

فصاح الضابط في ضيق :

— ليس لك رأى هنا ، أنحسب نفسك محاميا ؟ إنك جندي بسيط ، تؤمر ،

فتصدع بما تؤمر به .

وصمت جلال على مفض ، وفطن الضابط إلى غروره ، فهزم على أن يمرغ

أنفه في الرغام ، فراح يصدر أوامره إليهم في سرعة :

— أمام سر . . قف . . صفا . . انتباه . . خطوه سريعة — سر . .

وراحت أوامره تترادف ، وهم بين سير ، وهرولة وعدو ، وسطعت الشمس ،

وبهتت أشعتها حامية ، فتفصد العرق ، وانبرت الأنفاس ، وأحس الضابط أنه

يكاد يتداعى ، فاستدعى « باشجاويش » التسليم ، وأمره أن يحل محله في

تدريب هؤلاء المرهفين ، الذين حسبوا أنهم جاءوا لنزهة خلوية !

وراحت أوامر الرجل تتابع :

— صفا . . انتباه . . خطوة سريعة . . سر . .

وامتأنفوا العدو ، وراح جلال يحرق وهو يشهر بالدنيا ترقص أمام عينيه ،

وبالأرض تكاد تميد تحت قدميه ، وانبرت أنفاسه ، حتى كان يحس ألما في صدره ،

كلما التقط الهواء ، إنه يريد أن ينهار ، ولكنه كان يتجالد ويقاوم ، عز عليه أن

يكون أول من يسقط من الأعياء .

وراح الوقت يمر وثيدا وثيدا ، وخطر لجلال أكثر من مرة أن يشور ،

ولكنه كان أوهن من أن يرفع صوته ، أو يأتى حركة امتعاض ، كان كل ما يبغيه

أن يلمس جسمه الأرض ، ودوى صوت الرجل :

— انصرف .

فذهبوا إلى حجراتهم ، يخرجرون أرجلهم ، وارتمى جلال في سريرته ،
يأن في صوت خافت :
— آه . . آه . . آه .

ولم تخيل في ذهنه صورته وهو في ثياب الضابط ، يتلفت في زهو إلى الناس ،
فقد تمطل فكره ، ولم يعد يحس إلا ما يقاسيه من آلام .

١٥٠

انطلق الدكتور سعيد إلى منزل الأستاذ زكريا ، فقد غادر زكريا بيت الأسرة
في الحارة بعد أن تزوج ، ودلف سعيد إلى غرفة منزلة في الطبقة الأولى من
الدار ، حيث وافاه أخوه هناك ، وراحا يتحدثان ، وفطن زكريا إلى أن الدكتور
ما جاء إلا ليفضي إليه نبأ ، فقال له :

— ماذا وراءك ؟

فقال سعيد وهو يجمع شتات أمره :

— جئت أخبرك أنني سأتزوج من روحية .

فقال الأستاذ في دهش :

— روحية من ؟

— فتاة رقيقة ، تعلق بها قلبي من سنين ، وقد تعرفت بها أخيرا .

فقال الأستاذ في إنكار :

— لن تسعد بهذا الزواج ، فزواج الحب لا يدوم .

فقال الدكتور في حماسة :

— لن تسعدني فتاة سواها ، إنني أحس أن حياتي بدونها هباء .

فقال الأستاذ في ثقة :

— أستطيع أن أرى نتائج هذا الزواج الآن ، مارأيتك في أن أكتب لك

تقريراً ولن تقرأ الساعة ، ثم نضعه في الخزانة ، على أن أقدم لك هذا التقرير
بعد أن يخفك ذلك الزواج ، ويومها ستعرف أنني كنت على صواب .

فقال سعيد وقد التفت عيناه بهريق أشبه بالكهرباء :

— اسمع يا زكريا ، لست من هؤلاء الشبان المأفونين ، الذين يحرون وراء الفتيات كلما خفقت أفئدتهم خفقات الاشتها ، إننى أعرف نفسى ، أحببت هذه الفتاة من كل قلبى ، وإنه ليس بى أن أمضى العمر إلى جوارها . لم يجذبني إليها جمالها ، فإأكثر الفتيات الجميلات ، ولم يجذبني فيها غناها ، فهى من أسرة تكاد تكون معدمة ، ولكننى لما رأيتهما أحسست شيئا غامضا يربطنى بها ، إن روحى امتزجت بروحها ، إنها ما خلقت إلا لى ، لى وحدى دون الناس .
فقال زكريا فى هدوء :

— لازلت عند رأى ، زواج الحب لا يدوم .
ورأى سعيد أن لا فائدة ترجى من المجادلة . إنه لن يثنى عن عزمه ، ولو وقف البشر جميعا فى وجهه ، وأن زكريا لن يجيد عن رأيه ، فنهض مستأذنا ، فقال له زكريا :

— على أن أخلص لك النصيحة ، وعليك أن تختار لنفسك ما تشاء .

فقال الدكتور سعيد فى حزم :

— لقد اخترت .

وانصرف يحس ضيقا ، إنه يعلم أن زكريا يعيش بذهنه ، وأنه يحاول أن يخضع كل شىء لمنطقه ، لا يقيم للمواطن وزنا ، وقد كان على ثقة قبل أن يفتحه فى الأمر أنه سيرفض ، ويعمن فى الرفض ، وعلى الرغم من ذلك فقد خرج من عنده منقبضا .

وذهب إلى دار خالد ، وقابله ، وأفضى إليه بما فى نفسه ، فقال خالد فى صدق :

— تزوجها إذا كنت واثقا أنها الفتاة التى تسعدك .

فقال سعيد منشرجا :

— إنها فتاة أحلامى ، وهى آمالى ، إننى أعتقد يا خالد اعتقاد اليقين أننا سنكون أسعد زوجين فى الوجود .

وانصرف مغتبطا ، وجد من يؤازره ، ومن يبارك حبه ، وانطلق إلى لبيب ، وقال له إنه سيتزوج روحية ، فقال له لبيب فى هدوء :

— إننى أوافق على هذا الزواج على شرط .

فقال سعيد بن لطفة :

— ماهو ؟

— أن تسأل عن أمها ، فإذا كانت سيّدة طيبة ، فتقدم على بركة الله ، فالأم
مرآة البيت .

١٥١

شغلت البلاد بالانتخابات ، بعد هزيمة الألمان في العالمين ، وانجياب الخطر
عن مصر ، وإقالة وزارة النحاس ، ففسكر الأستاذ زكريا في أن يخوض غمار
المعركة الانتخابية ، وكان يأمل أن يرشحه السعديون عن الدائرة التي ولد فيها ،
ونشأ فيها ، وعاش بين ظهراني أهلها ، ولكن الحزب السعدى الذى انضم إليه
لم يرشحه ، لأن الأحزاب المعادية للوفد قد ائتلفت ، ورشحت نائبا عن الحزب
الوطنى لهذه الدائرة .

كان زكريا يرقب هذه الفرصة ، فرشح نفسه ، على الرغم من قرار حزبه ،
فقد كان واثقا من الفوز ، فهو من الدائرة ، يحس إحساس أهلها ، وهو أقدر
من يترجم عن آمالهم وآلامهم .

وبدأت الدعاية الانتخابية ، فخرج شيخ الجامع الكفيف ، يدعو الناس
إلى انتخاب زكريا ، إنه لينكر ذلك الطفل ، الذى كان ينسل في العصر من
زقاق الحارة ، ويدلف إلى الجامع ، ويقرأ له الأحاديث ، وخطب الجمعة ،
كان الشيخ يعجب بذلك الطفل ، وبسلامة منطقته ، وكان يتنبأ له بمستقبل
مزدهر بسام ، وها هي ذى الأيام توشك أن تحقق نبوءته . فراح يحض الناس
في حماسة أن ينتخبوه نائبا عنهم ، وكان يزيد في حماسه أنه كان يحس في أعماقه
أن زكريا أفضل من منافسه ، الذى يستعد كل جاهه من ماله الموفور ، الذى
جمعه من عرق الفقراء .

وفتح الشيخ حسن كتابه على مصراعيه ، يستقبل كل ليلة الصاعدة وأهالى
الحى الفقراء ، وكان الشيخ يجلس على الحصير يواجه الرجال ، الذين جلسوا

يصغون إليه ، كان يقول لهم إن نجاح زكريا في هذه المعركة لنجاح لهم ، فهو ابنهم وهو أحق بأصواتهم من ذلك الثرى ، الذى سيفلق في وجوههم أبواب قصره ، إذا ما انتهت الانتخابات ، وكان الشيخ يشعر بزهو وهو يتحدث ، فالأستاذ زكريا مرشح الدائرة ، والضابط الكبير خالد ، والأستاذ جلال ، والدكتور سعيد من خريجي هذا الكتاب .

وجاء الأستاذ زكريا في طوافه اليومى إلى الكتاب ، وجعل يحدث الناحبين في رقة ، يفتح قلبه لهم ، ويعنيهم الأمانى ، ويبدل لهم الوعود ، فتحبس الصعابدة له ، وعاهدوه على أن يؤازروه ، وانطلقت هتافاتهم مدوية ، لتبلغ عنان السماء .
وراح الدكتور سعيد ، يطوف على بيوت الحى ، يداوى المرضى ، ويمودهم في الصباح ، وفي الظهر ، وفي العصر ، وجوف الليل ، فكان أهالى الحى ينظرون إليه كملك ، تحفق قلوبهم بحبه ، فأحبوا زكريا من أجله ، وأوصى بعضهم بعضا بالالتفاف حوله حتى يفوز .

وأخذ خالد يزور أصدقاءه ومعارفه في البيوت ، ويتحدث عن زكريا ، وعما يمكنه أن يؤديه للدائرة من خدمات ، كان خالد يتحدث دائما عن إخوته وعن أصدقائه ، فذلك فى طبعه ، لذلك لم يكن جديدا عليه أن يدعسوا الناس لانتخاب أخيه .

وحرب الليالى والمنافسة شديدة قاسية ، أنصار المرشح الغنى ينثرون المال يؤلفون به القلوب ، وأنصار زكريا يوقدون المشاعل ، وينسابون فى الطرقات يهتفون للمرشح الذى عاش فى الحارة مثلهم ، وقاسى ما قاسوه ، وتسلى بعض أعوان زكريا إلى منافسه ، وطفقوا يسبون زكريا ويقبضون الثمن ، كانت ألسنتهم عليه ، وقلوبهم معه ، فاستحلوا أموال الغريم !

وجاءت الليلة الفاصلة ، الليلة التى ينبليج بعدها يوم الانتخاب ، فاجتمع زكريا وخالد وسعيد ويحيى يرسمون خططهم ، وقد التف حولهم أنصارهم ، وفيما هم يديرون قوام الرأى بينهم ، جاء رجل يسعى ، وقال لهم :

— جاء بأناس كثيرين من دوائر أخرى ، وحشدهم فى فندق ، حتى إذا لاح الصباح صوتوا له لقد تمكن من حجز بطاقات انتخابية كثيرة ، تمكنه من هذا التزوير .

وتبادلوا نظرات حائرة ، ولاح في وجه الدكتور سعيد حزم ، فالتفت إلى يحيى ، وقال له :

— تعال معي .

فقال الأستاذ زكريا :

— ماذا مستفعل ؟

— اطمئن ودع لى هذا الأمر .

وانساب الدكتور سعيد ويحيى فى جوف الليل البهيم ، وبلغا الفندق والساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل ، وطلب الدكتور صاحب الفندق ، فلما جاء إليه قال له :

— أريدك فى أمر هام .

وانتهى به يفاوضه ، طلب منه أن يحبس جميع النزلاء فى الفندق ، حتى تنتهى الانتخابات ، فصاح الرجل فى صوت عال :

— لا . . أبدا .

وأحس الجنهات فى يده ، فمال فى صوت واه :

— لا .

ونظر إلى الأوراق المالية ، فأشرق وجهه ، وقال وقد اتسع فمه ، وتوجته بسمة عريضة .

— أنا فى خدمتك .

وأعطى الدكتور مفتاح الفندق ، فأداره فى الباب الخارجى ، واطمأن إلى أن جميع من جاء بهم منافسهم لن يدلو بأصواتهم ، ودس المفتاح فى جيبه وانصرف . وأشرقت شمس اليوم المرتقب ، فهرع زكريا وإخوته إلى مراكز الانتخاب ، وبدأت الخطط التى دبرت بالليل تظهر على مسرح الدائرة ، انتشر فى الطرق المؤدية إلى اللجان مائة عامل ضمخوا ثيابهم بالشحم ووقفوا عند مداخل الطرق ، وأقبل رجل يرتدى حلة غالية ، كان من أنصار المرشح الغنى ومن دعائه ، فلما لمح العمال ، أطبقوا عليه ، وفى مثل لمح البصر فطن إلى ما يراد به ، فنكص على عقبيه . وأطلق ساقيه للريح لا يلوى على شىء .

ووقفت فرق المال تنفذ دورها ، كانوا يلتفون بأنصار غريمهم ، ويضيقون عليهم ، فلا يسعهم إلا الفرار إنقاذاً لثيابهم .

وانطلقت السيارات تجوب الحارات ، تنقل الرجال لانتخاب الرجل الفنى الذى بسط يده بالمال ، فطنق الرجال يندسون فيها فرحين ، حتى النجرو اندس بين الركاب ، بشعره الأغبر والسبحة الخشبية الضخمة التى يلفها حول عنقه ، وقمص الحيش الذى يستر جسمه ، ذهب مع الداهيين ليدلى بصوته ، ويرجع كفة الانتخاب !

ومالت الشمس نحو المغرب ، وجاء الرجال إلى الأستاذ زكريا يهتفون به ، ولكنه كان يتربع إعلان النتيجة خافق القلب مضطربا ، وهو الوقت وثيدا وثيدا ، وانقضى المزيج الأول من الليل ، وهو يترجع بين اليأس والرجاء ، وأعلنت النتيجة ، فنفرفاه دهشة ، لم يكن يصدق أنه صار نائبا فى البرلمان .

التف الصاعدة به يهتفون له ، وأضاءوا المشاعل ، وراحوا يضربون الأرض بعصيم فى بهجة ، ويقفزون فى حبور ، والتمسوا من الأستاذ أن يسير معهم فى موكب النصر .

وانطلق الموكب يدور فى مناطق الدائرة ، والناس يتوافدون ، يحملون فروع الشجر ، ويقفزون فى الهواء فى ضوء المشاعل كالشياطين ، والأستاذ ذاهل عما حوله ، يسير معهم دون أن يدري أنه قطع أميالا فى سيره ، وعرج الموكب العظيم إلى الحارة ، فراحت الأضواء تتراقص ، والأصوات تجلجل بالهتاف ، وأطلت النسوة من النوافذ ، وأطلقت الزغاريد ، ونظر على ابنه وهو يسير بين الجموع ، فانهمرت دموع الفرح من عينيه ، وأفعم بالسرور حتى كاد يطير فى الهواء !

أقبل موسم الأجازات ، فهرع الدكتور سعيد إلى القاهرة ، ليقابل روحية ،
وينعم بالوصال ، إنه يحس روحه تهفو إليها ، وكل خالجة من خواجه تحن إليها ،
فأذناه في اشتياق إلى عذب حديثها ، وعيناه تتلهفان إلى الرنو إلى عينيها المعبرتين
الساحرتين ، اللتين تنطقان بالحب والهبام ، وقلبه يشتهي أن يترنم بأهازيج
الغرام ومشاعره تريد أن تنسكب في جوفه ، وتلفه بأرق الإحساسات ، كان
في حاجة بعد طول البعاد إلى أن يهيم في عالم الحب المسحور ، وأن يخلق
في دنيا الوداد .

انطلق إلى القصر العيني ، ووقف على الطوار المواجه لدارها ، وطفق يعد
بصره إلى النوافذ والشرفات لعله يلمحها ، وارتد إليه بصره دون أن يراها ،
فتدسست في رأسه خاطرة أن يصعد ، وأن يطرق الباب ، وأن يسأل عنها ،
ولكنه أعرض عن ذلك ، فإذا يقول إذا فتحت أمها الباب ؟ أيقول إنه خطيب
روحية ؟ أتصدق الأم أن خطبة تتم في ربالة تحمل للخطيب الحق في أن يقتحم
البيوت دون أن يحدد له موعد للزيارة ؟ ورأى أن خير ما يفعله أن يذهب إلى
القصر العيني يقابل سنية ، ويلتمس منها أن تخبر روحية أنه يريد أن يراها ،
فإذا ما تقابلا اتفقا على ما يفعلان .

ودار على عقبيه ، ودلف إلى القصر العيني ، يغد السير ، ويصعد في الدرج
قفزا ، وينساب في الطرقات يتلقت ، وينظر في الحجرات ينقب عنها ، ورآها في
ثوبها الأبيض تمر بين أسرة المرضى ، فهرع إليها منشرح الصدر ، يبتسم قلبه من
الذشوة ، ووقعت عيناها عليه ، فرفت على شفيتها بسمه ترحيب ، وتقدمت منه
تصافحه ، ورنّت إليه تسأله بعينها : « ماذا جئت تفعل ؟ » ولم ينتظر حتى تتحدث ،
بل قال في لهفة :

— أريد أن أقابل روحية اليوم . إني في شوق إليها .

فقالت سنية وهي تبتسم :

— آسفة . لن تستطيع أن تقابلها :

فقال في قلق ، وقد اتسعت عيناه :

— لماذا ؟

— لأننا منسافر اليوم إلى السويس نفضي الصيف عند أختنا .

— ستسافرون جميعا ؟

فأومأت له برأسها ، فقال في عزم :

— سأقابلكم هناك ، ولكن أين أجدكم ؟

— على الشاطئ .

وتركها وذهب يتأهب لسفر لم يخطر له على بال .

ونام الليل يتعجل الساعات الباقية على النهار ، وفي البكرة ذهب منشرجا يستقل سيارة تحمله إلى حبيبة الفؤاد .

ووصل إلى السويس ، ووضع حقيبته في فندق قريب من المحطة ، ثم هرع إلى الشاطئ خافق القلب ، ولهمان . كان الشاطئ ضيقا محدودا ، فما هي إلا جولة حتى لمحها جالسة بين سنية وميدة وقور ترتدى السواد ، إنها أمهما ولا ريب ، وتقدم نحوهن ، وفؤاده يدق في عنف ، ولحنته فبرقت عينها ببريق أخاذ أضاء جوفه ، ودغدغ حواسه .

وارتبكت ، لم تكن تدري ماذا تفعل ، وإذا بيدها تمتد الى سنية تهزها ، فنظرت سنية فرأته ، فهبت اليه تصاحفه وترحب به ، وتقوده الى أهلها .

قالت سنية وهي تنظر الى أمها وفي عينها سرور :

— الدكتور سعيد .

وراح الدكتور يصافح الموجودين ، وهو يسترق النظر إليها ، ولما صاحفها أبقى يدها الصغيرة في يده لحظة ، فارتجفا كأنما سرى فيهما كهربا ، وافسحت له مكانا إلى جوارها ، فجلس وقد أفعم بالغبطة ، وشرد ببصره ينظر إلى البحر نشوان .

وانسلت سنية ، ودخلت « الكابينة » وهي تسحب أختها الصغير في يدها ، وترمي أمها بنظرة آمرة بالانسحاب ، فقامت الأم مستأذنة ، واختفت مع أبنائها ، وبقي سعيد وروحية على الشاطئ وحدهما يتساجيان .

قال سعيد لشوان :

— أقرأت الرسالة التي بعثت بها إلى سنية .

فأرمأت برأسها ، وقد تضرجت وجنتها بحمرة السجبل . فقال لها : وهو
يبدو منها فيملاً أرجها أنفه :

— وماذا قالت أملك ؟

فأطرقت رأسها في دلاله ، ولعلت مقلتها بيريق عجيب ، اهتز له كيانه ،
ولكن سرعان ما أسبلت جفניה ، لسكياتهم نظراتها عن تدلها وشغلها ، كانت
ضئنة بإظهار عواطفها ، ولكن هيات ، فكل جراحة من جوارحها ،
وكل لفظة من لفتاتها ، وكل رنوة من عينيها تمس في حنان : « أحبك ، وأفتديك
بروحى » ، وفطنت إلى أنه ينتظر جوابها ، فقالت في صوت خافت متهدج :
— أحست بغريزتها أن ذلك يرضيني ويريح فؤادى ، فوافقت عليه .

فقال وهو يبتسم في الشراح :

— لماذا تقولين : « أحست بغريزتها أن ذلك يرضيني ، ولا تقولين :

« أحست بغريزتها أن خطبتنا ترضيني » ؟ أما زلت خجلة ؟ ! ومم تحجلين ؟

فأشاحت بوجهها عنه في رقة عبث بقلبه ، فراح ينظر إليها وقد انداحت
النشوة في صدره ، وهام في ملكوت كله رقة وسعادة وحنان .

وانقضى الوقت لحكم قصير ، فما أسرع مرور لحظات الهناء ، ومالت الشمس
الغيب ، وقد طوت النهار ، وأصبح ما جرى فيه من الذكريات ، فالتفت سعيد
إلى روحية وقال :

— سنذهب الليلة إلى السينما .

ونظرت روحية إلى أمها تلمس أذنهما ، فقالت الأم في قلق :

— لماذا لا تمضيان الأمسية معنا ؟

واربد وجه سعيد ، خيل إليه أن الأم لا تثق به ، وحررت الأم ما يفكر
فيه ، فقالت معتذرة :

— أخشى يا بنى كلام الناس .

كان القلق يسرى في صدر الأم ، إنها تخشى أن يكون عابثاً ، وألا يكون
جاداً في أمر الزواج ، وفطن سعيد إلى وساوسها ، فقال في حرارة :

... خطبتها لأننى أريد أن تكون زوجتى ، وما كنت عابثا يوم كتبت إليك
أخطابها لنفسى ، إننى على استعداد أن أعقد عليها الساعة .

رمقته الأم فى دهش ، وسرعان ما انقشع الدهش ، وتزلت بصدرها الطمأنينة ،
وأحست نحوه ثقة ، فقالت فى صوت خافت :

— لا حاجة بنا إلى أن نتقد بينكما الآن ، اذهبا فى رعاية الله .

— مس قولها أوتار قلبه ، وانشرح له صدره ، وأراد أن يشبث لهما أنه عند
حسن ظنهما به ، فقال :

— لن نذهب إلى السينما إلا إذا جاءت معنا منية . فتملمت أسارير الأم ،
ولكنها لم تنبس بكلمة . والتفت روحية إلى منية تغريها بالقيام . وقال
لها سعيد :

وتعالى معنا ، هيا .

وانطلق الثلاثة ، سعيد إلى جوار روحية ، وصفية إلى جوار أختها ، والأم
ترسل خلفهم نظرات كلها حنان ، وقلبها يتهل إلى الله أن يتم نعمته ، وأن
يلهم سعيدا السداد .

١٥٣

قطف جلال النخلة ، التى تحمل فى سبيلها ألوان العذاب ، فارتدى الشياب
العسكرية ، بعد أن تخرج ضابطا احتياطيا ، ومشى فى الطريق منفوشا كالطاووس ،
يرنو بصره إلى النواخذ والشرفات ، ويتلفت حوله ، ليرى فى عيون الناس نظرات
الإعجاب .

واتجه إلى البيت ، وسار فى الشارع الموهين ، ليراه كل الجيران ، ثم راح
يصعد فى الدرج خفيفا نشيطا . فقد همزه الطرب لما حياه أصحاب الدكاكين
القريبة من الدار فى تجلة واحترام . وذهب إلى النافذة ، وفتحها ووقف فيها
يدير عينيه فيما حوله ، وثبت بصره على شباك عليّة ، فتذكر أيامها ، كانت تحببه
مشرقة الوجه كل صباح ، قبل أن يفجأها معا أهلها فى ذلك اليوم المنكود

الطالع ، الذى اكفهر بعده وجه الحياة . أغلقت النافذة ولم تفتح إلا بعد أن ترك أهلها الحى ، مطأطئ الرؤوس من الهوان ، واستشعر في أعماقه الأسى ، لا على الفتاة البريئة التى وثقت به ، فخطم قلبها وفير منها ، بل على أنها لم تره وهو فى ثياب الضباط !

ولم يطق المسكث فى النار ، فهبط ثانية ، وأخذ يذرع شوارع القاهرة ، ويمر على أقاربه وأصدقائه ومعارفه ، ولما أقبل الليل انطلق إلى إدارة المجلة ، التى يكتب لها ، وراح يمضى الأمسية هناك ، ليراه كل الزملاء . كان سروره عظيما ، حصل على ليسانس الحقوق فلم يلتمفت إليه أحد ، ولكنه اليوم يلح فى عيون أقاربه وأقرانه والزملاء ، نظرات التقدير والإكبار .

يا لعظمة الثياب التى يرتديها ! إنها تعلن أن أهله قد علموه وأنفقوا عليه ، أما ثيابه العادية فلا توحى بشيء ، فمن ذا الذى إذا نظر إليه وهو فى حلته المدنية يفطن إلى أنه حاصل على ليسانس الحقوق ! لماذا لا يحسبونه صانعا أو عاملا أو طاهيا أو حوزيا ، فما أكثر المتأتمنين بين الفارغين من الناس ؟ !

دخل « السينمات » ودور اللهو والملاهى والمقاهى ، حتى لم يعد فى القاهرة مكان لم يخطر فيه شائحا بأنه ، تتألق على كتفه نجمان ، وخطرت له فكرة زيارة الإسكندرية ، فارتاح إليها ، وأخذ يتأهب للسفر ، ثم انطلق إلى المحطة يسير فى خطوات عسكرية .

وصل إلى الإسكندرية فى الصباح ، وأسراب الفتيات العاملات اليونانيات والإسرائيليات والمصريات يتدفقن فى مسارب المدينة ، فى طريقتهن إلى المتاجر ، فاختمط بهن ، وسار يرصد عيونهن ، فإذا صور له وهمه أن فتاة رمقته فى إعجاب ، تهملت أساريه ، وانتفخ صدره ، وراح يتلفت فى خيلاء .

واستمر يحوس خلال المدينة ، حتى إذا أحس تعباً يدب فى أوصاله ، عرج على الحى الوطنى ، حيث يقعى منزل الأسرة فى الحارة ككلب ذليل ، وانساب يتثنى كالثعبان ، ما يتقدم خطوات حتى ينحرف إلى اليمين ، ثم إلى اليسار ، ثم إلى اليمين ، ووقع بصره على الماء الآسن الراكد بجوار الجدران فامتعض ، ولوى شفته السفلى فى اشمئزاز ، ولكن سرعان ما انشرح صدره ، ورقص قلبه

طربا بين جنبيه ، ليح عيني حليلة وقد تملقتا به ، يشع منهما ترحيب وإعجاب ،
فانقسم لنفسه ، ودلف إلى الدار ، وخف إلى شقة عماته ، فلما رأته ، وبقته
في بلاطة ، ثم رحن به ففتور وتكاف ، كأنما رحن برجل غريب ، ولاح
في وجهه عزيمة حسد ، وما انصرف حتى راحت تصيح في أبنائها وبناتها :

— يا وكسة ! يا وكسة ! والله لن تفلحوا أبدا ، وكيف تفلحون وأنتم
« بخ » حشيش .

وظلت ترغى وتزبد ، وصوتها يرن في الدار .

وجاء المساء ، فخرج جلال يعرض نفسه على المقاهي ، ويدور على بيوت
أصدقائه ، حتى إذا هجعت المدينة ، ورنقت الميون ، قفل عائدا إلى الدار ،
واندس في فراشه ، وإذا بخاطرة تطفو على سطح ذهنه ، لماذا لا يخرج في الصباح
يرقب عفاف عند محطة الأوتوبيس ؟ ستعصف بنان الندم ساعة أن تراه ، وستأسف
غاية الأسف على أنها هزأت به في سالف الأيام . لقد انتقم منها في المرة الوحيدة
التي صدقت وجاهته في الميعاد ، أخذها إلى « الكابينة » ، ثم أشاح بوجه عنها
لما بذلت له نفسها ، وسمحت له أن يرتوى كما يشاء ، وتركها تلحق جراح اللذات
والمهانة ، إنه مرغها في الهوان ، ولكن أيكفيه ذلك ؟ أيرضى غروره ؟ إنه
يشعنى أن يجرعها كأس الندم ، في كل لحظة وفي كل ساعة .

وانبثق الضوء في الأفق ، ثم أريق النور من النوافذ والشرقات ، فقام
من نومه يتمطى ، وطفق يرتدى ثوبه العسكري ، وهو يغدو ويروح أمام المرأة .
ومد يده يلعب النجمتين ، ثم انصرف وهو يدندن في انشراح .

ووقف على محطة الأوتوبيس يرصد إقبالها ، وازدحمت الأفكار في رأسه ،
أيقفز إلى جوارها يحادثها ، أم يجلس أمامها صامتا ، مترقبا عنها ، متظاهرا أنه
لم يرها قبل الآن ؟ وإذا حدثها ماذا يقول لها ؟ وإذا صمرت خدها وازورت
عنه ، فلماذا يفعل ؟ ومرت السيارات ، وتصرم الوقت ، وراحت الشمس تزحف
لتحتل كبد السماء . فتسرب إلى قلبه اليأس ، انقضى ميعاد وفودها ، ولا أمل
في مجيئها ، من يدري لعلها تركت عملها إلى عمل آخر ، أو لعلها تزوجت .

وسخر من ذلك الخاطر فأشكره ، وإذا بخاطر خبيث يتدسس إلى رأسه ، ويهتس في نفسه في خفيج أشبه بفجيج الأفي « ليل تيار الحرب جرفها ، وعشى بصرها بريق الذهب ، فأصبحت امرأة حرب ، لا هي فتاة ، ولا هي زوجة » ، وملأت صورتها أقطار رأسه ، وهي تسير تترقس ، وطرف ثوبها خلفها يترجح كرقاص الساعة ، فسرده ببصره برهة ، وخفق قلبه خفقات حنان ، سرعان ما وأدها ، وفز كتفيه في استهانة وانطلاق في الطريق يرقب عيون الفتيات ، فيصور له وهمه أنهن يرمقنه في إعجاب ، فيبتسم لنفسه .

١٥٤

جلس سعيد في غرفه متواضعة في بيت خطيبته ، بادي القلق ، كان يعد بصره إلى الباب ، ويدور بعينه في الغرفة التي صفت فيها بعض كراسي الخيزران ، ثم ينهض يطل من الشرفة ، ثم يعود زائع البصر ، يدثره قلق ، فالיום سيعقد عقد قرانه على روحية ، وقد بعث إلى أبيه وإلى إخوته يدعواهم إلى الحفل ، ويهدد من يتخلف منهم بمقاطعته مادام فيه عرق ينبض ، ونفس يتردد بين جنبيه .

ومر الوقت وئيدا وئيدا ، وهو يتملبل . خشية أن يعرض إخوته عن الحضور ، فيتعكر صفو اليوم ، الذي كان يرقبه في لهفة وشوق . إنه اختار من يعتقد أنها خير من تشاركه في حياته ، من يجب أن تكون إلى جواره في السراء والضراء ، فليس أمامهم إلا أن يباركوا اختياره .

وقام إلى الشرفة ثانية ، ورمى ببصره في طريق القصر العيني لعله يلمح أحدا منهم مقبلا ، فزاد قلقه ، ولكنه لم ير أحدا ، فعاد إلى مقعده ، تلفت إلى أقاربها ، ويحيهم ويغتصب الابتسامة غصبا . كان على ثقة من أن أباه سيحضر ، وأن خالدا وجلالا ويحيي ابن يتخلفوا ، ولكنه ما كان واثقا من حضور الأستاذ زكريا .

ومد بصره إلى الباب ، فرأى أباه في جلبابه الصوفي الداكن ، وطربوشه الذي يخفي جزءا من جبينه الناصع ، فهرع إليه مبتسما وصاخه ، وقاده إلى حيث يجلس أقاربها .

ودلف إلى الحجرة خالد وجمال ويحيى ، فهدأ قلب سعيد ، وانبطحت
أمازيجه ، ورففت على منه بسمة عذبة ، وجلس بين إخوته يحادثهم منشرحاً .

وأقبل ليلى والأستاذ كريا ، فشرح سعيد إليهما ، يصاحفهما فرحاً مستبشراً ،
وراح إخوته يديرون عيونهم في الغرفة ، فلا يجدون إلا كراسى الفراش ،
ولا شيء إلا بعض الأثاث المتبق الذي ينطق برقة الحال ، فلم تشرح صدورهم ،
واسكنهم أظبقوا أفواههم ، ولم ينبسوا بكلمة .

وراح المأذون يكتب في سجله السطر الأول لقصة قلبين وهو هادئ ،
لا يفكر فيما سيخطه القدر في صفحات الكتاب ، الذي كتب عنوانه ، وربط فيه
بين بطليه : أن تكون قصتهما ملهامة ، أم تكون مأساة ، هذا ما لم يدر بخلفه ،
ولم يخطر له على بال ، فشكل ما يهمه من الأمر أن يأخذ أجره ، لا يحس خطر
الدور الذي يمثل في المسرحية الأزلية ، ولا يشعر بأنه حلم المحبين وغايتهم ، وأنه
الباب الذي يلجئون منه من عالم الأحلام ، إلى دنيا الحقيقة بحلوها ومرها .

ودخل رجل يرتدى قفطاناً أبيض ، وقد لف حول وسطه حزاماً أحمر ،
يحمل صينية عليها أكواب الشراب الوردى ، وراح يدور على اللو جودين ،
وزغاريد النسوة تردد بين جنبات الدار ، وأقبل في إثره رجل آخر يحمل
صينية عليها الملبس ، فأخذ المدعوون ينتهبون منها ، وكان ذلك إيذاناً بانتهاء
مراسم عقد القران ، فراح الرجال ينساون واحداً إثر آخر ، ولم يبق في الغرفة
إلا سعيد وأبوه وإخوته وولى أمر العروس ، فقاموا وذهبوا حيث كانت روحية ،
فصاحفها على وهو بش وقال من قلبه وهو ينو إليها في حنان :

— بارك الله لك فيه .

والتفت إلى سعيد وقال :

— وبارك الله لك فيها .

وجعل إخوته يصاحفونها مهئينين ، وهى تكاد تذوب رقة وخجلاً ، ولف
سعيد ذراعه حولها ، وقال وهو ينظر إلى أمها وعيناه تلمعان فرحاً :

— الآن نخرج ، ونذهب إلى السينما ، دون أن نخشى أحداً ، أو نلتفت

لكلام الناس .

فقال الأم ، وهي تنو إلى السماء وقد تخشيت عيناها بالدموع :
— اللهم بارك ثملهما .

وامتلا مسيد غبطة ورضا ، صارت روحية له من دون الناس ، قهر ما قام
في وجهه من مصائب ، ونفذ ما اشتهى ، إنه قادر على إسعاد نفسه ، وأن يصنع
مستقبله بيده .

١٥٥

غص مكتب الأستاذ زكريا بأصحاب الحاجات من النخبين ، فقد كانوا
يستقدون أنهم قد اشتروه يوم أدلوا له بأصواتهم ، بل كان بينهم بعض من كانوا
يؤازرون خصمه ، كان هؤلاء وهؤلاء بالأمس متخاصمين ، وإذا بهم بعد
الانتخابات يتحدون على مضايقته ، يقتحمون عليه مكتبه وبيته وخلوته ، يسألونه
أن يتوسط لهم في أشياء ما كانت تدور بخلفه يوم رشح نفسه ليكون نائبا عنهم ،
يعمل لمصلحة الجميع .

كان يحسب أنهم سيتركونه المسائل العامة ، يعبر عن رغباتهم ، لا يهدف
إلا إلى مصلحة الأمة ، فإذا بهم لا يعرفون عن النائب إلا أنه ملجى رغبات ناخبيه
في أضيق الحدود .

وأقبل ثلاثة من الصعايدة ، شداد ضخام ، يضربون الأرض بأقدامهم
في غلظة ، واندفعوا صوب باب غرفة الأستاذ ، فهب الكاتب يعترضهم ، ويسألهم
عما يريدون ، فسكبر ذلك عليهم ، فعبسوا في وجهه ، وصاحوا به في غضب :
— فسح الطريق .

ولما وجدوه مازال واقفا في وجوههم ، نحوه بأيديهم ، ودفعوا به بعيدا ،
وفتحوا الباب ، ودخلوا على الأستاذ مقطعي الجبين ، فقام لهم همسا ، يستقبلهم
بالترحيب ، فصاحفوه وهم عابسون ، ثم قال أحدهم ، وهم يجلسون :

— كيف ينقل حميدة وأنت في البرلمان ؟

فقال الأستاذ في هدوء :

— لا . هذا لا يجوز .

فقال أستاذهم وهو يهز يده في وجه الأستاذ :

— نقلوه لأنهم يضارون منه ، نقلوه لأنهم يكرهونه ، والله لو عرفت من نقله !

فقال الأستاذ متحكما :

— نقلوه إلى أين ؟

— إلى بنها ، إلى مدرسة بنها .

— وأين كان قبل أن ينقلوه ؟

— كان ساعيا في وزارة المعارف ، ثم نقلوه إلى مدرسة بنها ، آه لو أعرف

من نقله !

— سأكلم الموظف المختص ليعيده .

فهبوا من مقاعدهم صائحين :

— لا . . لن تكلم أحدا في هذا الأمر إلا الوزير .

فقال ليتفرغ لقضايه :

— سأكلم الوزير .

وخرجوا ، يدقون الأرض بأقدامهم ، وما عي إلا لحظات حتى أقبل رجل

في ثياب بلدية ، سلم ثم جلس ، وراح يقول وهو يعط الألفاظ ، ويهز رأسه وهو يتحدث :

— آه ، يريدون أن يخربوا بيتي ، أن يخسفوا بي الأرض ، آه . تشاجرت

مع امرأتى ، خرجت إلى بيت أهلها غاضبة ، فذهبت إليها أطلب عودتها ، فإذا

بأهلها يطلبون منى أن أطلقها . أطلقها ؟ لماذا ؟ ليخربوا بيتي ؟ ليخرجرونى

للمحاكم ، ليرموا بى فى السجن ؟ . آه ، لن أطلقها أبدا ، أريد امرأتى .

فقال له الأستاذ ، وهو يكتم غيظة ، ويحاول أن يمدى البشاشة والترحيب :

— وماذا تريد منى أن أفعل ؟

— آه ، أن تذهب إلى أهل امرأتى ، تقنعهم بإعادتها إلى البيت ، فليس

للرأة إلا بيت زوجها ، آه . على رأى المثل . . .

فقال الأستاذ له ، قبل أن يضرب أمثاله ، وبضيع الليلة التى يريد الأستاذ

أن يتم فيها أعماله ، قبل سفره إلى القاهرة ، لحضور جلسة البرلمان :

... سأفعل ، وسأذهب للتوفيق بينك وبينها .

فأشرق وجه الرجل ، وقام مصافحا ، وانصرف وشر يعصعع من أعماقه :
— فكندا النواب وإلا فلا .

وظل أصحاب المطالب في دخول وخروج ، فلما يريد أن يلحق بعمل في الحكومة ،
ولا يملك المؤهلات التي تؤهله للعمل ، وذلك يريد أن يرفع قضية دون أن يدفع
الصاريف ، وثالث يلتصق منه أن يخاطب وزير الأوقاف ، ليرتب له مماشا شهريا ،
ورابع يطلب في إلحاح أن يعفى ابنه من التجنيد ، وخامس وسادس وسابع حتى
انقضى الليل ولم ينتج عملا ، فنهض بعد حقيقته ، ويرتب فيها مطالب الناس ،
ليدور في الصباح على المصالح والوزارات ، قبل أن يذهب إلى البرلمان .

وانقضى النهار وهو يرجو هذا وذلك ليلبوا طلبات ناخبيه ، ثم انطلق
إلى البرلمان ، يرقب إجابة وزارة الأشغال عن سؤاله ، الذي يستفسر فيه عما تنوي
الوزارة عمله بشأن الشارع الجديد .

وتليت الاعتذارات ، وبدىء في الإجابة عن الأسئلة ، فلما قام بمثل وزارة
الأشغال رد على سؤاله ، أرفف سمعه ، فإذا بالرجل يقول :

— أدرجت الوزارة المبالغ اللازمة لشق هذا الشارع في ميزانية هذا العام ،
والوزارة متفيدة بهذا المشروع ، وتأمل أن تبدأ في تنفيذه قبل نهاية هذا العام
فالتفت الأستاذ زكريا إلى جواره وقال :

— نرجو أن تصدق الوزارة مرة في وعدها .

فقال زميله في بساطة :

— مجرد وعود .

١٥٦

تمدد على فراشه وانها ، وقد ضاق ببقائه ، فهو يحن إلى الخروج إلى
المقهى ، يمضى النهار مع أصحابه في حديث ومسامرة ، ولكن ابنة الدكتور
أمره بعد أن شخص عنه ، أن يازم سريرته وألا يغادره .

عافت نفسه الدنيا بعد موت زوجته صفية ، وانزوى في بيت الأحزان يرتجف
من غده ، كان يحسب وأنها أن صفية تركت له عبء الأولاد ، ليحملة وحده ،
وما كان في حقيقة الأمر يحمل شيئاً ، فليبيب تزوج وأنجب أولاداً ، وزكريا صار
نائباً في البرلمان وأسس بيتاً ، وخالد أصبح قائداً لمحطة الدخيلة الجوية ، يعيش
مع درية في صفاء ، وسعيد خطاب روحية ، وقد تخرجت ، وسمين في الإسكندرية ،
وإن من إلا أيام حتى يحملها سعيد إلى بيت الزوجية ، وخالد ويحي هناك في
القاهرة ، يهنيان بشؤونهما ، ولسكنه ما كان يعترف بهذه الحقيقة ، بل كان
يضطرب ، كما فكر في أبنائه ، وواجبه في بذل العظماء لهم ورعايتهم .

وضاقت دنياه ، حتى أصبحت محل الحاج كرم والمقهى ، صار كل همه أن يذهب
في الصباح إلى محل الحاج كرم ، يجلس على كرسيه ، ينعم بدفء الشمس في الشتاء ،
ويستريح نسائم الصباح في الصيف ، وأن يذهب عند الأصيل إلى المقهى ، فإذا
جن الليل ، عاد إلى الدار ، يندس في فراشه ، ويشط في نومه غطيظاً .

واشتدت دنياه ضيقاً ، فصارت سريرته لا يغادره ، وإذا امتدت آماله ،
فلن تتجاوز النافذة يطل منها على الحارة ، والخربة ، والعالية ، ومقهى الصعايدة ،
ومثدنة الجامع ، والأولاد يقدون ويروحون في أممهم ، والد كريات التي تطفو
على سطح ذهنه ، فيشرد لها بعصره ، ثم يمحص شفقيه حسرة عليها .

ودخل عليه سعيد وهو يبش له ثم قال :

— كيف أنت اليوم ؟

— الحمد لله .

وفتح سعيد صندوقاً معه ، وأخرج منه حزاماً أسود ، لمه حول ذراع أبيه ،
وجعل يضغط على كرة من المطاط بيده ، ثم يبسطها ثم يعود ويضغطها ،

وهو ينظر في جهاز الصندوق ، وتغير وجه سعيد ، وراح يفتك الحزام من حول يده
أبيه وهو صامت ، وأغلق الصندوق ، ومال على أبيه وقال :

— ماذا أكلت اليوم ؟

فقال على في أسي :

— لم تعد عندي شهية للأكل .

فقال له سعيد في قلق :

— قل لي : ماذا أكلت ؟

— رطل ونصف كباب .

فقال سعيد في ذعر :

— رطل ونصف كباب ؟ !

فقال على في هدوء :

— ألم أقل لك يا بني لم تعد عندي شهية للأكل .

فقال سعيد في حدة :

— لا . هذا كثير . يجب أن تمتنع عن أكل اللحم المشوي .

— أهذا يعتبر أكلا ، أين هذا مما كنت آكله ؟

— يجب ألا تأكل إلا ما أثير عليك به .

— أنحجر على ؟

— يجب أن تطيع أوامري .

فقال على في ذعر وقد اتسعت عيناه :

— أنا أطيع أوامرك أنت ؟

— انس أنتي ابنك ، واذكر أنتي طبيبك الذي يعالجك .

فقال على في ضيق :

— إنني أدري الناس بمصلحتي ، إنني أعرف ما ينفعني وما يضرني أكثر من

الطبيب ، إنني أشعر بنحسني بعد أن آكل الكباب .

واستمر سعيد يجادله ، يحاول أن يقنعه دون جدوى ، فلن يوافق أبدا على

هجر اللحم المشوي ، ولن يقبل أن تقل السمية عن رطل ونصف .

١٤٧

كان سعيد وروحية يجتمعان في عش الزوجية كعشيقين ، فهي تخرج في الصباح الباكر إلى مدرستها ، وينطلق هو إلى المستشفى ، فإذا ما جاء أوان الغداء هرعاً إلى الدار مسرعين ، يتناولان طعامهما على عجل ، ويتناولان قهلات الحبين ، ثم ينصرفان إلى عملهما ، حتى إذا ما انحدرت الشمس للغييب ، آبا إلى العش السعيد ، فيدخل الدكتور إلى غرفة استنكاره ، يمضي الساعات بين كتبه ، وتبقى هي هادئة ، لا تقطع عليه خاوته ، تمضي الوقت في تدقيق عشمها ، أو في مراجعة كراسات التلاميذ ، أو في قراءة كتاب ، فإذا ما سمعت وقع أقدامه رنت إليه واطمة ، فينظر في عينيها الناعستين السوداوين ، ثم يضمها إليه في رجف ، ويهمس في حنان :

— أسيده أنت يا روحية ؟

فتهمس وهي تلمح برأسها على صدره :

— سعيدة ما دمت إلى جوارى .

ويبينان عن الوجود في عالم من السحر والهيام .

وجاءت الليلة التي يعضها في المستشفى ، فراح يرتدى ثيابه ، وهي تعاونه في ارتدائها . وسار صوب الباب ، وهي تسير خلفه ، وقبل أن يذهب ، جذبها إليه ، وضمها إلى صدره ، وقال لها :

— أريد أن أتزود لهذه الليلة .

وراح يحطرها قبالاته ، ثم قال لها وهو ينصرف :

— أراك بخير يا حبيبتي في الصباح .

وانطلق إلى المستشفى ، وقد لب الظلام الكون بردائه الأسود ، ودلف إلى حجرته ، وارتدى معطفه الأبيض ، وراح يهر على المرضى ، ثم عاد إلى غرفته وتناول كتاباً راح يقرأ فيه .

ومر الوقت ، وانقضى الهزيع الأول من الليل ، وإذا بمرضة تأتي إليه وتقول :

... هناك طالب يأن ويتأري من الألم .

فتمام منها ينفذ السير في محار المستشفى ، ودخل حيث يرقد الطالب ، فألفاد يتأوه والرقى يتفصد منه ، فراح يعض عنه ، وضغط على سبائه الأيمن ، فضج بالصراخ ، فأربد وجهه سعيد ، كان الفقى يتأوى من الزائدة السوداء ، إنها ملتهبة فإذا تركه حتى الصباح ، فقد تنفجر وتفضى عليه .

وشرد ببصره يفكر ، أيتركه حتى الصباح ، ثم يبلغ إدارة المستشفى لتجرى له العملية ، كما تفضى بذلك الأوامر ، أم يعمل على إنقاذ الفقى ولو كان في ذلك مخالفة ؟ ووقف مترددا ، وإذا بصورة روحية تتأهل أمام نظره ، رهى تبسم له . من يدري قد تبكون له أم تحبه ، تبذل روحها فداء له ، وقد تكون له خطيبة كروحية تنتظره ، فليه أن ينفذه للأخبة . والنفت إلى الممرضة في عزم وقال لها :

... جهزوا غرفة العمليات .

فتطلعت الفتاة إليه في دهش ، وقد تسمرت في مكانها ، فصاح بها :

— قلت جهزوا غرفة العمليات .

وراحت الفتاة تهزول ، تنهى زميلاتها ، وما هو إلا بعض ساعة حتى كان الفقى مجددا على عربة ، يدفعها رجل يرتدى البياض ، إلى غرفة العمليات . ودخل إلى الغرفة ثابت الخطو ، وغسل يديه بالمطهر ، ثم مدها إلى فتاة ، راحت تلبسه القفاز ، وتلمم باللثام الأبيض ، وتقدم إلى حيث وضع الفقى ، وقد سلطت عليه الأضواء .

وبسط يده ، فوضعت فتاة فيها الشرط ، وراح يجري العملية ، وقلوب الفتيات تدق رهبة ، كن جميعا يخشين أن يموت الفقى ، فتسكون الطامة ، ولن يشفع لمن محاولة الطبيب إنقاذ حياة .

وراح الوقت يمر بطيئا بطيئا ، وقد أزهفت الحواس ، وقوتت المشاعر ، ودوت القلوب بين ثنايا الضلوع ، وتعلقت العيون بالثانة التي كانت في انتفاخ وانقباض كلما زفر أو استنشق الهواء ، كانوا يرتجفون رهبة أن تسكف المثانة عن النبض ، وتسكون المأساة .

ونمت العملية ، فرفع اللثام عن وجهه ، وخلع القفاز ، وراح يغسل يديه

ويغير ثيابه ، ودفع الرجل العربية إلى غرفة الشاب ، فتنفست الفتيات الصعداء ،
ولسكن لم يفرخ روعهن ، ولم تسكن الطمأنينة صدورهن .

وعاد سعيد إلى غرفته ، وتناول الكتاب ، وراح يستأنف قراءته ، هادئ
النفس مطمئناً ، وتصرم الليل ووفد النهار ، فتأهب للعودة إلى الدار ، وإذا
برجل يأتى إليه ، ويقول له :
— المدير يريد أن يراك .

فذهب إلى حيث كان مدير المستشفى ، ودخل عليه ، وألقى تحية الصباح في
هدوء ، ولكنه حزر أن المدير عابس ، فوقف صامتا ، وإذا بالمدير يقول له :
— لماذا أجريت بالأمس عملية بالليل دون أمر من المستشفى ؟
فقال سعيد في هدوء :

— كانت حالة المريض خطيرة ، كان من المحتمل أن يموت قبل أن يصدر الأمر .
— ألا تعلم أنك ارتكبت مخالفة ؟
— أعلم . ولكن حياة المريض أهم من كل شيء .
— آسف يا دكتور سعيد . إنى مضطر إلى أن أشكل لك مجلس تحقيق .
وانصرف سعيد وهو متقبض الصدر ، واتجه إلى البيت ، فألقى روحية قد ذهبت
إلى المدرسة ، فخلع ملابسه ، وذهب إلى الفراش يستريح ، فراح في سبات ،
واستيقظ على قبلائها ، فنهض وقال لها :
— ستشكل لى لجنة تحقيق .

فقات وقد اتسمت عيناه ولاس فيها الاضطراب ، وإن حاولت أن تتكلف الهدوء :
— لماذا ؟

— لأننى أنقذت شابا ، لأننى أجريت له عملية دون إذن من المستشفى .
كانت المستشفى تفضل أن يموت ، على أن أنقذه دون إذنها .

فقات له وهى تحوطه بذراعيها :

— أنت آسف على ما فعلت ؟

— أبدا ، ولو أتيحت لى فرصة أخرى كهذه لأنقذ حياة ، فلن أضيعها

فقات له وهى تبتسم :

— فلا تهتم بما سيكون منها جاءت النتائج .

فضمها إليه وقال :

— لن أهتم بشيء ما دمت معى .

١٥٨

صار جلال وكيلا للنيابة بفضل جهود الأستاذ زكريا ، فاستشعر رضا ، وأرضى ذلك زهوه ، فالتهمون تتعلق عيونهم به ، يصغون إليه دون أن تفوتهم من حديثه شاردة ، وإذا خاطبوه وجهوا إليه عبارات الملق والتبجيل ، أصبح محط أنظار من يقابلونه ، فتحققت بذلك أمانيه التي كانت تداعبه منذ كان طفلا صغيرا .

وأحب عمله ، فأكب عليه يبذل فيه كل جهوده ، كان يمضى سحابة النهار يستجوب المتهمين ، ويمضى جزءا من الليل في جمع خيوط القضية التي يحقق فيها ، وما كان يتبرم بعمله مهما تحمل في سبيله من متاعب ، كان يكفيه شعوره أنه أصبح شيئا هاما ، يجذب العيون .

وأُسندت إليه قضية قتل غامضة ، كان المتهم فيها رجلا أرخى لحيته ، ولا هم له إلا أن يتمم بعض آيات القرآن في هدوء عجيب ، ويصلى على النبي في صوت مسموع ، ويحاول أن يكسو وجهه التقى والورع ، ولكن عينيه كانتا تصيحان أنه مجرم كبير .

راح جلال يستجوبه ، فإذا بالرجل ينكر كل شيء ، ويصر على الإنكار ، ويظهر دهشه من أن توجه مثل هذه التهمة إلى رجل ورع مثله ، وأخذ جلال يضيق عليه بأسئلته ، ولكن الرجل لم يفقد أعصابه ، ولم ينبس بكلمة تفيد التحقيق .

وسافر جلال إلى أماكن مهجورة في الدلتا ، ليجمع خيوط الجريمة ، ويصغى إلى الشهود ، كان البرد قارسا ، والمطر يهطل مدرارا ، وهو على ظهر حمار يجوب الفضاء ، يبحث عن بصيص من النور ، ينير له ظلام القضية الدامس ، ونال من نفسه التعب ، فأحس حقا على ذلك الرجل الذي أغلق فمه ، وجشمه المصاعب ، فجعل يجمع ضده القرائن وهو يشعر بسعادة ، كلما أغلق في وجهه ثغرة قد ينفذ منها .

وعاد إلى حيث كان الرجل ، وفي جمبته قرآن تكفي لإدائه ، واستدعاء من سجنه ، وهو يطمع أن يواجهه بما جمع ، فلا يملك إلا أن يسترف ، كان كل أمل أن يتوج جهوده باعتراف الرجل .

وأقبل الرجل يتسم بأيات القرآن ، ووقف هادئاً ، وراح جلال يسرد على سامعه ما وصل إليه ، ويمطره بأسئلته ، ويضيق عليه الخناق ، والرجل هادئ ، منكر للوقائع ، مخم في النكران ، يصلي على النبي ، كأنما الأمر لا يعنيه . وكأنما حبل المشنقة لا يترجع أمام عينيه .

وضاق جلال به ذرعا ، ولاح في وجهه الضيق ، وفطن الضابط إلى ما اعتراه ، فالتفت إليه وقال :

— دعه لي ، إنني أعرف كيف انتزع منه الاعتراف .

واقب الرجل إلى السجن ، وما هي إلا لحظات حتى شق أنينه السكون الخيم على المكان ، وارتفع صراخه ، فانتفض جلال ، واستشير وخزا ينخر روحه ، وكاد يصيح بالضابط أن يكف عن تعذيب الرجل ، ولكنه كان ينال شفقتة ، كان ينبغي أن يتوج مجهوده بالاعتراف .

وصرت لحظات قاسية بغيضة ، وهو يذرع المكان قلقا ، وقد تقلصت عضلات وجهه ، وارتسم فيه الأسى العميق ، وتحركت إنسانيته ، ولكن كان عليه أن يقهر ضعفه ، وأن يعيت ضميره ، إذا أراد أن يكمل تحقيقه بأقصى ما يطمع فيه محقق من نجاح .

وجيء بالرجل وهو ذليل ، يتلوى من الألم ، ويئن أنين كلب جريح ، وبدأ جلال يضيق عليه بأسئلته ، ولكنه استمر في إنكاره ، ولم ينبس بكلمة تدينه ، أو تفيد التحقيق ، فضاق جلال به ذرعا ، وأمر بإعادته إلى سجنه ، وهو يتوعد باستئناف التعذيب .

وانصرف جلال وهو يفكر في ذلك الرجل العجيب ، إن جميع القرآن تدينه ، ومع ذلك لا يريد أن يعترف ويرى ، وراح يقلب الرأي فيما يفعله ، لينتزع منه الاعتراف .

وانقضى الليل وهو يجري وراء أفكاره ، لا ينام إلا غرارا ، وأقبل النهار

فذهب إلى مكتبه ، وما استقر فيه حتى طلب محام مقابله ، فأذن له ، فدخل عليه رجل وقور ، وخط الشيب رأسه ، ولاح في وجهه كأنما عرك الحياة وعركته ، فأشار جلال إلى كرسي بجواره ، وقال للرجل :
— تفضل .

وجلس الرجل في وقار ، ولما رأى جلالا يرمقه ، ينتظر أن يبدأ الحديث فيما جاء من أجله اعتدل وقال :

— جئت أحدثك في أمر ذلك الرجل الذي تحقق قضيته ، إنني لست موكلا عنه ، ولكنني رأيت أن أزعج إليك نصيحة ، وأرجو أن تقبلها من رجل حنكته التجارب ، لا ينبغي إلا مصلحتك ، إنني أجد من الأمانة أن نسدي لسك النصيح ، لنجنبكم المتاعب التي قاسيناها ، فمن حقم أن تستفيدوا من تجاربنا ، فتختصروا الطريق ، وتتأهبوا لتجارب جديدة ، يستفيد منها الجيل الصاعد بكم .
بلغني أنك التجأت إلى العنف لتنتزع من ذلك الرجل اعترافا ، يؤيد الحقائق الدامنة التي وصلت إليها ، وهب الرجل اعترف تحت ضغط الإرهاب ، ووضع في عنقه حبل المشنقة ، فماذا يعود عليك ؟ أو يرضى ضميرك عن مثل ذلك الاعتراف ؟

لماذا لا تترك المتهم والحقائق التي وصلت إليها إلى هيئة المستشارين ، وأنت مرتاح الضمير ؟ اعتراف المتهم ليس الدليل القاطع في القضية ، فلماذا تغتصبه من المتهم عنوة . إنني أقول ذلك لمصلحتك ، فما زلت في أول الطريق ، والطريق شاقة طويلة ، فلا تحاول يا بني أن تصل إلى ما تصبو إليه بالضغط والإرهاب ، فالنائب العام لن يرسل لك كتاب شكر إذا ما التفت حبل المشنقة حول عنق المتهم . أد واجبك ، ودع الآخرين يؤدون واجباتهم ، فتريح وتستريح .

وهب المحامي الوقور واقفا ، وهو يقول :

— أرجو يا بني ألا تضيق بما قلته لك ، فوالله ما أردت إلا أن أنير أمامك الطريق

فقال جلال في صدق :

— أشكر لك نصيحتك .

وانصرف الرجل ، وشرد جلال يفكر ، فتعاصرت إليه نفسه ، وأحسن تضاؤلا لأول مرة في حياته ، فهب ضميره يؤنبه على ما فعل .

١٥٩

عاد الدكتور سعيد إلى الدار مطوقا ، يحس الأسى ينهش فؤاده ، والضيق
يرعى في صدره ، كان الحزن يستبد به ، حتى إنه لم يقر على أن يتسم لروحية ،
فرنت إليه قلقة ، ودنت منه تسأله في رقة :

— ما بالك متجههم الوجه ؟ ماذا جرى ؟

— قرر مجلس التحقيق خصم خمسة عشر يوما من مرتبي عقابا لى .

فقالت توأسيه ، على الرغم من انقباضها :

— لا تحزن ! فليقرر المجلس ما يشاء .

فقال منفجرا :

— يحزننى أن يديننى المجلس ، لأننى أنقذت حياة ، ماذا جنيت حق أستحق
هذا العقاب ؟ لم أستأذن المستشفى قبل إحراء العملية ؟ وهل كنت أعلم أننى
سأضطر إلى إجرائها ، أكانوا يفضلون أن أتركه يموت على أن أخرق أوامر
ما أنزل الله بها من سلطان . ماذا كانوا ياترى يفعلون بى لو أن الشاب قد مات ؟

استحققت هذا العقاب لأننى أنقذت حياة من برائن الموت ، أما الآخرون
الذين يأتون بأقاربهم وأصدقائهم وعملائهم ويملئون بهم المستشفى ، فلا جناح
عليهم ، أما هؤلاء الذين يسلبون حقوق الفقراء لينجحوها معارفهم ، فلا يسألون
شيئا ، فهم يعرفون كيف يرضون الأوامر والتعليمات .

ضقت بهذا المستشفى ذرعا ، لا أدرى كيف يسير ، فتيات رقيقات ، كل
مؤهلاتهن التأود والتمحك بالرؤساء ، يتقدمن زميلاتهنعاملات المجندات ،
وزملاء لاهم لهم إلا تلبية إشارات الإدارة ، نجدهم فى الصدارة . إننى لا أطيق
هذه الحياة .

فقالت له وهى تمرر يدها على رأسه :

— هون عليك .

— لا ياروحية ، هذه حياة لا تطاق . لن أعود إلى هذا المستشفى أبدا .

فقلت له ، وهى تضمه إلى صدرها كطفل مدلل :
— افعل ما تراه .

فقال فى حماسة :

— لست خاملا ، أستطيع أن أعمل ، وأن أجاهد ، وأن أصنع مستقبلى
بيدى ، سأقدم استقالتي الآن .
ونهض ثأرا ، وذهب يكتب استقالته ، فألفاها واقفة صامتة ، لا تبسدى
حراكا ، فقال لها فى دهش :

— ألا تثقين فى ١٩

— أثق فىك كل ثقة ، إنك كفء لأى عمل .

— سأستقيل ، وسأفتح عيادة ، وسأكافح فى الحياة .

فقلت له مشجعة :

— خير لك أن تعمل لنفسك ، وأن تبني مستقبلك بيديك .

وراح يكتب استقالته ، فتركته وذهبت إلى غرفة أخرى ، ثم عادت ووضعت
أمامه جنبيات قليلة ، وقالت :

— خذ هذه حتى تتم تأييد العيادة .

فتبخرت مشاعر الحنق ، وبرأ صدره من غضبه ، وإذا به يحس أنامل رقيقة
تعبث بأوتار قلبه ، فرنا إليها فى إكبار ، وظل صامتا برهة ، ثم قال وهو يعيد
إليها نقودها :

— أشكر لك شعورك .

فقلت له فى رجاء :

— خذها . سنكافح معا أنا وأنت . مرتبى لك حتى تنتهى من تأييد العيادة .

— أرجو أن ترسل هذه النقود إلى حيث كنت ترسلينها فى كل شهر ، أهلك

أحق منى بشمرة جهودك ، إننى شاكر .

وضعها إلى صدره فأحس كأنما يضم الدنيا إليه .

١٩١٠

بمشت الحكومة المصرية إلى وزارة الخارجية البريطانية مذكرة تطلب فيها الدخول في مفاوضات بين مصر وإنجلترا لإعادة النظر في معاهدة ١٩٣٦ ، بعد إعلان الحريات الأربع ، وميثاق الأمم المتحدة ، ولكن إنجلترا تمسكت بأسس المعاهدة ، فعم السخط البلاد ، بعد أن اتضح أن الوعود التي قطعها الساسة البريطانيون في أثناء الحرب ، إن هي إلا سراب ، فقامت الجامعة بمظاهرة عظيمة لإعلان السخط على هذه السياسة الجائرة التي تنتهجها بريطانيا ، بعد أن ضحت مصر في سبيل نصرتها ما ضحت ، من غلاء اكتوت به ، ومعاونات بذلتها عن طيب خاطر ، لتبرهن على حسن نيتها على أمل أن تنال بعد الحرب الجزاء ، وإذا بالجزء جحود ونكران واحتلال !

واضطدم الطلبة بقوات البوليس ، وتفرقت المظاهرة ، ولكن الشرارة أضرمت النار في البلاد ، فهبت المظاهرات ، وقام البوليس في وجهها يقاومها بالرصاص ، فسقط بعض القتلى ، فثار الناس على الوزارة ، واضطرت إلى تقديم استقالتها .

وتألفت وزارة إسماعيل صدقي ، واجتمع البرلمان وكانت أغلبيته للسعديين ، فحضر الأستاذ زكريا ذلك الاجتماع فيجمن حضر ، وكان من رأيه ألا يؤيد البرلمان الوزارة الجديدة ، ولكن أوامر الحزب صدرت بالتأييد ، ونالت وزارة صدقي الأغلبية البرلمانية ، ولو كان رئيس الوزارة المصرية مستر تشرشل ، ما خذله البرلمان ، فالنواب على استعداد أن يؤيدوا أي رئيس يعدهم ببقائهم تحت القبة الفخمة ، التي لم تشهد مرة واحدة في حياتها الطويلة ، ثورة النواب في وجه وزارة ، وسحب الثقة منها ، واضطرارها إلى الاستقالة ، وما أكثر ما شهدت رؤساء الوزارات يلقون في وجوه النواب أوامر حل البرلمان !

وانتظمت المظاهرات تطالب بالجلء ، فغضت الوزارة الطرف عنها ، وراحت تحمي ممتلكات الأجانب ، وتترك المظاهرات تمر بسلام .

وراحت المظاهرات تجوب شوارع القاهرة ، تطالب بالجلاء ، ووصلت
مظاهرة إلى ميدان الإسماعيلية ، وإذا بسيارات بريطانية مسلحة ، تندفع صوب
المتظاهرين ، وتحصد الأرواح ، وتفرق العزل بالحديد والنار ، ولسكن كان
الحقد يرعى في صدورهم .

وحدد ٤ مارس من عام ١٩٤٦ ليكون يوم حداد وطنى عام ، على الشهداء
الذين سقطوا صرعى المدوان البريطانى ، وفي ذلك اليوم أغلقت المتاجر والدارس
ودور اللهو ، وخلت الطرق من الناس .

وصارت في الإسكندرية مظاهرة سامية تضم الطلبة والعمال ، وتدقت المظاهرة
حتى إذا ما بلغت فندق « أطلانطيك » رأت العلم البريطانى يرفرف فوقه ، فنار
المتظاهرون ، ساءهم ذلك التحدى السافر لشعورهم في هذا اليوم ، فأنزلوا العلم
ومزقوه ، وانطلقوا حتى إذا ما وصلوا إلى شارع سعد زغلول ، ألفوا البوليس
الحربى البريطانى قد وضع « كشكا » في الميدان ، وعلق عليه لافتات باللفسة
الإنجليزية ، فنزعها المتظاهرون ، وإذا بالرصاص يدمدم ، وإذا بصرخات الجرحى
تشق الفضاء ، وإذا بالشباب يسقطون صرعى ، وإذا بدماء القتلى تجرى في
الطرق ، تصرخ أن قد صار بيننا وبين الإنجليز دم .

وران الحزن على المدينة ، وخيم الظلام ، وانقضى يوم الحداد ، وقد تخضب
بالدم ، ودخل في تاريخ الكفاح الطويل بيننا وبين المعتصمين ، صار ذلك اليوم
« يوم الشهداء » .

١٦١

عاد الدكتور من عيادته ، فألقى روحية ترقب عودته ، فلما لحته هرعت
إليه تداعبه ، وترنو إليه بعينها السوداء والناعستين ، اللتين يخيل إليه أنهما
ما خلقتا إلا لتناجياه وحده .

كانت روحية كما عهدتها ، رقيقة رقة الأطياف ، حساسة شديدة الحساسية ،
فلم تتبدل بعد الزواج ، بل كانت تزداد على مر الأيام رقة وحساسية . ومد بصره
إلى وجهها ، فوجده شاحبا ، فدنا منها وقال :

- أرجو أن تهتني بصحنك إكراما لي .
فقلت له وقد رقت على شفقتي ابتسامة عذبة :
— أجهدي الحبل .
— صبرا ، إن هي إلا أيام وزاه .
فقلت وهي تنظر إليه في دلال :
— أو زاهها .
— سيان عندي أن أراه أو أراها ، كل ما أتمنى أن أراك أنت إلى جوارى
دائما .
وشرد بصراها ، ولذا بالصمت برهة ، ثم قالت روحية :
— سعيد ، أصبحت في حاجة إلى من يرعاني ، ولا أريد أن أثقل عليك ،
فأرجو أن تأذن لي بالسفر إلى أمي لأضع عندها .
فقال لها وهو يضمها إليه :
— عزيز على أن تغيب عني .
— لا أريد أن أزيد مشاغلك ، ولن أغيب طويلا عنك ، سأضع هناك ،
ثم آتي إليك ، سأذهب واحدة ، وأعود اثنين .
خفق قلبه في صدره ، واستشعر الحنان يغمره ، وقال :
— غدا أذهب معك إلى المحطة . كنت أحب أن أرافق معك ثم أعود .
فقلت له وهي تبتسم :
— لا أحب أن أترعك من مرضاك ، هم أحوج مني إليك .
فقال لها وقد اتسعت عيناه في عتاب :
— حقا ؟
فقلت له مشرقة النفس :
— هذا كلام العقل ، ولو طوعت أنانيتي ما تركتك لأحد لحظة .
وراحا يتسامران ، كان الحديث يدور حول الوليد المنتظر ، قال سعيد :
— لن أكون مع أبنائي مثل لبيب مع أبنائه ، إنني لا أدري ماذا دهاه ،
كان شديدا معنا ، إذا جاء لزيارتنا ورآنا نلعب في الحارة زجرنا ، ثم ضربنا

بقدمه كأنما يضرب كرة ، كنا نرتجف منه ونخشاه ، فلما تزوج وأنجب أولادا ، لم يضرب أحدا منهم مهما ارتكب من أخطاء ، وكل ما يفعله إذا ما تضايق من أحدهم أن يقول له مهددا : « سأقول لملك عمك فعلته ليؤدبك » ، فإذا ما ذهبت لزيارتهم ، أنبأني بما فعل ، فأزجره ، وقد أقسو عليه ، وأنا أرقب لبيا الذي يحاول أن يثد شفتيه ورناءه .

فقالت روحية في صوت رقيق :

— ما أرق قلوب الآباء !

— ليس كل الآباء ، فإن أدلل أبنائي أبدا ، لن أفسدهم بيدي .

— سنرى .

وأصبح الصباح ، فانطلق سعيد وروحية إلى المحطة ، ووقفا يتناجيان ، ثم ركبت القطار ، لتذهب إلى أمها لتضع عندها ، فقال لها :

— اعتنى بنفسك يا روحية ، وإلى اللقاء .

وتحرك القطار ، وهو يمد بصره إليها خافق القلب ، وقد نبت في جوفه بعض القلق ، كانت هذه أول مرة تفارقه فيها بعد أن تزوجا ، فأحس لوعة وما كاد القطار يخفى عن نظريه .

١٩٢

وقفت سيارة السلاح الجوي أمام « الفيلا » الأنيقة التي يقطنها خالد ، على ساحل البحر ، وهبط خالد ، وأتجه إلى السيارة ، وسارت به أمتارا ، ثم خرجت إلى اليمن ، وانسابت في محطة الدخيلة الجوية ، وإذا بالجنود يقفون يؤدون للقائد التحية ، وعرجت السيارة إلى اليسار ، ثم وقفت أمام مبنى الرئاسة ، فهبط منها خالد ، وراح يرقى في الدرج ، حتى بلغ مكتبه الفسيح ، الذي يطل على المطار ، وعلى البحر ، وما إن جلس إلى كرسيه ، حتى دخل عليه أركان حربه يحيه ، ويسرد على مسامعه ما جد من أنباء المحطة ، قال له فيما قال :

— انتدب معالي وزير الحربية سعادتك لتتوب عنه في تشييع جنازة الجندي الذي مات من المحطة .

— متى تخرج الجنازة ؟

— في الساعة العاشرة .

وراح خاله يصرف أمور عمله ، فلما وافى الميعاد ، انطلق إلى الجنازة مندوباً عن وزير الحربية . وقفت السيارة أمام بيت متواضع ، وأسرع السائق بفتح الباب ، وسرى همس بين أهل الميت .

— مندوب وزير الحربية .

كان زملاء الفقيد قد أخبروهم ، أن الوزير سيبحث إليهم مندوباً ، فحفظوا إليه يستقبلونه ، وراحوا يصاحفونه ، ولمح خاله بين أهل الميت رجلاً متهدماً ، برز شعره الأبيض من تحت طربوشه ، وامتدت « الكرافة » على صدره كجبل أسود ، وذهبت الشمس بلون سترته ، وخط البؤس في وجهه خطوطاً ، عرفه خاله لما وقعت عيناه عليه ، إنه مدرسه الذي ضربه يوماً بالعضا على أذنيه دون سبب ، فترك به عاهة ، كان يقسم كلما نظر إلى إصبعه أنه سيضرب ذلك المدرس إذا ما رآه يوماً ، بل كان يؤكد أنه سيكتم أنفاسه ، وإذا به يراه اليوم فلا يثور ، ولا يفض ، ولا يحس نحوه حقداً ، بل يشمر نحوه بعطف وثناء .

وعرفه الرجل ، فدنا منه يحياه ، ويبالغ في تحيته ، ويقول له :

— نشكر لك يا معادة البك عطفك .

وجلس خاله وجلس الرجل إلى جواره يسأله :

— كيف حال الأولاد ؟ أظن أنجبت أولاداً .

— بخير . الحمد لله !

— إنني على استعداد أن أؤدي خدمة ، إذا رأيت أن تعطيهم دروساً خاصة

فأنا في الخدمة .

ونظر خاله إلى الرجل في إشفاق ، وقال له :

— إن شاء الله .

وسارت الجنازة ، فسار خاله والرجل إلى جواره لا يفارقة ، وراودت خاله فكرة أن يضع في يد الرجل بعض النقود ، وهو يصاحفه عقب الجنازة ، وهم بإنفاذها ، ولكنه خجل ، وخاف أن يكون في ذلك خدش لكرامته ، فانطلق

وهو صامت ، وإن كان يفكر في ذلك الرجل البائس ، الذي أقسم يوما أن يضربه ، وأن يكتم أنفاسه .

وبلغت الجنازة غايتها ، فحمل النعش إلى المسجد ، وراح المشيعون يعززون أهل النعش ، وتقدم خالك إليهم يصاحفهم ، ثم اتجه إلى سيارته ، وإذا بالرجل يتقدم ينتح له الباب ، ويقول وهو ينحن :

... متشكرون يا سعادة البك ، مع السلامة يا سعادة البك .

وانطلقت السيارة ، وخالد شارد يحس غصة في حلقه ، ودموعا قبل مقلتيه .

١٦٣

الأيام تمر ، والدكتور سعيد يذهب إلى العيادة ، ثم يعود إلى البيت ، يعكف على الاستذكار ، فإذا خلا نفسه أحس حنانا إلى روحية ، فيترك لحياله العنان يحلق في العالم المسحور ، فيراها هادئة ساكنة ، تنو إليه بهيبتها الناعستين اللتين تخاطبانه وحده .

فكر أكثر من مرة أن يعلق العيادة ، وأن ينطلق إليها يتزود منها بالنظرات ، ويسكن القلق الذي يحور في جوفه ، ولكنه كان يحجم . كان طيفها يجره :

— لا تطاوع أنايتك ، وأصغ إلى صوت عقلك ، مرضاك أحوج إليك مني .
تلقي منها رسالة تنبئه فيها أنها وضعت فتاة ، وأنها في صحة جيدة ، ولكن رسالتها كانت قصيرة أشبه ببرقية ، فبذرت في نفسه بذور الخوف ، لو كانت متممة بصحتها لناجته وبثته شوقها ، وسعدته عن ابنتها العزيزة ، إنها مريضة ، وقد تحاملت على نفسها لتكتب له ما كتبت .

وعجب لنفسه ، ما بال الهواجس تنتابه هذه الأيام ؟ كان قويا يسيطر على عواطفه ، لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلا ، فإذا به قد تبدل بعد أن تزوجها ، صارت الوسارس تعصف به ، وتهزه هزا . إذا ما طاف برأسه أنها مريضة أو أنها في ضيق اضطرب ، ورفرف قلبه بين ضلوعه في رهبة ، وانقبض صدره ، أهذا هو الحب ؟ إنه لا يدري ، وكل ما يعرفه أنه بات يخشى عليها .

وفكر في ابنته ، فتدفقت مشاعر الحنان من كنوز فؤاده ، وتفتحت ذاته ،

وأحس كأنما رقى ، حتى صار طيفا ، يهيم في عوالم حائلة ، كلها شاعرية وكلها روعة ، وأغمض عينيه ليرى ابنته بعين خياله ، ولكن عجز عن أن يتصورها ، وترادفت في ذهنه صور أطفال الأسرة فلم يخفق قلبه لمصورة منها ، وإذا بطفلة وجهها وجه روحية ، تنو إليه بعينها الناعستين قد احتلت أقطار رأسه ، فابتسمت روحه ، ورقصت مبهجته ، وانداحت فيه مشاعر الهجة حتى غمرته .
ووصلت إليه رسالة منها فضها في طهفة ، وقد دثرته رهبة ، وراح يقرأ :
عزيزي سعيد .

مرت هذه الأيام على كأنها سنون ، إنني أهفو إلى عشي ، وغدا أعود إليه ، لنعيش معا في حلمانا المبهج ، لم أكن أحسب أنني سأحن إلى داري كل هذا الحنين ، إنني بين أهلي حيث نشأت ، ولكنني أحس أن هناك شيئا ناقصا في حياتي ، شيئا عزيزا غاليا تشتاق إليه روحي ، وتهفو إليه كل خالجة من خواججي ، هو أنت .

أقول لك كل ما أحسه يا سعيد ، إنه ليخيل لي أنك مررت بيدك على ماضي فطمسته ، فلم أعد أحن إلى ذلك الماضي أو أفكر فيه ، صرت حاضري وكل أملى ، وغاية ما أشتهيه .

انظر يا سعيد ، إن ابنتنا الجميلة تعبت بيدها في وجهها ، كم هي رائعة ، نظرة واحدة إليها تفتح أمامي أبواب السعادة ، إنها دنيا وحدها ، ليتك تراها وهي راقدة إلى جوارى كلاك ؛ ولكن صبرا ، فعدا تراها وتضمها إليك ، وتذوق طعم حب جديد .

وإلى الغد الذي أرقبه ، أتمنى لك أسعد الأحلام ؟

روحية

ونظر إلى التاريخ فوجد أنها كتبت رسالتها بالأمس ، إنها قادمة اليوم ، وعلى ذراعها طفلتها الحبيبة ، فانطلق إلى المحطة ينتظرها خافق القلب نشوان :

١٦٢

جلس زكريا وحسان على أريكة غطيت بمفرش أبيض ، وقد تعدد على فراشه ،
وراح الدكتور سعيد يقيس ضغط الدم ، ويجرعه الدواء ، والتفت إليه وقال :
— أرجو منك ألا تأكل الأصناف التي نهيتك عنها ، وألا تتحرك على قدر
الإمكان .

فرنا إليه على في عتاب وقال :

— ما أكثر أوامرك . شتان ما بيني وبينك ، عشت معي سنين طويلة لم أنهك
فيها عن فعل ما تشتهي ، ولم أمنعك عن أكل ما تحب ، فلما اضطررتني صحتي إلى أن
أعيش في رعايتك شهرين ، إذا بك تأمر وتنهى . لا تفعل هذا ، لا تأكل اللحم
المشوي ، إياك والأكل النشوي ، لا تأكل الدهنيات ، اللبن مخمور ، السمك
ممنوع . . . منعت عن كل شيء ، حتى لم أعد أدري ماذا تركت لي لأكاه ، ما كل هذه
الأوامر ؟ أنتحسب طبك قادرا على إطالة العمر ؟ إنها أرزاق ، والله لو اشتيت نفسي
شيئا لأكلته برغم أنف ما يشير به الطيب .

وابتسم زكريا ضاحكا ، وقال حسان لسعيد :

— لا كرامة لطبيب في بيته .

فقال سعيد وهو يبتسم :

— عيي الوحيد أني ابنه ، لو كنت غريبا عنه لأطاع أوامري ، ولكنه
يحبها كبيرة على نفسه أن يطيع ابنه .
والتفت إلى أبيه وقال :

— سأم عليك في المساء ، ولا تأكل إلا ما أمرت لك به .

وانصرف وعلى يتبعه بنظره ، منشراح الصدر ، مشرق الوجه . وراح حسان
يجذب طرفا من أطراف الحديث ، قال :

— والله لا أدري سبب كل هذه الأفراح التي شغفنا بها هذه الأيام ، أفراح
الخروج الإنجليز من مصطفى باشا ، أفراح لخروج الإنجليز من ثكنات قصر النيل ،
إن من يرى هذه الأفراح يحسب أنهم قد جلوا عن مصر .

فقال زكريا في إيمان :

— هذه خطوة مباركة ، تستأهل الفرح ، نأمل أن تتلوها خطوات ، حتى يتم الجلاء .

— لن تجدى المفاوضات مع الإنجليز ، هذا رأي .

فقال زكريا وهو يتنسم :

— رأى عضو قديم في الحزب الوطنى .

فقال حسان فى ثورة :

— لا . إننى طلقت السياسة ، بل طلقت الدنيا كلها ، فما فيها ما يستحق

أن نبكى عليه .

وأراد زكريا أن يخرج به إلى حديث السياسة ، كان يجب أن يسمع آراءه ، فى لحظات صحوه ، فقد كان يتدفق حماسة ، على الرغم من إصراره أنه طلق السياسة ، وطلق الحياة ، فقال له :

— أظن أننا نستطيع أن ننال بالمفاوضة ما نريد ، وأن نحصل على كل حقوقنا .

فقال حسان وهو يلقى شفته زراية :

— لأحب أن أتلقى بالأوهام ، الإنجليز يضللوننا ، فنخدع لهم راضين ، بل نتطوع ونقبل للخديعة ونزمر ، خرجوا من القاهرة ، وخرجوا من الإسكندرية فإلى أين جاؤا ؟ إلى القناة ، إلى السويس والإسماعيلية . أليست هذه أراض مصرية ؟ فلماذا هذه الأفراح ؟ أيصعب على الإنجليز أن يمتثلوا القطار مرة ثانية ، إذا أرادوا ، فى يوم وبعض يوم ؟ خدعونا فيسرنا لهم الخديعة ، وأظهرنا السرور والاعتباط .

إذا اغتصب غاصب بيتك ، وطالبته أن يخرج منه ، أيرضيك منه أن يترك شرفات البيت لكيلا يراه الناس ، ويقع فى غرفة بعيدة ؟ وإذا أرغمك على الرضا بذلك الظلم . أتقيم الأفراح ؟ الغاصب غاصب سواء أبقى فى الشرفات أم توارى عن الأنظار .

أرى أن واجب مصر أن تطالب بالجلاء عن جميع أراضيها ، وألا يهدأ لها بال حتى تنال حقوقها كاملة .

فقال زكريا في هدوء :

— إننا بالمهادنة نكسب كل يوم أرضا ، وسيأتي اليوم الذي نطهر فيه مصر كلها من قوات الاحتلال .

هنا هو الوهم الذي يعيش عليه الساسة ، يحسبون أنهم ينالون كل يوم من إنجلترا نصرا ، والحقبة أنهم يجرون إثر سراب . أي نصر في أن يخرج الإنجليز من القاهرة والإسكندرية إلى القنال ؟

... نصر الاعتراف بمبدأ الجلاء . سنطالبهم بالجلاء عن القنال ، كما جأوا عن أراضي القطر الأخرى .

— سيجدون ألف حجة وحجة لتبرير بقائهم في القنال ، وسيبدلون ألف وعد ووعد بالجلاء ، وسيطلقون على هذا الاحتلال ما شاءوا من الأسماء ، ليرضى السذج والبله عن ذلك الوضع ، وكلنا سذج وبله . أقولها صريحة : الإنجليز لن يجأوا عن مصر إلا إذا أردنا جميعا ذلك .
... أتظن أن هناك من لا يرضى عن الجلاء .

— الحكام الذين يسندهم الاستعمار ، الذين يحسون في قرارة نفوسهم أنهم زائنون يوم يزول الاستعمار ، إنني أرى القضاء على هؤلاء قبل المطالبة بالجلاء ، وأرى . . . ولكن من أنا حتى أرى ؟ أنا رجل قد انتهى ، وانقطعت كل ما بيني وبين هذا العالم من أسباب ، هذه البلاد بلادكم ، وهذا الجيل جيلكم ، فافعلوا ما ترون .

وهيب واقفا ، فقال له زكريا :

— إلى أين ؟

فرنا إليه في زجر ، كأنما يقول له : « أو مثلي يسأل هذا السؤال ، أما تعرفون جميعا إلى أين أذهب » ؟ وانصرف يهرول ، وانطلق إلى الحانة ، ليخطف الظمأ الذي يحسه ، والحماسة التي اندفعت في جوفه .

١٦٥

أغلق الدكتور سعيد عليه غرفته ، وجلس إلى مكتبه ، وأكب على مكتبه ،
فقد دنا ميعاد الامتحان ، كان يريد أن يكون من المتفوقين ، ليرغم الحكومة
على إيفاده في بعثة ، لينال FRCS ، ويصبح زميلا في جمعية الجراحين بإنجلترا .
وسمع طرق خفيف على الباب ، ورفع رأسه ، فرأى روحية واقفة عند فرجة
الباب تقول :

— آسفة لإزعاجك . البنت مريضة ولا أدري ماذا بها .

فنهض سعيد ، وذهب معها إلى حيث كانت ابنتهما ترقد ، ونظر إليها فآلفاها
بمتمعة اللون ، فقال يفحص عنها ، ولاح في وجهه الاهتمام ، وطال فحصه ، وقطب
جبينه ، فأحست روحية قلقا يسرى في جوفها ، وحاولت أن تسأله عما يرى ،
ولكن عقلت لسانها ، واضطرب نفسها ، ورفع رأسه ، فأرهفت سمعها ،
فإذا به يضمخ :

— Blue Baby .

فقالت له في طرفة :

— ماذا بها ؟

فهز رأسه في حزن وقال :

— الطفل الأزرق .

فقالت في حيرة :

— الطفل الأزرق ؟ ! ما هذا ؟

— قلب البنت ناقص . ولدت هكذا !

— لم أسمع بهذا المرض من قبل .

فقال في سخرية مريرة :

— الظاهر أنه لا يصيب إلا أبناء الأطباء ، لأنهم يعرفون تشخيصه

فقالت في قلق :

— أهناك خطر على الطفلة ؟

فقال في أسي :

— إنها إن عاشت ستعيش عليّة .

ونظرا إلى فلذة كبدها المدة في فراشها ، وقد رعى الحزن في أحشائهما ،
ولمح الدموع تترقرق في عيني روحية ، فلف ذراعه حولها ، وضعها إليه مشجعا .

١٦٦

عمل يحيى في دائرة زوج خالته بهاء باشا ، بعد أن نال بكالوريوس التجارة
وعرف أن الباشا متردد ، فما يصدر أمرا حتى يسرع وينقذه ، لذلك ما كان ينفذ
أوامره عقب صدورهما ، بل كان يتريث حتى يتردد الباشا ، ويبدل الأمر مرات
قبل أن ينتهي إلى رأى ، لذلك أحبه الباشا ، وزاد في حبه له أنه كان يعارضه
أحيانا ، فكان يجد فيه طعما جديدا لا يألفه ، فقد كان الجميع لا يعارضونه ،
وكيف يعارضون من يملك الثروة الكبيرة ؟

ودق جرس التليفون في الدائرة ، فمد يحيى يده وتناول السماعة وقال :

— ألو . .

وإذا بصوت خالته جليّة يرن في أذنه ، فيقول :

— صباح الخير يا خالتي ، أتريدن الباشا ؟

— أريد أن ترسل لنا أربعة أزواج دجاج ، وثلاث أقات مكرونة و . .

وامتقع لون يحيى ، وقال في حدة :

— آسف يا خالتي ، هنا مكتب للعمل ، لا لقضاء حاجات المطبخ .

ووضع السماعة ، وهو يحس ضيقا ، فلو كان غريبا أكانت تكلفه زوجة
الباشا قضاء حاجات المطبخ ؟ لعل غيره كان يفرح بتلبية طلبات الهامم ، ولكنه
لا يقبل لنفسه هذا الهوان .

وانقضت ساعات العمل ، وخرج إلى الطريق ، وإذا به يلمح صورة الراقصة
فتحية ، ملصقة على جدران ، جاءت إلى الأسكندرية مع فرقة تمثيلية لتحيي موسم
الصيف ، فهفت نفسه إليها ، وراودته فكرة الذهاب لمقابلتها .

وانساب في الطريق يفكر فيها ، صارت حديث المدينة ، السكل يقولون إنها حظية الملك ، أهذا حقيقي ؟ ومن قال للناس ذلك ؟ لابد أنها قالت لأصدقائها ، فنقل هؤلاء الخبر إلى أصدقائهم ، وهؤلاء إلى أصدقائهم ، فصار الخبر على كل لسان .

فتحبة عشيقه الملك . بالاسخريه ا فتحبة التي ذاقها طلاب المدارس ، ونهل منها رواد الملاهي في القاهرة والإسكندرية ودمشق وبيروت وبغداد وفارس والدار البيضاء ، تصبح راقصة ملكية ، ولا تكتم الأمر ، بل تثرثر وتناك الملك فيما يعتز به ، ويحاول أن يعرف عنه في دنيا الفسق والفساد .

أهذا الذي يسمعه حقيقة ؟ إنه لينكره ولا يصدقه ، ولكن ماذا في ذلك ، إنه ملك ديمقراطي يحب أن يشارك شعبه في السراء ، ويدخل البهجة قلوب رعاياه ، أو ليست فتحية من الرعية ، وواجبه أن يبلغها غاية ما تتمناه .

واستولت عليه فكرة مقابلتها ، واشتهى أن يسمع منها قصتها الملكية ، إنه ليسمع من الناس تفاصيل فكهة تروى عنها ، لا يدري أقالتها حقا أم زوقها الناس . سيقابلها الليلة ، ويعرف منها كل شيء .

وأرعى الليل مسجوف الظلام ، وأنيرت المصابيح الكهربائية ، فانطلق على الكورنيش ، يداعبه نسيم البحر ، فينعش روحه ، وبلغ الملهى ، فأحس رهبة تستولى عليه ، وتقدم وإذا بقلبه يدق في عنف بين جنبيه ، وتسمر أمام الباب ، لم يجد في نفسه الشجاعة أن يقابلها ، وأن يحدثها بعد أن عرفت الملك ، فأحجم ودار على عقبه وانصرف ، وإن كان قد عرفها قبله ، وقضى معها أسعد الأوقات .

١٦٧

وقف سعيد يودع روحية قبل سفره إلى القاهرة ، لتأدية الامتحان ، فجعل ينو إليها في حب ، وينظر إلى عينيها السوداوين الناعستين ، خافق القلب ، ثم قال :

— هذه أول مرة أذهب فيها إلى الامتحان مضطربا ، كنت أدخل الامتحان واثقا من نفسى ، فما أدري ماذا دهانى ، حتى عرفت الخوف والرهبة ؟ !

— لا تقلق ، هذا إحساننا جميعا قبل الامتحان ، اذهب وفقك الله !
فضمها إليه وقال :

— إني ذاهب ، وسأعود إليك وقد جاءت إجازتك ، فتميش مما متحوررين
من قيود العمل ، نعيش كالعشاق ، لا هم لنا إلا أن ندور كالحجلة هنا وهناك .
إلى اللقاء .

وانصرف ، وهى تنظر إليه فى وله ، فلما غاب عن عينيها ، هرعت إلى الشرفة
تتبعه بنظرها وهو منطلق فى الطريق ، حتى اختفى فى غمرة الناس ، فمادت إلى
حيث كانت ابنتها ، وحملتها بين ذراعيها ، ذاوية ذابلة ، ثم ضمتها فى حنان ، وقبلتها
وأعادتها إلى فراشها وهى تنظر إليها ومشاعر الحب تنبثق فى أعماقها . وانسلت
من سجوارها خافقة القلب ، وانسابت فى طريقها إلى المدرسة ، تكمد وتشقى ،
لتبعت إلى أهلها بمرتبها ، ليعيشوا به ويصمدوا فى وجه تيار الحياة القاسى
الذى لا يرحم .

ونزل سعيد فى المنزل الذى قضى فيه أيام الدراسة ، ولم يكن به أحد من إخوته ،
فخلال سافر إلى الإسكندرية يعضى بها بضعة أيام ، فانتز فرصة الهدوء الذى ران
على المكان ، وأخرج كتبه ، وراح يراجع مراجعة أخيرة قبل دخول الامتحان ،
ولسكنه ما كان قادرا على تركيز ذهنه فيما يقرأ ، كان يرى روحية فى صفحة الكتاب ،
تبتسم له ، وسرعان ما يرى ابنته ذاوية ، شاحبة اللون ، فينقبض صدره ، ويغمره
أسى ، ويشرد بذهنه ساهما ، يلوح فى وجهه الفلق الاضطراب .

وجاء الليل ، ودخل إلى فراشه لينام ، فإذا بالأفكار تتوافد على رأسه متزاحمة ،
متلاطمة كالأمواج ، كان يفكر فيما استذكر ، وفى روحية ، وفى ابنته التى ولدت
وقلبها ناقص ، وامتزجت أفكاره وتداخلت ، ثم راح فى سبات .

وراح يؤدى الامتحان فى الصباح ، ويمكث فى البيت بعد الظهر يتأهب
لامتحان اليوم الثانى ، وفيما هو جالس وفى يده كتاب ، سمع مفتاحا يدور فى الباب ،
فرفع رأسه فرأى جلالا يدخل عليه ويحييه ، ثم يجلس أمامه يحدثه :

— ماذا فعلت فى الامتحان ؟

— لا بأس حتى الآن .

وقال جلال وهو يحاول أن يتحاشى نظراته ، فيتظاهر بالعبث في كتاب :

— وكيف حال روحية ؟

— غادرتها بخير .

— وابنتك ؟

فقال سعيد في حزن :

— إنها مريضة يا جلال ، وستعيش عذبة إذا قدر لها أن تعيش ، إنني كأب
أشفق عليها ، أتمنى لها الموت .

فرفع جلال نظره إليه وقال :

— ألا تحزن عليها إذا ماتت ؟

— سأكون سعيدا لو ماتت ، سيضع موتها حدا لآلامها التي لن تنقضى .

إنني طبيب ، وأعرف ما مستقاسيه في الحياة ، لذلك ينقبض قلبي كلما فكرت فيها .
وكسا الحزن وجه سعيد ، فوجد جلال الفرصة سانحة ليلغقه النبا ، فقال له :

— ماتت ابنتك ؟

فقال سعيد في لهفة :

— كيف ؟

— خرجت روحية إلى المدرسة ، فلما عادت وجدتها قد فارقت الحياة .

فأطرق سعيد ، وطافت بوجهه سحابة من الأسى ، ثم غغم في راحة :

— يرحمها الله !

١٦٨

دلف يحيى إلى الشقة الصاخبة ، فراح يخوض في أبناء عماته ، الذين كانوا
يموجون في جلابيهم المخططة ، وكانت من قماش زهيد ، ويصيحون ويهرولون ،
فيحدثون جلبة وضوضاء ، ودوى صوت عزيزة كالرعد :

— كفى صياحا يا أولاد الشياطين ، كفى صياحا وإلا قمت أدق أعناقكم .

وجلس يحيى إلى عماته عزيزة وزهيرة وثرى ينتظر سليمان حتى يرتدى ثيابه ،
لينصرفا معا إلى حيث اعتادا أن يمضيا أمسياتهما ، ودار الحديث ، فقال زهيرة :

— لماذا لا تتزوج يا يحيى وقد كبرت وصرت رجلاً ؟

فقال يحيى فى اغتباط :

— إني أفكر جدياً فى الزواج ، وأبحث عن زوجة .

فقالت زهيرة فى نعومة :

— وفقك الله إلى بنت الحلال .

ورمقت عزيزة بطرف عينها ، كأنما تستعجبها على الكلام ، كانت تشتهى فى قرارة نفسها أن تتحدث عزيزة ، لتنهش أعراض الناس ، فتعفى إليها راضية ، وإن تظاهرت بالنفور ، والاستغفار والاستعاذة بالله ، ولكن عزيزة أطرقت صامتة ، ولم تنبس بكلمة ، ولم تنبت فى صدرها الآمال . كانت تطمع فى سالف الأوان أن يتزوج أبناء أخيها من بناتها ، يوم كانت تحسب أن غاية ما ينتظرهم غابر السكة الحديد ، فهى مأواهم كما كانت مأوى جدهم وأزواج عماتهم ، وما دار بخلدّها يوماً أن سيصبح منهم المحامى والنائب فى البرلمان والضابط والطبيب وما لا تدرى من ألقاب .

علمتها الأيام أنها من طبقة ، وأنهم صاروا من طبقة أخرى ، وفطنت بغريزتها أنهم أصبحوا غرباء عنها ، وإن كانت عمتهم ، وإن كانوا أبناء أخيها ، الذى مازال يقطن معهم فى نفس الحارة ونفس الدار .

وأقبل سليمان يرتدى حلة سوداء ، يتدلى من صدرها منديل أبيض من الحرير ، كانت نفس الحلة التى ارتداها ليلة زفافه من سنين ، ولكنه كان يعتنى بها ، فهو يهتم بهندامه ، ولكن ما كانت الثياب الأنيقة تعيره الاحترام ، أو تسرّبه بالوقار ، فمظهره ينم عن جهله ، وحديثه يفضحه ، ويعلم على ردوس الأشهاد أنه لم يتلق من العلم أدنى نصيب .

وخرج يحيى وسليمان ، فقالت زهيرة وهى تتنهد ، لتجذب عزيزة إلى الحديث ، وإلقاء السباب الذى تسرّ سماعه :

— لو كنا أغنياء لما أعرض عنا الناس ، ولهافتوا على بناتنا .

فانفجرت عزيزة صائحة :

— زمن أغبر ، زمن ابن كلب ، زمن الفلوس ، من ذا الذى يتقدم ليتزوج

من بناتنا ، من يتزوج الفقير ، وإذا جاء ذلك المجنون الذى يطلب الزواج من إحداهن ، أنقدهما له بالثياب التى عليها ؟ من أين لنا أن نجهزها ؟ لم نعد نملك ما نبيعه ، أكلتنا السنون السود .

آه ، لو حكرونى فى الدين يكتزون أموالهم لشربت من دمائهم ، ولأخذت أموالهم وأنفقتهما على المحتاجين أمام عيونهم ، ليموتوا بنفطهم . أتعرفين الحاج محمود ؟ خطبت ابنته ، خطبها ابن الحلال ، ولكن الحاج اعتذر بأنها ليست فى سن الزواج ، شابة جميلة فى السابعة عشرة يستدر أبوها عن زواجها بعد أن جاءها الذى يعرف قيمتها . لماذا ؟ لأن أباه لا يملك ما يجهزها به ، لأنه لا يدري ماذا يفعل بفقره ، فلما انصرف الشاب ، راح الحاج محمود يبكي كالنساء الزمن أغبر ، زمن ابن كلب !

وظفقت عزيزة تنفت حقدتها ، ويتدفق السباب من فمها كالطم ، وزهيرة تصفى إليها متلذذة ، كانت تتلذذ بمصائب الناس ، بينما تندت عينا ثريا بالدمع . وبلغ يحيى وسليمان المقهى ، جلسا يتحدثان نفس الحديث الذى يتكرر كلما تقابلا دون أن يسأماه ، سليمان يروى فى إسهاب ما يفعله الزوجان ، ويحيى يصفى إليه فى اهتمام ، وقد برقت عيناه ، والساعات تمر فى نحيلات مريضة ، ورؤى مغلفة بالأوهام .

ووقفت سيارة حكومية ، وهبط منها خالد فى ثيابه الرسمية ، فلما رآه سليمان نسي ما كان فيه من عبث ، وتذكر هوانه ، فهو يتقاضى فى الشهر بضعة جنيهات ، لا تكاد تكفى حاجته الضرورية وحاجات زوجته ، فإذا كان يصنع لو أنه أنجب أولادا كما أنجب زملاؤه ، إنه يسمع أن خالدا يتقاضى ما يقرب من المائة الجنيه ، غير السيارة ، فإذا يفعل بكل هذه الجنيهات ، ولماذا لا يعطيه منها ، ليسر له أن يعيش ، وأن يتمتع بحياته ، ولم يكتف هذه الخواطر التى تراجمت فى رأسه ، بل نظر إلى خالد وقال :

— لماذا لا تعاوننى على الحياة ؟

فقال له خالد فى تبرم :

— ماذا تريدنى أن أفعل .

— ترتب لي راتبا شهريا .

فقال له خالد في ضيق :

— لماذا ؟

— لأنك غنى وأنا فقير ، ولأنك قريبي .

فقال له خالد وهو يرمقه في زراية :

— إنك كالحمار لا تستحق الإحسان .

فقال له سليمان في عناد :

— او قاضيتك لحكت لي المحكمة الشرعية بنفقة .

فقال خالد في حدة ، وقد هب ثأرا :

— لم تكن زوجتي في يوم من الأيام ثم طلقتك ، لتستحق نفقة قبلي .

واندفع خالد إلى السيارة ، وأغلق الباب خلفه في شدة ، وانطلقت السيارة

وهو عابس ، يضايقه أن جابهه سليمان بحسده ، ونفث في وجهه حقدته .

٩٦٩

عاد الدكتور سعيد إلى الإسكندرية حزينا كئيبا ، فقد رسب في الامتحان ، وكانت هذه أول مرة يرسل فيها ، فحز ذلك في نفسه ، ولكن يد روحية الساحرة مشت على جراح روحه فبرأت ، وعاد إليه الرضا والصفاء .

وراح سعيد يمر على أبيه ، يعطيه الدواء ، ويحاول أن يمنعه من تناول الطعام الذي يزيد ضغط الدم ، ولكن عليا ما كان يستمع إلى نصحه ، كان يجدها كبيرة على نفسه أن ينزل على أوامر ابنه .

تدهورت صحته ، فأخذ أولاده يفودونه كل يوم ، يلتفون حوله ، يسألونه عن صحته ، ثم يتجادلون أطراف الحديث ، وأقبل سعيد ، وراح يغلي الحفنة ، وكشف ذراع أبيه ثم حقنه ، ولما انتهى من عمله قال :

— أريد أن يشتري لي أحدم تذاكر سينما .

فقال علي في صوت واه :

— لن يذهب أحدكم اليوم إلى السينما .
ونظروا إليه ، ولم ينطق أحدهم بكلمة ، ثم راحوا ينسلون واحدا إثر
واحد إلى أعمالهم ، وهمس يحيى للدكتور :
— أين أرسل لك التذاكر ؟
— سأكون في المستشفى .

وانصرفوا ، وبقي على مسجى في فراشه ، واهنا يتنفس في جهد ، وقد أسبل
عينيه ، ورأى بهين خياله الواهن صورة زوجته تدنو منه في ثياب بيض ، يشع
من وجهها نور ، فغمغم :
— صفيه . . صفيه .

فقامت إليه زهيرة وقالت :
— أنطلب شيئا ؟
وراح يقرأ القرآن ، واستمر في التمتعة ، فنادته :
— على . . على .

ولم تسمع جوابا ، واستمر يقرأ ويقرأ ، فصاحت في رعب :
— نادوا الدكتور . . أرسلوا إلى سعيد .

وصمت ولم ينبس بكلمة ، فأسرعت تحضر كوب ماء ، ثم عادت إليه ، ورفعت
رأسه ، وصبت الماء في فيه ، جفري على ذقنه ورقبته ، فوضعت رأسه على الوسادة
هالعة ، وراحت تذرع الغرفة مضطربة ، وتقول :
— أين الدكتور ؟ أين الدكتور ؟
— أرسلنا إليه .

وجاء سعيد يهرول ، وأخذ بيد أبيه ، وراح يحس نبضه ، فأربد وجهه ،
وانقبض قلبه ، ومد يده إلى الغطاء وسحبه حتى غطى به وجه أبيه المسجى
في فراشه ، فولوات النسوة ، وانسحب سعيد من الغرفة مطرقا ، يحس في جوفه
وقدة نار ، ولكن لم تطفر من مقلتيه عبرة ، فقد كان عصى الدمع

١٧٠

شاطيء البحر يهوج بالمصطافين ، النساء مستلقيات في الشمس ، وعلى عيونهن نظارات قاتمة ، وعلى رؤوسهن عصابات مختلفة الألوان ، وقد برزت فتنهن للعيون ، والرجال يغدون ويروحون ، وقد برزت عظامهم أو كروشهم أو عضلاتهم ، وعيونهم تخرج في الأجساد البضة المعروضة على الرمال ، فكأن الشاطيء سوق للرفيق .

وجلست روحية على مقعد مريح ، وقد استرخت أمام « السكاينة » ، وتمدد عند أقدامها الدكتور سعيد ، في ثياب البحر ، وقد رفع رأسه ينظر إليها ويقول : — ألا تخلعين ثيابك وتلبسين ثياب البحر ، لنسبح كما يسبح الناس . فقالت في ذعر :

— مستحيل ! ماذا يقول الناس عني ؟
— إن يقول الناس شيئا ، فما جاءوا إلى هنا إلا للتحرر من القيود ، ليعيشوا طلقاء ، يغترفون من معين السعادة دون رقيب .
— لا . لا أستطيع ، ماذا تقول تلميذاً إذا وقعت أنظارهن على وأنا عارية ؟ إنك لا تعرف كلام الناس .
— لا يهمني الناس .

ولمح في عينيها ذعرا ، فأشرق وجهه ، وابتم ضاحكا ، ثم نهض وقال : — سأستحم ، ثم أعود . وانطلق إلى البحر يمرق كالسهم ، ثم قفز في الماء ، وطفق يسبح في رشاقة ، وروحية ترمقه في إعجاب ، وقد دثرتها سعادة ، وأفعمت بالغبطة ، فجعلت تملأ رئتها بالهواء ، وتزفره في راحة . وأقبل سعيد ، فقدمت إليه الفوطة ، فجفف رأسه ، وعاونته على تخفيف جسمه ، ونام على بطنه عند أقدامها ، ونظر إليها ، ثم راح يعبت بأصابعه في الرمال ، فقالت له مداعبة :

— أتضرب الرمل ؟ حدثني عن مستقبلنا .
فاعتدل وجلس ، وقال في ثقة :

— إن مستقبلنا بأيدينا ، إننا نصنعه بأنفسنا .

وشرد ببصره ، وقال :

— أراه الساعة واضحة ، أوضح من هذا النهار . سأركب هذا البحر يوما ، وسأنال شهادة FRCS ، وسأعود إليك طبيبا ممتازا ، ثم نبني مستقبلنا معا بأيدينا ، أرى المستشفى الذي سأشيده ، وأرى النجاسة التي عند مدخله ، وقد كتب عليها « مستشفى الدكتور سعيد علي يونس باشا » وأرى السيارة الفخمة المقبلة ، وأراك غائصة فيها ، هذا هو مستقبلنا ، لن يصنعه الرمل لنا ، ولكن سنخلقه بصبرنا وكفاحنا وإيماننا بأنفسنا ، وبأنفسنا فقط .

ورمت ببصرها إلى بعيد ، وحاولت أن تخفي شعورها ، ولكن لؤاؤتين من الدموع ترقرتا في مآقيها .

وذهب سعيد يرتدي ثيابه ، وتركها وحدها لأحلامها ، فهبت روحها إلى مستقبلها ، ورفعت رأسها إلى السماء ، وراحت تبتهل في حرارة أن يحقق الله آماله ، وأفافت إلى نفسها لما أحست به إلى جوارها ، فابتسمت ونهضت تسير معه على الشاطئ ، فقال لها :

— والله لا أدري لماذا تخجمنين عن زيارة أهلي ؟ تعالى نزر خالدا ، تعالى نزر زكريا ، تعالى نخرج إلى دنيا الناس .
فقال في قلق :

— إنني أخشى الناس ، إذا زرت أحدا يخيّل إلى أنني أثقلت عليه ، فأحاول أن أفر بعد أن أجلس ، وإذا أرغمت نفسي على الجلوس ، فأني أشعر بقلق وخوف .
— تعالى نزر خالدا ، سترحب بك درية ، ولن تشعرك أنك في زيارة أحد غريب ، إن أهلي أناس طيبون .

— ما شككت في ذلك لحظة ، ولكنني أخاف من نفسي ، أخاف أن يضيق الناس بزيارتي ، أحاول أن أقهر ضعفي ، ولكنني أبوء بالإخفاق ، هذا طبعي ، فماذا أفعل ؟

وأحس في نبرات رنة من الحزن ، فرأى أن يعيد لها سعادتها ، فقال لها :

— أتحافين مني ؟

فقال له في وجد :

— أنت روحي ، أنت كل حياتي !

١١١

ذهبت روحه إلى المدرسة ، وهي شاحبة اللون مجهدة ، إنها تقاسى آلام
العمل والعمل ، ولولا اضطرارها إلى المرتب الذى تنقاضه ، لسكنت فى بيتها ،
تعى بنفسها ، فزوجها قادر على سد حاجاتها ، ولكن من ذا الذى يعاون أهلها
على مواجهة الحياة ، فهم فى أشد الحاجة إلى مرتبها الذى تبعث به إليهم فى أول
كل شهر ، إنها تكبد وتتعب من أجلهم ، وهولاهم لتمددت فى فراشها هائشة .

وعادت إلى البيت والشمس غاربة ، ودخلت إلى غرفتها ، وارتعت على سريرها
تلتقط أنفاسها ، تحس مطارق تدق ظهرها ، فراحت تتلوى من الألم ، وتئن وهي
تقبض الوسادة بيديها ، وتصرها ، وتصرف أنيابها .

ورجع سعيد إلى الدار ، وما تقدم خطوات حتى مس أذنيه أنينها الخافت ،
فاضطرب ، وأسرع إليها ملهوها ، ومال عليها يسألها :

— ماذا بك ؟

فقالت فى صوت خافت :

— أحس ألما فى ظهري .

وراح يفحص عنها ، فإذا بالدماء تتدفق منها ، فقال لها :

— استلقى على ظهرك ، ولا تتحركى .

وأسرع إلى الصيدلية يهرول ، وعاد يحمل بعض الأدوية ، وجرعها معلقة
من هذا ، ومعلقة من ذاك ، وحاول وقف النزيف ، ولكن هيهات فقد
أجهضها التعب .

وامتعر فى تمريضها أياما ، حتى استردت صحتها ، وعادت إلى المدرسة تستأنف
كفاحها ، ولم يعد لها نور خديها ، كانت ذابلة تحس آلاما فى معدتها ، ولكنها
كانت تكتم عنه أوجاعها ، لم تكن تحب أن تكدر صفوه ، أو تسبب له آلاما .

ودخل عليها ، فألفاها تتلوى ، وقد وضعت يديها تحت صدرها ، فأسرع إليها
يلف ذراعه حولها ، ويقول :

— اتحسين تعباً ؟

— أشهر بآلام في المعدة .

— غدا نذهب إلى المستشفى ، لأخص عما بك بالأشعة .

وذهبا إلى المستشفى ، وداعا إلى غرفة الأشعة ، وأسدت الستائر السود ، وجالست تعض على شفرتها السفلى من الألم ، والتفت إلى الطبيب المختص ، وقال له :
— أريد صورة للمعدة .

وانهمك الرجل في عمله ، وسعيد يرنو إليها ويبتسم ، يحاول تشجيعها ، وإن كان في قرارة نفسه يتألم لألمها .

وانتهى كل شيء ، وقدمت الصورة إليه ، فراح يدرسها في إمعان ، فإذا به يجد انسدادا في المعدة ، وتضخها في طرفها الأيمن ، والتفت إليها ، فألفاها تحديق فيه في اهتمام ، فقل لها مطمئنا :
— تعب بسيط في المعدة .

وانصرفا إلى الدار ، والتفتت في الغرفة ، فألفت التراب متراكما على الأثاث ، فأسرعت لتنظف الغرفة ، وتعيد ترتيبها ، فقال لها :
— دعي هذا الآن ، إن أى مجهود تبذلينه يضرک .
فقالت مهزومة :

— ماذا يقول الناس عني إذا رأوا شقي هكذا ؟
فقال لها وهو يلف ذراعه حولها :
— لا تهتمى بكلام الناس .

وذهب بها إلى الفراش ، وساعدها على أن تتمدد فيه ، وهو يرنو إليها في وله ، يحس نحوها حبا جارفا .

وتقضت الأيام ، وهو يرعاها ، ويبدل غاية جهده ليخفف عنها ، ولكن كانت آلام المعدة تزيد ، وألفاها تضج من الألم ، وتضغط أسنانها ، فأحس كأن خنجرا يمزق قلبه ، فأسرع بغسل لها معدتها .

ووضع الخرطوم في فمها ، فخرج طعام متعفن ، وأخذ يفحص عن معدتها في اهتمام ، فظن إلى وجود ورم بها ، فانداحت الرهبة في جوفه ، وراح يجاهد ، حتى لا ينم وجهه عما يعتمل في أعماقه ، كان الحزن يستبد به ، وسألته :

— ماذا وجدت ؟

فقال في هدوء :

— تعب بسيط .

وأدار لها ظهره ، وابتعد عنها ، حتى لا ترى الأسى الذى كسا وجهه ، والحزن الذى يشع من عينيه ، وإذا بصوت إشع يوسوس فى أعماقه كنفج إشع الأفهى :
« سرطان . . سرطان » فيحس يدا عاتية تعصر قلبه ، وحزنا طاغيا يكاد يعصف به .

١٧٢

تأهب خالد لاستقبال المدير ، كانت محطة الدخيلة الجوية تبدو كمروس ، الجنود والضباط يغدون ويروحون فى ثياب الطيران الشتوية ، والأزرار النحاسية الصفراء تتألق ، والأحذية تلمع ، والنظافة بادية للعيون .
وجاء المدير بقامته الطويلة الفارعة ، يخف به رجال مكتبه ، فكان بينهم « بكليف فى أرض الأقزام » وخف خالد إليه يحيه ، ثم سار معه إلى نادى الضباط ، فقد جاء المدير يفتتجه .

وحول المائدة دار الحديث ، قال خالد للمدير :

— فى الصحراء الغربية قنابل ألمانية مبعثرة ، وأرى أن يسمح لى سعادة الباشا بجمعها وتخزينها فى السلاح ، فقد نحتاج إليها يوما .
فتوقف المدير عن تناول ما كان فى يده ، وقال لخالد .

— هذه مسئولية خطيرة ، أرجو منك ألا تتحدث فى هذا الموضوع مرة ثانية .
وانتهى الحفل البسيط ، ومر شهران ، ودخلت مصر حرب فلسطين دون أن تتأهب أو تستعد لحوض معارك حقيقية ، كانت تحسب أنها ستحارب شرذمة من اليهود ، وما حسبت حساب إنجلترا وأمريكا ، فلما اشتبكت فى القتال ، تكشفت النيات ، أمسكت إنجلترا يدها عن أن تمد حليفها بالسلاح ، وراحت تشد أزر اليهود سرا ، وأمدتهم أمريكا بالمعونة جهرا ، فكان على مصر أن تعتمد على مواردها المحدودة فى هذه الحرب .

وراح السلاح الجوي المصري يشن على الأعداء غارات متواصلة ، كان يبذل مجهود الجسارة ، ولكن القنابل التي كان يلقيها على الأعداء قنابل صغيرة ، لا تخلف إلا آثارا تدل على أن الطائرات المصرية مرت من هنا .

ودق جرس التليفون في مكتب خالد ، وإذا بالمدير يحدثه :

... أتذكر حديث القنابل الألمانية يوم افتتاح نادي الضباط ، إننا في أشد الحاجة إلى هذه القنابل ، فقم من فورك لجمعها ، وقد أرسلت إليك سيارات كثيرة إلى الصحراء .

وراح خالد يعد الترتيبات ، أرسل في استدعاء مهندس خبير في القنابل ، وأمر بتجهيز الطائرة « الأنسون » ولما انتهى كل شيء ، دلف إلى الطائرة ، وأغلقت أبوابها ، وراحت تدرج على أرض المطار ، ثم حلقت في الجو منطقة إلى الصحراء الغربية .

وهبطت الطائرة بمرسى مطروح وذهب خالد ومن معه إلى سيدى برانى ، ولحقت السيارات به هناك ، وكان الهدوء قد سيطر على الصحراء ، وأرخى الليل ستار الظلام ، فذهب خالد والرجال الذين معه يبيتون ليلتهم .

وفي عماية الصباح انطلقت القافلة إلى سيدى برانى ، فكانت تبدو كظلال انعكست على السماء التي راح النور ينتشر فيها رويدا رويدا ، فبدت كرقعة زرقاء أريق فوقها فضة ، وباح الرجال مكانا رصت فيه قنابل في أكوام ، وقد انتشرت في الصحراء ، فخنقت القلوب في الصدور رهبة ، وتقدم خالد ينظر ، ثم التفت إلى المهندس الذى جاء معه وقال :

— القنابل مجهزة بجهاز التفجير .

فهز المهندس رأسه ، ولم يتكلم ، فقال خالد :

— أظن من الخطر حملها وجهاز التفجير فيها ؟

فقال المهندس فى حيرة :

— والله لا أدري .

وصحت الجميع ، ولاح الخوف فى الوجوه ، ومرقت فى رأس خالد فكرة . كالبرق ، هذه القنابل تأخذ شحنها الكهربائية من الجو فى أثناء هبوطها ،

فيحمل جهاز التفجير ، فوجودها هكذا مرسوسة دليل على أنها مخزنة لم تستطع من الطائرات .

إنه يستطيع نقلها في هدوء دون أن يخشى انفجارها .

ورمى ببصره في الصحراء ، فجز عليه أن يمنعه خوفه من التقدم لخل هذه القنابل ، وجيشه يفتقر إليها ، لن يعود من هنا إلا وقد حملها ، أو تناثر هو ومن معه أشلاء .

ونادى بعض الجنود وقال :

— تقدموا معي .

فقال المهندس له في صوت متهدج :

.. ماذا ستفعل ؟

— منحمل القنابل في العربات .

وكتمت الأنفاس ، وزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، كانوا يسرون على البارود ، إذا انفجرت قنبلة واحدة ، فجرت قنابل الصحراء المتناثرة ، فتطايروا وصاروا رمادا تذروه الرياح .

ومال مع الرجال يحمل معهم أول قنبلة ، فنفسد العرق من الجباه ، ولو أن البرد كان قارسا يجمد الأطراف ، ورفعت القنبلة بينهم في حرص شديد ، وهو يهمس في صوت واهن يذبح من أعماقه مرتجفا :

— حاذروا .

ومشوا حذرين ، كانوا يحتضنون الموت ، فساروا وقد أرهفت حواسهم ، حتى إذا بلغوا السيارة رفعوا القنبلة بينهم ووضعوها فيها ، ثم راحوا جميعا يزفرون في شدة ، كأنما ينفثون الدعر الذي ضاقت به صدورهم .

أحسوا بعض الاطمئنان بعد أن نقلوا أول قنبلة دون أن تنفجر ، فقسموا أنفسهم فرقا ، ووكل لكل فرقة تحميل عربية ، وترادفت الساعات ، وهم غارقون في العمل ، وبدأت الشمس في الانحدار ، وقد رصت القنابل في السيارات الكبيرة ، وتحركت القافلة تحمل شحنتها ، في طريق عودتها ، وعاد خالد إلى مرسى مطروح ، وفي الفجر خف والدين معه إلى الطائرة ، فلما حلقت في الجو ، نظر خالد فرأى قطار السيارات يشق الصحراء ، فغمره السرور ، فالقنابل الثقيلة التي تفتقر إليها القوات الجوية ، في طريقها إلى المطارات المصرية ، لتلقى على « رحابوت » و « المجدل » و « تل أبيب »

١٧٣

دب اليأس في قلب سعيد ، ولكن أيسلم ليأسه ، أيدع روحية فريسة مرضها ، إنه يحبها غاية الحب ، فهي روحه وهى حياته ، فكيف يركن إلى اليأس ويخون عقيدته ، إنه يؤمن أن لامستحيل على وجه الأرض ، لو كافح ذلك المرض فسيهزمه وينتصر عليه ، وينتزع من المجهول سعادته ، إنه يبني مستقبله بيده ، فلن يسمح لأية قوة أن تنقض ما بنى ، أو تززع عقيدته .

وقرر رأيه أن يحارب مرضها ، وأن يفعل ما في طاقة البشر لإنقاذها ، حتى تسير معه في الطريق الذى رسمه لمستقبله ، علمته الطموح ، وملأت نفسه ثقة ، فلن يتخلى عنها أبدا ، ولن يسمح لها أن تتخلف ، سيثبت فيها روحا قويا قهارا ، يزلزل ذلك المرض الذى تدسس في أحشائها .

ودخل عليها ، وهى راقدة فى فراشها ، فبش فى وجهها وقال لها :

— ستسافرين غدا إلى القاهرة ، وتنتظرينى حتى أنهى عملى هنا ، وألحق بك ، سأدخلك مستشفى هناك ، فأنت فى حاجة إلى عملية جراحية بسيطة ، لتتخلص من الآلام التى تتأبى كل ساعة .

فقات له فى صوت ضعيف :

— لابد من العملية ؟

— عملية بسيطة لابد من أجرائها .

وصدقته ، كانت تثق فيه كل الثقة ، فقات فى استسلام :

— أفعَل ما ترى .

وراح يحدثها حديث الأمل ، يروى لها ما يراه بعينه النفاذة من حجب المستقبل ، ويقص عليها أفاصيص الوهم فى حرارة وثقة ، فتتجسم أمامها ، حتى لتكاد تلمسها ، ويخلق خيالها ، فتنسى فى غمرة النشوة آلامها .

وسجا الليل ، ونام الكون ، ورنق الوسن . أعينهما ، فغابا عن آمالهما ، وآلامهما ، لا يحسان مرور الزمن ، فلما بعثت الشمس أشعتها ، تغمر الدنيا بالنور ، هبا من رقادهما ، وطفقا يتأهبان للخروج .

وسمع سعيد طرقا على الباب ، فذهب يفتح ، فألقى جلالا جاء لزيارتها ،
فرحب به ، وقال له :

— تعال معي نوصل روحية إلى المحطة .

فقال جلال :

— أمسافرة اليوم ؟ لماذا ؟

— سأدخلها المستشفى .

— أتسافر معها ؟

— سألحق بها بعد أيام ، وإن نعود إلا بعد أن أُنهي من تأدية الامتحان .

وخرجوا ، وذهبوا إلى المحطة ، ووقف سعيد يحدث روحية ، قال لها :

— سألحق بك ، وسأخذك إلى الدكتور مورو ، إنه أستاذنا ، سيخبر بك

ولا ريب ، إنها عملية بسيطة ، ولا بد من إجرائها .

وتحرك القطار ، وأخذ يلوح لها بيده ، وهو يغتصب ابتسامة ، ولكن

ما إن اختفت عن عينيه ، حتى رف الحزن على وجهه ، وطفرت دموعه من

مقلتيه ، فنظر جلال إليه في دهش ، لم يره يبكي قبل الآن أبدا ، فقال له وهو

ينظر إليه بعينين واسعتين :

— أتبكي ؟ !

فقال سعيد في حزن وقد طأطأ رأسه :

— إنها روحي ، وأخاف أن تموت .

١٧٤

ذهب يحيى إلى السينما ، فوجد صورة كبيرة لفتحية على واجهتها ، كانت

في ثياب الرقص ، تبسم فتتفرج شفاتها عن أسنان كأنها الأولو ، يشع من عينها

بريق أسر يجذب القلوب ، وقد رفعت يديها ثوب الرقص ، فظهرت ساقها

الملفوفتان في انسجام بديع ، فهفت نفسه إليها ، ودلف إلى السينما وفي صدره

حرارة ، وفي رأسه أفكار .

وجلس في مقعده ، يتابع المشاهدة في هدوء ، فلما بدأت الرواية ، ولاحت فتحية لمنييه إذا بالأفكار تتوافد على رأسه ، فيشغل بالرواية التي تمثل في خياله عن الرواية التي تجري حوادثها على الشاشة ، كانت قصة خياله أروع في نفسه من الأشباح المتحركة أمامه في تكلف مقيت .

رأى نفسه في المسالة مع رفاقه ، وفتحية تقبل عليه بشة ، تحييه في ترحيب ، ثم ترسل إليه الخاوى والفأكة اللذيذة ، فينعم بالسهرة والأكلة ، دون أن ينفق مليا ، وهل كان معه ما ينفقه ؟

ورأى نفسه في المدرسة ، والناظر يرسل إليه ، خين يمثل بين يديه ، يأخذ في تأنيبه ، لأن فتاة بعثت له رسالة غرام إلى المدرسة ، ثم يهدده بأنه سيدبلغ الأمر لأبيه ، فيقول له إن أحد أصدقائه أراد أن يعاينه ، ففعل هذه الفعلة ، ويأخذ الرسالة من الناظر ، ويقرأها ، ويعلم منها أن فتحية عادت إلى الإسكندرية ، وأنها تنتظره ، فيذهب إليها ، وهو يشكر الناظر من أعماقه على تطوعه ليكون الرسول بينهما .

أ كان يصدق في ذلك الوقت أن فتحية التي كانت تهتم بمراسلته ، يوم كان طالبا في المدارس الثانوية ، مستصبح ذات يوم نجما من نجوم السينما ، وحظية الملك ؟ أ كانت فتحية نفسها تحلم بذلك ، كانت غاية أمنيته أن ترى صورتها في صحيفة أو مجلة وقد كتبت تحتها كلمة تقرّظ دفعت ثمنها جنهات ، أو ليلة .

وقفز ذهنه إلى «الكابينة» فرأى فتحية بينهم على شاطئ البحر تشاركهم في طعام متواضع ، ثم تجود لهم عن طيب خاطر ، بما ينفق في سبيله الأغنياء أموالهم ، إنها فتاة طيبة !

ترى أ كانت تبذل لهم نفسها زكاة عن الليالي التي كانت تقضيها مرغمة في سبيل المال ، أم كانت تعتبر ذلك البذل صدقة ، جعلت في جمالها حقا معلوما للسائل والمحروم ؟

إنه ليرى في وجهها براءة وسذاجة وطيبة ، ولكن أي نفس تنطوى عليها جوانجها ، أهى شيطان ووجه ملك ، أم ملك تقمصه شيطان ، أم امرأة ! وانساب أنغام راقصة ، فانتبه من أحلامه ، ونظر فإذا فتحية تمتلئ في رقصها ،

وتهز مفاتيها ، وقد تعلقت أبصار الناس بها ، فراح يسأل نفسه : « أحقا كانت هذه له ذات يوم ، أم هذا وهم وخیال ؟ »

وشرد ذهنه ، وراح يحرق وراء أفكاره ، وشغل عن الرواية ، ولم يفق إلى نفسه إلا والأنوار تغمر السينما ، والناس ينصرفون ، قدام متشاقلا ، وصار ، وما قطع خطوات ، حتى قفز إلى رأسه سؤال :

« إذا قابلته الساعة وجها لوجه أتذكره ؟ وإذا عرفته ماذا تفعل ؟ أتحييه في شوق ، أتقبله ؟ »

تقبله ؟ ما هذا الوهم ، إنه شاب من الشبان الذين عرفتهم في سائر البلاد وعرضها ، إنه قطرة في بحر ، أين هو منها ، إنه لم يغادر القاهرة والإسكندرية ، بينا هي قد جابت الممالك والبلدان ، إنها خير حلقة تربط الدول العربية . وهز كتفيه في عدم الكراث ، وانطلق في الظلام لا يابى على شيء .

١٧٥

دخل سعيد وروحية على الدكتور مورو ، وراح الدكتور سعيد يشرح لأستاذه الكبير ما اهتدى إليه لما فحص عن زوجه ، وقدم رسم الأشعة ، فنظر إليه الدكتور الكبير في إمعان ، وجعلا يتحدثان ، كلمة عربية ، وكلمات إنجليزية ، فلم تفهم روحية مما يدور بينهما شيئا .

وقامت روحية ، وتمددت على سرير مرتفع ، وأخذ الدكتور مورو يفحص عنها ، وسعيد يحرق في وجهه ، يحاول أن يستشف منه أثر الفحص في نفسه ، ومرت دقائق والدكتور في عمله ، ثم رفع رأسه ، وبدأت روحية تصالح هندامها . قال الدكتور مورو :

— عندها ورم في المعدة ، وانسداد في طرفها الأيمن .

فقال سعيد باللغة الإنجليزية ، وقلبه يخفق رهبة :

— ألم تجد اثرا للسرطان .

فهن الدكتور مورو رأسه ، وقال في تأكيد :

— أبدا

وأشرق وجه سعيد ، واطمأن قلبه ، وإن كان في أغوار نفسه صوت يجزم أنها مريضة بالسرطان ، ولكنه وأد ذلك الصوت ، وانصرف منشرجا ، يبت في روحية الاطمئنان ، ويؤكد لها أن العملية التي ستجرى لها بسيطة ، لا تستحق اهتماما .

ودخلت روحية المستشفى ، وأجريت لها العملية ، فتح الدكتور في معدتها فتحة جديدة ، ينصرف منها الطعام إلى أمعائها ، وحملت إلى غرفتها وهي نفس يتردد .

وراح سعيد يزورها في الصباح وفي المساء ، واضطر يوما إلى السفر إلى الإسكندرية ، فسافر ، ولكنه لم يطق البعد عنها ، فما أشرقت شمس اليوم التالي حتى عاد إلى القاهرة ليراها .

تململت روحية في فراشها ، وجعلت تنئن وتتوجع ، كانت تحس آلاما ، ولكن ما إن لمحت يدلف إلى غرفتها ، حتى تهالت أساريرها ، ورففت على فمها بسمة ترحيب ، فانطلق إليها بشا ، وأخذ يدها بين يديه ، وقال في حنان دافق :
— كيف أنت الآن ؟

فقالت له وهي مشرقة النفس :

— حالي عجب ، كنت أحس آلاما مبرحة قبل أن تدخل علي ، أما الآن فقد ذهبت أوجاعي .
— صحتك جيدة .

— تعبت بعد سفرك ، وما عادت الصحة إلى إلا بعد عودتك . إن المرض يخاف منك ، يهرب كلما حضرت .
فقال لها في إنشراح .

— سيهرب إلى الأبد ، لأنني سأكون إلى جوارك على الدوام ، صرح الطبيب بخروجك .

— ومتى نخرج ؟

— غدا .

فأشارت له بأصبعها أن يدنى وجهه ، فلما فعل قبلته في حنان .

وخرجت روحية من المستشفى ، ومكثت في بيت أهلها ، أمام القصر العيني ،
تستجهم وتنتظر حتى ينتهى زوجها من الامتحان .
ومرت أيام ، وأعلنت النتيجة ، فكان سعيد من الراسبين ، خفت إليه تواسيه
وتحوطه برعايتها ، على الرغم من أنها كانت في حاجة إلى من يرعاها .
وركبا سيارة ، وانطلقا في الطريق الصحراوي إلى عشمها ، فمالت عليه
وقالت له :

— إذا كنت قد أخفقت هذه المرة ، فسأجسج في المرة القادمة .

فقال في أسى :

— أخفقت مرتين .

— وستحاول المرة الثالثة .

فضمها إليه في حنان وقال :

— يكفيني سعادة أنك إلى جوارى .

واستأنف الدكتور عمله في العيادة . فإذا ما انتهى منه عاد إلى عشمه الجميل ،
ينعم بالساعات العذبة التي يقضيها مع روحية ، وفطنت روحية إلى إعراضه عن
الاستدكار ، فسأها أن يستسلم ليأسه ، هو الذي عاش مكاشفاً ، ولم يقر يوماً
بهزيمته ، فقالت له :

— لماذا لا تدخل مكتبك ؟ لماذا هجرت مكتبك ؟ ألا أنك أخفقت مرتين ،

لا بد أن تحاول مرة ثالثة ، هل أعرضت عن آمالك لأنك أخفقت ؟ أين مستقبلنا
الذي تراه واضحاً أوضح من النهار ؟ لا بد أن تعاود محاولتك ، فلن أجلك قبل
أن تنال الشهادة التي تصبو إليها .

فقال سعيد وهو مطرق :

— أفكر في السفر إلى إنجلترا .

فقالت له مشجعة :

— مسافر .

— وأنت ؟

— أعيش من مرتبي ، وأنتظرك .

فقال في وهن :

— صعب على أن أغادر سعادتي ، إنما ما نكاد نلتقي حتى نفترق .

فقلت له في إيمان :

— لا تدع الضعف يتدسس إلى نفسك ، مسافر . . منفترق سنين ، ثم نلتقي
القاء لا فراق بعده .

فقال وهو يضمها إليه :

— مسافر ، وستضافر لنبي مستقبلا بأيدينا .

وشرد بصره لحظة ثم قال :

— لو كنت أملك ما يكفيني أنا وأنت في إنجلترا ، ما تركتك لحظة .

١٧٦

أغلق سعيد العيادة ، وأخذ يعد العدة للسفر ، كانت روحية تحده كل ليلة
عن أثر نجاحه في نفسها ، حتى خيل إليه أن حصوله على الشهادة التي يصبو إليها
أصبحت أميتها لا أمنيتها ، وأنه سيسافر ليحقق لها حلمها .

وجاءت الليلة التي سيسافر في صبيحتها ، فاجتمع إخوته عنده يودعونه قبل
السفر ، والتفت زكريا إلى روحية وقال لها :

— مستعدين في بيتي إلى أن يعود .

فقلت في صوت رقيق :

— سألتحق بالداخلية ، وأعيش في المدرسة .

فقال زكريا في صدق :

— هذا لن يكون . بيتي بيتك حتى يعود .

فأطرقت وقالت في صوت خافت :

— شكرا لك .

فالتفت زكريا إلى أخيه وقال :

— أينن لها ياسعيد أن تعيش معنا .

وتضرجت وجنتها بجمرة الحبلى ، أحست أنها أصبحت عبثا ، وأنها لو قبلت
النزول عند زكريا فستثقل عليه وعلى زوجته ، ولما كانت حساسة ، شديدة الحس ،
استشعرت ضيقها ، وعزمت على ألا تقبل هذه الضيافة ، ورنا سعيد إليها ، ففطن
إلى ما تسكبد ، فلم يشأ أن يرغمها على شيء يضايقها ، فقال لأخيه :
... أنا أعرفها أكثر منك ، دعها تعيش فى الداخلية ، كما تحب ، على أن
تمضى أيام الإجازات عندك .

وصمتت على مضض ، لم يكن أمامها إلا أن تقبل هذا ، وإلا فأين ستمضى
أيام الإجازات وبينها وبين أهلها سفر ، إنها على يقين أن زكريا يرحب بها ،
ويسره أن يضيفها ، ولكنها تضيق بنفسها ، ولا تطيق أن تصبح عبثا على أحد .
وذهب سعيد يرتب آخر حقيقة من حقائقه ، فرأى صورتها ، وهى تنو إليه
بعينها التى تحدثانه وحده ، فتناولها وأدام النظر إليها برهة خافق القلب ، ثم دسها
بين الثياب فى حرس ، وشرذ ذهنه ، فانتشر فى صدره حب وحنان .
وأصبح الصباح ، فذهب سعيد وإخوته وروحية وصديقه ضابط البوايس ،
الذى لا يفارقه أبدا فى ساعات فراغه وصعدوا معه إلى الباخرة يتحدثونه ، فالتفت
إلى روحية وقال لها :

... إن أنساك لحظة ، سأعيش أفـكـر فيك .

فقات له فى صوت متهدج :

... سأحيا على أمل أن تعود إلى وقد نلت الشهادة ، ثم أسير معا إلى مستقبلنا
المشرق ، الذى تبنيه بيديك .

وأطلقت صفارة الباخرة ، فعانقه إخوته ، وارتجت روحية فى أحضانه قودعه ،
وقد جاشت مشاعرها ، وطفرت الدموع من مآقيها ، وراحت تغسغ فى صوت
تخنقه عبراتها :

... مع السلامة . مع السلامة !

وهبطوا إلى الميناء ، ورفع السلم ، وابتدأت الباخرة تبتعد عن الشاطئ
رويدا رويدا ، وسعيد يلوح لهم بمنديله ، وقد تعلق عيونهم به ، وأحست
روحية غصة فى حلقها ، وانقبض صدرها ، وأخذ قلبها ينزأسى وحزنا ، حتى
إذا ما ابتلع الأفق الباخرة ، راحت تبكى أحر بكاء .

١٧٧

قام جلال في البكرة ، وقد ارتدى ثيابا خفيفة ، وذهب إلى المحطة ، واستقل
القطار ، فلما بلغ غايته ، هبط منه ، فألنى سيارة حكومية تنتظره ، فركبها فانطلقت
في قفار مترامية ، لا يباغ البصر مداها ، وراحت السيارة تطوى الفيافي ، والزمن
يمر ، والطريق لا ينتهى ، والرياح تزجر ، والبرد الشديد يبرق كالسهم في جسمه
فيرتجف ، ونال منه التعب ، ولم يتملبل ، ولم تراوده فكرة أن يراه الناس وهو
في كده هذا ، ليقدروا عمله ، ويتحدثوا في إعجاب عن الجهود المضنية التي يبذلها ،
فقد زهد في اهتمام الناس به وبأعماله ، ولم تعد النظرات التي توجه إليه ترضى
غروره ، فياطما تعلقت به العيون ، وأرهفت الآذان للكلمات التي ينطق بها
في هدوء وثقة .

ولاجت البحيرة على مدى البصر كالمرآة ألقيت في القلاة ، وأخذت تنداح
حتى ملأت الأفق كله ، وظهرت مراكب الصيد تشق عباب الماء ، والريح تزار
من مجرة ، فيتجهدها وجه البحيرة ، والسيارة في هبوط وصعود ، تنطلق كالسهم
يرز في الفضاء ، حتى إذا بلغت البحيرة ، انحرفت يمينا ، وانسابت في حذاء الشاطئ .
وقد غاست عجالتان في اللجة ، ودرجت عجالتان على الرمال ، وجلال يدور ببصره
في الفضاء ، يذتفض من البرد كالصفور ، وهو صامت ذاهل ، فلما دار بخلفه
أنه ميقضى في الطريق كل هذه الساعات الطوال .

ولمح على البعد أشباحا ، أخذت تفتح لعينيه فإذا بها رجال وجمال ، وجنود
وضباط ، فزفر في راحة ، فقد بلغ المكان بعد أن تخدر جسمه ، ومشى فيه
الوصب . ووقفت السيارة ، فهبط منها ، وراح يشد أعصابه ، وخف إليه الضباط
يحيطونه ، فلم ينهش ذلك حواسه ، ولم يشع غروره ، ولم يستشعر زهوا ،
بل انطلق إلى حيث كانت إطارات السيارات مكدسة في الصحراء ، وجعل يطوف
حولها ، ومد يده يجذب إطارا ، فامتدت أكثر من يد ، وقدمت إليه الإطارات ،
ومال ينظر ، فإذا بفارغه قد ملء بشيء ملفوف ، في أشرطة من الكتان ،
في حرص وعناية .

وانتزعت الالفافة ، وفكت الأشرطة ، فملأت خياشيمه رائحة عرقها ، ونظر إلى المادة الصدئة ، فhez رأسه عجباً ، ثم أدار عينيه في الإطارات المسكدة بعضها فوق بعض ، فأذهلته كمية الحشيش المائلة ، التي كانت في طريقها إلى القصور العامرة ، والأكواخ الحفيرة ، ليحرقها الفارغون من السادة والعبيد .

وبدأ عشرات من الضباط يصدعون بأوامره ، ويعملون تحت بهمه ، واقيد إليه عشرات من المهربين ، ممن وقعوا في السكين ، وتقضت ساعات وهو في عمل متصل مستمر ، في الصحراء المقفرة ، والبرد الزمهرير ، دون أن يتأفف أو يتذمر ، بل كان يستشعر سعادة ، فقد صار يجد في عمله لذة ، تفوق تلك اللذة التي كان يحسها كلما سددت إليه نظرات الإعجاب ، التي كانت حمله وغاية أمانيه .

وانتهى من عمله ، وعاد يقطع الفياقي والقفار ، وهو محموم ، ودلف إلى الدار ، وورقد في سريره أليماً ، وبلغه أن وزير الداخلية أرسل كتاب شكر إلى مصلحة الحدود ، ولم يشر إلى المجهود الجبار الذي بذله من قريب أو بعيد ، فلم يكثر ، ولم ينقبض صدره ، علمته الأيام أن عطف الناس وتقديرهم وإعجابهم كالمعالجة الزائفة ، أو كالجب على سطح الكأس سرعان ما ينمحي .

١٧٨

في سكون الليل ، دلفت روحية إلى غرفتها في الداخلية ، وأغلقت الباب خلفها ، وجلست إلى النضد المتواضع القريب من سريرها ، وراحت تكتب رسالة لزوجها ، تبثه لواعج النفس ، وذوب القلب ، وتنفخ فيه الأمل ، كانت وهي مكبة على القرطاس ، غائبة عن كل ما حولها إلا عنه أشبه بطالبة عاشقة ، تحتلح لحظات الصفو لتناجي حبيبها .

كانت اللحظات التي تتسلم فيها رسالة منه ، واللحظات التي تسطر له فيها ما يهتمل في جوفها من مشاعر الجوى ، وإحساسات الهوى ، هي اللحظات المسحورة التي تحتلحها من حياتها ، فهي تعيش في المدرسة متقشفة ، وفي بيت

زكريا محرومة ما تشتهي نفسها ، كانت رقة إحساسها تضيقها ، فما كانت بقادرة أن تطلب شيئاً ، وإن أحست حاجتها إليه ، أو تفعل شيئاً خشية أن تثقل على زكريا وزوجه .

كان زكريا يرعاها ، ويتمنى أن يلبى لها إشاراتها ، وزوجه تحوطها بعنايتها ، فكانت هذه الرعاية تزيد إحساسها توهجها ، فتمنى صادقة أن تنقضى أيام الأجازات ، لتعود إلى مدرستها .

كانت تعيش في رسائله ، وعلى أمل أن يعود إليها يوماً ، وقد حقق حلمه ، فنال الشهادة التي يكدرح في سبيلها ، ثم ينطلقان معاً في طريق السعادة ، طريق المستقبل البسام الذي ينتظرهما .

وتسلمت منه رسالة ، خفق قلبها ، وذهبت إلى حجرتها ، وفضتها وراحت تقرأها وقد جالست على حرف سريرها ، وقد أفعمت الغبطة ، وغمرت النشوة ، واندثقت في جوفها مشاعر الحنان والاهبة :

عزيزتي روحية :

أكتب إليك هذه الرسالة ، والفرح يهزني ، والسرور يعلأ جوانحي ، فأتلقت حولي ، فلا أجد إلا صورتك ، فأرفعها إلى فمي ، أمطرها قبلائي ، ثم أضممها إلى صدري ، أسمعها دقات قلبي .

إنني عائد الآن ياروحية من الكلية ، بعد أن أعلنت نتيجة الامتحان ، وكنت من الناجحين في الابتدائي ، يا طالما نجحت قبل هذه المرة ، ولكن أصدقك القول لم أسر كما سررت بهذا النجاح ، حتى ليخيل إلى أن السكون يشاركني في سروري ، فالشمس ساطعة ، وقد أخبرتك في رسائي الماضية ما يدخله سطاوع الشمس هنا في إنجلترا من بهجة على القلوب ، والأزهار متفتحة ، والهواء يهب دافئاً ، فيتعاون مع الأمل الدفء في صدري على إنعاش روحي .

إنني سعيد ياروحية ، لأنني خطوط خطوة في سبيل أملنا ، وحققت جزءاً من حلمنا ، وقصرت المسافة الفاصلة بين لقائنا ، إن هي إلا شهور من الصبر والكفاح ، ثم نحني الثمرة المرجوة ، وأعود إليك مرفوع الرأس ، نستأنف حياتنا وقد استحققت إجلالك وحبك .

اكتبي إلى ياروحية كثيرا ، وحدثيني عن كل شيء ، فإنني في حاجة إلى همسك ، وإلى مناجاتك ، وإلى حديث نفسك . اكتبني إلى ، فرسائك غذاء روعى ، وأنيسى في وحدتى ، فقد جاءت الإجازة الطويلة ، وأحب أن أعيش خلالها معك ، أحدثك وأصغى إلى حديثك .

سلامى إلى سنية ، وإلى زكريا وزوجه وإلى إخوتى ، وإليك قبلاى وأشواقى .

سهيل .

وطوت الرسالة ، وشردت بصرها ، تنعم بالإحساسات العذبة النابعة من أغوارها ، فانشرح صدرها ، وتهللت أساريرها ، وأحست حنانا يدفعها إلى مناجاته ، فقامت إلى المضد تكتب له ، وتسكب على القرطاس نبضات قلبها ، وتستلهم فرحها ، فانساب كالجدول الرقراق ، تبثه آمالها ، وتهيم معه فى عالم مسحور من الأمنى ، فإذا برسالتها عاطرة بالركة ، نابضة بالحنان ، شفافه تنم عن روحها المتهفافة .

١٧٩

تأهت البلاد لحوض معركة الانتخابية جديدة ، وأعاد الأستاذ زكريا ترشيح نفسه ، وشرع يطوف بدأرته ، كان واثقا من التفاف الناس حوله ، فقد كرس كل وقته لتحسين أحوال ناخبيه ، أسس لهم مستشفى ، وأرغم الحكومة على إنشاء أكثر من مدرسة ، ووضع نصب عينيه مصالح الطبقة الفقيرة ، فكان مطعنا إلى فوزه بثقتهم .

وفى ذات ليلة ، وهو يتأهب للخروج للطواف فى الدائرة ، جاء وفد من أصدقائه إلى مكتبه ، وطلبوا مقابلته ، فلما دخلوا عليه ، قال أحدهم :

— أترشح نفسك على مبدأ الحزب السعدى ؟

فنظر إليه فى دهش وقال :

— أتريدنى أن أتخلى عن مبدئى ؟

وإذا بصوت يقول :

— إذا تمسكت بسعديتك فلن تفوز .

— لماذا ؟

— الشعب كله ناغم على السعديين ، اسمع نصيحتي ورشح نفسك مستقلا ،
إذا لم تنضم للوفديين .

— وما سبب كل هذه النعمة ؟ لأن إبراهيم عبد الهادي اعتقل الإرهابيين ؟
ماذا كان يفعل بعد أن أفرغت الناس موجة القتل والإرهاب .
فقال شاب في حماسة :

— كان يضرب على أيدي المفسدين بيد من حديد ، دون أن يترك الشعب
كله فريسة لرجال القلم السياسى الجلادين ، ماذا فعل الإخوان المسلمون ليضطهدهم ،
وينكل بأقاربهم وذويهم ، لا شئ إلا لأنهم أقارب لأناس ماقهم سوء الطالع
في طريق القلم السياسى .

إننى أذكر أننا قما يوما على أصوات سيارات وجلبة وضوضاء في الحارة ،
فذهبت أنظر ، فرأيت رجال البوايس قد أحاطوا ببيت زعيم من زعماء الإخوان ،
فهرعت إلى الحارة ، أتدسم الأخبار ، فعلمت أن أمرا عسكريا صدر بإلقاء القبض
على حسام الدين ابن الزعيم ، فقد وجد اسمه ضمن كشوف المشتركين في الشعبة ،
« حسام الدين » اسم رنان ينخلع له قلوب رجال القلم السياسى ، فما بالك إذا
كان اسم لابن زعيم من الإرهابيين ، واقتحموا الدار يطلبون تسليم الإرهابى
الخطير ، وإذا بحسام الدين يخرج لهم ، يبش في وجوههم ، حسب أنهم جاءوا
يداعبونه ، فقد كان طفلا في الثالثة من عمره .

لماذا أصدر الباشا أوامره بوقف صرف مرتبات المعتقلين من موظفى
الحكومة ؟ من أين يأكل أبناؤهم وأزواجهم وذووهم ؟ أكان يريد أن تباع
الحرائر أنفسهن في سوق الرقيق ؟

الناس كلهم ضد السعديين ، لا الإخوان المسلمون وحدهم ، ولا الشيوعيون ،
سيعطون أصواتهم للشيطان ، ليتخلصوا من العهد البغيض ، عهد الاضطهاد
والظلم والتعذيب ، فلك أن تختار بين أن تظل على إخلاصك للسعديين ، وبين
أن تكون نائب هذه الدائرة . وأنه ليشرفنا أن نعيد انتخابك ، إذا ما تخلصت
من رجس السعديين .

فشار زكريا قائلاً :

— حضرتك من الإخوان ؟

فقال الشاب في حماسة وإيمان :

— يشرفني أن أكون منهم . وأحب أن أقول لك إن هذا ليس رأي

الإخوان وحدهم ، بل هو رأي الناس أجمعين .

فقال زكريا في انفعال :

— حضرتك تقول هذا هنا في مكتبي ، ولكني قلت هذا القول وأشد منه

في وجه رئيس السعديين إني ثرت يوم وثقت صرف مرتبات المعتقلين ، وهددت

بالانسحاب من الحزب لكي لا أستطيع أن أتخلى عن حزبي في هذه الحمة ،

ولو خسرت نيابتي ، إننا أدينا خدمات جليلة لهذا الشعب ، وقرنا له الغذاء ،

وأنبعثنا عنه شبح الغلاء ، وآثرنا مصلحته على مصلحة الرأسماليين ، وإننا نتقدم

إليه ، وهذه مآثرنا ، وله أن يختار .

فقال الشاب في ثقة :

— الشعب يفضل حريته وربط بطنه من الجوع ، على أن يعلأ بطنه وهو

يرسف في الأغلال ، مكتوم الأنفاس . أنصحك لوجه الله أن تعلن تبرؤك من

السعديين ، وأن ترشح نفسك مستقلاً عن الأحزاب .

فقال زكريا محتداً :

— أشكر لك نصيحتك .

وانصرف الوفد ، وبقي زكريا يفكر ، لن تكون المعركة هينة هذه المرة ،

على الرغم من الخدمات الجليلة التي أداها لدائرته ، ففي يد منافسيه سلاح الشهير

وإنه لسلاح ماض قتال ، ومن الذي يصدق أنه كان يثور في وجه الطغيان ، فهو

في نظر الناس سعدي من السعديين ، فعليه أن يستجمع قواه ، وتذكر أن الدكتور

سعيد بعيد عنه ، فطافت به موجة من الأسى ، فسعيد محبوب في الدائرة ، وقد

كسب بفضلله أصواتا كثيرة في الانتخابات الماضية ، وقر رأيه على أن يستعين

به ، فشرع يكتب له رسالة يطلب منه فيها أن يحضر من فوره ، ليشهد أزره

في الانتخابات .

وسافر زكريا وروحية إلى القاهرة ، بنات برقية من سعيد أنه في طريقه إليها بالطائرة ، وذهبا إلى دار خالد ، فقد نقل إلى رئاسة القوات الجوية ، واستقل الجميع سيارته ، وانطلقوا إلى مطار فاروق .

اندفعت السيارة في الطريق ، وقد غابت الشمس وراء السحب وأخذت الرياح تزجر في صحراء المأظلة ، وراح زكريا وخالد يتجاذبان أطراف الحديث ، وأطرقت روحية شاردة اللب ، كانت تفكر في التلاقى خافقة القلب ، تستشعر حنانا وطفة .

ودلفا من باب المطار ، فلاحتا لأعينهم مباني المراقبة ، فاشتد وجيب قلب روحية ، وسرت رهبة في جوفها ، وانتشر قلق لئيم في صدرها ، كذلك القلق الذي يحسه المحبون قبل اللقاء .

وهبطوا من السيارة ، ودخلوا مكان الانتظار ، وجلسوا على الأرائك ، والهواء البارد يلمح الوجوه ، ولكنهم كانوا مشغولين عنه بالحديث الدائر بينهم ، ورن صوت المذياع يعلن اقتراب الطائرة ، فنهضوا وذهبوا إلى حيث يقف الزوار ، ولاحت الطائرة لتخلق في الجو ، فتعلقت عينا روحية بها ، وطفق قلبها يرفرف حولها ، وهبطت بعيدا ، وراحت تدرج على الأرض حتى دنت منهم ، ثم وقفت ، ووضع السلم ، وفتح الباب ، فمدت روحية عنقها ، وقلبها في صدرها يخفق بكجاح حمامة .

وتعلقت العيون بالهابطين ، ولحنته وهو يهبط في الدرج ، فصاحت أصوات في أغوارها تهتف : « حبيبي . . حبيبي » ، ولكن شفقتها رددتا في لهفة :

« سعيد . . سعيد » ، وهرع خالد وزكريا إليه ، وطفقوا يتعانقون ، ووقفت روحية على البعد تحس رغبة في أن تجرى إليه ترمي في أحضانها ، ولكن خجلها سمرها في مكانها ، ولحها فهتف في وجد :

— روحية !

ثم هروا إليها يعانقها ، وقد غرقت العيون بالدموع ، وأسرع خالد وزكريا ليتسلما حقائبه ، وتركها وحيدتين ، يتناجيان ويشكوان تباريح الهوى ، ويتزمان بأهازيج الهيام .

١٨٠

احتدمت المعركة الانتخابية ، فراح زكريا وخالد وجمال وسعيد ويحيى يطوفون بالدائرة ، يحضون الناس على إعادة انتخاب نائهم ، الذى مثلهم فى البرلمان ، فرفع صوتهم بحماسة بعد خفوته ، كان زكريا يعلن الناهيين أنه منهم وبهم ، وأنه فقير مثلهم ، يحس آلامهم ، ويعرف آمالهم ، فهو خير من يمثلهم .

وظف خالد يتحدث إلى الناس فى حماسة عما أداه زكريا لهم ، وينذركهم بما فعله من أجهلهم ، ويحاول أن يؤلف القلوب حول أخيه ، فكان الناس يبشون فى وجهه ، وما كان أحد يغارضه ، حتى لو كانوا من معارضى زكريا ، كانوا يتقون نوره وإطلاق لسانه فيهم ، فكان ينصرف وهو يحسب أن الدائرة كلها معهم .

وراح سعيد ، يعالج المرضى وينشر دعايته ، كان كلما مد بصره إلى بقعة فى الدائرة ألقى أثرا ناطقا من آثار زكريا ، فهذه المدرسة النموذجية السامقة ، وهذه المدرسة الثانوية ، ومدرسة التجارة المتوسطة هذه ، والمستشفى الذى وسعه ، أضاف إليه أقساما ، كل أولئك شواهد على ما أداه لهم من جليل الخدمات وكان إذا ساب فى الليل فى الحارات والشوارع الضيقة التى كانت تغرق فى الظلام الدامس الثقيل ، ألقى النور الكهربى يغمر الطرقات ، ويبدد الظلمات ، فتنتشر فى صدره الثقة والاطمئنان .

ورأى الحمامات الشعبية أنشئت هنا وهناك ، وطرقات الأحياء الفقيرة قد رصفت ، ومست يد النظافة الأحياء ، بعد أكوام القمامة والقاذورات ، ووجد مواقع الترام قد خططت فى الشوارع المزدهمة بالسيارات والناس ، بعد أن كانت كبحر متلاطم الأمواج ، فطفق يسأل نفسه فى إنكار : أيجحد الناس هذه الأعمال ، أيقبلون عيونهم دونها ؟

وإذا أنكروا كل هذه الفعال ، أينسون أنه ما من بيت من بيوتهم إلا وقد أدى زكريا له خدمة ؟ أينسون أنه ثار لموظفى السكة الحديد وعمالها حق رد لهم حقوقهم ، وجل أهل دائرته من موظفى السكة الحديدية وعمالها أينسون أنه

كأنهم من أجل الصيادين الفقراء ، حتى يرفع القيود المروضة على الصيد في المناطق المتنوعة ؟ أينسون أنه طالب بتعويض منكوبي الغارات الجوية ، وكان بعضهم من ضحايا الغارات ؟ وإذا نسوا كل هذا أينسون موقفه في البرلمان يوم ثار في وجه الحكومة ، لأنها تريد أن تعطى ملايين الجنيهات لشركات النقل إعانة ، وما كانت تلك الشركات في حاجة إلى عون ، حتى تنجح في إلغاء هذه الإعانة ، التي كانت تستسرب من ميزانية الدولة إلى جيوب بعض الرأسماليين الأغنياء ؟ أبدا ، إن سعيد لا يصدق أن ينسى أهل الدائرة جلائل الأعمال .

واشتد أوار المنافسة ، زكريا لا يملك إلا إيمانه ، والوعود التي يبذلها ، بينا راح منافسه يحوس خلال الدائرة ، والذهب في ركابه ، ينثره هنا وهناك يشتري به الأصوات . وتقضت الأيام والليالي في دعاية وكفاح ، مواكب تطوف بالأحياء إثر مواكب ولافتات من القماش شدت وراء لافتات ، ونشرات توزع ، وخطب تلقى ، وأبواق الدعاية تدوى في كل مكان ، ولاحت تباشير المعركة في صبيحة يوم الانتخابات ، فإذا باليأس يتسرب إلى قلب زكريا ، أحس البوليس قلب له ظهر الجحش ، وانضم جهرا إلى خصمه ، ورأى الأموال تبعثر بغير حساب ، وألقى بعض معارفه يعرضون عنه ، وكاد يستسلم ليأسه ، ولكنه عزم على أن يثبت حتى النهاية .

وتكدست الجوع عند لجان الانتخابات ، واندفع الأميون يدلون بأصواتهم ، فكابوا ينتخبون مرشح الوفد ، وأحس سعيد غيظا ، ولكنه لم يقنط ، كان يظن أن أنصار منافسهم جاءوا في الصباح ليقتوا في عضدهم ، ولكن أمواج الناخبين كانت تتدفق ، وإذا بالمرشح الوفدي ينال أصواتا وراء أصوات ، فشى اليأس إلى قلب سعيد ، ولكنه أبى أن يرفع راية التسليم ، فما كان من طبعه أن يسلم ، وتقدم رجل ما إن رآه سعيد حتى راح يرقبه في اهتمام ، فقد سهر إلى جوار ابنه ليلي ، حتى انتشله من الموت ، وأرهف سمعه ، فإذا بالرجل ينتخب مرشح الوفد ثم يلتفت إلى سعيد ويقول :

— آسف يا بني ، إنها مسألة مبدأ .

وهب سعيد حانقا ، وانطلق ثائرا ، فقد انتهى الأمر ، سقط زكريا في الانتخابات مما في ذلك ريب ، سقط على الرغم من أنه أدى إلى ناخبيه أجل الخدمات ، بذل جهد

الجسارة ، ثم أرغم على رفع ثمن أخطاء غيره ، فكان شهيدا من شهداء السيامة
ونالقي الإخوة في البيت ، وعلى وجوههم الأسى ، فقال زكريا في حزن :
— لن أرشح نفسى للانتخابات بعد ذلك أبدا ، إلا إذا تعلم الناخب لماذا
ينتخبنى ، لن أقدم للانتخابات أبدا ما دامت انتخابات بوليس وأموال ، وما دام
الناخب لا يعرف حقوقه ويحسب أن الحكومة ما شرعت الانتخابات إلا ليركب
الفقراء السيارات ، يأخذوا من المرشحين الأغنياء بعض المال .

١٨١

مر شهران كالم بهيج ، رشف فيهما سعيد وروحية كأس السعادة ، وحلقا
في دنياهما المسحورة كمرأشتين طليقتين ، أخذتا تمرحان في جنة من الأزهار
المتفتحة في الربيع .

راحا يجوسان خلال الحقول ، وتمرحان على شاطئ البحر ، وينطلقان في
الفجر يستقبلان الشروق ، ويقفان على السكورنيش يرقبان الغروب ، وينسابان
في الليل يتهاوسان ، والقمر يفرش لهما الطريق بنوره الواهى اللطيف ، فيحرك
فيهما كوامن الفز ، فيتناجيان كهاشقين برح بهما الغرام
سطرا حبهما على سطح الماء ، وعلى رمال الشاطئ ، وعلى وجه القمر ، وفى
صفحة السماء ، وعلى قرص الشمس ، وعلى أنفاس السحر ، وعلى العشب الأخضر ،
وعلى الحجر الصلد . كانا كبليبين لاهم لهما إلا شذو أناشيد الحب ، وأهازيج
الغرام ، والتسبيح في محراب الجمال .

وأفغم بالنشوة ، حملت روحية ، وهذا يفيدها ، ويفجر في جوفه مشاعر
رقيقة عذبة ، تجعله أكثر حنانا وأرق نفسا ، ميصبح أبا يكسر كل وقته
للعذبة كبده ، يرعاه خافق القلب منتشيا .

والتفت إليها وقال مداعبا :

— سأغار من ابنك لأنه سيستأثر بحبك .

فقال له فى دلال :

— لن أحب أحدا مثلكا أحبك .
— ليتك ياروحية تسافرين معي .
— إن هـى إلا شهـور قليلة من الفراق ثم نلتقى .
— إننى أجد لأستحق احترامك .
— إنك جدير بكل احترام .
وحانت ساعة الرحيل ، فجعل يرنو إليها فى شوق . يحس انقباضا ورغبة فى
البكاء ، ولكنه تجلـد ، وبش لها ، ثم ضمها فى وجد ، يسمعها دقات قلبه ، فشـر
بها تنتفض بين يديه ، فغمغم مشجعا :
— شهـور قليلة ثم نلتقى ، ولن أنركك بعدها أبدا .
وانهمرت دموعها على خديها ، وكادت يضعف ، وكادت عيناه نخوانه ، ولكنه
كبت عواطفه ، وتركها وهو يقول :
— إلى اللقاء ، إلى اللقاء ياروحية !
وانطلق ، وهى تنظر إليه من خلل دموعها ، فلما غاب عنها ، أسرع إلى
النافذة تودعه . فإذا به ينطلق فى سيارة مع زكريا وصديقه ضابط البوليس ،
الذى لا يفادـره فى ساعات فراغه ، وغاب عن عينيها ، فارتدت على مقعد وهى
تنتحب ، وكل خالـجة فيها تصيح فى أسى : « حبيبي . . حبيبي » .

١٨٢

عكف خالد على عمله فى شغف ، كان يشعر أنه يستطيع أن يؤدى فى عمله
الجديد خدمة للقوات الجوية ، فبذل غاية جهده فى إنفاذ الأمانى التى تداعب
خياله ، دون أن يعلن عن عمله ، أو يأبه للعقبات التى توضع فى طريقه
ودق جرس التليفون فى مكتبه ، فرفع السماعة يتحدث :
— ألو .

وإذا بوجهه ينبسط ، ويقول معتذرا :
— والله لم أكن أدري أنك هنا فى القاهرة .

ودار الحديث رقيقتا بينه وبين صديقه حامد ، وما انتهى حتى كان قد وعد صديق طفولته أن يزوره في بيته ، ليثبت له أنه لم ينسه ، وأنه ما زال يذكره ، وأنه يكن له نفس الحب الذي كان يكنه له أيام طفولتهما .

ووافي اليعاد ، فانطلق إلى صديقه ، ووقفت السيارة أمام البيت ، فإذا بالسائق يسرع يفتح له الباب ، فيهبط في ثياب الطيران الزرقاء ، وهي رأسه قبعة . حليت بالقصب ، وراح يرقى في الدرج هونا ، ثم طرق الباب في رفق ، فلما انفتح ألقى أمامه سهام ، بشعرها الأسود السبط ، وعينيها السوداوين البراقتين ، وجسمها الممتلئ في إغراء ، فارتبك قليلا ، ثم قال :

— كيف أنت ؟

ومد يده يصالحها ، فإذا بها تمد له يدها ، ثم تدنو منه ، حتى خيل إليه أنها ارتمت في أحضانه ، فخفق قلبه في قلق ، ونظر إلى عينيها ، فإذا به يلمح فيهما نداء ، وألقى شفثيهما مزمومتين كأنما تتأهب للقبيل ، فخشى أن يكون واهما ، فتطلع إليها حائرا ، ثم ابتعد عنها قليلا ، وقال في صوت متهدج :

— حامد هنا ؟

فقات في دلال ، وهي تلقى برأسها إلى الخلف في إغراء ، فيسمع صدرها :

— تفضل !

وسارت أمامه ، بجسمها الممتلئ الرجراج ، وهو يتطلع إلى مفاتيها وقد نبت في جوفه قلق ، أحس في أعماقه لأول مرة أنها امرأة ، كانت في عينيه طفلة دائما ، حتى بعد أن تمت واكتملت أنوثتها .

ودلف إلى غرفة الاستقبال ، وغاص في مقعده ، وقد تحركت في نفسه وساوس وأوهام ، أحقا ارتمت سهام في أحضانه ؟ أحدث هذا أم محض خيال ؟ ودخل حامد مهللا ، فنهض خاله لاستقباله ، وتعانق الصديقان ، وتدفق حامد في حديثه ، وخاله يصغى وقد رفت بسمه على شفثيه ، وسهام ترنو إلى خاله في وله واشتهاء ، فلا يسمعه إلا أن يسترق النظر إليها ، فتتلاقى العيون ، ويلمح ذلك البريق المتألق في عينيها فيتدسس الاضطراب إلى روحه ، ويسائل نفسه : أحقا ما يدور في رأسه ؟ ويشيح بوجهه عنها ولكن سرعان ما يعاود النظر إليها ، فتسرى رعدة في بدنه ، ويغوص في مقعده حيران .

وتصرفت الساعات في حديث شجى ، فأحست سهام نفسها تتفتح ، وقلعها ينبض بالحنان ، كأعماسته عصا سحرية ، فدبت فيه الحياة ، وظل خالد في شكه ، لا يكاد يطمئن إلى قرار ، واستمر حامد في حديثه ، وهو غافل عن حقيقة المشاعر المتفجرة في جوف خالد وسهام .

وسجا الليل ، فنهض خالد مستأذنا ، ومد يده يصافح سهام ، فإذا بها تمد يدها ، ثم تضغط يده في حنان ، وعيناها تبوحان بالوجد والهيام . أضغطت على يده حقا ؟ إنه في حيرة من أمرها .

واسترخى في السيارة ، وأرخى لحياله العنان ، فإذا بالمشاهد الراسية في ذاكرته تطفو على ذهنه ، وإذا به يرى الحوادث مجلوة أمام عينيه ، إنه يرى سهام وهي طفلة تفتح له الباب ، وترحب به ترحيب الأطفال ، وإنه ليذكر أنه أخذها معه في سيارته مرة واحدة ، وقابل فتاة كانت تطارده لتتزوج ، وإنه ليذكر أنها أشاحت بوجهها عنهما لما تلاقيا يتحدثان ، أكانت تعرف الحب في تلك السن المبكرة ؟

وتذكر ذلك اليوم الذى ذهب فيه إلى حامد يتحدث عن عزمه على الزواج ، إن الحديث الذى دار بينه وبين سهام ليرن في مخيلته كصوت يرن في كهف : « نويت أن أتزوج » « ممن ؟ » « من درية ابنة خالى » « أنتجها ؟ » « إننى أهواها بكل خالجة من خوالجى » . « فكر جيدا قبل أن تقدم ، فهذا أخطر قرار تقرره في حياتك » أكان هذا حديث اللحظة أم كان نابعا من أغوار نفسها ؟ أكانت تريد أن تفتح عينيه على شيء بعينه ؟ أكانت تصيح ليسمع خفقات قلبها ؟ أكانت تقول له إنها تحبه ، وعليه أن يتدبر ذلك قبل أن يتخذ أخطر قرار يتخذه في حياته ؟ إنه لا يكاد يدري من أمره شيئا .

وبلغ الدار ، فإذا درية مشغولة بابنها ، فدخل حجرتها والأفكار تمور فى رأسه ، تذكر أنه قرأ قصة « لزفانج » عن امرأة أحب رجلا وشغفت به حبا ، وهو غافل عنها ، لا يحس وجودها ، إلى أن أرسلت إليه ذات يوم رسالة ، تقص عليه فيها قصة غرامها ، فذهب إلى كتبه ، وراح يبحث عن الكتاب حتى وجده ، فاسترخى فى مقعده وراح يقرأ : « رسالة من امرأة مجهولة » .

وانفعل وهو يقرأ ، خيل إليه أن المؤلف يروي قصة حياته ، إن سهام تحبه دون أن يدري ، وقد كتبت حبها بين جوانحها ، وأمسى في القراءة فإذا بقلبه يرفرف بجناح حمامة ، وإذا بالحنان يتدفق إلى صدره ، وإذا بالدموع تطفر من مقلتيه ؛ وما انتهى من القراءة حتى عزم على أن يهدي القصة لسهام ، ليرى أثرها في نفسها ، بل لينبئها أنه كشف أمرها ، وأنها تهواه .

١٨٣

في سكون الليل جعلت روحية ثن في فراشها ، وتتأوى من الألم وحيدة ، وتعض وسادتها ، وتحس رغبة في أن تصرخ ، ولكنها كانت تكبت رغباتها ، كانت تشفق على تلميذاتها أن يقمن من نومهن مفزوعات ، فقد عاودها ذلك المرض الذي يمزق أمعاءها .

كان الليل ينقضى ممضا ثقيلًا ، فإذا ما انجابت الظلمة ، وبزغ النهار ، تتجامل على نفسها ، وتذهب إلى الفصول تلتق دروسها ذابلة مكدودة ، وما كانت بقادرة على أن تهجر عملها بعد أن سافر زوجها ، صارت تعيش من دخلها ، وترسل إلى أهلها ما توفره منه ، ليواجهوا به قسوة الحياة .

وفي أيام الأجازات تذهب إلى بيت زكريا ، تكلم ما بها ، وتغالب في هجمة الليل آلامها ، حتى لا تقلق زكريا وزوجه ، كانت تخشى أن تند منها آهة ، أو يقهرها ضعفها ، فتتواءم وتنهال ، فهي ضيف ، فينبغي ألا تثقل على مضيفها ، وإنها لتفضل أن تترك وحيدة يقطع الألم أمعاءها على أن ترغمهما على تمريضها ، والسهر إلى جوارها يواسيها ، فلماذا تجشمهما هذا التعب ؟ لماذا تكون لهما مصدر قلق وإزعاج ؟

واشتدت آلامها ، فلم تجد مفرا من أن تدخل المستشفى ، فذهب زكريا معها وأخذ صادق يرعاها ويكرمها ، كان يعلم أنها أثيرة عند سعيد زميل الدراسة ، فكان يبالي في العناية بها .

وعلم الأطباء أنها زوجة زميلهم الغائب عنها ، ليكافح في بناء مستقبله ومستقبلها ،

فكانوا يمطفون عليها ، ويبدلون كل ما في طاقهم لراحتهما ، ودخل صادق ذات يوم عليها ، وقال لها :

— كيف أنت الآن ؟

فقالت شاردة البصر :

— ليت سعيدا كان هنا !

فقال صادق في عتاب :

— أكان يفعل أكثر مما فعلنا ؟

— إنك لا تدري ، مرضى يفر منه ، يخشاه !

فقال لها صادق وهو يتنسم ، ويعيش في نظارته :

— اطمئني ، قضينا على مرضك ، ولن يهود .

وأقبل لبيب وزكريا ويحيى يزورونها ، فجعلوا يحادثونها ويتوددون إليها ، ويظهرون نحوها ضروب العطف والحب ، وهي ترنو اليهم شاكرة ، تستشعر في أعماقها راحة ، جاءوا جميعا إليها يهودونها ، ويبدون لها المودة .

وقاموا يشأهبون للانصراف ، فدنا لبيب منها وقال :

— أتريدين شيئا ؟

فغمغمت في صوت خافت :

— متشكرة .

فقال لها زكريا :

— أتحبين أن أحضر لك شيئا معي ؟ سأتي غدا للاطمئنان عليك .

— متشكرة .

— ألا تريدين شيئا ؟

فقالت وقد غامت عيناها بالدموع :

— كل ما أرجوه ألا تذكروا لسعيد أنني مريضة ، فقد قرب ميعاد امتحانه

وانصرفوا وتركوها وحدها ، فأسبلت عينها ، وطفقت تبتهل إلى الله في حرارة أن يحقق له آماله ، وأن يسدد خطاه .

١٨٤

أذن الأطباء لروحية بالخروج بعد إبلاها من مرضها ، فحملها زكريا إلى داره ، وجعل يرعاها هو وزوجه ، فإذا بإحساسها تتحرك ، ويأخذ في وخزها ، لماذا تبقى عبثا عليهما ؟ كانا معها كريمين ، فليس من السكرم أن تستغل هذا السكرم ، ماذا يقول الناس عنها إذا رأوها هكذا ، ترعاها امرأة غريبة ؟ إنها تحب هذه السيدة الجليلة التي واستها ، واعتدت بها في دور نقاهتها ، ولكن أياكفي ذلك الحب لتثقل عليها ؟

لم يعد لها مقام في هذا البيت ، لن تطيق أن تعيش عبثا عليهم ، كانت تحس وهي سليمة ، كما جاءت في أيام إجازاتها ، أنها دخيلة ثقيلة ، فما بالها تتمدد في فراشها لا تؤدي عملا ، بل تستنفد من أهل البيت جهودا ؟ عليها أن تعود إلى أمها ، وألا تتمكث في دار زكريا لحظة واحدة ، فأما أولى بالسهر عليها من هؤلاء السكرام . ودخل عليها زكريا حجرتها ، يسألها عن صحتها ، فقالت له :

— أريد أن أسافر إلى أمي .

فنظر إليها في دهش ، وقال :

— كيف تسافرين ولا زلت في دور النقاهة !

— صحتي جيدة والحمد لله ، ولا خوف على من السفر .

— لن أسمح لك بالسفر أبدا وأنت على هذه الحال .

— سأسافر ، وأشكر لكم عنايتكم بي .

ورفض زكريا ، واج في الرفض ، وأصرت روحه على السفر ، فلم يسمع زكريا إلا أن ينزل على رغبتها وهو كاره ، وأخذت تتأهب للسفر ، تجمع حوائجها ، وهي تحس سرور الطائر الحبيس ، الذي فتح له باب القفص ، ليخفق بجناحيه طليقا في الفضاء .

وسارت واهنة ، والتفت إلى زوج زكريا قبل انصرافها ، وقالت :

— لن أنسى كرمك ما حييت .

فغمغمت السيدة الجليلة .

— مع السلامة ، وأتمنى لك صحة طيبة .

وخرجت روحية وزكريا في إثرها ، وركبا سيارة انطلقت بهما إلى المحطة ، ودلفت روحية إلى القطار ، وجلس زكريا إلى جوارها ، حتى إذا ماذى الجرس إيدانا بالرحيل ، نهض وصافحها ، وقال لها :

— إننا في انتظارك ، ونرجو أن تعودى قريباً . مع السلامة !

وراح القطار يشق طريقه بين المروج ، يحمل المريضة التي أثبت عليها كبرياؤها أن تستريح حتى يتم لها الشفاء ، وطفق القطار في ضجيج وعجيج ، فخيّل لروحية أن رأسها بدأ يدور ، وأنها تنكاد أن تنهار .

وبلغت القاهرة منهوكة محطمة ، فاستقلت سيارة إلى شارع القصر العيني ، وأخذت ترقى في الدرج ، الذي طالما صعدته قفزا ، وهي تتحامل على نفسها ، ودخلت على أمها وقد تحركت آلامها ، فهرعت إليها ملهوفة ، تضع يدها خلف ظهرها ، وتعودها في الشقة المتواضعة ، التي تنطق برقة الحال ، إلى سرير متواضع ، وتعاونها على أن تتمدد فيه ، وقد تدفقت الرهبة والحنان إلى كهف صدرها .

أخذت روحية تلتقط أنفاسها في جهد ، فلما هدأت قليلا ، وبدأ خيالها يحلق في عوالمه ، فكرت في سعيد ، فخيّل إليها أنه قلق عليها ، يحس ما تنقاسى من آلام ، فرأت أن تكتب إليه رسالة تسكن الطمأنينة قلبه ، فقامت تكتب له :

حبيبي سعيد .

صحتي جيدة ، وإنى أعيش هنا في سعادة وهناءة ، لا ينقصني شيء إلا أنت ، فإذا عدت إلى بعد أن تنال الشهادة التي احتملناها ألم الفراق من أجلها ، كلمت سعداتي ، وتحققت كل الأمنى والأحلام .

أراك في يقظتي وفي منامى ، وابتهل إلى الله في سكون الليل ، وفي السحر أن يوفقك وبرعائك .

إننى أعيش لك ، يداعبنى أمل واحد ، أن أسمع يوما أنك نجحت فيما تجشمنه المتاعب من أحله ، وأنتك عائد إلى .

أحب أن أهمس في أذنك أنك لن تجدنى وحدى عند أوبتك ، بل ستجد معى

من تغار منه قبل أن تراه ، ابننا الحبيب الذي دنت أيامه ، والذي عن قريب
يرى نور الحياة
أقبلك ، وأقبلك ، وأقبلك .

روحية

وطوت الرسالة ، وراحت تكتب العنوان ، ثم تحاملت على نفسها ونهضت ،
وسارت إلى السرير ، حتى إذا بلغته ارتمت فيه مكدودة مبهورة الأنفاس .

١٨٥

تعطلت سيارة خالد ، فأخذ يعالج إصلاحها في الطريق وهو ضيق الصدر
حانق ، فقد وعد سهام يوم قدم لها قصة « رسالة من امرأة مجهولة » لتقرأها ،
أن يحضر زيارتها في الساعة الرابعة مساء هذا اليوم ، وهاهي ذي الساعة قد
أشرفت على الخامسة ، وهو إلى جوار سيارته يشعر بغيظ شديد .

ودار محرك السيارة ، وقد بدأ الليل في زحفه ، ليدثر السكون بردائه الأسود
الثقل ، فانطلق خالد يطوى الأرض ، فلما بلغ دارها ، راح يرقى في الدرج
قفزا ، وطرق الباب خافق القلب ، فأسرعت تفتحه ، وتطلع إلى وجهها ، فألفاها
مقطبة الجبين ، فابتسم ابتسامة خفيفة ، ومار خلفها إلى غرفة الاستقبال .

وجلست وقد وضعت ساقا على ساق ، ثم نظرت إلى الساعة في معصمها
في تهرم ، فمرر يده على شعرها وقال :
— أعرف أنني تأخرت .

فقالت وهي ترنو إليه عاتبة .

— لم يحدث من قبل أن انتظرت أحدا كل هذا الوقت .

فقال معتذرا :

— تأخرت مرغما ، تعطلت السيارة في الطريق .

وانقشع عبوسها ، وراحت تنظر إليه مشرقة الوجه ، فقال لها :

— أقرأت « رسالة من امرأة مجهولة » ؟

فخفق قلبها ، وصعد الدم إلى وجهها ، وقالت وهي تجمع شتات نفسها .

— نعم قرأناها .

— أعجبتك ؟

فقالت وقد اعتدلت في جالستها ، وران على وجهها الجذ :

— هذه القصة فتحت عينيك ؟ ألم تكن تدري ؟ ألم تحس وجودي ؟

فقال في اضطراب :

— لم أكن أعرف .

فقالت في أسي :

— عرفت بعد أن حطمتني ، بعد أن قضيت على حياتي ، بعد أن

انتهى كل شيء .

وساد الصمت بينهما ، كان صمتا قلما ، أراد أن يقول شيئا ، ولكن لم يجد

لسانه ، وشردت ببصرها بعيدا ، تلم أطراف شجاعتها لتعترف له ، لتبوح بحبها

وتريح صدرها الذي ضاق بسرها سنوات ، ثم قالت :

— أتذكر ذلك اليوم الذي أخذتني معك في سيارتك ، وذهبت تقابل

امرأة أحببتك ؟

إنني لا أنساه ، ثارت غيرتي لما رأيتهما تتناجيان بعيدا عني ، كنت طفلة

في ذلك الوقت ، ومع ذلك راودتني فكرة أن أهاجم عليها ، أقطع شعرها وأمزق

ثيابها ، وأصرخ في وجهها أن تتركك ، وأن تباعد عنك ، فإنك لست لها ،

ولكن خجلي قهرني ، ليتني فعلت ذلك ، واسترحت من الغيرة التي ظلمت تنهش

صدرى كلما رأيته خارجا من البيت ، كانت غيرتي تصرخ في أغوارى أنك

ذاهب لملاقاة امرأة ، فتمصفت بي ، وتركتني فريسة للضنى والعذاب

أتذكر ذلك اليوم الذي جئت فيه إلينا تقول إنك ستخطب درية ابنة خالك ؟

كان يوما قاسيا مريرا في حياتي ، بكيت حتى كادت كبدي تتصدع من البكاء ،

ولكن ماذا تفعل الدموع ؟ ذهبت مسرورا إليها ، وما دار بخالك أنك طعنت قلبي

طعنة مزقته ، فتطاير في الهواء .

لم أحقد عليك ، ولم أملك أن أكرهك ، فما كان في وسعي أن أحقد عليك

أو أبغضك . عشت حزينة أبكى حي الضائع ، وجاء إلى أكثر من رجل ، رفضتهم

جميعها ، ثم رأيت أن أقبل أي رجل يتقدم إلى حتى لا أغضب أملي ، وتزوجت ،
أنظن أنني وجدت سعادة في زواجي ، لم أجد إلا الألم والعذاب ، فقد كنت
حائلا بيني وبين سعادتي ، كان زوجي كلما سعى إلى ، وجدتك قائما بيني وبينه ،
فأضطرب وأنفر منه ، فكان يجب اشرودي وإعراضي عنه .

إنني لا أجلس إليه إلا إذا أطفأ الأنوار ، لكيلا أراه ، وأراك أنت بهين خيالي
وأعيش معك في الأوهام . إنني أشفق على هذا الزوج الذي حاطني بمطقة ومنحنى
حبه ، ولم أمنحه إلا جسدا ، بينا خيالي لا يراه ولا يحسه ، بل يهيم مع
من بهواه .

إنني لا أعرف من ألوم ، ألوم نفسي ، لأنني لم أكشفك بحبي قبل وقوع المأساة ،
أم ألومك أنت ، لأنك لم تقرأ في عيني وجددي ، ولم تصنع لدقات قلبي ، أم ألوم
ذلك القدر الذي فرق بيننا ، وخط بيده قصة شقاء .

إنني امرأة معذبة ، تعيش بلا أمل ، بعد أن تقوضت أمام عينها الآمال .
وأطرقت حزينه وقد تفرقت الدموع في عينها ، وحاول أن يتكلم ، ولكن
المشاعر الزاخرة في صدره ألحمت لسانه ، فمد يديه ، وتناول يديها في حنان ، وغنم :
— سهام .

ثم ضمها إليه ، وراح يقبلها في وله وسعار .

١٨٦

روحية مسجاة في فراشها ، غاض لونها ، ووهن ذلك البريق الأخاذ ، الذي
كان يشع من عينها ، وأخذت أختها سنية تغدو وتروح ، تسهر على راحتها
وتمريضها ، وكانت أمها تقترب منها خافقة الفؤاد ، وتقول لها :
— كيف أنت الآن يا روحية ؟

فتغمغم روحية في ضعف :

— الحمد لله .

ثم تسبل جفنيها ، فتحس أمها خنجرا يمزق أحشاءها ، فتنسل إلى الردهة
تراودها الوسواس ، وينش الخوف أحشاءها ، وتتلفت في قلق تستشعر رغبة في
البكاء ، وارتفع صوت ينادي في « بشر السلام » على روحية ، فهرعت سنية تنظر ،
ثم هبطت في الدرج تقسم برقية وقد انتشرت رهبة في جوفها ، وفضت البرقية

مضطربة ، وقرأتها ، فإذا بعوجة من الشراخ نمرضا ، وتطلق مهرولة إلى حيث
ترقد روحية ، تقول في الشراخ :

— برقية من سعيد .

فتفتح روحية عينها ، وتقول في لفظة :

— ماذا فيها ؟ أقرئها على :

فتقرأ في صوت متهدج : « نجحت ولدت الشهادة . عائد إليك » . فتقول روحية
في ضعف :

— سنية ، لا أستطيع أن أحتمل أكثر من ذلك ، انتهى ما كنا نكافح
من أجله ، لن أحتمل العيش يوما واحدا وهو بعيد عني ، اكتبني إليه ياسنية
أن يعود ، أن يعود إلى ، إلى انتظره .

ماذا تفعلين ياسنية عندك ، هاتي ورقة واقتربي مني ، اكتبني : حبيبي سعيد ،
ولكن لا تكتبني شيئا ، لا أستطيع أن أصبر حتى تصل إليهِ رسالتك . اذهبي
ياسنية وحادثيه في التليفون . قولي له إني مريضة ، وإني أشتي ، أن أراه ،
ليتة يأتني الساعة ، آه لو جاء لذهبت عني كل أمقاهي ، إن مرضي ياسنية يهرب
منه ، يخشاه . اذهبي ياسنية وحادثيه ، اذهبي من أجلي .

واقتربت سنية منها وقالت :

— استريحي باروحية ، سأكتب إليهِ أدعوه إلى العودة ، وعليك أن تتغلي
على مرضك ، حتى إذا جاء وجدك منفتحة كالزهرة .

— لم أعد أحتمل الصبر ، لا أطيق الانتظار ، اذهبي ياسنية الآن وحادثيه
في التليفون . اذهبي . . . اذهبي .

وخرجت سنية تطلب لندن لتحادث سعيد ، وتخبره أن زوجته مريضة ، لم تعد
تحتمل عذاب الفراق ، بعد أن نجح وتحقق حلمهما الذي كانا من أجله ، واحتملا
في سبيله صنوف العذاب .

وأغلقت روحية عينها ، فخيل إليها أن سعيد يدنو منها ، فتحتت في وجد :

— سعيد تعال . . تعال ، سعيد . تعال . إلى يا حبيبي .

ونامت ، وغابت عن الوجود في غيبوبة طويلة ، فخفت أمها إليها مفزوعة

تصيح في رعب :

— رومية حبيبى ، رومية .

وظللت تماذجها حتى فتحت عينها فى رهن ، ونغمضت :

— أين أنا ؟

فقلت أمها فى حنان :

— فى حوضن أمك ياروحى .

ونظرت إليها نظرة كلها حب ، وإذا بصوت حنون يهيمس فى نفسها : « رومية

حبيبى ، ليتنى أفديك »

١٨٧

وقف خالك وقد وضع قدمه على سلم سيارته ، وأسند إليها ظهره ، ثم نظر فى ساعته ، وراح يذهب ويحس ، وقد تجتمعت فى صدره سحب من القلق والرغبة والاشتيا ، فهذه أول مره يواعد فيها سهام على الالتئام خارج دارها .

ومد بصره يكشف الطريق ، وعاود النظر إلى ساعة معصمه ، وراح يغدو ويروح هونا ، وقد أطلق لخياله العنان ، يفكر فيما يفعله لما توافيه فى الميعاد ، أيزهد إلى طريق الهرم أم يتجه إلى طريق صحراء المأظرة ؟

ولحها مقبلة ، ترتدى ثوبا رياضيا فى لون الفيروز ، وقد عقدت شعرها فى عناية ، وجهلت تتقدم بخطوات ثابتة ، وجسمها المعتلى يترجرج فى إغراء ، فحقيق قلبه ، وأحس ديب النمل يسرى فى جسمه ، وكأن إسفنجة وقفت فى حلقة فطفق يزدرد ريقه ، ويتلفت فى حذر ، خشية أن يراها أحد ، فهو زوج وأب لولد وطفلتين ، وهى زوج رجل لم يجد عندها إلا الجحود والنكران .

ومدت يدها تصافحه ، وهى ترفع وجهها إليه ، تألق عيناها بريق ساحر نفذ إلى فؤاده كالسهم ، فصافحها وقد سرى فى جوفه اضطراب ، وفتح لها باب السيارة ، فدلقت فى رشاقة إلى المعقد الأمامى ، وهرع يجلس إلى جوارها ، وتحركت السيارة ، فقلت :

— جئت فى الميعاد ، على الرغم من أننى فكرت فى أن أناخر عن موعدك ،

انتقاما منك لذلك اليوم الذى تأخرت فيه عن موعدى .

فقال يعاينها :

— أهون عليك ؟

— فكرت ولكن لم يطاوعني قلبي .

فقال مسرورا :

— إني منصور ما دام قلبك معي .

فقال وهي تمد بصرها تنظر من زجاج النافذة إلى الفضاء :

— أخشى أن تتأمر أنت وقلبي على .

فقال وهو يبسم :

— ضعيفان يفتيان قويا .

فقال في مرارة :

— بل يا ويل الضميف إذا اتفق عليه قويان .

وانطلقا ، هو مسرور لأنه وجد امرأة متزوجة تحبه ، وتجاوز بكل شيء من أجله ، فيستشعر لذة المفارقة ، ولذة الحرام ، وهي تفكر في نفسها فتنبض ، وتدثرها رهبة ، ويدق قلبها دقائق خوف متتابعات ، ولجت في التفكير ، فهاها ما هي مقدمة عليه ، فقامت في لحظة من لحظات القوة :

— أرجو أن تنتظر هنا .

فقال في دهش :

— لماذا ؟

— ذاهبة لزيارة صديقة لي ، فإذا سألت أين كنت ، قلت إنني كنت عندها ، انتظري ، ولن أتأخر عنك أكثر من خمس دقائق .

وفتحت باب السيارة ، وانفتحت منها شاردة ، كأنما تهر من شبح يطاردها ، وجعلت تهرول ، ثم عرجت إلى طريق جانبي واختفت فيه .

غادر خالد سيارته ، وراح يذرع الطريق هابطا صاعدا ، ينو إلى ساعة معصمه ويتحمل ، ويذهب إلى الشارع الذي اختفت فيه ويمد بصره فلا يلحظها قادمة فيخفق ، وتصرم الوقت ولم تعد ، انقضت ساعة طويلة مملة ، وراحت الدقائق تمر بطيئة بغبضة ، ونقد صبره ، وثارت نفسه ، ولكنه كان يروضا

على الصبر والانتظار ، ولم يعد في قوس الصبر مزاج ، وبزغت في رأسه خاطرة ، أخذت في الشروق حتى أنارت ذهنه ، إنها خدمته ، لم تذهب لزيارة إحدى صديقاتها ، بل فرت منه مرغوبة ، خشيت أن يتآمر هو وقلبها عليها .
وذهب إلى سيارته ضيق الصدر ، ودافى إلى مقعدة ، وأغلق الباب خلفه في حلق ، وانطلق وهو يعجب للفتاة التي ارتجت في أحضانها أول ما رآته بعد طول غياب ، وراحت تبثه لواعج نفسها في طلاقة وثبات ، فإذا ما تحقق حلمها ودنت ساعة التلاق ، فرت مرغوبة لا تلوى على شيء ، وظل يسائل نفسه وهو مشدوه : لماذا جاءت ؟ ولماذا فرت ؟ .

١٨٨

بذر حديث سنية التليفوني في صدر سعيد بذور القلق ، فجعل يجمع حوائجه وقد استولى عليه خوف من المجهول ، ولح صورة روحية وهي تنو إليه بعينها الناعستين اللتين تحدثانه وحده ، فانطلق إليها خافق القلب ، وتناولها وراح يتطاع إليها مليا ، فأحس كأن يدا سحرية مرت على قلبه ، فمحت وساوس نفسه ، وفجرت فيه ينابيع من الحب والحنان ، وأشرق تفاؤله ، فإذا به يقنع نفسه أن مرض زوجته إن هو إلا سحابة سرعان ما تنقشع ، فما كان يصدق أن أى شيء يستطيع أن يقف في سبيل سعادته ، فقد صمم على أن ينال الشهادة التي يطمح إليها ، فكافح حتى نالها ، ورسم لنفسه طريق مستقبله ، وإنه ليسير فيه كما فكر ودبر ، سيعود إلى روحية منتعشا ، ويأخذها من يدها معه إلى المستقبل المشرق ، الذي يتخيل لناظريه ، والذي يراه في لحظات إشراقه رأى العين . إنه يبني مستقبله بيديه ، وقد عزم على أن يشيده شامخا ، ليحيا هو وروحية في رفاهية وأمن .
وهبط إلى لندن ، وجلس خلال أسواقها ، يشتري لروحية بعض الهدايا ، فقد آن لها أن تفرح ، بعد ما قاست من آلام وأوجاع ، إنه يحس أنه يكافح من أجلها ، وأن كل أمانيه أن يدخل على قلبها البهجة والسرور .

وحان أوان الرحيل ، فحمل حقائبه ، وانطلق خافق القلب فرحان ، وبلغ باريس ، فذهب إلى أسواقها يشتري ما يرضي روحه ، كان يريد أن يغمرها بهداياه ، كما

غمرته بالحلب والحنان ، قامت الحرمان من آجلاه ، وعاشت في كفاف مع الليالي والأيام ، فأصبح من سقها عليه أن يفرها برضا .

ووصل إلى جنوا ، فلم يكن له هم إلا أن يشتري ما يدخل السرور على روحه ، إنها هي التي شدت أزره ، ونفخت فيه من روحها ، حتى حقق حلم الأيام .

ومحرت السفينة البحر ، وسعيد على ظهرها يتجمل الساعات ، أرسل إلى روحه برقية يزف إليها نبأ عودته ، وأرسل إلى زكريا برقية أخرى ، إنه يحس شوقا طامعا يستبد به ، وحنانا دافقا يمور في جوفه ، فحن للقاء .

ولاحت الإسكندرية على مد البصر كبصيص من الأمل في بحر الظلمات ، تخفق قلب سعيد ، وهفت روحه إلى الأهل والأحبة ، وأفعم بالحنين ، وسارت الباخرة في طريقها ، حتى اقتربت من الميناء ، ونور المنجى يتكسر في السماء

وقفت الباخرة ترقب الإذن لها بالدخول ، وجاءت سفينة صغيرة تحوم حولها ، ثم وقفت بالقرب منها ، وصعد إليها ضابط بوليس ، راح يشق طريقه ويتلفت ، كان صديق سعيد الذي لا يفارقه ، ينقب عنه هنا وهناك .

وتلاقي الصديقان ، فأشرق وجه سعيد ، واندفع إلى صديقه يعانقه ويضمه إلى صدره المشتاق ، والصديق لا يبش ولا يضحك ، حتى أنكره سعيد ، فنظر إليه وقال وقد بدأ القلق يزحف إلى صدره :

— أين روحية ؟ لماذا لم تأت معك ؟

فقال الضابط في صوت خافت :

— إنها متوعدة .

وأناره النظر ، فألفاه مطرقا ، وعنده به صرعا ، أهكذا يقابله بعد طول

الغياب ؟ فقال في انكار :

— ما بك ؟

فقال الضابط في صوت مضطرب :

— إني عريض .

وأخذه من يده ، وذهب إلى السفينة الصغيرة ، فانطلقت بهما إلى الميناء .

درج سعيد على الرصيف ، وما مد بصره حتى ألقي أهله يقابلونه في ثياب سود ، تخفق قلبه في شدة ، ثم انقبض وأنه الحزن الثقيل .

ومد يده يصاحفهم ، فحسرتهم يهزونه ، نفيل إليه أن ستارة سوداء ثقيلة
أسدلت أمامه ، خالت بينه وبين الحياة .

ودلف إلى السيارة ، وركب زكريا إلى جواره ، وراح الأستاذ يجمع شتات
نفسه ، ليفضي إليه بالنبا الفاجع ، ثم قال :
— اسمع يا سعيد . . .

فقال له سعيد في حزن وضيق :

— لا تقل شيئا ، عرفت كل شيء . . . ماتت .

وأطرق زكريا ولم ينبس بكلمة ، وشرد سعيد في يأس ، فقد أسدت نفسه ،
وتحرق قلبه وتناثر أشلاء ، وجفت السموع في مقلتيه ، فلم تجر عبراته لتطفيء النار
المتلظية بين الضامع ، ولوى شفقه في مرارة ، فيا للسخرية ! أصبح يوم فرحه
يوم حداد ، وتقوضت أمام عينيه قصور الأمانى التي شيدها بفروره على الأوهام ،
ذهبت روحية ، وتركته يسير وحده في الطريق التي أقفرت من الحب ، وذوت
على جانبيها الآمال ، سيدير منعخب النفس ، مزعزع الإيمان ، حزين الروح ،
كسير الفؤاد ، كالأفاق يضرب في الأرض ، لا يستقر على حال ، بعد أن فقد
إيمانه بنفسه ، واحتجى من ذهنه ذلك الوهم المسيطر عليه ، الذي يفهمه بالثقة أنه
قادر على أن يبني مستقبله كما يشتهي يديه !

١٨٩

مزقت المعاهدة بين مصر وبريطانيا ، وهب الشعب للكفاح ، فذهب
الفدائيون إلى الإسماعيلية والسويس يقضون مضاجع الإنجليز ، يتسللون إلى
مسكراتهم إذا جن الليل ، يفجرون ذخائرهم ، ويوقعون الرعب في قلوبهم ،
فباتوا يرتجفون من الفزع ، لا يدرون متى يضرب الفدائيون ضربتهم ، وأين
يكون مسرح نشاطهم ، وشرعت الصحف تكتب المقالات الحماسية ، وتؤجج
نار الوطنية في الصدور ، فتدققت نار الثورة في العروق ، وتدفق المجاهدون يقانلون
في سبيل تحرير الوطن ، من العدو الذي يرتدى ثوب الصديق .

وأكب حسان تلى قراءة الصحف ، يفعل كلما قرأ قصص البطولة والفداء ،
ويستشعر رغبة في أن ينطلق إلى القناة ، وينضم إلى الشبان ، ولكن كانت
منه تقعه ، لم يعد يصلح لمثل ذلك الكفاح المرير ، إنه يقرأ أن شاباً زحف
على بطنه الليل كله ، حتى إذا بلغ الأسلاك الشائكة المحيطة بالمعسكر ، فتج فيها
فتحة تسمح بمروره ، واستمر في زحفه في حذر ، حتى بلغ هدفه ، فوضع فيه
الديناميت ، ثم عاد زحفاً من حيث جاء ، وهو يسمع الانفجارات المدوية قبل
أن يصل إلى مأمنه إنه يتمنى أن يفعل مثل هؤلاء الأبطال ، ولكن هيهات .
وأرعى لفكره العنان ، فطوى السنين في مثل لمح البصر ، عاد به إلى يوم
كان شاباً ممتلاً بحماسة ، ويرى أن الوسيلة الوحيدة لطرد الإنجليز من البلاد هي
القتال ، فريومها من مصر ، وانضم إلى الجيش التركي ، ليخلص الوطن من وصمة
الاحتلال ، آه لو أنه وجد في عصره مثل هؤلاء الفدائيين الأبطال ، إذن لا انضم
إليهم ، ولابد روحه رخيصة في ميدان الفداء .

وسار في الحارة مشرق النفس ، يستشعر سعادة حقيقة لأول مرة منذ عاد
إلى أرض الوطن محطماً ، ولا يجد السلى إلا في الشراب ، كان يخيّل إليه أنه خلق
خلقاً آخر ، وجعل ينظر إلى الناس الغادين الرائحين في حب وإعزاز ، وهو
يضمهم في أعماقه ؟ « هذا شعب عظيم لن يموت » .

ودخل البيت ، وأقبل الليل ، وإذا بأصوات موسيقية تصدح في العالية ،
وإذا بأضواء تضرع المكان ، وأقبل ركب العروس ، وهبط إلى الحارة ، وبلغ
حي الصعايدة ، فوقفت الموسيقى تصدح بالسلام ، فقام الصعايدة يرقصون على الأنغام
تحية لعروس الفلاحين ، ولم تدر الممركة التقليدية ، التي كانت تدور كلما مرت
زفة ، كان هناك عدو يكافه المصريون جميعاً ، فتآلفت القلوب ، ونامت الأحقاد ،
ورفرف الوثام ، وعقدت الحناصير على كفاح الغاصب الدخيل .

وأصبح الصباح ، فأسرع إلى الصحف يتنسم الأخبار ، فإذا به ينقبض ، وينتشر
في صدره الأسى ، كأنما قرأ نعي عزيز ، كان يقرأ أنباء حريق القاهرة ، أنباء
المؤامرة الدنيئة التي حاكها أيد خائنة ، في اللحظة الحاسمة ، لتعرقل خطوات
الكفاح ، لتقف حائلاً في طريق التحرير ، إنها نكسة وطنية ، بل كارثة
جالت بالبلاد .

وسار حسان وهو حزين ، ينظر إلى الناس ، فيحس نحوهم احتقارا ، فمنهم من استجاب لهذه المؤامرة ، ومنهم الذين أحرقوا القاهرة بأيديهم ، فسواء أكانوا يعرفون خطورة ما هم مقدمون عليه ، أم انقادوا إليه بجهلهم ، فقد اشتركوا في الجريمة ، وعجب في نفسه كيف طأوعه قلبه أن يعيد بندر بنور الثقة في هذا الشعب في روحه ، بعد أن اقتلعهما من زمان !

ودلف إلى الحانة ، وهرع إلى مقعده ، وطفق يلقي بكثوس الحمر في جوفه ، حتى إذا ما لعبت برأسه هب واقفا وصاح :
— كلكم نهاج ، كلكم أشرار ، كلكم خونة .
ثم انهار على النضد ، وأخذ ينشج بالبكاء .

١٩٠

فرض خالد الرسالة التي تسلمها ، وبدأ بقراءة التوقيع ، فلما وجدها من سهام اضطرب ، وانتشر في صدره قلق ، وراح يقرأ في اهتمام :
عزيزي خالد :

هذه رسالة امرأة في الأعراف ، تترجح بين اللبس والعفاف ، تقضى الليالي في قلق وأرق وسهاد ، تتنازعها الملائكة والأبالسة ، فلا تعرف لها قرارا ، ولا تدري ما تهدي به في اليقظة والنائم ، أتردد صلاة حارة في المحراب ، أم تترنم بأشودة فاجرة في منبج الشهوات ؟

راودتني فكرة أن أبعث لك رسالة أدبجها بالأضاليل ، وأسوق فيها الأكاذيب ، فأدعى أنني عبثت بك ، ونجحت في عبثي ، حتى أوهمتك أنني أحبك ، بينما أنني لم أحبك يوما . وأتمس منك في ختامها الصفع والغفران ، لأن ضميري قد آب بعد طول غياب .

كان هدفي أن أطعن كبرياءك ، وأن أجرح شعورك ، وأن أرغمك على الثورة لكرامتك ، فتبتعد عني ، وهذا غاية ما أصبو إليه ، ولكنني وجدت من العار أن أكذب عليك ، أو أجرحك أو أسبب لك الآلام ، فخير ما أفعله أن أصف

لك ما أقاسى فى صدق ، لعلك تلمس حيرتى واضطرابى ، وأخضع أمرى بين يديك ،
لتصرفه كما تشاء .

أتى امرأة ضائعة ، تكتب إلى من تهواه على مكتب زوجها ، وبقلمه الذى
تذكر أنها وقعت به وثيقة الرباط المقدس ، وعلى بعد خطوات منها فراشه ، الذى
تكافح نفسها لـ كيلا تدنسه ، فلا تدرى أنتجح فى كفاحها أم يتدسس الوهن إلى
روحها فتنهار .

فررت منك يوم التقينا على الوداد ، لأنى خفت من نفسى . هالنى ذلك
الاستسلام الذى سيطر على روحى ، وفى لحظة من لحظات الثورة لإنسانيتى التى
التمعت كالبرق الخادف فى ضميرى ، هربت منك لا ألقى على شئ ، لأنى فرحت
بذلك الفرار ساعات ، ولكن أخذ قلبى يعذبى ، ويومسوس لى أن أعود إليك ،
فكدت أضف لولا بقية من حياء .

أتى امرأة على شفا جرف هار ، إن هى إلا دفعة منك ، فتزلق إلى طريق
العواية والضلال ، روحى تشهى هذه الدفعة ، ومشاعرى تحن إليها ، وكل خالجة
فى تومسوس لى أن أنقاد ، ولكننى أفرع إليك أن تقينى هذا الدمار .

أقولها دون عماراة ، أتى امرأة بلا حصون وبلا قلاع ، اندكت مقاومتها ، ولن
تستطيع عن نفسها دفاعا ، فإذا مشيت إليها مشى النزاة ، رفعت راية الامتسلام ،
ولكننى أهاب بك أن تعف ، أتوسل إليك ، فما عاد لى فى نفسى الخيار ، أصبحت
أخشى روحى ، لا أثق بها ، بينما لم تزل تثقى فيك لم تنزعزع ، فصر هذا الإيمان
ولا تتقدم ، تنقذ امرأة أحبتك من أن تتردى فى مهاوى الدل والعار .

يا عالمى الحبيب ، وماضى الناصع الطاهر ، ودنيا الرؤى العذاب ، إنها معقدة
فى خيط واه فلا تقطعه ، فتفصل بينى وبين كل ماهو طاهر فى حياتى مقدس .
أعترف لك والدموع تترقرق فى عيني أنى كنت أخون زوجى بخيالى كلما مشى إلى ،
بعد أنى كنت كلما فكرت فى ذلك أنزعزع . إنى أنمى الآن من كل قلبى أن أكفر
عن خطيئتى ، فألتمس منك القون على الخلاص ، انتشلنى من الخطايا ، ولا تغرقنى
فى بحور العواية ، ولا تضيف إلى خطيئة الخيال خطيئة الجسد . إننى لن أغفر لك

أبدا لو استندملت ضعفى ، فأنت قادر على أن تفعل بى ما تشاء ، فلا تسكن الذئب
الجائش على الشاة ، بل كن الطبيب الذى يأسو الجراح .

أحببتك بكل جراحة من جوارحى ، ولا يزال حبك يعلأ الفؤاد ، ولكن
لم يكتب لنا أن تكون رجلى ، وكنت رجل امرأة أخرى ، هذه هى أقدارنا ، فإذا
منجنى من الوصال ، غير لذة مسروقة يعقبها العار ، لذة منهوبة ثم الدمار . إننى
أعرف كل ذلك وأقدره ، أو يكفى أن أعرف كل ذلك لأحجم عنه ؟ هيهات !
إننى أعرف نفسى ، ضعيفة خوارة ، مسلوبة الإرادة إذا نظرت إليك ، فإذا
يكون حالى لو احتويتنى بين ذراعيك ؟

أحس الإثم يسرى فى مسرى الدم ، واحترق شوقا إليك ، ولكن أستجلفك
بحق حبنا الطاهر الذى لم يدنس بعد ، بل بكل عزيز لديك ألا تستغل ضعفى ،
وأن تظل كرماعا كهمدى بك ماذا ستفعل بى ؟ تلهو شهورا أو سنين ثم تافظنى
خطاما ، أعرض بنان الندم بعد فوات الأوان . أهذا جديد على ؟ إننى أعرفه ، بل
واقفة منه ، ولكن أيكفى ذلك الوثوق لأعرض عنه ، ياليت ، إننى كالفراسة
التي تهوم حول النار ، لا تهدا حتى تتهرق .

انسنى يا خالده ، انسنى وإن كنت لن أنساك ، وانس أننى بحث لك يوما بحبى ،
وعاهدنى على الفراق ، وأقسم أنك لن تحاول أن ترانى ، حتى لا تسكب جروح
الفؤاد ، وليكن عربون الجفاء تمزيق هذه الرسالة ، كما مزقت قلبى ، وتركها
للرياح تذروها حيث تشاء .

وداعا يا خالده ، وداعا أرجو مخلصا ألا يعقبه لقاء ، وإن كان فى ذلك لوعى
وعذابى ، وداعا يا خالده ، ويأويلتى لو لم يتحقق ذلك الوداع ، سأصير امرأة مدلسة ،
حطمت كل مقدسات حياتها ، وأرغمت قسرا على أن تبيع نفسها للشيطان
وداعا يا حبيبى ، يا أول من سقى له قلبى .

سهام

وطفقى برنو إلى الرسالة شارد اللب ، مضطرب النفس ، وقد راح قلبه يخفق
حزنا ، وترقرق الدمع فى مقلتيه ، وهم بتمزيق الرسالة ، وانسكنه عاد وطواها فى

حرص ، ودسها في جيبه ، ثم راح يتحسسها في رفق ، وسار مطرقاً مغموماً حائراً ، لا يدري ماذا يفعل ، أيستسلم لحزنه ؟ أينطلق إليها يضمها إلى صدره ؟ أيعرض عنها حتى يسدل النسيان عليها أم يجافه ؟ إنه حائر قلق ، لا يستقر على شيء ، فرأى أن يترك أمره للأقد يفعل به ما يشاء .

١٩١

سار حسان في الحارة ، لا يمد بصره إلى شيء فيها حتى ينقبض ، يرى الخربة وقد تكدست فيها أكوام القمامة ، والقطط الضالة والكلاب والحشرات ، لم تمتد إليها يد الإصلاح ، لكأنما صارت شيئاً مقدساً لا يمس .
ورنا إلى حليلة ، وقد صارت سحاما ، وهي جالسة في ذلة أمام قفصها ، رفيق همرها الذي تقضي هباء ، فما كان لها هم في الحياة إلا أن تجد طعامها ، كان الخبز غايتها ، وكان أخشى ما تخشاه أن تبيت على الطوى ، ينهش الجوع جوفها ، فتتلوى من الألم والحرقان ، كانت كل دنياها ، باب الدار وقفص الجريد وبعض الضبية الذي يعدون إليها يشترون بعض الحلوى ، ثم الخبز الجاف وبصلة أو حزمة من الفجل ، أهذه حياة ؟ وأدار عينيه عنها والأسى يملأ جوانحه ، يحس مقتلاً للدنيا ، وكرها للحياة .

ورأى النجرو وهو عريان ، لا يستر إلا قميص الخيش القدر ، وقد تبدلت لحيته كليفة بيضاء ، ولف سبخته الخشبية الضخمة حول عنقه ، وقد جلس بين القمامة ينقب بين الفضلات عما يمسك به رمة ، فأشاح بوجهه في استياء .
وانطلق تزعج أنفه رائحة الماء الآسن ، الراكدة عند أقدام الجدران ، فأحس ثورة تنفجر في جوفه ، ورن في أعماقه صوت يصيح : « إنك لا تفيق أبدا ، إنك لا تفيق أبدا » . لماذا يلومني الناس على الشراب ؟ ماذا في دنياهم يستحق أن أفيق من أجله ، أفيق لأرى ملكاً يحرق عاصمة ملكه ، ليدق مسامرا في نعش الأحرار ، ليتمكن للاحتلال في البلاد ؟ أفيق لأرى ماذا ؟ لأرى البؤس الخيم على الناس ، والذل الجاثم على صدورهم ، أفيق لأرى الكروش المنتفخة إلى جوار العظام النخرة ؟

ماذا في دنياهم يستحق أن أفيق من أجله ؟ أفيق لأرى نحر المبادئ ،
والمقدسات ؟ لأرى النفاق وأسمع النفاق ، وأسير في موكب النفاق ؟ السكل
مناققون ؟ رؤساء الحكومات ، رجال الدولة الكبراء ، حتى رجال الدين احترفوا
الملق والرياء !

أين الرجال الأحرار ؟ أين الزعماء ؟ ارتعوا يقبلون الخداء ، حتى الصحافة
الرشيدة طبلت وزمرت وزفت إلى العالم الإسلامي البشري السعيدة ، البشري التي
طبخها النفاق ، وباركها الذين باعوا أنفسهم للأبالسة والشياطين ، بشري النسب
الشريف ، أصبح الملك بين عشية وضحاها ، السيد فاروق سليل النبي العربي
الكريم ، ورفعت أكف الضراعة إلى السماء ، وارتفعت أصوات النفاق تدعو
: « اللهم صل وسلم وبارك على فاروق »

أكذوبة صارخة ، لا الذين صاغوها صدقوها ، ولا الذين صيغت لهم صدقوها ،
وكل ما خلفته من أثر أن حركت الأنفهان لا بداع النكتة ، وتأليف الأضحوكة .
ماذا في دنياكم يستحق أن أفيق من أجله ؟

وبلغ المقهى وهو ثائر ، جلس فإذا برجال خلفه يتحدثون عن تلك القرية
التي أطلقت ألسنة الناس في الملك ، بدلا من أن تسربله بقداصة ، فأصاخ سمعه
فإذا برجل يقول :

— والله إني في حيرة من أوائك الذين تمكنوا من أن يصلوا نسب أمه
بنسب الرسول ، لقد ذكر الأمير عمر طوسون أن جدتها من سبايا اليونان ،
وجدها سليمان باشا الفرنسي ، فكيف اتصل الرسول باليونانيين والفرنسيين ؟
فقال آخر في سخرية :

— هذا أبسط ما نتظره من رجال الدين .

فقال ثالث :

— وهل يغير من الأمر شيء لو كان من نسل الرسول ، لقد كان أبو هب
عم النبي ، وسيصلي ناراً ذات هب .
فقال الأول :

لى صديق صالح . كان يخشى أوقافه فى الجيوش ، فلما أعلن أن الملك
من نسل النبی خرج صديقى من المسجد غاراً ، ثم التفت خلفه وقال : لن أدخلك
أبداً ، ما دام هذا قرييبك .

وضحك الموجودون ، وضاق صدر حسان ، ذهب ثأراً ، وانطلق إلى الحانة ،
وذهب إلى الركن البعيد . وراح يتحدث السكوتوس ، فلما انتشى راح يرتل
كتليذ فى كتاب :

— نسب فاروق من جهة أمه ، هو فاروق ابن نازلى بنت توفيقه ، بنت ماريكا
بنت كاترينا . بنت . . بنت . . بنت فاطمة الزهراء ١٢
ورفع الكأس ، وألقى بها بعيداً ، فالتفت بالفتاة ، فتناثرت أشلاء .

١٩٢

استيقظ المصريون على صوت المذيع يعلن أن الجيش العبرى قد هب يشارب
الفساد فى الجيش ، وقد قبض على القواد ، وأن هدفه الإصلاح فى ظل الدستور ،
وتحمس الناس لذلك النبأ . ولم يلاحظوا فى غمرة فرحهم أن البيان قد خلا من
ذكر الملك والولاء له .

وخرج حسان يهرول إلى منى النبأ ، يصلى إلى الإله . فإذا به يجد
سكان الدالية من أهالى الإسكندرية واللاجئين جالسين يسعون ، وطلق الفلاحون
والصعايدة يتجاذبون أطراف الحديث مستبشرين ، نسوا ما بينهم من ثارات
وأحقاد ، وراحوا يتبادلون الأمنى والآمال ، ثم ساحوا فى الأرض يتقبون عن
رزقهم ، وكاهم بالأنباء مشغول .

وانطلق حسان يقرأ الصحف فى لفحة ، يتتبع الأنباء وهو مشغوف ، ولكنه
كان يحس قلقاً ، كان يخشى على هؤلاء الذين قاموا بالحركة ، ويتمجل الحوادث ،
ويجب فى نفسه كيف تطاوعهم قلوبهم أن يتركوا الرأس الفاسد ، إنه يخاف
عليهم أن يمكر بهم ، وأن يطفىء آخر أمل يداعب النفوس .

وعاشت مصر يوماً مفعماً بالأحداث والمشاعر والإحساسات ، وزارة تستقبل

ووزارة يرضيها الجيش ، فيقبلها الملك صاغرا ، ومطالب وراء مطالب بحجاب ، فليس أمام الملك إلا أن يدعو .

واستيقظت الإسكندرية لترى المدافع واللبابات في طريقها إلى قصرى المنتزه ورأس التين ، وانتشرت التنبؤات ، وتناثرت الأقوال ، هذا يقول إنها جاءت لحماية الملك ، وذلك يقول إنها ماجأت إلا لتدك القصور فوق رأسه ، وحسان في قلقه ، يشتهى أن تنتهى هذه الأحداث كما يحب الشعب ويتمنى .

سرى همس في الإسكندرية أن الجيش يطلب من الملك النزول عن العرش ، ومغادرة البلاد ، فانطلق حسان إلى سراى رأس التين ، ليرى القوات المحيطة بالقصر ، وجموع الشعب التى زحفت تشد أزر الجيش ، فاستشعر قلقا ، كان يخشى المجهول ، علمته الأيام ألا يطمئن إليها ، فمن يدري ماذا تخبئة الأقدار .

ووافت الساعة السادسة من مساء يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ ، فإذا بالباخرة التى تحمل الملك الخارج تقادر المياه السرية ، وإذا بالمظاهرات تنساب كالطوفان في شوارع الإسكندرية ، وإذا بحسان يحس السموع تتحرك في مآقيه وينطلق نشوان ، حتى إذا ما هدأت نفسه ، راح يفهم :

— أصبح في الحياة ما يستحق أن أفيق من أجله ، أن أرى بزوغ الفجر الجديد .

وفي الصباح خرج إلى مقهى الصفايدة يمشى إلى المذبح وهو يقرأ :

« نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان . »

لما كنا نتطلب الخير دائما لأمتنا ، ونبتغى مفادتها ورقبها ، ولما كنا نرغب رغبة أكيدة في تجنيب البلاد المصائب التى تواجهها في هذه الظروف الدقيقة ، ونزولا على إرادة الشعب . قررنا النزول عن العرش لولى عهدنا الأمير أحمد فؤاد ، وأصدرنا أمرا بهذا إلى حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه .

ودار الحديث في المقهى بين الفلاحين والصفايدة ، حديث كله غبطة وأمل ووقاق ، ونهض حسان وسار في الحارة يحس كأنما خلق خلقا آخر ، وانظر فإذا بالعمال قد جاءوا لهدم أول بيت في الحارة ، جاءوا يسطرون بمناولهم السطر الأول في قصة الشارع الجديد .

المؤلف

أبو ذر الغفاري	الطبعة الخامسة
بلال مؤذن الرسول	» الثالثة
في الوظيفة	» الثانية
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص
أبناء أبي بكر الصديق	الطبعة الثانية
الرسول : حياة محمد (مترجم بالاشتراك مع محمد محمد فرج)	الطبعة الثانية
في قافلة الزمان .	
أهل البيت	
أميرة قرطبة	قصة
النقاب	
القصص الديني ١٨ قصة	(بالاشتراك مع الأستاذ سعيد قطب)
قصص السيرة ٢٤ قصة	

تحت الطبع

قلعة الأبطال
جدي أمير المؤمنين
الفجر الكاذب